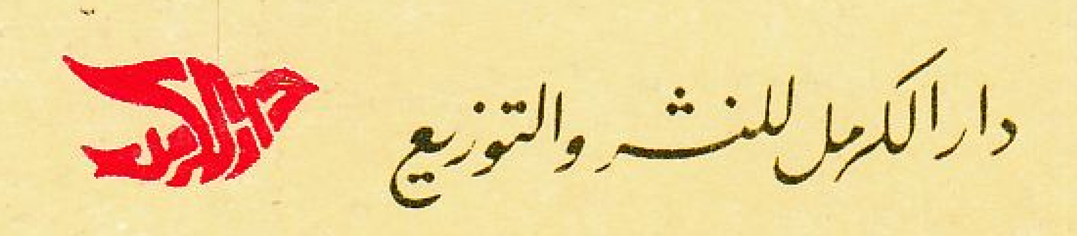
أحمد محمّد رمضان

إسرائيل

ومصير الإنسان المعاصر

دراسة في سيكولوجية التاريخ اليهودي
وعلاقته بفلسفة التاريخ الانساني العام





دار الكرمل للنشر والتوزيع


إسرائيل
ومصير الإنسان المعاصر

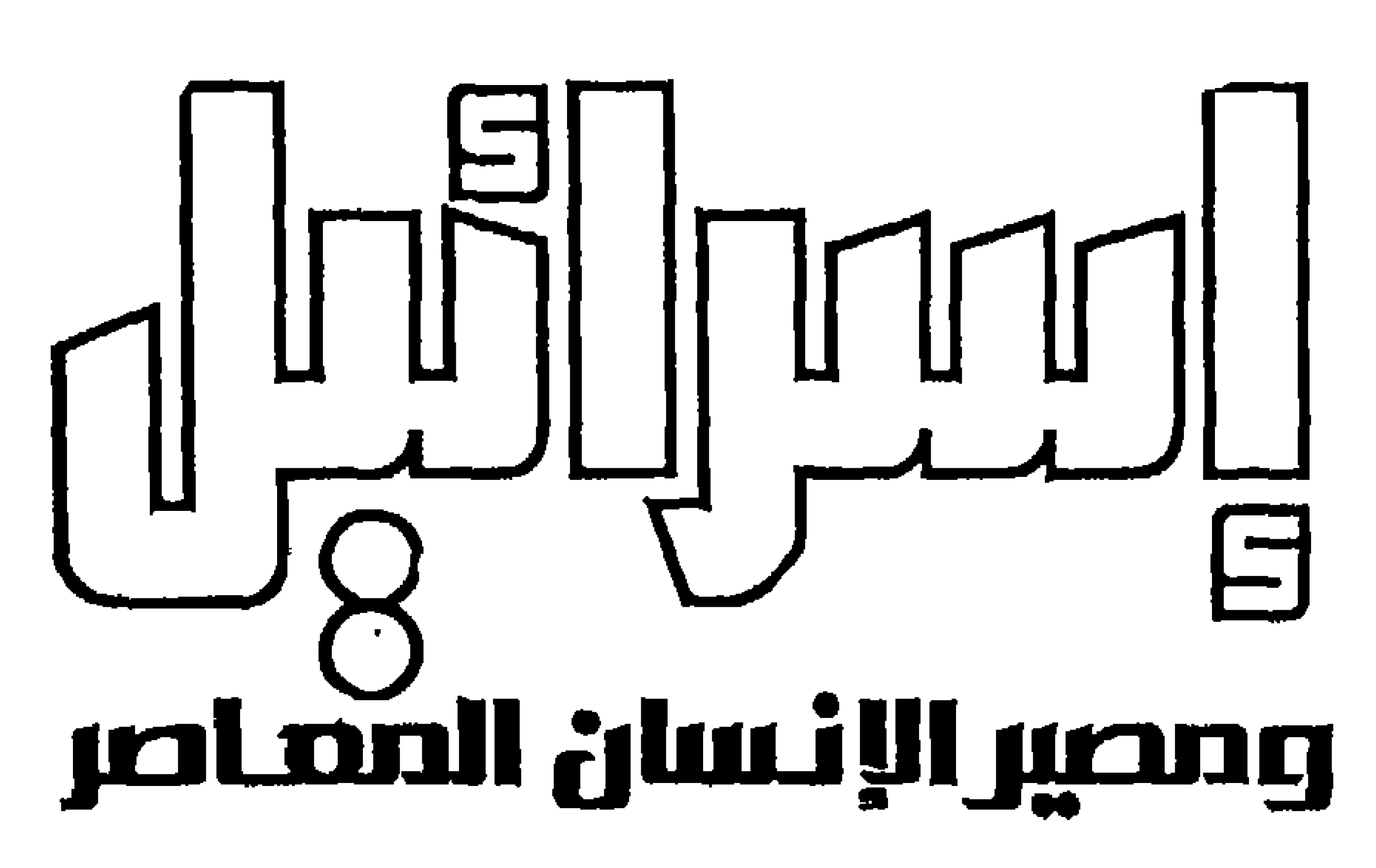
اسرائيل ومصير الانسان المعاصر

تأليف: محمد احمد رمضان

رقم الايداع: ٥٦٣/١٢/١٩٨٧
رقم الاجازة المتسلسل: ٤٧٨/١٢/١٩٨٧

٩٥٦٫٤١
محم محمد احمد رمضان
اسرائيل ومصير الانسان المعاصر/ محمد احمد رمضان .ـ عمان: دار الكرمل للنشر، ١٩٨٧.
ر.ا (٥٦٣/١٢/١٩٨٧)
١ ـ اسرائيل ـ تاريخ   ا ـ العنوان
(تمت الفهرسة بمعرفة مديرية المكتبات والوثائق الوطنية)

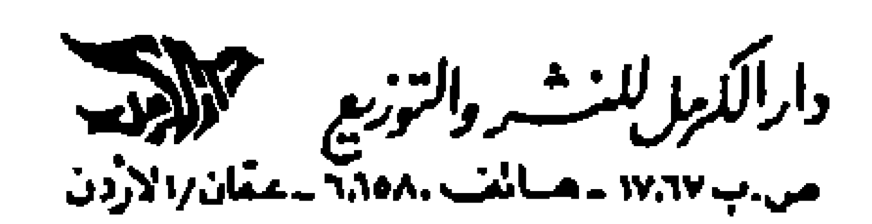
أحمد محمد رمضان



إسرائيل ومصير الإنسان المعاصر

دراسة في سيكولوجية التاريخ اليهودي
وعلاقته بفلسفة التاريخ الانساني العام





دار الكرمل للنشر والتوزيع
ص.ب ١٧٦٧ - هاتف ٦٦١٥٨٠ - عمان/الأردن

اعتراف بالفضل

أتقدم بالشكر والعرفان لكل من اضاف بجهده ووقته وعلمه الى هذا الكتاب مباشرة او بطريق غير مباشر، سواء بالبيانات او الصور، بالافكار او المناقشة، بالتصويبات او بالتشجيع. وأخص بالذكر صديقي الدكتور عبدالوهاب المسيري الذي كتب مقدمة هذه الدراسة راضياً ودون تذمر للمرة الثانية بعد ١٥ عاما، وشجعني بين الحين والآخر منذ أن كان رئيساً لوحدة الفكر الصهيوني بدار جريدة الاهرام القاهرية في السبعينات على عدم نسيان هذا الكتاب بعد ان نحيته جانباً كل هذه المدة.

وأبدي تقديري الخاص للدكتور عدنان الحديدي، المدير العام لدائرة الآثار العامة بالأردن، الذي تفضل بسماحة ودون سابق معرفة بمراجعة الفصل السادس الذي يقارن بين الثقافتين العبرية والعربية من واقع التاريخ والحفريات الحديثة.

هناك كثيرون آخرون لا أستطيع اثبات فضلهم الجم على هذه الدراسة، وبعضهم طلب ذلك من قبيل انكار الذات وابتغاء وجه الله، وبعضهم ساهم بعلمه رغم تعثر صحته او ضيق وقته. وبعضهم الآخر ساهم في بلورة افكاري بعلم او دون علم منه، لاسيما زوجتي التي ارشدتني بقراءاتها الى كثير من المراجع و المعلومات العارضة او الخافية، وايمان ابنة اختي.

لكن الفضل الأول والأخير يرجع الى جهة كانت تخطر في ذهني كلما تذكرت اعتداد الشاعر الالماني الكبير غوته وقوله المأثور: «الصعاليك وحدهم هم الذين يتواضعون». كانه كان ينسب لنفسه الفضل الاول في ملكة الكتابة او كانه كان يغرف من الالهام كلما شاء. مع انه كانت تتعاقب عليه دورات وسنوات طويلة من العقم والاحباط. فهل كان الزمام بيده حقا ام بيد الله القابض الباسط؟

لك الحمد والفضل يا صاحب الالهام ومالك الزمام بعد سنوات طويلة من الجدب والصمت.

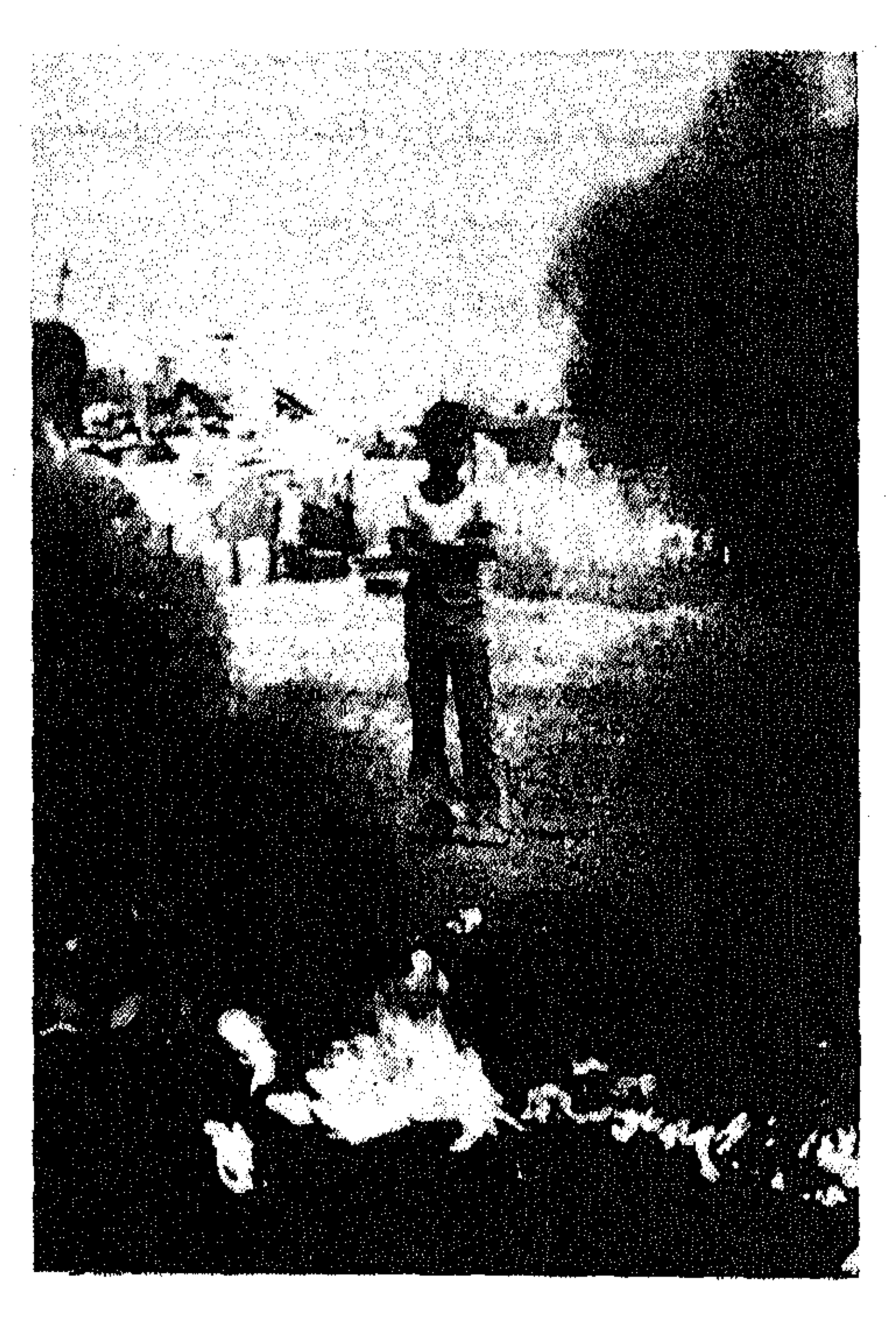
المؤلف



صور من حياة أطفال فلسطين:

في لبنان ...

وفي القدس ... وفي غزة....





من وراء الخرائب، يطل دائماً عالم جديد



الاهــــــداء

الى أطفال فلسطين خاصة، وأطفال العالم عامة، الذين سيدفعون ثمن شطط «حضارتنا» المعاصرة وأخطائها..

والى زوجتي يولاندا التي كرست حياتها من أجلهم وأعادت معي كتابة هذا الكتاب دون أن تدري..

أهدي هذه الدراسة.

تقديم

حينما وصلت أول مجموعة من المستوطنين الصهاينة عام ١٨٨٢ الى فلسطين ادرك الفلاحون الفلسطينيون في التو انهم في مواجهة ظاهرة جديدة غريبة عليهم. وعلى الرغم من ان المستوطنين أعلنوا انهم «يهود» الا ان الفلاحين ادركوا بصدق حدسهم وعمق بصيرتهم انهم يهود يختلفون عن هؤلاء الذين يعيشون بين ظهرانيهم يعبدون الله على طريقتهم الخاصة ويتعاملون معهم منذ مئات السنين، فاطلقوا على الوافدين الجدد اصطلاح «المسكوب» اي الذين جاءوا من موسكو (موسكفا أو مسكبا) فهم الوافدون الغرباء الدخلاء.

ولكن هذا الادراك الصادق المباشر لطبيعة الغزوة الصهيونية لم يترجم نفسه الى دراسات عربية عديدة والى استراتيجية عربية متكاملة تجاه هؤلاء الغزاه الذين سموا انفسهم «بالرواد» ـ وكأنهم جاءوا الى ارض قفر، مجهولة، غير مأهولة بالسكان.وقد جاءوا الى العالم العربي لا ليعيشوا بيننا، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، كما فعل المهاجرون اليهود الى الدولة العثمانية عند طردهم من اسبانيا، وانما جاءوا ككيان اقتصادي وحضاري مستقل باعتبارهم اداة في يد اي دولة استعمارية كبرى تسهل لهم عملية الاستيطان في الارض العربية وتزودهم بالحماية والرعاية والعون ويقومون هم على خدمتها «بالمقابل» (ان اردنا استخدام مصطلح هرتزل الذي ينم عن الروح التعاقدية السائدة بين الصهاينة والاستعمار).

ولعل عدم اكتمال الاستراتيجية العربية بخصوص الغزوة الصهيونية وعدم تحددها يعود الى تقاعس عربي، ولكنه ـ والحق يقال ـ يعود أيضا الى فرادة الظاهرة الصهيونية، فهي ليست ظاهرة استعمارية ولا حتى استيطانية، فالاستعمار الاستيطاني امر مألوف في العالم الثالث والعالم العربي، وانما هي ظاهرة احلالية لا تهدف الى استغلال السكان الاصليين وانما الى طردهم واحلال عنصر بشري جديد محلهم. فالاستعمار الاحلالي ظهر أساسا ابان المراحل الاولى للظاهرة الاستعمارية الغربية (في القرنين السادس والسابع عشر) حينما ارسلت اوروبا بسفنها «لاكتشاف» اطراف الارض وبدأت تصدر فائضها البشري (من عاطلين ومجرمين ومغامرين لم يحققوا طموحاتهم داخل مجتمعاتهم) الى الامريكتين وجنوب افريقيا وبعض الاماكن الساحلية في آسيا وافريقيا. وكانت معظم هذه المناطق لا تضم كثافة سكانية ولا توجد فيها تشكيلات حضارية قديمة راسخة، الامر الذي سهل من عملية الاحتلال حيث يمكن ابادة العنصر البشري المحلي أو طرده عبر «الحدود» دون بذل جهد غير عادي، ويمكن أيضا القضاء على اشكاله الحضارية دون القيام بحملة حضارية مضادة مكثفة. وفلسطين عام ١٨٨٢ كانت مأهولة بالسكان، وتنتمي للتشكيل الحضاري العربي الاسلامي الذي ورث اقدم التشكيلات الحضارية التي عرفها الانسان سواء في بابل او اشور (العراق) اوسوريا وفلسطين او مصر.

ولعل احلالية الصهيونية هي السبب الذي ادى الى عدم ادراك العرب لمدى خطورة الظاهرة الصهيونية، وحينما ادركوها لم يمكنهم تحديد الطبيعة الخاصة للظاهرة وبالتالي لم يتمكنوا من تطوير الاستراتيجية المضادة الكفيلة بالقضاء عليها. ولكن بعد مرور اكثر من قرن على الاستيطان الصهيوني وبعد اربعين عاما من انشاء الدولة اصبح الوضع مختلفا تماما اذ اصبحنا اكثر وعيا بخطورة الظاهرة واكثر ادراكا لخصوصيتها، وتم تأسيس الكثير من مراكز البحوث العربية التي جعلت هدفها دراسة الظاهرة الصهيونية، ونشرت العديد من الدراسات العربية التي تتسم بالعمق والشمول.

ولكن كثيرا من الدراسات المنشورة للظاهرة الصهيونية، سواء بالعربية أم باللغات الاخرى، تعزلها عن السياق الحضاري الانساني العام، وتتناولها على المستويات السياسية والاقتصادية وربما الاجتماعية وحسب، مستبعدة المستويات الحضارية او الكونية (بمعنى التاريخية العامة). ودراسة صديقي الاستاذ محمد احمد رمضان تنتمي لهذا النوع الاخير الذي يتناول الظاهرة الصهيونية في كل ابعادها، بما في ذلك البعد الذي سماه «بالكوني» والاستاذ رمضان كان صحفيا فلسطينيا معروفا في القاهرة في الستينات وحتى منتصف السبعينات وقد قابلته اثناء هذه الفترة حين كنت اقوم باعداد موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية فقرأ المخطوطة وأدخل عليها من التعديلات ما أذهلني لاتساع معلوماته وعمقها واهتمامه بالافكار العامة المجردة والحقائق المتعينة المحددة. وقد نشأت صداقة حميمة بيننا، وافترقنا حين ذهبت الى الولايات المتحدة عام ١٩٧٥ ليصلني منه خطاب يخبرني فيه أنه موجود في العراق،اذ اضطر ان يترك مصر في ظروف التطبيع. وكان الاستاذ رمضان قد انتهى عام ١٩٧٤ من كتابة دراسة عن الظاهرة الصهيونية، قرأتها ونصحته بنشرها نظرا لاهميتها واتفقنا بالفعل مع ناشره ولكن الصديق ظل يؤجل ويعدل ويضيف ويحذف الى ان اقتنع اخيرا، تحت ضغط مني و من العديد من اصدقائه، ان دراسته يمكن ان تخرج الى النور. وعلى الرغم من اعجابي بالمخطوطة التي قرأتها منذ عدة اعوام الا أن اقامة الاستاذ رمضان في العالم الغربي اتاحت له فرصة مراقبة الظاهرة الصهيونية في بعدها الكوني، وفي كافة تفرعاتها وتجلياتها الحضارية.

وعلى الرغم من عدم اتفاقي معه بخصوص بعض المفاهيم السكونية الكامنة (مثل «العقل اليهودي» او «التاريخ اليهودي») لكن رقعة الخلاف تضيق الى ان تذوي تماما بسبب خاصية هامة للغاية في هذه الدراسة وهي ثراء التوثيق و ذكاؤه. فالمؤلف يبدأ دراسته بتعميم ما عن «العقل اليهودي»، قد نتفق او لا نتفق معه فيه، ولكنه لا يقنع بهذا قط بل تجده يتبع التعميم باستشهادات وقرائن من مجموعة متنوعة وغير عادية من المصادر قلما توجد في الدراسات المماثلة،ويظل الاطار المرجعي الاساسي او المحك الحقيقي هو هذه الاستشهادات وتلك القرائن.

وقد تطرق المؤلف الى موضوعات لا اعتقد ان كثيرين قد تطرقوا اليها من قبل، مثل علاقة الصهيونيةابالتصور اليهودي للخالق،وبفكر فرويد، وبدراسة الآثار (والجزء الخاص بالآثار من

أهم ما كتب في هذا الموضوع وأكثره جدة، وهو دعوة جادة لعلماء الآثار العرب ان يدركوا طبيعة التحدي (او الكذب) الصهيوني في هذا المجال).

وعلى الرغم من ان المستوى التعميمي لهذه الدراسة عال بما فيه الكفاية (فهو يتعامل مع مقولات مثل «الانسان المعاصر» و «العقل اليهودي») وعلى الرغم ان مثل هذه الدراسات عادة ما ينزلق الى شكل من اشكال العنصرية (التي هي في جوهرها تجريد للظواهر من بعدها التاريخي واصدار تعميمات مجردة لا تستند الى حقائق متعينة) على الرغم من كل هذا، وربما بسبب هذا، بذل صاحب هذه الدراسة جهدا غير عادي لكي يتحاشى المزالق العنصرية والدينية ويبتعد عن تجريد اليهود من الملابسات الاجتماعية والتاريخية التي تواجدوا فيها، فهم ـ على حد قوله في بداية الفصل السادس ـ «ليسوا شعبا بل طائفة [أو طوائف] لها تقاليدها، لان التجانس بينهم انثروبولوجيا وثقافيا متباعد قدر تباعد عشرات اللغات التي يتحدثون بها في اسرائيل.ثم ان ديانتهم ـ كأية عقيدة سماوية ـ تحفل بالايحاء والالهام سواء التزموا بها ام نبذوها أم حرفوها». وفي هذا الموقف مقدرة على اعطاء الخصم حق قدره وهي مقدرة تنم عن الثقة بالذات، وتعبر عن نفسها في محاولة مؤلفنا ان يقدم رؤية شاملة للعدو تعريه بقدر ما تعرفه.

وبعد ـ لا يمكن لمثل هذه الكلمات القليلة ان تعطى هذه الدراسة حقها، ولكنها ها هي ذي اخيرا بين يدي القارىء ـ جهد عربي جديد وأصيل يلقي المزيد من الضوء على العدو.

د. عبد الوهاب محمد المسيري

دواعي الكتاب

هذا العمل سيرة ذاتية ودرس في الصبر، قدر كونه دراسة في التاريخ. فقد نضجت معه قدر نضجه معي، ونقلني خلال أكثر من ١٧ عاما مرحلة فمرحلة: من الغضب الى التهكم الى الفهم والتقدير. لقد كان حقا رحلة طويلة من عالم الميكروسكوب الى التلسكوب، من عالم الجزئيات الى الكليات.

بدأت في كتابته عام ١٩٧١، ونشرت منه أجزاء في صحف عربية وانجليزية، من مجلة العربي الكويتية الى جريدة ديلي ستار البيروتية. وأعدت كتابته بعد ذلك عدة مرات. ونسخته على الآلة الكاتبة عدة مرات. وخطفته من يد الناشر في بيروت عام ١٩٧٧، وأخلفت وعدي مع ناشر آخر عدة مرات حتى يئس مني ويئست من نفسي، وأصبح الانتهاء من هذا العمل وسواسا إن لم يكن مسألة احترام للذات.

أكان هذا التأجيل مماطلة أم بدافع خفي هو الرهبة من موضوع أكبر مني؟ أم لاحساس بأنني لم «أهدأ» بعد حتى أكتب بالحد الأدنى المطلوب من الموضوعية؟ ربما كان الأمر مزيجا من هذا وذاك. فقد كنت أشعر في أعماقي أن أول دراسة في سيكولوجية التاريخ اليهودي يكتبها شخص غير يهودي مهمة هائلة ولا بد أن تنضج على نار هادئة وأن تنتظر حتى تتضح الرؤية التي اهتزت بفعل مرارة الهزيمة وفداحة الخسارة. ولعلي حتى بعد إنهاء هذا الكتاب لم أبرأ من ذلك تماما، وهذا من شيمة البشر. وقد لاحظته لدى باحثين يهود في العقل اليهودي مثل رافائيل باتاي رغم شجاعته العلمية الفذة.

على أية حال، وجدت فجأة قبل بضعة شهور أن الموضوع لم يعد يحتمل أي تأجيل، وأن عهد الحلول الجزئية لمشاكل الشرق الأوسط خاصة والعالم عامة قد انتهى، وأن علاقة اسرائيل بقضايا العالم الروحية ليست علاقة جزئية أو حتى عادية. فمن يتحدث عن التاريخ اليهودي انما يتحدث في الواقع عن فلسفة التاريخ. ومن الخطأ تجزئة هذا التاريخ بتفسيره تفسيرا اقتصاديا أو قوميا أو دينيا أو جيوبوليتيكيا.

إن التفسير الاقتصادي غير كاف لان اسرائيل تعيش عالة على المساعدات الأمريكية ومع ذلك تسيطر على أمريكا أكثر مما تسيطر أمريكا عليها، وخوف الزعماء الأمريكيين من انتقاد اسرائيل يبلغ حد الرعب. والتفسير الديني غير مقنع لأن معظم الاسرائيليين غير متدينين أصلا. والتفسير القومي ـ الجيوبوليتيكى غير كاف لأن قضية فلسطين حالة نادرة (إن لم تكن فريدة) من حيث أنها قضية شعبين يتنازعان أرضا واحدة من ناحية، ولأن الطرف الثاني فيها ـ من ناحية أخرى ـ ليس أصلا شعبا متجانسا بالمعنى العلمي، ومع ذلك فهو مهووس بقوميته الى حد الجنون ويهزمنا في كل معركة يكسبها بقدر ما يهزم نفسه. أو كما قال صحفي اسرائيلي: «ان جنرالاتنا يعرفون كيف يبدأون الحروب ولا يعرفون كيف ينتهون منها». ولهذا تتحول معظم انتصاراتهم الى مآزق عالمية. واسألوا الأمم المتحدة.

هذه الأمثلة البسيطة توحي لنا بأن المشكلة اليهودية (التي تمثل اسرائيل ذروتها) مشكلة غير عادية: فأصول «شعبها» متعددة الى حد محير. وهوية «شعبها» شاذة، وتنقله وترحله شاذ بين أرض أور ومصر وشرق الاردن وفلسطين والشتات حيثما اقتضى «دوره» الاقليمي او العالمي ذلك، مسيطرا بذكائه

وخرافاته معا على من حوله وعاجزا في نفس الوقت عن السيطرة على نفسه الى أن ترغمه قوى خفية أقوى منه على مراجعة ذاته. باختصار شديد، المشكلة اليهودية ظاهرة كونية شئنا أم أبينا، علمنا أم جهلنا. لكن المشكلة الأكبر هي: كيف نقنع الآخرين بها، بل كيف نعترف بذلك أصلا.

هنا واجهتني صعوبات جمة منها:

* المعلومات: كانت متشرذمة وغير مصنفة، ولهذا حفل الكتاب بكم هائل من المعلومات «المهملة» لعدم دلالتها ظاهريا، وهي مأخوذة من كتب وصحف وأخبار تلفزيونية واذاعية ومقابلات صحفية ومحاضرات ومؤتمرات ومتاحف وافلام ورسائل عامة وخاصة. من هنا كان لا بد لي (رغم وفرة المعلومات) من أن أبدأ من الصفر تقريبا .

* التفسير: كثيرا ما لاحظت علاقة عكسية بين وفرة المعلومات وسهولة الوصول الى الحقيقة. خذ موضوع الهولوكوست مثلا. كلما كثر الحديث عنه ازدادت قدسيته وضبابيته واعيدت كتابة تاريخه وبالتالي قلت معرفة أسبابه. نفس الشيء ينطبق على موضوع اللاسامية. وزاد الطين بلة أن الذي يحدد أهمية المعلومات هنا ليس المعلومات في حد ذاتها وانما طريقة وسائل الاعلام في تفسيرها أو تقدير أهميتها. وخير مثال على ذلك هو تحليلي لقضية اناتولي ديكاتوف (أول يهودي روسي نال تأشيرة خروج كمهاجر الى اسرائيل) ولمأساة الشاعر اليهودي إبن نغريلة وابنه يهوسف في الأندلس العربية.

* الاستشهاد بالدين: لاحظت أن الاكاديميين عامة (باستثناء اليهود) ينفرون من الاستشهاد بالدين. فهل أجاريهم في ذلك؟ ان القوميين اليهود يعتبرون التوراة أصلا كتابا في التاريخ (حتى ايلي ويزل الملحد الفائز بجائزة نوبل، يلقي محاضرات عن البطل شمشون والنبي أشعياء)، فما المانع أن أقارن ذلك بما في القرآن وهو حافل بالقصص التاريخي لنعرف الحقيقة من المؤلف الأصلي؟

* قضية المنهج: هل اتبع منهجاً أكاديميا معينا؟ وهل يتفق هذا مع موضوع كوني متمرد على أي إطار تقليدي؟ واذا كان الأمر كذلك، فهل هناك منهج يجمع بين فروع من المعرفة تتصل بموضوعنا ومعروفه بتضاربها (ظاهريا على الأقل) مثل علم النفس والباراسايكولوجيا (علم الخوارق النفسية)، والدين والتصوف، والميثولوجيا وعلم الآثار، والاقتصاد السياسي وعلم الأخلاق؟

عندما تحدتني قراءة الظاهرة اليهودية، وجدتني ابدأ بدراستها نفسيا وانتهى بتقييم دورها فلسفيا. وهكذا بدأت دون قصد بعلم النفس وانتهيت بفلسفة التاريخ. وهذا منهج غير مألوف تقريبا لان الباحثين اعتادوا على دراسة كل من هذين الموضوعين على حدة، مع ان علم النفس هو مقتل التاريخ اليهودي، لأنه يضعف كثيرا من التفسيرات الاقتصادية والسياسية والفلسفية والاخلاقية للمشكلة اليهودية، ومن هنا كان لا بد من اعادة كتابة هذا الكتاب من جديد خصوصا بعد ان لاحظت نقطتين هامتين:

أولهما ان اليهود كثيرا ما عاشوا حياة الاقليات حتى وهم اكثرية في فلسطين فكثيرا ما كانت اللغة الارامية (وليس العبرية) غالبة على حياتهم اليومية، بل ان التوراة دونت اصلا بعدة لغات كانت العبرية

مجرد واحدة منها (الى جانب الكلدانية والارامية واليونانيـة) وهذا شيء فـريد في تـاريخ الديـانات والشعوب.

وثانيهما: ان الثقافة اليهودية أسلوب في الحياة والتفكير اكثر مما هي تراث قومي، وهذا الاسلوب قوامه تقسيم العالم الى يهود (اقلية) واميين أغيار (اغلبية) اينما وجدوا. وبذلك اصبحت بسرعة اول ثقافة سالبة في التاريخ، بمعنى انها ليست مؤثرا بقدر ما هي رد فعل على المؤثرات الخارجية، فثقافة اليديش (يهود وسط اوروبا) ليست عبرية بقدر ما هي رد فعل على الثقافة الجرمانية. وثقافة اللادينو رد فعل على الثقافة اللاتينية ـ الاسبانية. والثقافة الاسرائيلية المعاصرة ليست سوى رد فعل على الثقافة العالمية كلها (بسبب امور مثل اللاسامية والهولوكوست والدعوة الى اندماج اليهود)، يشهد بذلك قول المفكر الصوفي اليهودي غيرشوم شوليم ان اسرائيل هي «رد» الله على الهولوكوست، مع ان الدول في العادة «فعل» وليس «رد فعل».

بذلك تصبح هذه الثقافة السالبة ليست قومية وانما نقيضاً (antithesis) لسائر القوميـات الاخرى، او بالاحرى «نقابة للخائفين» من الاغيار لها مصالحها وقيمها ومصطلحاتها ورموزها.

لهذا كله وجدت ان انسب منهج هو المبدأ بعرض السمات النفسية المعاصرة المشتـركة بـين الطوائف اليهودية (وحدة التفكير والمصير داخل نقابة واحدة)، ثم محاولة التأكد من مدى عراقة هذه السمات من واقع التاريخ قديمه وحديثه (خصوصا في اسرائيل بـوصفها قمـة التعبير عن المشكلة اليهودية) لاثبات وجودها بدرجات مختلفة عندما تسمح بها الظروف. والفصل الاخير وخلاصة الكتاب تؤكد ان الشخصية القومية اليهودية تختلف عن شخصية القوميات التقليدية ليس من حيث طبيعتها فقط وانما من حيث وظيفتها والحكمة من وجودها.

* الاساءات اليهودية: هل أكتفي بالحديث عن مذابح الأغيار في حق اليهود دون الحديث عن فظائع اليهود في حق الأغيار، كما يفعل جميع الأكاديميين تقريبا خوفا من اتهامهم بالتعصب بالديني ونزع شرف العلمانية عنهم؟ لقد أدهشني هذا التمييز فيهم، وحتى لو تحدثوا عن جرائم اليهود اكتفوا بجرائم اسرائيل وكأن اليهودية في أوج سطوتها لم تفعل أية جرائم في الشتات. ورغـــــم إعـدام دريفوس الضابط الفرنسي اليهودي ظلما بتهمة الخيانة خلال الحرب العالمية الأولى، فان من يتابـع محاضر محاكمة قتلـة الأب توما الكبوشي في دمشق عام ١٨٤٠ يتأكد من أن اشاعة القرابين البشرية (أو تهمة الدم Blood Libel كما يسميها اليهود) لها جذورها التاريخية الطويلة في عدة بلدان، ولا يمكن تجاهلها خوفا من تهمة اللاسامية أو اللاأكاديمية. ثم ان اغفال الدور الذي لعبته هذه التهمة في اثارة اللاسامية ليس أكاديميا على الاطلاق.

* العاطفية: كنت كعربي مسلم من ناحية ومواطن عالمي من ناحية اخرى اواجه بحكم نشأتي خوفا مستمرا من الوقوع في خطأ مضاد هو تأويل المعلومات تأويلاً عاطفيا وتجاهل الجانب الانساني من التجربة اليهودية. لكنني عندما بدأت أفهم طبيعة العلاقة غير العادية بين الله وبني اسرائيل من قدامى ومحدثين صرت أدرك وجود لا شعور جمعي غامض يفصل اليهود عن الأغيار ويصعب التعرف عليه او

الاعتراف به أو معرفة أسبابه، لكنه موجود دائما وبدرجات متفاوته حتى لدى ذلك الأمريكي المتحرر الذي قال مدهوشا عندما اتهموه باللاسامية: ولكن أعز اصدقائي من اليهود؟!

* الاقتباس: كان جبران خليل جبران يرى أن الكاتب الذي يستشهد بغيره أشبه بمن يستدين ليقرض شخصاًآخر. ورغم ما في هذه الاستدانة من لفتة انسانية وايثار فان الكاتب يفقد شيئا من ذاتيته كلما نقل عن غيره. وكان هذا ينقلني نفسيا من النقيض الى النقيض. فقد كانت جدة الموضوع تستدعي احالات واقتباسات وافرة سرعان ما تصرفني تماماً عن أية محاولة للاشارة الى المراجع. وأحيانا أخرى كانت المعلومات تتراكم ذرة فوق ذرة على مدى ١٧ عاما حتى تتعذر معرفة الجهة التي هبت منها (لهذا قد يلاحظ القارىء ان فرص الاشارة الى المراجع تقل كلما قدمت تواريخها. وبوجه عام كنت موزعا بين التوثيق الأكاديمي والتجريد الفلسفي الذي يأنف من الاحالات.

* التحديث: هذه مشكلة المشاكل لمن يتابع قضية اسرائيل. فليست هناك جهة تتغير أخبارها واحصاءاتها ومواقف سكانها ويكثر الحديث عنها مثل اسرائيل وأنصارها. كان جيمس رستون رئيس تحرير صحيفة نيويورك تايمز السابق يقول ان اسرائيل تسبق الأخبار والعرب يلهثون وراءها. وكان هذا شأني كعربي، ولكن كان عزائي انني كلما تزايدت المعلومات عندي ازدت وثوقا مما أقول. طبعا كانت الجهة الأخرى تربكني بتفانيها في الدفاع عن قضيتها وازدياد تطرفها حتى فطنت اخيرا الى تزايد نفوذها العالمي كلما تدهور العالم، وخصوصا في الثمانينات مما يرغمها على التشبث بأي شيء وبأي انسان وجدته معها في البحر حتى لو أدى ذلك الى غرقهما معا. وهنا يصبح استخدامها للمعلومات ليس بحثا عن الحقيقة بل عن البقاء. ولكن التهافت كان يتضح دائما في نهاية المطاف.

* جمهور القراء: كان السؤال الذي يحيرني بين الحين والآخر هو: هل اكتب للعرب أم للأجانب؟

مخاطبة العرب أشبه بمن يبشر بالدين بين معتنقيه اصلا أو بجالب الماء الى حارة السقائين. ومخاطبة الأجانب محاولة عقيمة لأن مركزية العقل القومي اليهودي لا تشجع أي أممي على الخوض في سيكولوجية التاريخ اليهودي، ناهيك عن مغزاه الكوني. ولما بدأت الاحظ وجود نقاط كثيرة خافية عن الحكمة من هذه الشخصية الفريدة، وجدت ان من الأفضل ان تبدأ تجربتي على نطاق محلي، ثم الاستفادة من اخطائها وانتقاداتها في طبعة انجليزية مركزة حتى لو اقتضى الأمر اعادة الكتابة مرة اخرى.

تبقى بضع ملاحظات أخيرة.

قد يلاحظ القارىء بين الحين والآخر نوعا من التكرار. وهذا ليس من قبيل التذكير بقدر ما هو سهو. فقد كان همي أن أطرح الكتاب للنشر قبل أن تتعسر ولادته مرة أخرى، خصوصا وأن حالة العالم الراهنة لا تحتمل كماليات التأخير حباً في التجويد.

فضلت الاستعاضة قدر المستطاع عن مصطلحي «الصهيونية والصهيونيين» بمصطلحي «القومية اليهودية والقوميين اليهود»، لأن من الصهيونية أنواعاً بعضها ديني ويختلف عن السياسي

منها من حيث علاقة الانسان عموماً والدولة خصوصاً بالله، وبالتالي من حيث الحكمة من الظاهـرة اليهودية.

حـذفت من الكتاب عـدة فصول جـاهزة منهـا دراسة مقـارنة بـين الشخصيتين اليهـوديـة والفلسطينية، ومأزق المثقفين الاسرائيليين، والبوادر غير الملحـوظة لتحلل الدولة اليهوديـة، وسلاح النبؤات التوراتيه أو سيناريو الآخرة، وكيف تصبح خبيرا صهيونيا بالدعاية أو حيل العقل القومي اليهودي في اقناع الآخرين ونفسه أيضا. وعسى أن يتاح لي نشرها في مناسبة أخـرى أو في الطبعة الانجليزية ان شاء الله.

ختاما أرجو من القاريء أن يغفر لي ما في الكتاب أحيانا من ثغرات أو شطحات، فقد أردت أن أفرغ كل ما عندي من معلومات حتى لو كانت غير كاملة الترابط. والموضوع يستحق ذلك حقا. فعلاقة اسرائيل بالحاجة الى اقامة نظام عالمي جديد واضحة في كل ثنايا الكتاب، خصوصا في فصله الأخير الذي يعتبر خلاصة الفصول السابقة له والذي شاء القدر أن يستغرق مني أقل من أي فصل آخر. ولا عجب، فالدولة اليهودية تعبير رسمي عن احتضار اليهودية الحالية والنظام العالمي الراهن على السواء، لأن اسرائيل قمة الوعي الزائف للانسان المعاصر وشططه. وبناء رأس الهرم أسهل وأسرع من بناء أي جزء آخر دونه مكانا ومكانة.

نيويورك صيف ١٩٨٨

القسم الأول

المــأزق

الفصل الاول
الشخصية اليهودية قبل اسرائيل وبعدها

«نحن في كل الأحوال تقريباً جاهلون بالشعوب الأخرى وبانفسنا، لكن الأجانب وحدهم هم الذين يجعلوننا ندرك مدى هذا الجهل».

الكاتب الاسرائيلي عموس الـون

«لا أعتقد ان من الممكن علاجنا معشر الاسرائيليين دون مساعدة من الخارج»

الكاتب الاسرائيلي يعقوب تميرمان

«لم تعد اليهودية انضباطا بل أحلام يقظة»

هاري وولفسون استاذ فلسفة التاريخ اليهودي

«ان حالة اسرائيل العقلية تستدعي مساعدة خارجية. وأمريكا وحدها هي التي تستطيع ان تنقذنا من انفسنا.»

الصحفي الاسرائيلي توم سيغيف

في عام ١٩٣٥ كتب بيير غومار البلجيكي في كتابه «اسرائيل يعود الى دياره»: «انك لتجد اليهود مبعثرين على مئة دولة، لكن قوتهم تسيطر على كل هذه الدول متفرقة أو مجتمعة. انك لتجدهم ظاهرين أو مختفين على كل صعيد عالمي وكل طبقة اجتماعية وكل جوانب النشاط البشري. انهم دائما مستعبدون، لكنهم يظلون أسيادنا في الوقت نفسه»(١).

وفي عام ١٩٢٠ ألقى الدكتور حاييم وايزمان أول رئيس لاسرائيل محاضرة في القدس بعنوان «جمال النهضة اليهودية» قال فيها: «لقد قلنا لسلطات لندن أننا سنكون في فلسطين سواء أردتم أم لا. وقد تعجلون بذهابنا اليها أو تؤخرونه، ولكن خير لكم أن تساعدونا والا انقلبت قوتنا البناءة هدامة تنزل الدمار والفساد بالعالم كله»(٢).

وفي العشرينات كتب الفرنسي هنري دومونفريد عن مغامراته في تهريب الحشيش الى مصر. وكان له وسيط يهودي يطوف به حارة اليهود بالاسكندرية فيظن الجميع انه يهودي مثله. وهكذا تمكن - على حد قوله - من رؤية التجار اليهود على حقيقتهم فقال:

«ان الواحد منهم مستعد لأن ينتزع المجوهرات من جثث الموتى لاسترداد دينه منها. انه مستعد لأن يسرق مال اليتامى اذا استطاع ذلك شرعا. ومع ذلك فان هذا اليهودي نفسه قد يقتل نفسه كدا كي يعلّم أولاده، كما انه قد يعمل في أحقر المهن ليعول أبويه العجوزين بل وحتى الأباعد من أقربائه.. ان

---

(١) بيير غومار. عندما يعود اسرائيل الى دياره، دينويل وستيل، بروكسل، ١٩٣٥، ص ١١ - ١٢.

(٢) بنيامين ماتوفو. الرغبة الصهيونية والفعل النازي، مجلة إيشوز (قضايا)، المجلس الأمريكي لليهودية، نيويورك، عدد شتاء ١٩٦٦ - ١٩٦٧.

فيهم سراعريقا مثل جنسهم، ثابتا لا يتغير كالزمان. واذا حدث أن انحرفت غريزتهم التجارية الشرسة عن مجراها المعهود وجدت هذا السر يطفو على السطح ليفعل العجائب».

هذه الأقوال الثلاثة تجعلنا نتساءل: هل اليهود من طينة مختلفة؟ واذا كان الأمر كذلك فهل هم فوق مستوى البشر كما يقول أحباؤهم؟ أم دون مستواهم كما يقول اعداؤهم؟.

مطاردة العالم المجهول

لقد حذرتني طبيبة نفسية أمريكية من شدة صعوبة فهم العقل اليهودي. صحيح أن علماء النفس يتفقون على أن هناك ثلاثة عوامل رئيسية (هي الدوراة والشتات والاضطهاد) قد جبلت شخصية اليهودي التقليدي حتى أصبحت: تتسم بست سمات نفسية رئيسية هي: القلق، والشك، والخوف، والشعور بالدونية، والحرص على التمايز، وعدم الثقة بغير اليهودي.* ولكن هناك عاملا مجهولاً حاسما في تطور الشخصية اليهوَدية الحديثة أشار اليه الأديب الامريكي اليهودي سول بيلو الحائز على جائزة نوبل في كتابه «الى القدس ومنها» حين قال: «ان اليهود كما هو معروف جيدا يغالون فيما يطلبون من أنفسهم وبعضهم من بعض، ومن العالم أيضا. وأحيانا أتساءل عما اذا كان هذا هو الذي يجعل العالم يضيق ذرعا بهم الى هذا الحد»[٣].

المغالاة (أو التطرف على الأصح)* اذن نزعة متأصلة في العقل اليهودي، ولكنها كامنة أو لنقل أنها لا تبلغ حد الخطر الا اذا استخدمت في أغراض جماعية خصوصا لوضع حد فاصل بين اليهودي وغير اليهودي (الأممي). فاذا اكتفى اليهودي بالمغالاة فيما يطلبه من نفسه فقط فانه يسعى الى التفوق الفردي وحده. أما اذا غالى فيما يطلبه من بني جلدته أو غالى أبناء جلدته فيما يطلبونه منه (كاتهامه بالخيانة اذا أيد اسرائيل ٩٩ في المائة)، أو كأن يعتبر هو الفلسطينيين شعبا من المجرمين وليس من اللاجئين ويرضى لنفسه ما لا يرضى للآخرين وفق قاعدة ازدواج المعيار القائلة بأنه يجوز لليهودي ما لا يجوز لغيره، فانما يدخل بذلك في دائرة التفوق القومي العنصري وليس الفردي، وبذلك يدخل دائرة الخطر ويصبح في عداد الصبهيونيين الذين يتباهون بمرضهم العقلي المفضل (البارانويا) الى حد العجز عن التمييز في المعاملة بين أصدقائهم وأعدائهم. مثال ذلك ان الولايات المتحدة بكل جبروتها لم تقتل اسرائيليا واحدا بينما قتلت اسرائيل عمدا ٣٤ ضابطا وجنديا

---

* يتفق على ذلك باحثون يهود وغير يهود مثل برونو بتلهايم وميلفورد سبيرو وكارل منتغر وهيرمان وروبنشتاين ومارغريت ميد. بالاضافة الى ذلك انظر على سبيل المثال بالعربية كتابي قدري حفني «تجسيد الوهم: دراسة في سيكولوجية الشخصية الاسرائيلية» و «دراسة في الشخصية الاسرائيلية (الاسكناريم)».

* ذكر دانئيل اليعيزر الاستاذ بالجامعة العبرية بالقدس انه «عند قيام الحركة الصهيونية كان هناك زعماء علمانيون ومتدينون يفهمون نزوع اليهود الى التطرف ولكنهم عرفوا كيف يواجهون المشكلة بنجاح.. أما الآن فهناك تنافس على اظهار التطرف». («سبب المجابهة العنيفة بين المتدينين والعلمانيين» بقلم ن. غولان، صحيفة هاتسوفيه الاسرائيلية في ١٩٨٦/٦/٢٠).

(٣) سول بيلو، الى القدس ومنها، منشورات أفون، نيويورك ١٩٧٧، ص ٢٠.

وجرحت ١٧١ امريكيا آخر عندما دكت بالقنابل والرصاص والطوربيد والنابالم سفينة التجسس الامريكية الشهيرة «ليبرتي» في حرب ١٩٦٧. وأغرب من هذا ما حدث من تستر ومصادرة لكل ما كتب عن هذه الفضيحة الى حد أن الناجين من السفينة يعقدون مؤتمرات سنوية ويصدرون نشرة دورية غاضبة تتحدث عن هذه المهزلة، ومقابل ذلك كله لم تدفع اسرائيل التعويض عن خسائر السفينة (وهي ٦ ملايين دولار فقط) الا بعد مساومة دامت ١٣ عاما وانتهت بنهاية عام ١٩٨٠ بحجة أن الامريكيين بالغوا في تقدير قيمة السفينة![٤]

وسوف نلاحظ مدى التغيير الذي أحدثته سمة المغالاة في كل نمط من الانماط الاربعة الرئيسية التي أصبحت عليها الشخصية اليهودية خارج اسرائيل وداخلها. وهذه الانماط هي:

١ ـ الشخصية اليهودية التقليدية خارج اسرائيل.

٢ ـ شخصية الاسرائيلي غير المولود في فلسطين.

٣ ـ شخصية المولودين في فلسطين (الصابرا) خصوصا من اليهود الغربيين (الاشكناز).

٤ ـ شخصية الصابرا المولودين في الكيبوتسات.

النمط الأول: ضربني وبكى

لقد ذكرنا أن هذا النمط يتسم بالشك والقلق والخوف والشعور بالدونية والحرص على التمايز وعدم الثقة بغير اليهود. والسمات الأربع الأولى على الأقل موجودة في مشاعر البارانويا المأثورة عن الشخصية اليهودية بالذات. ويقول الاستاذ ايمانويل رايس بجامعة نيويورك في كتابه «محاضرات في الأمراض النفسية» أن المصابين بالبارانويا عدوانيون، شكاكون، يتهمون الآخرين بالتجني عليهم والتصميم على خداعهم، وهم غارقون دائما في قضايا قانونية، وأصحاب ذمة ومكدون في عملهم، ويستمتعون بالفكاهة أو يرتاحون اليها، ويتحسسون كل المظالم والاخطاء حتى قبل وقوعها (ضربني وبكى، سبقني واشتكى). يشعرون بالدونية والتفاهة وكثيرا ما يحاولون اثبات قدرهم بانتقادهم للآخرين وجعْل من يحرصون على ودهم ينفرون منهم.

وعدوانية العبرانيين غنية عن الذكر، فقد كان لتاريخهم «طابع البداوة الدموية العنيفة» في رأي الدكتور جمال حمدان.[٥] يشهد على ذلك أن ١١ من مجموع ٢٠ ملكا جاء ذكرهم في سفر الملوك الأول قد ماتوا قتلا على أيدي بني جلدتهم. ويبدو أن تشتت اليهود لم يكن بسبب الاضطهاد والاحتلال بقدر ما كان هربا من تناحرهم داخل فلسطين، بدليل أن الجالية اليهودية في مدينة الاسكندرية قبل ظهور المسيحية كانت أكثر عددا من كل سكان مملكة يهوذا.[٦] وبعد تشتت اليهود دخلت هذه العدوانية

---

(٤) جريدة نيويورك تايمز، ١٩/١٢/١٩٨٠.

(٥) د. جمال حمدان. اليهود انثروبولوجيا، دار المعرفة، القاهرة ١٩٦٦.

(٦) صامويل صامويل. فيلون الاسكندراني، مطبعة جامعة أوكسفورد، ١٩٧٩.

مرحلة الكمون. ومع ذلك كانت ملامح صورة اليهودي التقليدي في العصور الوسطى هو انه «كافر، حليف الشيطان، يستخدم السحر والسم، يدنس الصور، يستخدم الدم في أعياده، جشع يستنزف قوت الآخرين». أما في العصور الحديثة فصار «عشائريا، ميالا للسيطرة، انتهازيا، مرتزقا لا يتورع عن شيء». ثم استطاع جهاز الدعاية الصهيوني الجبار أن يجعل ملامح اليهودي في الستينات كما يلي: ذكي، داهية، مثابر، متدين، رب أسرة ممتاز.

النمط الثاني: نهاية التاريخ

أما النمط الثاني فهو الشخصية الاسرائيلية التي لم تولد في فلسطين. وعالم النفس اليهودي هيرمان يرى أن أعراض البارانويا تلازم هذا النمط أيضا، بالاضافة الى اشتداد مشاعر الشك في العرب والأجهزة الدولية. لكن الشعور بالدونية هنا قد حل محله ـ أو صاحبه ـ شعور متزايد بالتفوق على غير اليهود (الاميين). ومعروف أن مركب العظمة ومركب النقص وجهان لعملة واحدة، تماما مثل العلاقة العضوية بين السادية (التلذذ بالايلام) والماسوكية (التلذذ بالتألم). ويلاحظ هنا اشتداد نزعة المغالاة (التطرف) لدى هؤلاء «الحرس القديم» الذين يحكمون اسرائيل منذ قيامها. ومع أن عليهم أن يختاروا بين أمرين لا ثالث لهما: اما الأرض أو الأمن، فان الطمع والتسلط يجعلانهم يصرون على الجمع بين الاثنين. وهنا بالذات تتخذ سمة المغالاة طابعا قوميا شوفينياً يسميه الدكتور عبد الوهاب المسيري بظاهرة «نهاية التاريخ»(٧). فهم يرون أن تاريخ الأرض المقدسة بدأ وانتهى ببني اسرائيل، وأن عرب فلسطين مجرد ضيوف عليها حتى لو أقاموا فيها آلاف السنين، وحتى لو كانت دولة العبرانيين لم تستمر أكثر من ٥٠٠ سنة متقطعة لم يتركوا خلالها اثرا يذكر اذا قورن بما تركه الكنعانيون والفلسطينيون القدامى والعرب اللاحقون لهم.

النمط الثالث: «نحن اسرائيليون لا يهود»

هذا النمط هو جيل الصابرا المولود في اسرائيل، وأهم سماته:

١ ـ الميل الى العنف.

٢ ـ التمركز حول اسرائيل زمانيا ومكانيا (الغيتو الجديد).

٣ ـ طموحهم منصب على الامان المادي والحياة المريحة.

٤ ـ الانتماء القوي الى اسرائيل ومجتمعها.

٥ ـ عدم الاهتمام بالتاريخ اليهودي الحديث والضيق بالحديث عن الرواد الأوائل (الحالوتزيم).

٦ ـ احتقار المهاجرين القدامى والجدد (والعرب طبعا).

في هذا النمط سمات جديدة هي عودة النزعة العدوانية القديمة، وتحول الشعور بالدونية الى شعور بالتفوق الى حد احتقار المهاجرين اليهود. ويجب ألا نستهين بنسبة الصابرا بين السكان وتزايد

---

(٧) د. عبد الوهاب المسيري. نهاية التاريخ، دار الأهرام، القاهرة، ١٩٧٣.

أهمية دورهم. فقد جاء منهم موشي دايان، ويغآل يادين، وآرئيل شارون. وعندما قامت اسرائيل كانت نسبتهم نحو ٣٥ في المائة من مجموع السكان، أما الآن فانهم يبلغون نصف السكان تقريبا.

النمط الرابع: مفخرة أم مسخرة؟

هذه هي شخصية جيل الصابرا المولودين في الكيبوتسات الذي أظهرت دراسات ميلفورد سبيرو وبرونو بتلهايم أن سماته الرئيسية الخمس هي: العدوان ـ الانطوائية ـ البرود الانفعالي (الفتور العاطفي) ـ الحقد ـ الشعور بالدونية. وتقترن عودة العدوان هنا بظهور سمتين جديدتين هما الحقد والبرود الانفعالي، مع اختفاء سمة الاحتقار وعودة الشعور القديم بالدونية. ومغزى هذا النمط هو أن الكيبوتسات كانت فخر الفكر الصهيوني وتجربته الثورية الرائدة في اعادة خلق الانسان والمجتمع اليهودي. لكن التجربة أخفقت اخفاقا أليما بدليل التضاؤل المستمر في عدد سكان الكيبوتسات وانتاجيتهم. ومع أن الكيبوتسات صورة مصغرة من المزارع الجماعية في البلدان الاشتراكية فانها كانت أقل نجاحا، ومع ذلك يساق السائح الأجنبي لقضاء ليلتين فيها ليرى هذه «المفخرة» التي اصبحت بؤرة لمدمني المخدرات، والمنتحرين والمرض بالفصام، والشبان المتبلدين عاطفيا، والاطفال المتبولين في فراشهم حتى سن متأخرة كما لاحظ سبيرو،[٨] الى أن تنبهت الحكومة لذلك فأصبحت مهاجع الأطفال الجماعية مهجورة تقريبا. ويبدو أن تركيز الدعاية الاسرائيلية على هذه التجربة «الفاشلة اقتصاديا والمتخلفة حضاريا والذابلة عدديا» كما يقول قدري حفني يهدف الى خلق رهبانية حديثة (على حد تعبير بتلهايم) تتكفل بتخريج قادة جدد لاسرائيل.

* * *

موجز القول أن التجربة الاسرائيلية أبرزت اسوأ ما في العقل اليهودي، بغض النظر عن انتصاراتها المادية والمعنوية الكثيرة.

فاذا كانت السمات التقليدية فيه هي القلق، والشك، والخوف، والشعور بالدونية، والحرص على التمايز، وعدم الثقة بغير اليهود، فان اذكاء العقيدة الصهيونية لعامل المغالاة (أو «العامل المضاعف» بلغة علم الاحصاء) قد ضاعف من شدة هذه السمات الى حد افساد الشخصية اليهودية. مثال ذلك:

١ ـ ظهرت العدوانية التي كانت كامنة في الشتات ثم تفاقمت فصارت الجريمة المنظمة (المافيا) اسلوبا مألوفا في الحياة اليومية الاسرائيلية.

٢ ـ انقلب الخنوع التقليدي والشعور بالدونية فأصبح غطرسة حتى مع الاصدقاء، واحتقارا صريحا حتى للمهاجرين اليهود (القدامى منهم والجدد) وهؤلاء بدورهم يحتقرون غير اليهود.

٣ ـ استفحل الشك بالعالم الخارجي والمنظمات الدولية خاصة الى حد العجز عن التمييز بين الانصار والخصوم (ضرب السفينة الامريكية ليبرتي).

٤ ـ اشتد القلق الى حد انعدام الثقة في المستقبل (أصبح المهاجرون الى اسرائيل أقل من النازحين منها).

---

(٨) ميلفورد سبيرو. أطفال الكيبوتس، دار شوكن، نيويورك، ١٩٦٨، ص ٢٠٧ وأماكن أخرى.

٥ ـ تزايدت نزعة الخوف الى حد التقديس المرضي للأمن حتى ظهرت أمراض نفسية لا يعرفها الطب النفسي (اضراب الاطفال عن الطعام خشية مصرعهم عندما يكبرون ويساقون الى جبهة القتال).

٦ ـ الامعان في الاحساس بالتمايز والتفوق ازاء الأمميين الى حد الولع بالتسلط حتى على الدول الصديقة (السيطرة على مراكز القوى في الغرب وخاصة الولايات المتحدة).

وعن النقطة الأخيرة، تجدر الاشارة الى أن البحوث التي أجرتها كل من العالمة الامريكية مارغريت ميد، والعالم الامريكي اليهودي هيرمان تتفق على «أن تقسيم العالم الى يهود وغير يهود من المكونات الاساسية في الهوية اليهودية.. وأن وضع حدود بين اليهود وعالم الأمميين ما زال له تأثير غلاب حتى في اسرائيل نفسها». وباستطاعتنا أن نسوق عشرات الأمثلة على ما ترتب على هذا التقسيم من ازدواج المعيار وعدم معاملة الغير بالمثل، ومن خلل فكري ونفسي يقارب الملهاة.

عدم التعامل بالمثل

من الشائع أن تتهم الأجهزة الاسرائيلية والموالية لها (خصوصا في الأمم المتحدة) ناقديها بالنفاق. ولما كان رفض التعامل بالمثل ضربا رفيعا من النفاق، فان للقوميين اليهود في هذا المجال رصيدا لا بأس به:

١ ـ يستنكرون مثلا تحميل اليهود ذنبا جماعيا هو قتل المسيح، ومع ذلك يحمّلون الأجيال المسيحية المتعاقبة ذنبا جماعيا هو تقتيل اليهود، رغم أن النازية الاشتراكية قتلت من غير اليهود أضعاف ما قتلت من اليهود. وقلّما يذكر أحد ما قتله اليهود من المسيحيين من واقع الكتب اليهودية المقدسة ذاتها. كتاب سيدرهادوروت المقدس يتباهى بأن الحاخام يهودا هو الذي حرض صديقه امبراطور روما على قتل كل النصارى فيها عام ١٥٥م، وأن اليهود حرضوا الامبراطور ماركوس أوريليوس على قتل كل النصارى في عهده (١٦١ ـ ١٨٠م) رغم رقيّه الفكري الرواقي الرفيع الذي يتمثل في كتابه المشهور «التأملات»، باقناعه أنهم خطر على نظام الحكم. ويذكر السفر أيضا أن اليهود قتلوا عام ٢١٤م نحو ١٠٠ ألف مسيحي في روما وكل نصارى قبرص. كما قتلوا في عهد البابا كليمنت الأول «جملة من النصارى في عدد رمال البحر». وذبحوا في عهد الحاخام عقيبا (أبو السنة التلمودية) قرابة ٢٠٠ ألف مسيحي في ليبيا و ٢٤٠ ألف مسيحي ووثني في قبرص [٩]. وحتى اليوم يجد المرء في نجران جنوب الحجاز كثيرا من العظام المتفحمة للنصارى الذين احرقهم على الخازوق ذو نواس اليهودي آخر ملوك حمير في اليمن في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي. ومع أن الناس غفروا ذلك بدليل أنهم نسوه، فان الغفران والنسيان ليسا من مصلحة القوميين اليهود.

٢ ـ يتفننون في مطاردة مجرمي الحرب العالمية الثانية بتهمة التواطؤ مع النازية، لكنهم يرفضون

(٩) عبد الله التل. خطر اليهودية العالمية على الاسلام والمسيحية، دار القلم، القاهرة،١٩٦٤، ص ٣٢ ـ ٣٣.

تسليم اليهود منهم، مثل يوري تشابودجي الذي سمّى نفسه جورج تشابل بعد أن هرب من مسقط رأسه جورجيا بالاتحاد السوفياتي لاشتراكه في قتل ستة آلاف يهودي في معسكر الاعتقال النازي في بانوفسكي في أواخر ١٩٤٣ وأوائل ١٩٤٤. ولم تفكر اسرائيل حتى الآن في اختطافه أو تسليمه الى روسيا التي تطالب برأسه بالحاح. مع أنها فعلت ذلك مع كارل لايناس غير اليهودي الذي سلمته الى موسكو فأعدمته عام ١٩٨٧. وكان هذا نفسه حال المجرم العالمي كلود لبسكي الذي طالبت فرنسا اسرائيل في عام ١٩٧٢ بتسليمه لها دون جدوى بتهمة تعاونه مع سلطات فيشي (الحكومة الفرنسية أيام الاحتلال النازي) ضد يهود فرنسا أنفسهم. كما هو أيضا حال فلاطو شارون المليونير وزعيم المافيا اليهودية الذي استطاع رغم مطاردة الشرطة الدولية (الانتربول) له أن يصبح عضوا في البرلمان الاسرائيلي الى أن طردته اسرائيل بعد تعدد جرائمه.

٣ ـ يصرّون على حق اليهود السوفيات في العودة الى «أرض الأجداد» بينما ينكرون على أكثر من مليوني لاجيء فلسطيني حق العودة الى أرض أجداد أجدادهم مثلما ينكرون على أبنائهم العودة لأنهم من مواليد الشتات الفلسطيني. وهم يدافعون عن حقهم في استيطان الخليل بعد خروجهم منها عام ١٩٢٩، بينما يحرمون حتى عرب اسرائيل من دخول طبريا إلا بتصريح رسمي، وينكرون حق «الاستيطان» على العرب الذين طردوا من القدس مثلا عام ١٩٦٧. كما يتحدثون عن اضطهاد اليهود في الاتحاد السوفياتي، ناسين أن عرب اسرائيل يعامَلون معاملة «الحاضرين الغائبين» حتى بعد الغاء قانون الدفاع (الطواريء) البريطاني الرهيب لعام ١٩٤٥ الذي يستبيح حياتهم وحريتهم وممتلكاتهم في أي وقت يريده الحاكم العسكري والقيّم العام على أموال الغائبين (اللاجئين) والحاضرين الغائبين (الاسرائيليين العرب). ويتهمون الشيوعيين خارج الكتلة الشرقية بالعمالة أو ازدواج الولاء، ويتناسون أن القوميين اليهود المقيمين في أمريكا يفعلون ما هو أدهى من ذلك وهو الخدمة في جيش الدفاع الاسرائيلي.

٤ ـ يأبون على يهود الخارج الاندماج ويعتبرونه معصية ومروقا من الدين (بن غوريون)، بينما يطلبون من عرب فلسطين الاندماج والاستقرار في الدول العربية بحجة أن فلسطين لا تتسع لشعبين (وان كانت تتسع في تصوّرهم لخمسة ملايين مهاجر يهودي جديد!). واحياناً يسأل المحققون الاسرائيليون سجناءهم الفلسطينيين بدهشة: لماذا لا تندمجون في العرب الآخرين؟!. وأكثر من ذلك أنهم يقولون أن باستطاعة الفلسطينيين أن تكون لهم دولة في شرق الأردن بدعوى أنهم والأردنيين شعب واحد. ولكن عندما يتحدثون عن وجود الأردنيين في الضفة الغربية قبل ١٩٦٧ يقولون أنهم كانوا «يستعمرون» الفلسطينيين. وبهذا المنطق لا يصبحون شعبا واحدا. فالأردن في الحالة الأولى جزء من فلسطين، وفي الحالة الثانية مستعمر دخيل عليها!

٥ ـ بل انهم يدّعون أن الفلسطينيين القدامى (ولنسمهّم «بني فلسطين» قياسا على «بني اسرائيل») قد انقرضوا ولا علاقة لهم بعرب فلسطين المعاصرين، وكأن الأخيرين شعب خلق في الهواء، بينما يقولون أن الاسرائيليين «عادوا» بعد ألف عام ونيف حتى لو كان أسلافهم مثلهم من الخزر المتهودين المولودين في ثلوج أوروبا الشرقية. وكثيرا ما ينكرون وجود شيء اسمه فلسطين بحجة

أنها تسمية رومانية، مع أن التوراة تذكر اسم فلسطين منذ السفر الأول (سفر التكوين)، بينما لم يرد اسم اسرائيل فيها الا ابتداء من سفر الخروج. ولو فرضنا جدلا أن فلسطين تسمية رومانية فان اسم «أرض كنعان» أسبق من «أرض اسرائيل» في التوراة أيضا. فهل يقبلون استعمال هذه التسمية؟ والطريف أن هاينريش جرايتس عندما دعا في مؤلفه الضخم «تاريخ اليهود» الى فكرة القومية اليهودية في القرن الماضي أطلق عليها مصطلح «القومية الفلسطينية» [١٠]. وحتى عام ١٩٤٨ كان اسم الوكالة اليهودية هو «الوكالة اليهودية لفلسطين»، واسم جريدة جيروزاليم بوست هو «بالستاين بوست».. الخ.

٦ - يقولون أن الضفة الغربية كانت في الأصل مملكتي يهوذا (في الجنوب) واسرائيل (في الشمال)، وينسون أن تل أبيب تقع على الشريط الساحلي الذي كان موطن «بني فلسطين» الذين بنوا مدينة يافا قبل أن يكون فيها يهودي واحد. ويقولون أن عشرين ألف يهودي طردوا من القدس القديمة عام ١٩٤٨ ومن حقهم العودة إليها، بينما لا يحق هذا لعشرة آلاف عربي أخرجوا من القدس اليهودية على يد الهاجاناه.

٧ - يعتبرون اللاجئين الفلسطينيين أمة من الارهابيين، ولا يذكرون أن الاسرائيليين المتطرفين شنّوا مئات الهجمات على المدنيين العرب في الأراضي المحتلة بأسلحة نارية يحملونها علنا حتى أصبح «الارهاب الحكومي» ظاهرة خطرة على المجتمع الاسرائيلي ذاته. هذا ناهيك عما قاله اسحاق شامير رئيس الوزراء للمؤرخ البريطاني نيكولاس بيثل عام ١٩٧٧ في معرض تبرير قتله للورد موين البريطاني في القاهرة عام ١٩٤٥ من أنه كان يتبع «اسلوب منظمة التحرير الفلسطينية في التعريف بالقضية»، (مجلة فيلدج فويس، نيويورك، ٣/٧/٨٤).. ومع ذلك تظل هذه المنظمة في رأيه بلا قضية!

٨ - يتهمون العرب بأنهم يشنّون حربا دينية صليبية على اسرائيل، ظاهرها عربي وباطنها اسلامي، مع أن الجنسية الاسرائيلية نفسها تقوم أصلا على الدين والطائفية الدينية، وهي سابقة لا نظير لها في العالم كله حتى في باكستان والسعودية وايران وسائر الدول التي تدّعي اسرائيل أنها تقوم على الدين، لأنه ليس باستطاعة أي انسان أن يكتسب جنسية هذه البلدان لمجرد اعتناقه الاسلام. وحتى خلال الحرب الأهلية اللبنانية التي يقال أنها طائفية دينية محضة، كانت الطائفة اليهودية هي الوحيدة التي لم ينلها أذى، الى أن شاءت سخرية القدر أن تجد قنابل اسرائيل العشوائية طريقها الى وادي أبو جميل (الحي اليهودي هناك) خلال غزوها المأثور لبيروت. وهم يزعمون أيضا أن اسرائيل دولة علمانية ليس في دستورها ما ينص على الانحياز لدين آخر (اللهم إلا قانون العودة!)، ومع ذلك استصدروا عام ١٩٧٨ قانونا يجعل التحول عن اليهودية جريمة أشبه بالخيانة العظمى. وعندما انتزعوا من بلفور (الذي كان يجاهر بعدائه لليهود) وعده المشهور عام ١٩١٧ كان عدد اليهود في فلسطين أقل من عدد المسيحيين فيها (٥٨ ألف يهودي

---

(١٠) ماتوفو. المرجع السابق.

مقابل ٦٠ ألف مسيحي)، فهل كانوا يقبلون للمسيحيين دولة خاصة بهم ـ لو طلبوا ذلك ـ مثلما فعل الصليبيون؟.

٩ ـ لكل الجرائم العنصرية والدينية سبب إلا اللاسامية، فلا تفسير لها سوى التعصب (والاضطراب النفسي) للأغيار، وأشبه بالمستحيل أن تعثر على الكتابات الصهيونية العنصرية لبنسكر وكلاتسكن ودبنوف التي استشهد بها هتلر والمنظرون النازيون «المسيحيون» للتنكيل باليهود. وكثير من الأفلام السينمائية والتلفزيونية الأمريكية تصور انحراف رجال الدين المسيحي (ابتداء من إلمر جانتري ـ رواية سنكلير لويس الشهيرة ـ وانتهاء بسلسلة أفلام «يا إلهي!» التي تقاسم بطولتها جورج بيرنز مع نجوم كبار آخرين)، ولكنك لا تجد بين كتّاب السيناريو اليهود من يتهجّم على أي رجل دين يهودي في أي فيلم أمريكي. قد يقال هنا: وما علاقة هؤلاء الكتّاب اليهود بذلك، ولماذا لا يكون السبب هو ولع الأمريكيين أنفسهم بالتندر على رجال الكنيسة عندهم؟ هذا صحيح جزئيا فقط، لأن دراسة أجراها روبرت لشتر وستانلي روثمان عام ١٩٨٣ أظهرت أن ٥٩٪ من المسؤولين عن التهجم على المسيحية في التفزيون الأمريكي هم من اليهود، و ٢٥٪ من البروتستانت، و ١٢٪ من الكاثوليك [١١]. وحال السينما الأمريكية شبيه بذلك.

١٠ـ يرون أن المسيحية مدينة لليهودية لا العكس. مع أن أسرائيل مدينة في قيامها أصلا للعالم المسيحي الغربي. زد على ذلك أن اسرائيل لا تسمح للمسيحيين بمناقشة قضايا الدين اليهودي وان كانت تقبل العكس. كما أنها لا تسمح لليهود بدخول الكنائس والنوادي المسيحية (وان كانت لا تمانع في دخول المسيحيين الى المعابد اليهودية). وعندما عقد مؤتمر لاهوتي عالمي في القدس في منتصف حزيران/ يونيه ١٩٧١ لمناقشة نبوءات الكتاب المقدّس، اكتشف ١٢٠٠ مشترك فيه من الأجانب أنهم كانوا يناقشون أنفسهم طول الوقت، فلم يكن في المؤتمر سوى عضو يهودي واحد! وقالها صراحة الحاخام جاكوبوفتس الحاخام الأكبر للطائفة اليهودية الانجليزية في ١٩٧١/٦/١٢ في معهد سانت جونزوود بلندن: «إن اليهودية التقليدية تنفر من أي نشاط ديني مشترك مع الطوائف الأخرى. وعداؤنا لأي حوار لاهوتي أو نشاط مشترك يرجع الى اعتبارات عملية والى أحكام الشريعة اليهودية» [١٢].

١١ـ يغيرون على الكنائس والجوامع ويحرقون الأناجيل، ويلقون المصاحف في مراحيض الحرم الابراهيمي بالخليل، ويقذفون الراهبات بالقنابل، ويلقون الماء المغلي والحجارة على موكب عيد الفصح المسيحي بالقدس دونما سبب أو بدعوى تحريض اليهود على اعتناق المسيحية، مع أن من يعتنقون المسيحية في اسرائيل كل عام لا يتجاوزون عشرة أشخاص، بينما يتراوح عدد النصارى المتهودين فيها كل عام «بين مائة وألف» (حسب التقديرات الاسرائيبية)، أي بين ١٠

---

(١١) هل التلفزيون معاد للمسيحية؟ الاتحاد الوطني للحشمة، الاسكندرية، فرجينيا، الولايات المتحدة، ١٩٨٣، ص ٢.

(١٢) جويش كرونيكل. لندن، ١٩٧١/٦/١٨.

أضعاف و ١٠٠ ضعف. ويرجع ارتفاع هذا الرقم الى أن اسرائيل «تضغط علـى غير اليهـود لارغامهم على التهوّد» كما يقول الأب هنري نايت ممثل المجلس المسيحي المتحد في اسرائيل. أضف الى ذلك أن المجلس الأمريكي لليهودية ذكر قبل أن تجهز اسرائيل عليه «أن نحو عشرة آلاف شخص يعتنقون اليهودية في الولايات المتحدة كل عام» (١٣)، ومع ذلك لم تنتقم الولايات المتحدة من اسرائيل مثلما تفعل اسرائيل «الديمقراطية العلمانية» برجال الدين الأمريكيين في الديار المقدسة لمجرد أن عشرة أشخاص (معظمهم من غير اليهود) يتنصّرون في اسرائيل كل عام! *

وهناك ما هو أغرب من ذلك على الصعيد الدولي:

١٢ـ تتدخل اسرائيل في الشؤون الداخلية للدول الكبرى الى حدّ أنها أرغمت الرئيس الأمريكي كارتر على إقالة اندرو يونغ سفيره لدى الأمم المتحدة مثلما فعلت قبل ذلك مع سلفيه تشارلز يوست وجورج بول ووزراء عديدين غيرهما. وبالمقابل لم يتورع بيغن عن ان يقول لكارتر عندما نصحه بالتعقل في مسألة بناء المستوطنات (بعد ان تعهد بتجميدها في اتفاقية كامب ديفيد): «لا تقولوا لنا ماذا يجب ان نفعل، فكل ما عليكم هو ان تدعمونا بـالمال والسـلاح، وكفى!». ورغم ان رجل الشارع الاسرائيلي يتحسر على ايام كارتر لأنه «خدم اسرائيل اكثر من أي رئيس امريكي»، فقد حجب الأمريكيون اليهود من انصار الحزب الديمقراطي أصـواتهم عن كارتـر الديمقراطي، فسقط في الانتخابات.

١٣ـ اذا كانت المسألة مسألة شرعية اسرائيل فانها لا تملّ من ادّعاء أنها دولة شرعية أقامتها الأمم المتحدة. أما اذا أدانتها المنظمة الدولية أو طالبتها بتطبيق قراراتها لصالح الفلسطينيين والعرب فانها لا تتورع عن المجاهرة باحتقارها لها بدعوى أن دولا صغيرة من بلاد الواق الواق لا يزيد تعداد كل منها على بضعة آلاف تشكّل عددا كبيرا من الأصوات في الأمم المتحدة وتؤثر على عملية التصويت فيها ضد اسرائيل التي ضربت الرقم القياسي العالمي في الادانات والمخالفات داخل الأمم المتحدة. وتعلل اسرائيل وأنصارها هذه الادانات بسيطرة البترول والمال العربي على الأمم المتحدة. أما المندوب الأمريكي باتريك موينهان فأرجع هذه الادانات الى ظاهرة طريفة أسماها «ديكتاتورية الأغلبية»، مع أنه يعلم أن «ديكتاتورية الأقلية» هي التي قسمت فلسطين عام ١٩٤٧ في الأمم المتحدة. فمع أن ٣٣ دولة أيدت التقسيم وعارضته ١٣ دولة وامتنعت ١١ عن التصويت فان عدد سكان الدول المؤيدة لم يتجاوز ٥٦٠ مليونا (٣٣,٦٪ من مجموع سكان الدول الأعضاء آنذاك). هذا ناهيك عن ٤٠٠ مليون من سكان العالم لم يكونوا ممثّلين فيها عندئذ، ومن ٦٢٥

---

(١٣) المجلس الأمريكي لليهودية، نشرة بريف الفصلية. شتاء ١٩٧٩. نيويورك.

* يتزايد عدد الأمريكيين المتهودين تدريجيا حتى بلغ عام ١٩٨١ نحو ١٢ ألفاً كل سنة. وساعد على ذلك أن اتحاد المحافل اليهودية الأمريكية قرر في أوائل الثمانينات فتح باب التهود للمتزوجين من يهود ولمن لا يفضلون ديناً على آخر ولمن كان أحد أبويه يهوديا، ورصد ستة ملايين دولار لذلك (نيويورك تايمز ١٩٨١/١٢/٩).

مليونا هم سكان الدول الأعضاء التي امتنعت عن التصويت (٣٧,٥٪) [١٤]. أي أن أغلبية الثلثين المطلوبة كانت في الواقع بأغلبية الثلث.

١٤ـ شوّهوا صورة منظمة البلدان المصدّرة للنفط (الأوبك) بوصفها رمزا للجشع وامتصاص دماء الغربيين لمجرد أنها تضم عدة دول عربية واسلامية، وأنها رفعت سعر برميل النفط من ١١ دولارا تقريبا عام ١٩٧٤ الى ١٨ دولارا عام ١٩٧٩، وهو فرق كان يعادل تماما نسبة هبوط قيمة الدولار حينذاك بمعدل ١٤٪ سنويا بفعل التضخم. وعندما أخذت الأوبيك تخفض أسعار النفط تدريجيا في أوائل الثمانينات، ظلت أسعاره مع ذلك تزداد في البلدان الغربية سنتين بعد ذلك على الأقل. ولم يفطن أحد الى ما أعلنته وزارة التجارة الأمريكية من أن أسعار النفط لم تؤثر في زيادة التضخم في الولايات المتحدة، وبالتالي في ارتفاع أسعار السلع عموما، إلا بمقدار ٥,٥٪ فقط [١٥]. وعندما فرضت الدول العربية حظرا نفطيا على الغرب بعد حرب ١٩٧٣ مباشرة، طالبت الصحافة الموالية لاسرائيل بفرض جزاءات عليها بحجة «الابتزاز السياسي»، ولم يذكر أحد أن أمريكا «كانت تفرض جزاءات على كوبا وروديسيا لاسباب سياسية» على الطريقة العربية، «كما أنها ترفض بيع السلاح للصين والاتحاد السوفياتي، وتقاطع فيتنام في كل الميادين باستثناء الأدوية، وحظرت عام ١٩٤١ ارسال النفط والحديد الخردة الى اليابان ردا على توسّع الأخيرة في آسيا، مما جعل اليابان ترد على ذلك بقصف بيرل هاربر» [١٦].

١٥ـ في حين أنهم استنزفوا ألمانيا الغربية بالتعويضات الهائلة (٣٦,٣ بليون دولار بين عامي ١٩٥٢ ـ ١٩٨٢) [١٧] منّوا على الفلسطينيين بالقروش، مثلما منّوا على أمريكا بالسنتات عندما دفعوا مقابل اغراق السفينة ليبرتي بعشرات من بحّارتها حوالي ١٣ مليونا من الدولارات (منها ٧ ملايين للضحايا و ٦ ملايين تعويضا عن السفينة [١٨] التي تكلّف بناؤها ١٤٠ مليونا، مع أن أمريكا لم تطلب منها سوى دفع ١٤ مليونا للسفينة تسهيلا على اسرائيل) [١٩]. هذا بينما انتزعوا منها أكثر من بليون دولار تعويضا عن التخلي عن آبار البترول المصرية في سيناء ومنشآتها العسكرية فيها. وهذا يعني ببساطة أن أمريكا دفعت لاسرائيل ثمنا للسلم مع غيرها أضعاف ما دفعته اسرائيل لها ثمنا للحرب عليها ذاتها.

---

(١٤) والتر زاندر. أهذا هو الطريق؟ نداء الى اليهود، فيكتور جولانكز، لندن ١٩٤٨، ص ٤.

(١٥) نيويورك تايمز. ١٩٨١/٣/١.

(١٦) صحيفة كريستشان سيانس مونيتور الأمريكية. ١٩٧٩/٧/٥.

(١٧) نيويورك تايمز. ١٩٨٢/٨/٣١.

(١٨) الفريدليلينتال . الوسيط الصهيوني، الطبعة الثانية، نورث أمريكان، نيوبرونزويك، نيوجيرزي، ١٩٨٢، ص ٥٧٦.

(١٩) مؤتمر صحفي للناجين من السفينة في فندق نيويورك الرياضي، نيويورك، تموز/ يوليو ١٩٨٣.

العين بالسن

تقول أشهر قصة في التلمود البابلي أن وثنيا جاء الفقيه اليهودي شماي قائلا له: «سأعتنق اليهودية بشرط أن تعلمني التوراة كلها وأنا واقف على ساق واحدة». وعندما طرده شماي ذهب الى الحكيم هيلل الذي هوّده بأن قال له: «لا تعامل جارك بما لا ترضاه لنفسك. هذه هي التوراة كلها، وأما ما عدا ذلك فشروح لها. فاذهب وتعلمها!» (التلمود البابلي، شبات ٣١ (أ)).

هنا يبدو تأثر التلمود بأيام السبي البابلي، وبالتالي بأثر شريعة حمورابي البابلي (قبل مولد المسيح بألفي عام). وأضعف الايمان عند المعاملة بالمثل حتى في حالات الانتقام هو الأخذ بشريعة حمورابي المشهورة وهي «العين بالعين والسن بالسن».

لكن تحول العقل القومي اليهودي الى نظرية الشعب المختار وما اقترن بذلك من نزعة المغالاة (التطرف) خلق ظاهرة فريدة هي أسلوب الرد على الاساءة بأكثر منها، وهو ما وصفه كاتب أمريكي بأنه أسلوب «العين بالسن»، وهذا قمة في ازدواج المعيار، اليك بعض الأمثلة:

١ ـ بعد قيام اسرائيل، كان معظم مراقبي الهدنة الموفدين من الأمم المتحدة يأتون الشرق الأوسط متعاطفين مع اسرائيل، ويغادرونه ناقمين عليها. والسبب هو أنهم كانوا يكتشفون من تحقيقاتهم في انتهاكات الهدنة ان الاعتداءات الاسرائيلية عبر الحدود كانت تتجاوز كثيرا الاعتداءات من الطرف الآخر(*) وعندما أرغم موشي شاريت (شرتوك) على الاستقالة من رئاسة الوزارة الاسرائيلية عام ١٩٥٦، اودع في مذكراته «يوميات شخصية» المنشورة عام ١٩٧٩ غضبه وكثرة تفكيره في «سلسلة طويلة من الحوادث والاعتداءات المزيفة التي لفقناها، وفي الاشتباكات الكثيرة التي كنا سبباً فيها وأهرقت كثير من الدماء، وفي انتهاكات رجالنا للقانون»[٢٠].

٢ ـ وهناك فرق آخر غير العدد هو أن كثيرا من شكاوى اسرائيل لم تكن قائمة على اعتداءات عربية وانما على حالات تسلل اللاجئين. فأحيانا كانت الحاجة تدفعهم الى «سرقة الطعام أو الماشية، أو حتى لمجرد تفقّد منازلهم التي غادروها عام ١٩٤٨» [٢١]. وفي عام ١٩٥٦ ردت اسرائيل على غارات معدودة من هذا النوع أو من قبيل الاغارة على المستعمرات الاسرائيلية في قطاع غزة

---

* صرح مصدر عسكري أردني عام ١٩٦٥ أن الأردن قدمت منذ اعلان الهدنة ٧٠٤٤ شكوى ضد اسرائيل لخرقها اتفاقية الهدنة بأعمال عدوانية. وقد أدينت اسرائيل في ١٦٦ شكوى منها (جريدة الأهرام ١٩٦٥/٤/٢٩، نقلا عن وكالة أنباء الشرق الأوسط).

(٢٠) محمد أحمد رمضان. دعايتهم نصف الحرب، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٦٧، ص ١٥ ـ ١٧. وأيضا ليفيا روكاش. إرهاب اسرائيل المقدس، ١٩٨٠، ص ٦.

(٢١) صحيفة نيويورك تايمز ١٩٨٤/١٢/٤.

بعدوان ثلاثي اكتسحت معه كل قطاع غزة وسيناء بعد ثلاثة شهور من تأميم قناة السويس.

٣ - وفي عام ١٩٦٧ عندما أغلق عبدالناصر مضائق تيران التي لم يكن يمر بها سوى ٥٪ من حجم التجارة الاسرائيلية، شنّت اسرائيل هجوما واسع النطاق على ثلاث جبهات احتلت به كل سيناء وقطاع غزة، فضلا عن الضفة الغربية والجولان، بحجة أن اغلاق المضائق يستهدف خنق اسرائيل اقتصاديا. وأدهشت المراقبين سرعة الرد الاسرائيلي الذي لم يمهل الوساطة الدبلوماسية الدولية سوى بضعة اسابيع. بل ان يوجين روستو اليهودي مستشار الرئيس الامريكي جونسون ووكيل وزارة الخارجية حينذاك قد اعترف مؤخرا في محاضرة القاها في عام ١٩٨٨ ان اسرائيل لم تطلب حتى فتح المضائق من جونسون (الذي استأذنته في الهجوم مقدما) لأنها كانت قد بدأت التعبئة العامة فعلا وحددت موعد التدريب على نماذج المطارات المصرية التي زودتها بها الولايات المتحدة من قواعدها في اسبانيا.

٤ - وفي نهاية ١٩٦٨ هاجم الفدائيون الفلسطينيون طائرة مدنية اسرائيلية في أثينا فردّت اسرائيل فورا بغزو مطار بيروت وتحطيم ١٣ طائرة مدنية لبنانية تابعة لطيران الشرق الأوسط. «وكان تأثير ذلك على العمليات الفدائية معدوما» [٢٢].

٥ - كان ١٩٨١ - ١٩٨٢ أهدأ عام على حدود اسرائيل فلم يقتل فيه سوى جندي اسرائيلي واحد. ومع ذلك عندما غزت لبنان في حزيران/ يونيه ١٩٨٢ بحجة أن تنظيما فلسطينيا منشقا أطلق الرصاص على مايكل أرغوف سفيرها في لندن، أسفر هذا الغزو عن نحو ٣٠ ألف قتيل وجريح على الأقل (بالتقديرات الغربية) فضلا عن تدمير آلاف المنازل. وهو انتقام يتجاوز كل حدود المنطق البشري. فقد كانت عملية «سلام الجليل» التي أعلنتها اسرائيل في البداية تستهدف غزو ٢٠ ميلا من الجنوب اللبناني، لكن نزعة العين بالسن تفاعلت مع نزعة التطرف فاجتاح «جيش الدفاع الاسرائيلي» العاصمة بيروت نفسها. وسنبيّن فيما بعد بالتفصيل أن هذا الاجراء ربما كان أخطر قرار اتخذته اسرائيل منذ زمن طويل. فقد تحالفت المصيدة اللبنانية مع العقل الاسرائيلي نفسه على ايقاع اسرائيل في أول مأزق تاريخي لوحدتها الوطنية وجيشها. وتشاء سخرية القدر أن يعمر أرغوف ليقول وهو يتماثل للشفاء: «كان أحرى بمن جرّوا ذلك علينا أن يفكّروا أكثر من مرتين في ثمن ذلك، خصوصا بالأرواح. ان حرب لبنان حرب خاسرة خرج منها شعب اسرائيل أضعف مما كان». لكن بيغن الذي أصابه قراره التاريخي (ووفاة زوجته) باكتئاب وهزال شديدين الى حد اعتزال الحياة العامة تماما قد أدرك بعد فوات الأوان أن الثمن قد يكون أفدح من ذلك بكثير. ولعلّه أيقن للمرة الأولى صحة ما قاله عنه بن غوريون: «هذا النازي السفاح سيضع نهاية الدولة اليهودية» [٢٣].

---

(٢٢) نفس المرجع.

(٢٣) مجلة بوليتكال فوكس. واشنطن ١٩٨٣/٩/١٥.

٦ ـ رغم كثرة حديث اسرائيل عن خسائرها البشرية، قلما يلاحظ أحد أنها قتلت من العرب أكثر مما قتلوا منها. (*) فقد خسرت ١٤ ألف جندي خلال حروبها الأربع مع العرب، وفيما بينها (أي مع الفدائيين) (٢٤). وحتى لو خسرت نفس هذا العدد من المدنيين فان المجموع يقلّ عما خسره الفلسطينيون وحدهم في خمس سنوات فقط، اذ قتل منهم خلال ١٩٧٤ ـ ١٩٧٩ زهاء ٣٠ ألفا، منهم ٦٥٠ سقطوا في شهر آب/ أغسطس ١٩٧٩ وحده عندما كان جنوب لبنان يشهد ألفي قذيفة اسرائيلية في المعدل يوميا (٢٥). والرقم الأخير يعادل تقريبا مجموع ضحايا اسرائيل في حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧.

٧ ـ في ٣٠ / اذار/ مارس ١٩٧٦ ردّت اسرائيل على مظاهرات يوم الأرض في فلسطين المحتلة باطلاق الرصاص بالجملة على راشقي الحجارة، فقتلت العديدين منهم حتى أصبح الرد على اطلاق الحجارة باطلاق الرصاص أمرا مألوفا. وسأل الكاتب الأمريكي اليهودي ألفريد ليلينتال في ١٩٨٠ أباً في مخيم الجلزون للاجئين بالضفة الغربية عن سبب اعتقاله فقال أن بعض الصبيان ألقوا الحجارة، فساقه الجنود مع كل الصبيان فوق سن الرابعة عشرة وسجنوا بعضهم لفترة تتراوح بين ٥ أيام و ١٨ يوما. وقال له الأب: «كانوا أحيانا يضربوننا حتى لو أطللنا من النافذة في أوقات منع التجول». وبلغ الشطط ذروته عام ١٩٨٤ عندما منح الأمر العسكري ١١٠٨ المحاكم العسكرية بالضفة الغربية سلطة سجن راشقي الحجارة لغاية ٢٠ سنة (٢٦). والحق أن هذا الأمر لم يكن سوى اثبات رسمي لواقع سابق. فقد لفت نظري قبل ذلك حادثان أدى كل منهما الى اصدار حكم بالسجن لمدة ٣ شهور على مدني عربي وعسكري اسرائيلي. وكان هذا هو وجه الشبه الوحيد بينهما، لأن الفروق كانت تدعو للعجب والغضب معا:

١ ـ عوقب العربي بجرم ارتكبته ابنته التي كان عمرها ١٣ سنة وهي من منطقة رام الله(٢٧).

٢ ـ كان جرم الفتاة القاء الحجارة، اما جرم الجندي فكان قتل شاب عربي وجرح اثنين برشاشه عند اطلاقه الرصاص على مدرسة للبنات في حلحول(٢٨).

---

* يقدر عموس إلون الكاتب الاسرائيلي الأول أن الطرفين خسرا في معاركهما بسبب فلسطين خلال خمسين عاما (١٩٢٠ ـ ١٩٧٠) حوالي ٨٠ الف قتيل منهم ١٦ ألفاً فقط من اليهود (أي أقل من الربع)، وهذا لا يشمل خسائر حربي ١٩٧٣ ولبنان ولكنه يشمل العسكريين والمدنيين معاً. (أنظر كتابه «الاسرائيليون: المؤسسون والأبناء» صفحة ٢٧). ولا شك أن فداحة خسائر العرب في حرب لبنان زادت الفجوة بين خسائر الطرفين في الأرواح فقد اعلنت اسرائيل انها خسرت من العسكريين حتى منتصف ١٩٨٨ نحو ١٦٤٠٠ قتيل.

(٢٤) نيويورك تايمز. ٧/٥/١٩٨١.

(٢٥) بيان صحفي لياسر عبد ربه، الناطق بلسان منظمة التحرير الفلسطينية في نيويورك يوم ٣٠/٩/١٩٧٩.

(٢٦) وكالات الأنباء، ٣١/٥/١٩٨٤.

(٢٧) صحيفة جيروزاليم بوست الاسرائيلية، ٢٣/٣/١٩٨٣.

(٢٨) نفس المصدر، ١٤ و ٢٧/١٢/١٩٨٣، وهآرتس، ١٤/١٢/١٩٨٣

٣ ـ ان العقوبة على العربي كانت نافذة بينما كانت على الاسرائيلي بوقف التنفيذ.

هكذا يصبح الاحساس بالاضطهاد أحادي الجانب. ولقد وصف الحاخام روكمان الحكم بالسجن سنة ونصف السنة فقط على من حاولوا نسف المسجد الأقصى بأنه «ظلم فظيع يستصرخ السماء!»[٢٩]. فهل باستطاعة عقل كهذا لا يفقه معنى المساواة أن يستكثر الحكم على أخوين من قرية كفر كنّا بغرامة ربع مليون شاقل لكل منهما بتهمة أنهما كانا يلبسان قميصين مكتوباً عليهما عبارة «لن ننسى شهداء صبرا وشاتيلا»؟[٣٠] وكيف السبيل الى الحوار مع مؤمن بالله كهذا يريد أن ينسف مكانا مقدسا ليبحث عن مكان آخر هدم قبل زهاء ألفي عام؟*

* * *

نخلص من هذا كله الى ان رفض التعامل بالمثل (الذي يبلغ ذروته في أسلوب العين بالسن) قد أوقع العقل القومي اليهودي في مأزقين تاريخيين وثلاث عقد رئيسية:

١ ـ مأزق مع الانسان (عقدة الديمقراطية)

٢ ـ مأزق مع الله (عقدة الموت)

٣ ـ الخلاص بالانتحار (عقدة مسادة).

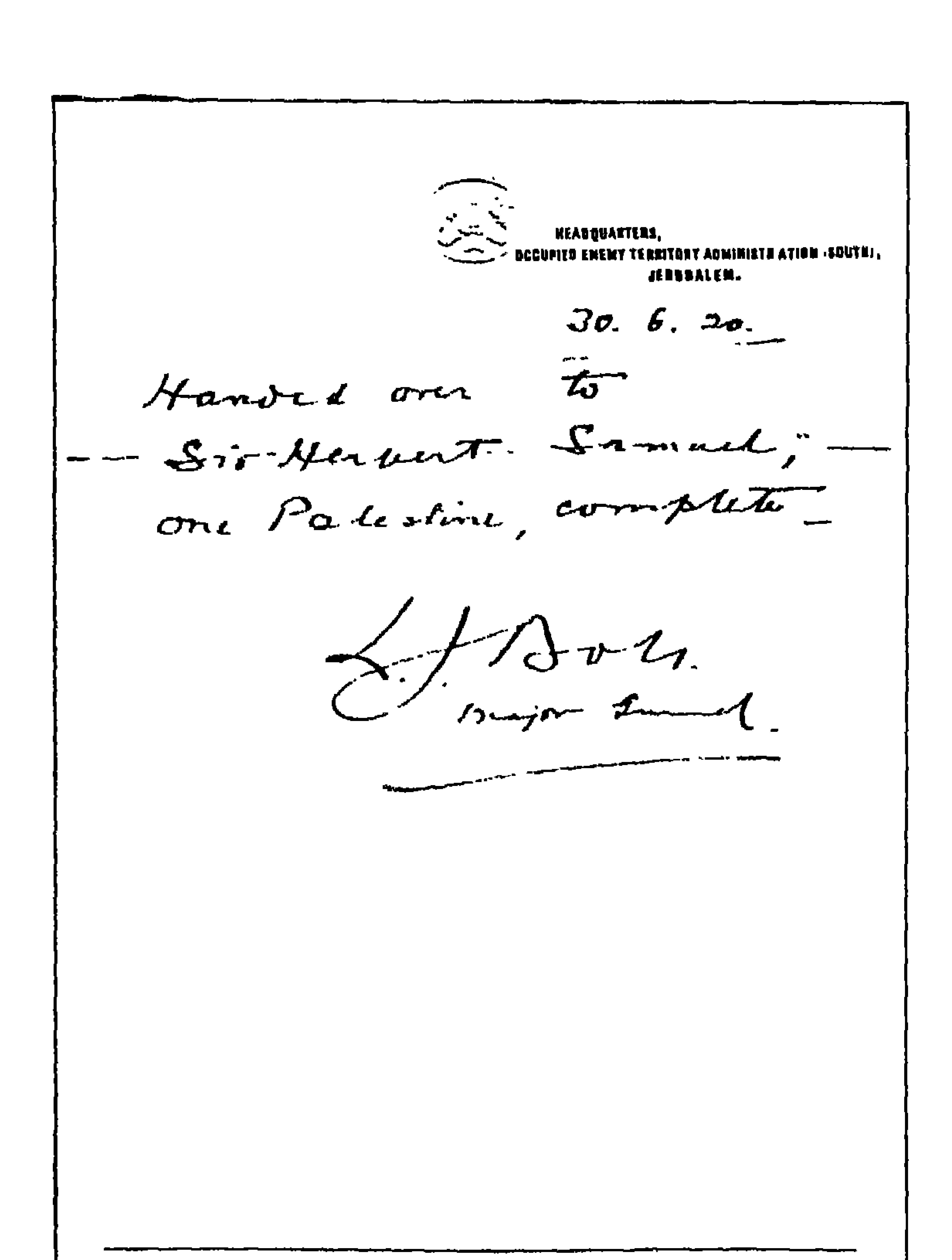
وسنتحدث في الفصول التالية عن كل هذه العقد الثلاث بالتفصيل.

---

(٢٩) ميدل إيست بيرسبكتف. واشنطن عدد كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٤.

(٣٠) الفجر الأسبوعية. ١٨/٢/١٩٨٥ (الطبعة الانجليزية).

* قال نائب البرلمان والصحفي اليساري أوري أفنيري في مقاله «الحرب الأهلية» ان «المعسكر الديني معسكر اجوف بلا أخلاق أوقيم أورب. فالحاخامات يتحدثون عن الخشب والحجارة والكوشروليس عن العنصرية وقتل الأسرى العرب». وأضاف قائلا ان المعسكر العلماني «بدأ يمتص افكارهم» (هاعولام هازيه ١١/٦/١٩٨٦).



HEADQUARTERS,
OCCUPIED ENEMY TERRITORY ADMINISTRATION (SOUTH),
JERUSALEM.

30. 6. 20.

Handed over to
— Sir Herbert Samuel; —
one Palestine, complete —

L. J. Bols.
Major General.

From occupied territory into British Mandate. This document, dated June 30, 1920, and signed by Major General L. J. Bols, reads: "Handed over to Sir Herbert Samuel, one Palestine, complete."
(Courtesy Israel State Archives)

نقطة التحول

وثيقة مؤرخة في ٣٠ حزيران / يونية ١٩٢٠ بتوقيع الميجور جنرال ل.ج. بولز الحاكم العسكري لفلسطين من «مقر القيادة الجنوبية لاراضي العدو المحتلة» وموجهة الى هربرت صمويل، اول حاكم مدني لفلسطين (وهو يهودي).
نص الوثيقة: «سلمت سير هربرت صمويل فلسطين، كاملة غير مجزاة».



فلسطيني يحمل امه عبر جسر اللنبي الى الأردن خلال حرب عام ١٩٦٧ .

الفصل الثاني

عقدة الديمقراطية ومأزق العقل القومي اليهودي مع الانسان

«لليهودي كانسان كل شيء، ولا شيء لليهود كأمة».

الكونت ستانسلاس كليرمون تونير

امام البرلمان الفرنسي للثورة الفرنسية في ١٢/١٠/١٧٨٠

«لا بد من ظهور عصر جديد يصارع فيه اليهود أنفسهم أكثر من مصارعتهم للآخرين».

الحاخام آرثر هيرتزبيرغ الرئيس السابق للمؤتمر اليهودي العالمي

«ان تعريف اسرائيل للدفاع عن النفس يتسع دائماً تقريباً ويجعلها أسوأ أعدائها».

نيويورك تايمز ٩/٦/١٩٨١

«لا ديمقراطية في هذا البلد.. فليس للشعب كلمة فيمن سيشكل الحكومة، وهو لا يستطيع أن يختار ممثليه، لأن الجهاز الحزبي يتولى كل ذلك»[١].

قائل هذا لم يكن رئيس بلدية الخليل أو بيت لحم وانما بن غوريون نفسه.

وفي عام ١٩٧٠، قال ميرون بنفنستي عندما كان نائب رئيس بلدية القدس لمجلة نيوزويك الأمريكية جملته المشهورة التي أزعجت أنصار اسرائيل كثيرا: «إما أن تكون لنا دولة يهودية ولكن غير ديمقراطية، أو دولة ديمقراطية ولكن غير يهودية»[٢].

والجهة الوحيدة التي لم يصدمها هذا التصريح هي اليمين الاسرائيلي المتطرف. فقد أيد هذه الفكرة الحاخام مئير كهانا زعيم عصبة الدفاع اليهودية المعروفة بعملياتها الارهابية في الأراضي المحتلة وخارجها، لا سيما أمريكا، في عدة مقابلات تلفزيونية معه في نيويورك بين عامي ١٩٨٤ و ١٩٨٧.

ولا تناقض بين ما يقوله بنفنستي اليساري وكهانا اليميني، فكلاهما يوافق على أن أية دولة يهودية لا يمكن أن تكون ديمقراطية، ولكن كلا منهما يقف في طرف: فالأول يريد دولة ديمقراطية، والثاني دولة يهودية.

لكن الآراء الشخصية المجردة لا تكفي لاثبات الحجة، فلا بد من أن تكون مشفوعة بسند من الوقائع والأرقام. فماذا عن تصرفات الشعب والحكومة؟

---

(١) نورمان ميسي. الديمقراطية في اسرائيل، نيويورك، ص ١

(٢) مجلة نيوزويك الأمريكية، ٢٠ نيسان/ ابريل ١٩٧٠.

يقول استفتاء عام نشرته صحيفة جيروزاليم بوست الاسرائيلية في نيسان/ابريل ١٩٨٢ ان نحو ٢٠٪ من الراشدين الاسرائيليين يفضلون «حكومة غير ديمقراطية». وغير الراشدين اسوأ حالا. فقد أظهرت دراسة أجرتها الجامعة العبرية بالقدس عام ١٩٦٣ على ٧٠٠ شاب في سن ١٨ سنة من طلابها أن ٥٨٪ منهم يقبلون اقامة حكم ديكتاتوري في البلد، بينما لم تتجاوز النسبة ٤٥٪ لدى شبان الكيبوتز(٣).

مقارنة في الديمقراطية بين اسرائيل وامريكا وغيرها

واذا أردنا أن نعرف مدى ديمقراطية اسرائيل بالمقياس الغربي ومقياس «العالم الحر» الذي تستميت في الادعاء بالانتماء اليه، بوصفها «واحة الديمقراطية في الشرق الأوسط»، يكفي أن نطرح هذه الاسئلة:

١ ـ هل تعطي اسرائيل عربها حقوقا قدر ما تعطي أمريكا يهودها وعربها؟

٢ ـ هل الهجرة الى اسرائيل مفتوحة لجميع الجنسيات والأديان كما هو الحال في الولايات المتحدة؟

٣ ـ هل التجنس في أمريكا رهن باعتناق دين معين كما هو الحال في اسرائيل، أم أنها تفصل الدين عن الدولة؟ وهل تحمل جوازات سفرها خانة تبين الديانة؟*

٤ ـ هل الرقابة في أمريكا عسكرية كما هي في اسرائيل؟

٥ ـ هل في أمريكا قانون للعودة يقوم على أساس ديني الهي، رغم أن هجرة الرواد الأمريكيين الأوائل كانت بدافع الاضطهاد الديني؟

٦ ـ هل تسمح اسرائيل لمواطنيها بازدواج الولاء والخدمة في جيش أجنبي مثلما تسمح به أمريكا؟

٧ ـ هل تقاوم أمريكا التبشير مثلما تقاومه اسرائيل الى حد ارهاب الارساليات المسيحية؟

٨ ـ هل يحتمل أن يأتي رئيس غير يهودي لاسرائيل مثلما تولى كاثوليكي (كندي) رئاسة أمريكا، أو مثلما تولى مسلمان على الأقل (ابو الكلام آزاد وحسين همايون أكبر) رئاسة جمهورية الهند رغم حروبها مع جارتها المسلمة باكستان؟

٩ ـ هل تمنع أمريكا حرية تنقل اليهود مثلما تقيد اسرائيل دخول عربها الى مدن مثل طبريا أو حتى الاقامة في مدن مثل العاصمة تل أبيب؟

١٠ ـ هل لجنوب افريقيا تمثيل دبلوماسي على مستوى السفراء مع امريكا مثلما لها مع تل ابيب؟

١١ ـ هل هناك علاقات دبلوماسية بين اسرائيل وأكبر ديمقراطية في العالم (الهند)؟

(٣) د. قدري حفني. دراسة في الشخصية الاسرائيلية (الاشكنازيم)، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٨.

* في الولايات المتحدة لا يسألون عن الدين عند اعطاء بطاقات الهوية أوجوازات السفر. وفي الاتحاد السوفياتي يسألون عن القومية وليس عن الدين. أما في اسرائيل فيسألون عن القومية والدين معاً!

١٢ ـ هل يمكن أن تسخر هوليود من حاخام يهودي مثلما يسخر كتّاب السيناريو اليهود من رجال الكنيسة المسيحية بين الحين والآخر؟

١٣ ـ هل يتفق نظام الانتخابات الاسرائيلي مع الأمريكي من حيث حرية انتخاب مرشح من الحزب المعارض؟

١٤ ـ هل تقيّد أمريكا حرية الصحافة اليهودية مثلما تقيّد اسرائيل حرية الصحافة الأمريكية والمراسلين الأجانب عموما؟

١٥ ـ هل وسعت أمريكا حدودها مثلما فعلت اسرائيل؟

١٦ ـ هل تقوم أمريكا على نظرية الشعب المختار والنقاء العرقي وهي تعلم أنها دولة من المهاجرين مثل اسرائيل التي وفد ابناؤها من حوالي ١٠٨ دول؟

١٧ـ هل عيّنت اسرائيل عربيا اسرائيليا وزيراً فيها مثلما عيّنت امريكا هنري كسنجر وزيرا للخارجية ورئيسا لمجلس الأمن القومي فيها؟

١٨ ـ هل يبيح القانون الأمريكي حبس أي متهم عربي ستة شهور دون محاكمة كما تفعل اسرائيل؟

١٩ ـ هل تنسف أمريكا منزل أي عميل سوفيتي مثلما تفعل اسرائيل بمنزل أي فلسطيني يقاومها؟

الرد على كل هذه الأسئلة هو: كلا.

واذا كانت اسرائيل قد نجحت في تصوير نفسها خلاف ذلك فلأنها أذكى دكتاتورية أو أذكى ديمقراطية طائفية في العالم، فالديمقراطية فيها ـ مثل جنوب افريقيا ـ قاصرة على فئة عرقية واحدة. وهذا لا ينفي طبعا ما قاله الرئيس الأمريكي ترومان وهو ان «الولايات المتحدة واسرائيل تتشابهان في انهما قامتا لتكونا نموذجا لحب الحرية الانسانية وملاذا للمضطهدين، وأمة من المهاجرين، وان روادهما الأوائل من المؤمنين بمفاهيم التوراة». لكن هذا لا ينفي ايضا صحة ما قاله هتلر عام ١٩٢٧ وهو أن العقل القومي اليهودي «يحارب باديء الأمر من أجل المساواة بالحقوق، ثم يحارب من أجل التفوق في الحقوق»[٤]. كما ان هذا لا ينفي طبعا أن هتلر ضل طريقه مثل قادة اسرائيل، وان معظم يهود العالم (مع الأسف) يؤمنون بحقوق المساواة اذا لم يكن للأمر صلة باسرائيل..

وطبيعي ان من ينكر المساواة قلما يستطيع المجاهرة بذلك حتى مع نفسه، فهو غالبا لا يعرف ما يفعل. ويتولى الكاتب الاسرائيلي عموس ألون شرح ذلك: «اذا حاولنا أن نخاطب المصريين في هذه المرحلة بلغة الأخلاق فسوف نواجه خطر الاتهام بأننا منافقون، فنحن دائما تقريبا جاهلون بالشعوب الأخرى وبأنفسنا. لكن الأجانب وحدهم هم الذين يجعلوننا ندرك مدى هذا الجهل»[٥]. والمعادلة الصعبة هو أنه كلما ازدادت معرفة الناس بحقيقة اسرائيل قلّت رغبة الاسرائيليين في معرفة حقيقة

---

(٤) كتاب هتلر السري. ترجمة سلفاتور أتاناسيو، غروف بريس، نيويورك، ١٩٨٣، ص ٢١١

(٥) مجلة نيويورك تايمز الأسبوعية. ١٢/١٠/١٩٨٠.

أنفسهم وقدرتهم على السيطرة عليها بحكم احساسهم بالحصار. وكلما حدث ذلك، ازداد الاسرائيليون انقساما وانعزالا عن العالم وارتيابا فيه، بل في بعضهم بعضا.

وبذلك يتخذ مأزق العقل القومي الصهيوني مع الانسان المظاهر التالية في الداخل والخارج.

١ ـ صعوبة التعايش في دولة يهودية

يقول صمويل لويس سفير الولايات المتحدة لدى اسرائيل ان «خمسين الفا ينزحون منها كل عام الى الولايات المتحدة وحدها» لصعوبة التأقلم والمعيشة، بدليل أن أكثر من ثلث سكان اسرائيل لا يجيدون اللغة العبرية، ومن بينهم نواب في البرلمان مثل الأفاق العالمي فلاطو شارون الذي وعد ناخبيه بان يتعلم العبرية، ثم نجح في الانتخابات الى حد الحصول على ضعف الأصوات المطلوبة لانتخابه، ليس لأنه وفي بوعده وانما لأنه وزع ـ كما يقال ـ خمسة آلاف منزل على مستوطني كريات شمونة لشراء اصواتهم، ولأنه نال عطف الاسرائيليين بشعاره المؤثر: «بيغن زعيمي ولكن البوليس الدولي يطاردني!». ثم تكرر انتخاب شخصية اجرامية اخرى هي مئير كاهانا رئيس رابطة الدفاع اليهودية. ونحن قد نعذر المهاجرين الأسبان الى امريكا على عدم اجادتهم اللغة الانجليزية رغم طول اقامتهم فيها لأنها قد لا تكون لغة اجدادهم، ولكن ما عذر القوميين اليهود الذين يتباهون بثقافتهم العريقة (ونقائهم العرقي احيانا) ثم تجدهم جهلة حتى بأبسط وسائط ثقافتهم، الا وهي «لغتهم القومية»؟ نقول «لغتهم» مجازا لأن لليهود عدة لغات قومية مثل العبرية واليديش اللادينو، وكل منها لا تفهم الأخرى، هذا اذا كان اليهودي يعرف أيًا منها أصلا*. وفي حين ان العربي يستطيع ان يفهم نصوص اللغة العربية القديمة (القرآن الكريم) بسهولة نسبية فان الاسرائيلي نفسه يعجز تماما عن فهم اللغة العبرية القديمة لكثرة ما خالطها من مصطلحات اجنبية عند احيائها.

وعندما تسمع أغنية صهيونية مشهورة في نيويورك تقول باليديش: «لن أغير لغتي مثل ما يغير المرء قميصه»، لا تتمالك نفسك من الضحك عندما تلاحظ ان المغنّي يستخدم للتعبير عن كلمة «لغتي» عبارة meine sprache، وهما كلمتان المانيتان صميمتان لم يسمع بهما موسى ولا سليمان.

لكن هذا لا يذكر اذا قورن بتخريب الاشكناز للأبجدية العبرية في اسرائيل ذاتها. هل سمعت مثلا عن رئيس وزارة لا يعرف كيف ينطق اسمه بلغة بلده؟ ان مناحيم بيغن ينطق اسمه بالخاء (مناخيم) لأن الاشكناز مثله يَشْقَون حتى الآن في نطق ثلاثة حروف من العبرية هي الحاء والعين والقاف. والطريف ان اليهود الشرقيين (من البلاد العربية) الذين كانوا ينطقون هذه الحروف نطقا سليما صاروا يقلدون الاشكناز الأرقى منهم في النطق، عملا بقانون آدلر في التقليد (الأدنى يقلد الأرقى)، مثلما ظلوا لفترة من الزمن أشرس في عدائهم للعرب من الاشكناز أنفسهم ليبعدوا عن أنفسهم لاشعوريا شبهة نشوئهم في بلدان عربية. وربما كانت اسرائيل هي الدولة الوحيدة التي تعمل بهمّة على انقراض ثلاثة من حروف لغتها التي صمدت عشرين قرنا ـ بدون دولة. وليس بعيدا أن يصبح العرب

---

* يقول عموس الون: إن ٤٠٪ من سكان اسرائيل يتحدثون ١٢ لغة.

وحدهم عما قريب هم وحدهم القادرون على نطق كل الحروف العبرية وليس يهود اسرائيل. فكيف نتوقع ذلك من أناس يحملون عدة جنسيات وعدة جوازات سفر وترى الواحد منهم لقاح عدة بلدان وعدة لغات؟ انك لتجد أمه بولنديه وأباه روسياً، وكانا يتفاهمان باليديش ويعيشان في المانيا، ولكن ابنهما ولد في رومانيا وهاجر الى انجلترا وتزوج من استرالية ثم استقر في اسرائيل الى أن هرب منها عائدا الى أرض الميعاد: الولايات المتحدة! ليست هذه نكتة، فالكاتب اليهودي آرثر كويستلر مثلا من جد روسي، وأمه نمساوية من أصل تشيكي، وعاش في فلسطين وفرنسا والمانيا ـ وأمريكا طبعا قبل ان يرتد عن الصهيونية وينتحر مع زوجته في بريطانيا.

ويصدق هذا أيضا على فرويد الذي كان والداه روسيين من أوديسا ولكنه ولد في تشيكوسلوفاكيا وأقام في فيينا ولندن ولم يشعر بأنه نمساوي الا عندما ناهز الستين عندما شبت الحرب العالمية الأولى[٦]، ومع ذلك كان جاهلا باللغة العبرية. واكثر من ذلك انه لم يكن مؤمنا بالدين ولا بالله، ولم يمنعه هذا من ان يكون صهيونيا وعضوا نشطا في رابطة بناي بريث نحو ٤٠ عاما الى أن حلها هتلر عام ١٩٣٨.

وسواء أكان المرء صهيونيا مثل فرويد أو صهيونيا تائبا مثل كويستلر، فان الاستقرار في أرض الميعاد غير وارد. وهذا يلقي ظلا من الحقيقة على ما قاله المفكر والمخترع الامريكي الكبير بنيامين فرانكلين أمام مؤتمر اعلان الدستور الأمريكي عام ١٧٨٩: «منذ نيف و ١٧٠٠ سنة وهم يندبون حظهم المنكوب لأنهم طردوا من ديارهم. ولكن لو أن العالم المتمدين رد اليهم أيها السادة فلسطين اليوم وممتلكاتهم، لوجدوا على الفور أسبابا قاهرة لعدم العودة اليها، لماذا؟ لأنهم.. لا يستطيعون العيش مع بعضهم بعضا»[٧].

والحقيقة ان قاموس المهاترات السياسية مثلا بين قادة اسرائيل لا نظير له في أية دولة اخرى. وعندما تؤخذ أية قضية مأخذا غير عقلاني من السهل ان يتحول اختلاف الرأي الى خلافات شخصية والفاظ عنيفة. وهذه عينة مما قاله زعماء اسرائيل عن زملائهم: بن غوريون عن صديقه ليفي اشكول: «خائن وعديم الأخلاق وكذاب وخطر على بلده». حاييم وايزمان عن بن غوريون: «فاشي لعين». بن غوريون عن بيغن: «هذا النازي السفاح سيقضي على الدولة اليهودية». بيريز عن بيغن: «زعيم مهزوز» ليفي اشكول عن دايان: «ابو جلدة» (نسبة الى قاطع طريق فلسطيني مشهور). دايان عن عيزر وايزمان: «متهور مشاغب يرفس كالحمير». بارليف عن شارون: «مختل العقل» جدعون بارت وزير الاسكان السابق عن شارون: «مصاب بجنون العظمة ولم يبن شيئا في حياته». يادين عن شارون: «مخادع يعمل من ورائي» شارون عن يادين: «انضم الى جوقة الكلاب النابحة التي تشرب من دمي».

بالاضافة الى ذلك نرى بيغن يصف معارضيه في سياسة المستوطنات «بالانحطاط والانحراف الفكري»، ويمزق مقترحات ألون علنا في البرلمان، ونرى أبا ايبان ورابين لا يكلمان بعضهما بعضا،

---

(٦) رسالة فرويد الى كارل ابراهام عام ١٩١٤. أرشيف متحف فرويد، فيينا.

(٧) عبد الله التل. المرجع السابق، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠.

والمعارك الكلامية لا تنتهي بين ألون وسابير ودايان، وأحيانا ترتفع الكراسي وتدور اللكمات في " ...ان أمام عدسات التلفزيون.

والخلافات خارج البرلمان والحكومة ليست أفضل الا قليلا. فقد ظل منصب حاخام مدينة القدس خاليا ١١ عاما بسبب الخلاف عليه بين التنظيمات الدينية. ولم نسمع من اسرائيل حتى الآن أن عربها حرقوا أو دمروا أي كنيس يهودي، ولكن هذا ما فعلته الشرطة الاسرائيلية في كنيس لجماعة نواطير المدينة في القدس عام ١٩٨٥، وما فعله العلمانيون في العام التالي عدة مرات عام ١٩٨٦ ردا على تدمير المتدينين للاعلانات الخلاعية في عشرات من محطات الباصات. حتى التنظيمات اليسارية تشرذمت الى جماعات صغيرة وكثيرة تظهر بسرعة وتتغير بسرعة بحيث يتعذر متابعتها. في السبعينات مثلا كنا نجد الماتسبن وهاعولام هازيه وراكاح والصهيونيين الثوريين والصهيونيين الراديكاليين واليهود الثوريين والتروتسكيين والماركسيين المستقلين. فأين ذهبوا الآن؟

٢ ـ الانسلاخ عن العالم الخارجي

هل معنى هذا أن كل اليهود أشرار؟ أبدا، ولا حتى معظمهم. فليس بينهم من الأشرار أكثر من أي طائفة أخرى. ولكن مصيبة اليهود الكبرى هي أنهم يتسمون بنزعة قبلية عشائرية قوية وبذلك يجعلون زعماءهم ينجحون في ابراز أسوأ ما فيهم. فكلما حاول اليهود الانصهار في بلدانهم منعهم زعماؤهم السياسيون من ذلك. وهم ينجحون في ذلك عادة الا اذا كانت الجاليات اليهودية المحلية بلا تنظيم سياسي قوي، مثلما كان الحال في الأندلس سابقا وفي يوغسلافيا والسويد حاليا. وترتب على ذلك اختفاء اللاسامية تقريبا هناك. أما اذا نجح هؤلاء الزعماء في تنظيمهم وقيادتهم فانهم يبرزون أسوأ ما فيهم وهو التطرف وازدواج الولاء وازدواج المعيار الذي يبلغ احيانا حد الاسفاف. ومن الطبيعي ان عشرات الأمثلة التي سيقت على ازدواج المعيار عند الصهيونية (وهي رفض التعامل بالمثل وسياسة العين بالسن) جعلت التاريخ اليهودي جبلا من أحلام اليقظة والتزييف والانتحال والترقيع حتى أصبح مثل طيلسان بن حرب الذي ظل صاحبه يرقعه ويرقعه حتى ذهب الثوب وبقيت الرقع.

ومما ساعد على ذلك أصلا ما قاله الفيلسوف هيغل عن «أن الذي يشوه تاريخ اليهود هو موقفهم الفريد من عبقرية الأمم الأخرى (الى حد الأمر بتدمير السكان الكنعانيين) وايمانهم بالخرافات الناشئة عن فكرة غريبة هي علو شأن جنسيتهم» [8]. وتضاعف أثر هذا التشويه بولع اسرائيل باعادة كتابة تاريخ اليهود في المجتمعات غير اليهودية. فبعدما كانت الأندلس العربية هي العصر الذهبي ليهود الشتات، صار الفضل في ذلك للابداع اليهودي وليس للتسامح العربي ونهضته الثقافية. وبعد أن كان يهود المغرب يترحمون على أيام السلطان محمد الخامس خلال الحرب العالمية الثانية، أصبح هو السبب في هجرتهم الى اسرائيل! وامتد الأمر الى تبرئة الشخصيات اليهودية والمشكوك في أمرها، الخرافية منها والحقيقية، فقد أصبح فاجن (بطل رواية تشارلز ديكنز الشهيرة أوليفر تويست) الذي كان يسخّر الأطفال للسرقة شخصية خفيفة الدم في فيلم غنائي. وظهر أكثر من كتاب وفيلم سينمائي يوضح أن

---

(٨) فريدريش هيغل. فلسفة التاريخ، ترجمة ت. فوكس، جامعة شيكاغو، ١٩٧١، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧.

جوليوس روزنبرغ وزوجته إيثل اللذين سرّبا معلومات ذرية سرية الى الاتحاد السوفياتي في الأربعينات لم يكونا خائنين يستحقان عقوبة الأعدام. وأن قتل الأب توما الكبوشي في دمشق عام ١٨٤٠ تلفيق لا سامي، وهلم جرا.

هذه الفجوة المتباعدة بين العقل الصهيوني والعالم أدت الى انعزال اسرائيل (ومعها حليفتها الأولى والأخيرة الولايات المتحدة) في أكبر محفل عالمي هو الأمم المتحدة. كما أن ظهور اسرائيل كناطقة باسم الشعب اليهودي أساء الى الثقة باليهود ووضع حدا للأيام الذهبية التي كانت تشرك فيها الدول في حكوماتها رؤساء ووزراء من اليهود. فليس من المتوقع مثلا من حكومة تونس التي شهدت عدة وزراء منهم منذ أيام ابن خلدون حتى بورقيبة أن تعاود ذلك حتى بعد الصلح مع اسرائيل. واذا كانت فرنسا قد سمحت لعدد من اليهود أن يتقلدوا منصب رئيس الجمهورية (مثل فنسان أوريول) أو منصب رئيس الوزراء (ليون بلوم ـ منديس فرانس ـ ادغار فور)، وكانت بريطانيا تضع في منصب رئيس وزرائها اليهودي ديزرائيلي (اللورد بيكونسفيلد)، فانهما أصبحتا اليوم تترددان كثيرا في ذلك، مثلما أصبحت الأمم المتحدة تتردد حتى في مجرد ترشيح يهودي (مثل جاكوبسون) لمنصب أمينها العام بعد أن شهد العالم محنة تقسيم فلسطين واقامة اسرائيل في عهد أول أمين عام لها وهو اليهودي تريجفي لي. فما دامت اسرائيل تعتبر كل يهود العالم رعية لها، فمن السهل أن يقال لأي يهودي: اذا كنت منحازا الى اسرائيل فهي أولى بك منا!

أما الولايات المتحدة فوفرت على نفسها وجع الرأس فلم تسمح مطلقا لأي يهودي بأن يصبح رئيسا للجمهورية. ويقول استفتاء حديث أنه ليس من المتوقع انتخاب رئيس يهودي صريح للولايات المتحدة قبل أوائل القرن المقبل. والقوميون اليهود أصلا لا يريدون ذلك، لأن قضية ازدواج الولاء شديدة الاحراج لهم. فلو اتخذ رئيس منهم قرارا يقدم فيه مصلحة اسرائيل على مصلحة الولايات المتحدة لنقم الأمريكيون عليه وعلى طائفته. والمدهش أن اسرائيل لا تدرك أن ازدواج الولاء يسبب لها من المشاكل على المدى الطويل قدر ما يسببه لقضية حقوق الانسان في المجتمعات المضيفة. فهي لا تملك ـ بحكم تركيبها الطائفي ـ سوى أن تستغل هذا الولاء في امتهان ديمقراطية الدول الأخرى. ولا تصوير لمحنة الديمقراطية في أمريكا أدق من محنة الصحافي جيمس تيلر كما رواها في مؤتمر صحفي عقده في أوائل تموز/ يوليه ١٩٨١.

قال تيلر أنه تلقى عدة تهديدات بالقتل عندما كان رئيسا لتحرير مجلة تي. في. غايد (T.V. Guide) الامريكية التي توزع ملايين النسخ لأنه كشف في كتاباته عن معسكرات اسرائيلية للسخرة في شمال غربي سيناء، وعن وجود معسكر اعتقال اسرائيلي ضخم في منطقة ابو زنيمة كان يأوي عائلات فلسطينية يشتبه في أن لها أقارب من الفدائيين تعذر القبض عليهم، فاحتجزت اسرائيل ذويهم ليكونوا رهائن الى حين القبض على هؤلاء المشبوهين أو تعذيبهم أو قتلهم» [٩].

وفي ١٧ نيسان/ ابريل من نفس العام قال تيلر أنه فقد وظيفته في المجلة بعد أن عمل فيها ٢٤ عاما

---

(٩) مجلة أكشن. نيويورك، ٦/٧/١٩٨١.

بسبب اصدار كتابه «بيرل هاربر الثانية» التي تحدث فيها عن مأساة سفينة ليبرتي عندما أغرقتها اسرائيل عام ١٩٦٧ ومنعت الرئيس جونسون من ارسال النجدات لانقاذ بحارتها من الغرق، كما حالت لفترة طويلة من ذكر أية اشارة على قبورهم عن مكان سقوطهم في ساحة الحرب رغم دفنهم في مقبرة ارلنغتون الوطنية للعظماء في واشنطن.

ولكن المحنة الحقيقية في رأيه هي «أنه عندما لا توافق أية صحيفة في الولايات المتحدة على الاطلاق دون أي استثناء على أن تشير الى مؤلف ما أو الى كتابه، لا تعود هناك أية حرية للصحافة يفترض أنها مكفولة بدستور الولايات المتحدة». وذكر أن كل محاولاته للعثور على وظيفة جديدة قد فشلت لأن «الصهيونيين الذين وضعوه في القائمة السوداء يتحكمون في سياسة الحكومة الأمريكية وفي جميع أنواع المؤسسات التجارية» (١٠).

وذكر أنه يعاني من ضائقة مالية شديدة وأنه مهدد بفقدان منزله، وقال أن سبب كل هذا هو «أنني أوتيت الشجاعة لكي أحطم مؤامرة تستر الولايات المتحدة على الارهاب الاسرائيلي وتدمير السفينة ليبرتي. واذا نجح المتطرفون في القضاء على حياتي فانني أريد من العالم أن يعرف أنني فقدت هذا في سبيل قضية عادلة، وانني ما زلت أؤمن بأن ما حدث للسكان العرب في الشرق الأوسط منذ ١٩٤٨ كان من أعظم المظالم في تاريخ الجنس البشري».

وتدريجيا أصبح تملق دولة أجنبية واحدة (اسرائيل) أول ما يفعله مرشح لرئاسة الجمهورية الأمريكية (وهي سابقة لا نظير لها لأن من يريد أن يكسب أصوات الزنوج والايطاليين مثلا لا يحتاج الى تملق منظمة الوحدة الافريقية أو ايطاليا)، وأصبحت اسرائيل ترسم السياسة الخارجية لأمريكا في الشرق الأوسط حتى لو كانت تتعارض مع مصالح الأخيرة (نسف مبادرة ريغان للسلم ـ إقحام أمريكا في مستنقع حرب لبنان والتضحية بالمئات من أرواح أبنائها ـ إقالة أندرو يونغ ممثل أمريكا في الأمم المتحدة لأنه تحدث مع ممثل منظمة تعترف بها ١٢٠ دولة بحجة أن هذا يخالف الوعد الذي قطعته أمريكا بعدم التعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية ـ وهو أصلا وعد قطعه الصهيوني العتيد هنري كيسنجر عندما كان وزيرا للخارجية ـ مع أن اسرائيل نفسها تشهد بلسان وزير خارجيتها اسحاق رابين «أن التصور بأن اسرائيل لم تتفاوض أبدا مع الارهابيين ليس صحيحا على الاطلاق» (١١). وذكر تقرير سري لمكتب الحسابات العامة بالولايات المتحدة نشرت فقرات منه في ١١ تموز/ يوليه ١٩٨٣ «ان المسؤولين الاسرائيليين يؤمنون باحتمال نشوب حرب جديدة مع البلدان العربية، وأن من الممكن أن تعمل الجهود الاقليمية للولايات المتحدة على الحد من الأمن الاسرائيلي». ولعل هذا يشير ضمنا الى تعارض المصالح الأمريكية مع السياسة الاسرائيلية. وكان اسحق رابين نفسه قد ذكر عندما كان سفيرا لبلده في واشنطن «أن مصالح اسرائيل في النهاية تختلف عن مصالح أمريكا مهما بلغ العطف الأمريكي». ومع ذلك عندما كرر بريجنسكي مساعد كارتر هذا الرأي طلبوا اقالته بتهمة اللاسامية!

---

(١٠) نفس المرجع.

(١١) نيويورك تايمز. ١٩٨٥/٥/٢٤.

وحتى لو كانت المصالح متجانسة «فان الاسرائيليين يشكون حقا حتى في أصدق أصدقائهم» في رأي أريك مارسدن في صحيفة تايمز اللندنية. وأشهر مثال على ذلك هو التعهد الكتابي الفريد الذي أخذه بن غوريون على فرنسا وانجلترا في معاهدة سيفر عشية الهجوم على مصر عام ١٩٥٦.

وسنتحدث بالتفصيل في الفصل القادم عن نتائج هذا الانسلاخ عن العالم الخارجي وأنواعه المختلفة وهي استفزاز الرأي العام العالمي والمنظمات الدولية، واستعداء الجيران، واستعداء الأصدقاء في النهاية.

٣ ـ العمل السري والارهاب الحكومي

هذه نتيجة تلقائية لصعوبة التعايش بين اليهود وتزايد الانعزال عن الواقع الخارجي. فاذا كانت اسرائيل تشك حقا في أصدق أصدقائها حتى عند تجانس المصالح، فمن المنطقي أن تستعين على قضاء حوائجها بالكتمان مع غير الأصدقاء. وهكذا كثيرا ما يتحدث غلاة اليهود عن «تاريخهم السري» وعن «حلفائهم المجهولين». وكان أول من نبهني الى هذه الظاهرة حظر عبد الناصر للتنظيمات الماسونية السرية في مصر في الخمسينات (وهذا ينفي ادعاء اسرائيل انه كان ماسونيا حتى عام ١٩٤٨). وفي عام ١٩٧٠ لفت نظري مقال في جريدة ديلي تلغراف البريطانية يذكر ان حوالي ٤٠٠ شخص من المارانوس أي اليهود المتنصرين في هولندا (الذين أرغموا على اعتناق المسيحية ايام محاكم التفتيش الاسبانية) ظلوا يمارسون الشعائر اليهودية طوال القرون الخمسة الماضية سرا ولم يعد الآن ما يمنعهم من كشف هويتهم. وذكرت صحيفة يهودية عام ١٩٧١ أن كل ابناء الجالية اليهودية في مدينة مشهد الايرانية أرغموا على اعتناق الاسلام في عام ١٨٨٣، ولكنهم حافظوا على يهوديتهم سرا «مثل المارانوس في شبه الجزيرة الاسبانية»[١٢] ومثل يهود الدونمة في تركيا.*.

وفي عام ١٩٦٧ هز انتصار اسرائيل في حرب الأيام الستة مشاعر اليهود العاملين في الأمم المتحدة ووزارة الخارجية الأمريكية الى درجة «أنهم طلّقوا أسماءهم المسيحية المستعارة واستعملوا أسماءهم اليهودية تفاخرا بأمجاد اسرائيل وانتصاراتها». وفي عام ١٩٧٨ تباهى برنامج صهيوني تلفزيوني عنوانه «اسرائيل اليوم» أذيع في نيويورك على المشتركين فقط أن هناك معسكرات سرية خاصة لتدريب اليهود المارانوس البرتغاليين والاسبان (خصوصا من ابناء بورتوريكو) على استخدام السلاح في مكان ما من ولاية نيويورك. وبعد أن تلت المذيعة هذا الخبر وضعت إصبعها متقاطعا مع شفتيها كأنها تحض المتفرجين على عدم افشاء هذا السر [١٣]. وكررت محطة تليفزيون CNN الأمريكية هذا الخبر في أوائل كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٥.

---

(١٢) مجلة جويش كرونيكل. لندن، ٨/ ١٠/ ١٩٧١.

* ظل اليهود حتى وقت قريب «لا يظهرون الغرباء على كتبهم ولا على عناوينهم» كما قال فولتير في كتابه المعجم الفلسفي قبل الثورة الفرنسية. وربما كان يقصد بالذات بعض أسفار التلمود والتي ظلت طويلا شفوية غير مكتوبة.

(١٣) القناة (C). نيويورك، ١٤/ ٨/ ١٩٧٨.

وفي عام ١٩٦٩ قال الصحافي البريطاني اليهودي مايكل فراين في مقالة له في جريدة الأوبزرفر اللندنية بعنوان اسرائيل الكبرى: «العبرة في اسرائيل ليس بما يقال بل بما يفعل. الأمور تنفذ أولا دون اعلان ثم يأتي التبرير لذلك». وهكذا بينما يقول العربي ما لا يفعل، يفعل الاسرائيلي ما لا يقول.

تشهد بذلك كثرة العمليات السرية التي تقوم بها الدولة ذاتها: اغتيال من هم خطر على أمن اسرائيل (مقتل العالم الذري العربي الدكتور المشد وخطف عالم ذري باكستاني [١٤]، ناهيك عن تصفية الفلسطينيين في الخارج ـ التعاون مع المافيا بحيث أصبحت المافيا الاسرائيلية ذات نفوذ ملحوظ في الولايات المتحدة ـ سرقة الزوارق الحربية من شربورغ في فرنسا أيام حكم بومبيدو عشية عام ١٩٦٩ ـ سرقة ٢٠٠ رطل من اليورانيوم من شركة نيوميك/ أبوللو بولاية بنسلفانيا الأمريكية في السبعينات [١٥] ـ سرقة رسوم الطائرة الفرنسية ميراج ـ ٥ واستخدامها في صنع طائراتها الشهيرة كفير/سي ٢ ـ التعاون مع المنظمة الارهابية الألوية الحمراء لزعزعة الأمن في ايطاليا حتى أوائل الثمانينات «وامدادها بالسلاح والمعلومات والمال» وتحريضها على قتل الدو مورو رئيس وزراء ايطاليا عام ١٩٧٨ لتأييده لمنظمة التحرير الفلسطينية ولكي تحافظ على سمعتها بأنها «الشريك الاستراتيجي الوحيد للولايات المتحدة في حماية ومراقبة المصالح الغربية في البحر المتوسط» [١٦] ـ افساد ايطاليا بحكومة سرية هي المحفل الماسوني ب ـ ٣ الذي كان على وشك الاستيلاء على الحكم قبل الاطاحة به وبالوزارة نفسها عام ١٩٨١ واقالة عشرات من كبار الشخصيات بين جنرالات ووزراء ونواب في البرلمان ـ اتفاق اسرائيل سرا مع انجلترا وفرنسا على غزو مصر عام ١٩٥٦ ـ الهجوم المفاجيء على المفاعل النووي العراقي أوزيراك ـ التواطؤ مع تنظيم مسيحي متطرف في تأييده لاسرائيل على قتل رئيس وزراء السويد أولوف بالمي في أوائل ١٩٨٦ لأنه دعا ياسر عرفات لزيارة السويد بدعوى ان «من يهاجم اسرائيل يعاقبه الله»[١٦].

من الرأس المدبر الذي يخطط لذلك؟ انه ليس الحكومة الاسرائيلية ولا الجناح الصهيوني القوي المساند لها في الخارج، فكلاهما «يتلقى الأوامر من جماعة متطرفة داخل اسرائيل» على حد قول السناتور أدلاي ستيفنسون عند حديثه عمن أمر بقصف السفينة ليبرتي[١٧]، اغلب الظن ان هذه الجماعة هي التنظيم السري المعروف باسم «القهيلا»، وهو جناح من المؤتمر اليهودي العالمي الذي يقال إنه امتداد لمجمع «السانهدرين» اليهودي التقليدي الذي كان يوجه الحياة اليهودية منذ أيام بني اسرائيل. ولعل هذا ما جعل ليوبنسكر يتباهى منذ عام ١٨٨٢

---

(١٤) محطة اي.بي.سي. التلفزيونية الأمريكية. نيويورك، ١٩٨١/٤/٢٧.
(١٥) نفس المصدر.
(١٦) مجلة أكشن، نيويورك ٨٢/٢/٨ نقلا عن جريدة مساجيرو الايطالية في ٨٢/١/١٧، وجريدة الاتحاد الاسرائيلية في ٨٧/٩/١٣. والجزء الخاص بأولاف بالمي رئيس وزراء السويد مأخوذ من مجلة القدس، تونس، في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٧ نقلا عن جريدة الاتحاد الاسرائيلية في ١٩٨٧/٩/٢٣.
(١٧) نشرة ميدل ايست برسبكتف، نيويورك، عدد حزيران/ يونيه ١٩٨١.

في كتابه «الانعتاق» بأن «لنا أسوارنا وأسرارنا» (١٨). ويزيدنا عموس الون تفصيلا في كتابه «الاسرائيليون، مؤسسون وأبناء»:

«يقال أن قوام المؤسسة الاسرائيلية لا يتجاوز عدة مئات من الرجال وعشرة نساء على الأكثر.. وعملياتها يغلفها الظلام، وطقوسها وقواعدها غير المكتوبة سرية مخفية بعناية وراء صرح منمق من التجمعات المذهبية المتصارعة، ومن اللجان الرسمية أو غير الرسمية، سواء داخل الحكومة أو خارجها» (١٩) *

ولعل اهم خبر تسرب مؤخرا عن تأصل العمل السري في العقل الاسرائيلي هو الذي اعلنه عميل سابق لوكالة المخابرات المركزية الاميركية اسمه ريتشارد بيرينكي يوم ١٩٨٨/٥/٢٥ في محطة تليفزيون سي. إن. إن C.N.N الامريكية للانباء. فقد اعترف انه شارك في عمليتين مشتركتين بين الموساد ووكالته منذ منتصف الستينات لتهريب المخدرات من بنما وكولومبيا الى الولايات المتحدة ذاتها، ثم بيعها واستخدام الارباح في تمويل القوات الموالية لامريكا التي تحارب بعض حكومات امريكا اللاتينية. واشار الى وجود عملاء سابقين مثله مستعدين للشهادة امام الكونغرس. ومع ذلك تجاهلت الصحف تماما هذا السر القاتل ـ ربما لأنه قاتل!

٤ ـ تقديس الأمن

هذا أيضا حصيلة ما سبق من عوامل. فالمثل الفلسطيني يقول: «الحرامي يخاف على منزله، والزاني على زوجته». والعملية كلها عملية اسقاط لا شعوري ومن ثم فالاحتياط مقدما واجب. وهكذا أصبح الأمن «مركز العالم» في نظر الاسرائيليين (٢٠). وبه يمكن تبرير أي موقف وأي عمل حكومي، حتى لو كان التفكير في تدمير قدرة باكستان النووية. وكثيرا ما يستخدم الأمن ذريعة لأمور لا صلة له بها مباشرة مثل الاستيلاء على الأراضي الزراعية أو اتلاف المزروعات أو بناء المستوطنات بعيدا عن الحدود أو حتى مخالفات المرور. وكثير من الاسرائيليين يدركون هشاشة هذه الحجج ويدركون أنها لا تحمي أمن اسرائيل. فعندما هاجمت مجموعة دلال المغربي الانتحارية (بالمناسبة تجاهلت وسائط

---

(١٨) ليوبنسكر. الانعتاق، طبعة عام ١٩٣٦، ص ١١٢٥.

(١٩) عموس آلون. الاسرائيليون: مؤسسون وأبناء، نيويورك، هولت ورابنهارت ونستون، ١٩٧١، الصفحة ٣٠٤.

* النشاط والنفوذ غير العاديين للمخابرات والمباحث الاسرائيلية في الداخل والخارج يشيران الى أن اسرائيل ليست كما تبدو عليه. فمن لا يكون واضحا يخشى من انكشاف خطأ فيه. وامتد هذا الغموض الى اللغة ذاتها. يرى الكاتب الاسرائيلي زئيف شافتس في كتابه «أبطال وشطار وعمال وأولياء» عام ١٩٨٦ «ان من لا يعرف العبرية لا يعرف اسرائيل... فالعبرية ليست مجرد لغة وانما هي شيفرة خالصة أيضا... ولهذا يخطيء المراسلون الأجانب دائما عند كتابتهم عن اسرائيل».

(٢٠) الفجر الأسبوعية. القدس، ١٩٨٢/١١/١٢.

الاعلام الغربية والأمريكية بالذات الاشارة الى أن هذه الفتاة العربية قادت مجموعة من عشرة رجال)
الطريق بين حيفا وتل أبيب يوم ١١/٣/١٩٧٨ وقتلت ٢٤ شخصا وجرحت ٧٢ سائحا وخسرت ٩ من
الفدائيين، أغلقت المدارس وصرف العمال وفرض حظر التجول على نحو ٣٠٠ ألف شخص في المنطقة

وسادت الفوضى حتى أطلقت الشرطة النار على الجيش. ويومها علّق طالب يساري في الجامعة العبرية
على الحادث: « ماذا سيفعل بيغن بعد أن جاؤوا من البحر؟ هل سيقيم مستوطنات هناك؟!». وبلغ من
استخفاف أستاذ جامعي اسرائيلي بحجة المستوطنات أنه سافر الى القطب الشمالي ورفع العلم
الاسرائيلي عليه.

ولكن أخطر نتائج تقديس هذه العجل الذهبي هو صعوبة معرفة الحقيقة في اسرائيل. فالتلاعب
بالاحصاءات والبيانات الرسمية أسلوب مقبول في الحياة اليومية بدعوى حماية الدولة.

ويبلغ التفاعل بين تقديس الأمن واختفاء الحقيقة ذروته في تصوير البلاغات العسكرية
الاسرائيلية للعمليات الفدائية داخل اسرائيل نفسها. فحيث أن رفض تقديم تنازلات هو الامتداد
الطبيعي لرفض المساواة والتعامل بالمثل، فان سياسة الحكومة هي رفض التفاوض مع الفدائيين الا اذا

كان ذلك كسبا للوقت ووضع خطط للهجوم المضاد كلما أمكن. وسواء أكان الفدائيون يحتجزون طائرة في
مطار عنتيبي في أوغنده، أو مدرسة في معالوت ـ ترشيحا ـ أو حافلة للركاب على طريق حيفا تل أبيب، فان
الأسلوب الاسرائيلي المعهود هو اقتحام مواقع الفدائيين وقتلهم ثم اغفال عدد اليهود الذين قتلتهم
برصاصها، أو القول بأن الفدائيين ذبحوهم. ولدينا ثلاثة أمثلة على ذلك أشهرها مذبحة ميونيخ عام
١٩٧٢. فقد اعترف عدد من كبار الصحافيين الاسرائيليين الذين وضعوا كتاب «التقصير» (المحدال)
أن عشرة من الرياضيين اليهود الاحد عشر الذين قتلوا هناك صرعوا برصاص الشرطة الألمانية
بتعليمات صريحة من غولدامئير رئيسة الوزراء حينذاك [٢١]. والمثل الثاني هو أن سكان اسرائيل
شاهدوا على شاشة التلفزيون عام ١٩٧٤ كيف هاجم الفدائيون مدرسة في معالوت بها ٨٨ طفلا مات
منهم ٢٣ عندما اقتحم الجيش المدرسة.

والمدهش أن صحف اسرائيل والخارج ألمحت الى أن جيش اسرائيل قتل من ركاب الباص الذي
استولت عليه مجموعة دلال المغربي عام ١٩٧٨ أكثر مما قتله الفدائيون. فقد ذكر الفدائي الوحيد الذي
بقي على قيد الحياة في مؤتمر صحفي عام أن مجموعته قفزت من الباص قبل أن تفجره نيران الكمين
الاسرائيلي. كما أن الصحف لم تنشر أية صورة «لجثث المخربين المتفحمة» (التي قيل أنها كانت داخل

الحافلة قبل أن تنسفه المجموعة الانتحارية على الركاب وعلى نفسها) لأن الفدائيين قتلوا بالرصاص
أصلا.

---

(٢١) التقصير (المحدال). ترجمة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٧٤، ص ١٧٧ ـ ١٨٠

وتكرر ذلك في ١٢/ ٤/ ١٩٨٤ عندما خطف أربعة فدائيين حافلة أخرى قرب عسقلان، فحاصرها الجنود في غزة وقتلوا اثنين منهم وراكبا وجرحوا سبعة ركاب آخرين. وبعد أسر الاثنين الباقيين قتلا في المعتقل ودمرت بيوت الأربعة. وعندما نشرت صحيفة حداشوت صور الفدائيين احياء ساعة أسرهما بعد ان اعلنت الحكومة مصرعهما خلال الهجوم، اوقفت عن الصدور أربعة ايام. ولكن الفضيحة انفجرت عام ١٩٨٧ على نطاق واسع واصبحت سببا في اتهام اجهزة المباحث (شين بيت) بتزوير الاعترافات والقرائن.

وحرص اسرائيل على الابقاء على وهم الديمقراطية هو الذي يجعلها تشدد رقابتها على الصحف تدريجيا الى حد حظر الاشارة اليها، أو كما ذكر ميرون بنفنستي نائب رئيس بلدية القدس السابق، «هناك رقابة حتى على ذكر كلمة الرقابة» [٢٢]. وكان تقييم مجلة تايم الأمريكية عام ١٩٨٣ هو «أن سياسة اسرائيل في الرقابة على الأنباء والاتصالات الهاتفية الدولية أمر شبه فريد في الدول الديمقراطية. فالمراسلون الأجانب ليسوا ملزمين حتى في موسكو وبكين بأن يعرضوا ما يكتبونه على الرقابة أولا لاجازته». والذي أثار الموضوع هو أن مدنيا اسرائيليا يعمل لدى وزارة الدفاع وصف لجمهور من طلاب مدرسة ثانوية في تل أبيب كيف يراقب هو وزملاؤه ما يقوله المراسلون الأجانب عن اسرائيل: «اننا نسمع كل ما يقولونه هاتفيا، ونراقب كل ما يرسلونه من مواد صحفية، بل أننا نشوش برقياتهم عندما يبثون رسائل قد تسيء الينا». وأضافت المجلة أن هذا الرقيب الثرثار لم يكن مفاجأة للمراسلين الأجانب «الذين يضطرون أحيانا الى السفر الى الخارج لارسال كتابات حساسة». ومع ذلك «فان المسؤولين الاسرائيليين يرفضون دائما الاعتراف بوجود هذه الشبكة الواسعة من الرقابة لدى السلطات العسكرية» مع أن «التقصير» (وهو من أروج الكتب الاسرائيلية منذ عام ١٩٧٣) يذكر بوضوح أن «الرقابة العسكرية في دولة اسرائيل كانت أكثر من مرة أداة سياسية حجبت عن الجمهور معلومات حيوية لا تتصل بالضرورة بشؤون الأمن» [٢٣].

ومعظم الاسرائيليين يعرفون أمر هذه الرقابة مثلما يعرفون مدى صحة البلاغات العسكرية لحكومتهم، ولكنهم يستوعبونها بالتدريج حتى يصدقوها، ولا يفتأون يتحدثون عن «مجازر المخربين» في ميونيخ ومعالوت وهلم جرا، كلما تحدث حكامهم عنها للاستهلاك الخارجي.

والجمهور الاسرائيلي معذور. فكيف يستطيع انسان مرعوب أن يصدق عينيه ويكذب ما يكرره حراسه على أسماعه آناء الليل وأطراف النهار بالايحاء وغير الايحاء؟ وهل غريب بعد ذلك أن تظهر في اسرائيل بعد حرب ١٩٧٣ نكته مشهورة مفادها «تعلم العرب منا فن القتال وتعلمنا منهم الكذب»؟ [٢٤]. ولكن أسوأ أنواع الكذب هو الكذب على الذات. وهذه محنة اسرائيل الحقيقية.

---

(٢٢) وثيقة الأمم المتحدة A/SPC/39/SR. 22

(٢٣) التقصير، ص ٧٩.

(٢٤) التقصير، ص ١١٧.

٥ - التنويم الذاتي

صحيح اننا معشر العرب نعشق الخطابة والاستطراد وتصيد الاخطاء ومحاربة الابداع والتجديد، ونقول الاشياء التي نحب سماعها، ونرفع ايدينا بعلامة النصر حتى لحظات الهزيمة، «وننبهر بالكلمات أكثر من الأفكار، وبالأفكار أكثر من الحقائق» على حد تعبير ادوارد عطية[٢٥]. ولكن عزاءنا هو اننا كلما ازددنا معرفة بأسرائيل وميلاً لقبول الأمر الواقع ازدادت اسرائيل جهلاً بنفسها وبما تفعل. فالعقل الاسرائيلي معروف بتقبله الشديد للايحاء الذاتي بحيث انه كثيرا ما يصدق أكاذيبه هو نفسه، وينتهي الأمر الى اعتقاده أنه محق والعالم كله مخطيء ومتربص به.

يقول مثلا موشيه ديان في كتابه «يوميات سيناء» أن المخابرات الاسرائيلية أطلقت اشاعة بأن القوات العراقية دخلت الأردن قبل حرب السويس وكررتها عدة مرات، وانتشرت الاشاعة باحكام حتى أن المخابرات الاسرائيلية صدقتها فيما بعد». وهناك مظهر آخر للتنويم الذاتي هو مفهوم «العربي الغائب» كما يسميه الدكتور عبد الوهاب المسيري عندما استشهد بما ذكره العالم السياسي الاسرائيلي شلومو أفنيري عن «أن الرواد الصهيونيين الأوائل لم يكونوا يستطيعون مواجهة الحقيقة وهي أن ثمن الصهيونية هو ازاحة العرب. ولهذا أخذت ميكانيزمات الدفاع عن النفس صورة التجاهل لأبعاد المشكلة العربية، ذلك أن التمسك بالرؤية الصهيونية لم يكن ممكنا دون الخداع اللاشعوري للنفس» [٢٦].

لكن تربص الأغيار (الأمميين) ليس السبب الأصلي لهذا التنويم. فهناك الحاجة الدائمة الى تعزيز الاقتناع الداخلي بأن العقل الاسرائيلي متفرد بين البشر. وأحيانا ينحو هذا الى مغامرات مسرحية أقرب الى أحلام اليقظة، كأن يقال أن اسرائيل اخترعت دواء يقضي تماما على الانفلونزا في العالم. وعندما تسأل أين هو يقولون لك ضاحكين: سيكون في الأسواق عندما تزور اسرائيل في العام القادم. وتحتاط لذلك وتؤجل زيارتك خمس سنوات ثم لا تجد للدواء أثرا، فقد نسيه «المخترعون» تماما.

وأحيانا تكون أحلام اليقظة هذه مصدر ازعاج هزلي للحكومة. ففي حزيران/ يونيه ١٩٨١ أعلن ياكوف ميريدو - عشية انتخابه لمنصب وزير الاقتصاد ان العلماء العاملين معه اكتشفوا مصدرا للطاقة لم يكن معروفا قبل ذلك وأن من شأنه حل مشاكل اسرائيل والعالم بخصوص الطاقة». وقال ميريدور أن اسرائيل سوف تصبح «قوة اقتصادية كبرى وستكون عملتها أقوى عملة في العالم... بحيث تستطيع القضاء على كل ديونها خلال فترة تتراوح بين ٥ - ٧ سنوات» [٢٧].

---

(٢٥) نقلا عن رافائيل باتاي. العقل العربي، سكربنر، نيويورك، ١٩٧٣، ص ٤٨.

(٢٦) د. عبد الوهاب المسيري. الأيديولوجية الصهيونية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٢، ص ٢٠٢

(٢٧) الكتاب السنوى اليهودي الأمريكي لعام ١٩٨٣. اللجنة اليهودية الأمريكية، فيلادلفيا، ص ٢٥٩ - ٢٦٠

وفي العام التالي أعلن ميريدور بعد تأجيل اذاعة هذا الاكتشاف السري عدة مرات أنه سوف يستقيل «اذا لم يحقق آثارا ثورية في المجتمع الاسرائيلي». وأخيرا كشف النقاب عن هذا الجهاز في اذاعة تلفزيونية مثيرة في ٢٢ آذار/ مارس ١٩٨٢. واعتبر الكتاب السنوي اليهودي الأمريكي النتائج مخيبة للآمال، ثم اتضح أن صاحب الاختراع أفاق كان قد حكم عليه قبل ذلك بسنتين بالسجن مع وقف التنفيذ «بتهمة النصب والسرقة وتقمص شخصية ضابط في الجيش. وعرض ميريدور استقالته على بيغن رئيس الوزراء ولكن الأخير ثناه عن ذلك» [٢٨].

وبالمقابل فأي اكتشاف صاحبه أممي لا أهمية له الا اذا أعاد يهودي اكتشافه. فقد أعلنت السلطات الحكومية ووسائل الاعلام الاسرائيلية في آذار/ مارس ١٩٨٥ «اكتشاف» موقع أثري به كتابة عبرية بالفسيفساء في أريحا. وشكا محمد شهوان من أن عائلته فتحت هذا الموقع للسواح طيلة ٤٥ عاما وأن هذا «الاكتشاف» الاسرائيلي لم يعلن للصحافة الا بعد أن رفض بيع الموقع للحكومة التي طلبت منه عدم ري بيارة البرتقال المحيطة بالموقع «تمهيدا للتخلص مني في النهاية» [٢٩].

وتستخدم الحكومة هذا التنويم الذاتي على نطاق جماعي بحيث تتقبل العامة ما تقوله الحكومة، ثم يرتد هذا التصديق على الحكومة لتزداد بدورها ايمانا بصحة ما تقوله! لكن زلزال حرب اكتوبر ١٩٧٣ هز كثيرا من الثقة في الحكومة رغم التأييد الأعمى لاجراءاتها مع الأغيار. وظهر هذا الشك مؤخرا في تزايد امتناع الجماهير عن التصويت في الاستفتاءات العامة بحيث كانت نسبتها أحيانا تقارب النصف.

وربما كان كلود بورديه النائب الفرنسي الاشتراكي وعمدة باريس السابق مبالغا حين قال «ان كل الأنباء التي تأتي من اسرائيل كاذبة». فالأصح من ذلك قول الجنرال كارل فو ن هورن السويدي كبير مراقبي الهدنة السابق: «ما عرفت في حياتي ادارة تشوّه الحقيقة وتجعل الحق باطلا والباطل حقا مثل جهاز الدعاية الاسرائيلية. فاذا كانت اسرائيل معتدية في حادث ما جعلت نفسها الضحية المسكينة والعرب هم المعتدون! «(نفس ما قاله موشيه شاريت رئيس وزراء اسرائيل قبل وفاته). وردت الحكومة التهمة عن نفسها حينذاك بأن حمّلت الصحافة المسؤولية قائلة على لسان موشيه أرينز في مقابلة معه باذاعة اسرائيل «ان حوالي ٥٠٪ من الأنباء التي تنشرها وسائط الاعلام في البلد لا أساس لها من الصحة» [٣٠].

ومع أن نقابة الصحافيين الاسرائيليين أبدت «أسفها ودهشتها» من هذا البيان فانها معروفة جيدا بأنها مطية للرقابة العسكرية، وبالتالي ليس لها أن تدهش مما تنشره الصحف. ولكن يجب أن نعترف بأن الصحافة الاسرائيلية خارج اسرائيل أسوأ بكثير من الصحافة الصادرة بالعبرية داخلها. لأن نظرية الأمن الاسرائيلي تقوم أساسا على ضمان التبرعات والأنصار من الخارج. ولهذا غالبا ما

---

(٢٨) نفس المرجع لعام ١٩٨٤، ص ٦٦.

(٢٩) الفجر الأسبوعية. القدس، نيسان/ ابريل ١٩٨٥.

(٣٠) المرجع السابق. ١٩٨٣/٣/٢٠.

تكون معبّرة عن وجهة النظر الرسمية التي يهمها كسب الأنصار أكثر من تسجيل الحقائق. والمفارقة صارخة بين كثرة ما يكتب عن التاريخ اليهودي وقلة ما نعرف عن حقيقته:

* فالتشتت بحجة سحق الرومان للثورات اليهودية مشكوك في صحته. فقبل سقوط مملكة يهوذا في يد البابليين عام ٥٩٧ ق.م كانت مساحة المملكة لا تزيد على بضع مئات من الأميال المربعة حول القدس، وكان عدد اليهود المقيمين في الاسكندرية أيام المسيح (أي بعد العودة من السبي البابلي بقرون) يتجاوز كل تعداد سكان المملكة [٣١]، بينما كان تعداد اليهود خارج فلسطين وداخلها أيام المسيح يتراوح بين ٦ و ٧ ملايين نسمة [٣٢].

* والكتابة العبرية المعاصرة مشكوك في عبريتها. فالعالم اللغوي اليهودي ابراهام هيرش يرى «أنها كتابة آرامية كنعانية الأصل». وهو يؤيد ذلك بقوله «ان من سخرية القدر أن اليهود كلما ثاروا على الأجانب (في فلسطين) كانت تقاليدهم العشائرية تدفع الكتابة الكنعانية الأصلية الى مكان الصدارة الى حد أحيائها على العملات والوثائق» [٣٣]. والأصل الأرامي الكنعاني للعبرية مشار اليه بوضوح في الاصحاح العاشر من سفر التكوين. ويبدو أن الوحيدين الذين يستعملون العبرية الأصلية هم السامريون الذين لا يزيدون على بضع مئات (ومع ذلك ترددت حاخامية اسرائيل طويلا في اعتبارهم يهودا ولو أنهم على ما يبدو الوحيدون الذين بقوا على قيد الحياة من سلالة مملكة اسرائيل) [٣٤]. وليست اللغة اليهودية المعاصرة هي وحدها المستعارة، «فقد كانت اللغة اليهودية تكتب دائما بلغات مستعارة مثل اليديش (العبرية الجرمانية) واللادينو (العبرية اللاتينية) واليهودية العربية (التي كتب بها إبن ميمون) واليهودية الفارسية» [٣٥].

* وكثير من الفنون الاسرائيلية الشعبية ايضا مستعاره. فرقصة الهورا القومية الاسرائيلية هي نفس رقصة الحصاد البلقانية التي نقلوها الى فلسطين عام ١٨٥٤. ونشيدهم القومي هاتكفاه (الحرية) مقتبس من لحن روماني.

* وانتصار اسرائيل «البطولي» على سبعة جيوش عربية لم يعد «معجزة» بعد أن اتضح من وثائق المخابرات المركزية الأمريكية التي أفرج عنها مؤخرا أن قوات الهاغاناه كانت تملك في حرب ١٩٤٨ زهاء ٦٥ ألف مقاتل حسن التدريب والتجهيز (عدا الاحتياطيين) مقابل ٣٣ الف عربي متخلف في التسليح والتنظيم [٣٦].

---

(٣١) صامويل صامويل. المرجع السابق.
(٣٢) من محاضرة لعالم الآثار اليهودي سيروس غوردون في نيويورك يوم ١٩٨٥/٥/٣٠.
(٣٣) مجلة الآثار التوراتية. واشنطن، ايلول/ سبتمبر ١٩٧٩.
(٣٤) نيويورك تايمز. ١٩٨٢/٩/٥.
(٣٥) المرجع قبل السابق.
(٣٦) ستيفن غرين. الانحياز، وليام مورو، نيويورك. ترجمة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٥، قبرص، ص ٥٣ ـ ٦٢.

* وحرب ١٩٦٧ لم تعد دفاعا عن النفس بعد أن اعترف ثلاثة من كبار جنرالات اسرائيل (عيزر فايتسمان وحاييم بارليف ومتاتياهو بيليد) عام ١٩٧٢ أن اسرائيل لم تدخل تلك الحرب دفاعا عن بقائها « وانما دفاعا عن أهداف اسرائيل لمدة ٢٥ عاما قادمة».

* وتحويل اسرائيل أرض اسرائيل الى جنة بزراعة الصحراء فيه الكثير من أحلام اليقظة. اذ أن ٧٠٪ تقريبا من مساحة اسرائيل ما زال غير مزروع لأن صحراء النقب تمثل حوالي ثلثي مساحة الدولة. ولهذا حذر بن غوريون: «اذا لم نقض على الصحراء فسوف تقضي الصحراء علينا».

* ومساواة المرأة بالرجل (وهو مقياس للديمقراطية) مجرد أمنيات: فهي مواطنة من الدرجة الثالثة (بعد اليهود الشرقيين) ويدفعون لها ٤٠٪ من أجر الرجل لقاء نفس العمل، و٢٠٪ فقط منهن ينلن نفس الأجر. كما أن نساءهم المقاتلات أسطورة لأنه لم تحارب واحدة منهن بعد حرب ١٩٤٨ [٣٧].

* وأرقام الضحايا في البيانات العسكرية مثلا مضللة لكثرة تضاربها. وهذا أيضا حال أرقام الصادرات والميزانية العسكرية لاسرائيل، «فهي سر دفين»[٣٨].

وأحياناً تدخل الخرافات في صميم تصورات الزمان والمكان بحيث «تشوه السمات العظيمة للتاريخ اليهودي» على حد تعبير هيغل، خصوصا عندما تتخذ طابعاً مقدساً.[٣٩].

* من حيث الزمان، يقول التقويم العبري انه بدأ مع خلق العالم (عام ١٩٨٨ / ١٩٨٩م يوافق عام ٥٧٤٩ بالتقويم العبري). وكان المفروض حسب النبوءات اليهودية ان ينتهي العالم عام خمسة آلاف ولكن يبدو اننا سننتظر طويلا. وكان السامريون سعداء بهذا الخطأ في التقدير ولو ان تقويمهم لا يختلف عن الاسرائيليين الا قليلا.

* من حيث المكان، هناك خرافات فريدة تحتفل بها الدولة رسميا وقلما يسمع بها أحد حرصا على هيبة الدولة. ففي عام ١٩٧٦ أعلنت وكالة أنباء يهودية أن رئيس الجمهورية باع اسرائيل الى جندي درزي [٤٠] (من مواليد اسرائيل طبعا كيلا يهرب صك الملكية الى الخارج). وكان هذا عملا بتقاليد التلمود خلال السنة الشميطة التي تستوجب اراحة الأرض من الزراعة كل سبع سنوات، على أساس أن الله نفسه استراح في اليوم السابع من خلق العالم ـ كما تقول التوراة. وحيث أن هذا يعني توقف الزراعة سنة كاملة فلا حل للمشكلة سوى بيع الأرض كلها شكليا الى أجنبي. [٤١]

---

(٣٧) هيرالد تريبيون. باريس، ١٩٧٨/٣/٢٠.

(٣٨) الأيكونومست البريطانية. ١٩٧١.

(٣٩) هيغل. المرجع السابق.

(٤٠) نشرة الوكالة التلغرافية اليهودية (جويش تلغرافيك أجنسي). حوالي منتصف تموز/ يوليه ١٩٧٦.

(٤١) عبد الوهاب المسيري. موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، دار الأهرام، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٢١٧.

ووجه الخطورة هو ان كل خرافة تولّد اخرى: الانفراد بالعهد مع الله الشعب المختار / ارض الميعاد / نبوءة العودة الى اسرائيل / ظهور الماشيح بعد العودة الى اسرائيل وليس قبلها / انكار ان المسيح بن مريم هو الماشيح الموعود. وبرر الدكتور وولف باسمانيك المحاضر في أدب اليديش في جامعة راتجرز الأمريكية هذا الموقف على النحو التالي: «نعرف جيدا ان الماشيح سيأتي من نسل داود، وان مريم كانت آخر نسل داود، وان المسيح هو ابن مريم، ولكننا لا نستطيع أن نقول أن المسيح المنتظر هو الماشيح»!.

ومنطق باسمانيك مفهوم (ولو أنه غير مهضوم)، فبدون هذا يفقد العقل اليهودي تفرده بل سبب بقائه. فلو لم تكن المؤسسة الاسرائيلية موجودة حتى الآن، فما الذي سيحمي صهيونيا متحمسا مثل باسمانيك في المستقبل من معسكرات الاعتقال التي أدخله فيها هتلر؟ مع أنه كان أحرى به أن يعكس الآية بحيث يرى أن معسكرات الاعتقال لم تكن لتوجد لو لم ينكر أصلا ان الله هو الذي أرسل نبيه عيسى لانقاذ شعبه اليهودي من الضياع.

ان عبادة التاريخ واعادة كتابته وجهان لعملة واحدة. فالحاجة أُمّ الاختراع. وحاجات العقل القومي اليهودي في عزلته مفرطة. وليس المهم معرفة الحقيقة وانما كسب المعركة. تذكر الكاتبة بل كاوفمان أن جدها القصاص شالوم عليخم كان يتحدث عن متعة «أن تفقد كل شيء في سبيل أن تكسب المناقشة» [٤٢]. وهذا أسلوب المحامين المتخصصين في القضايا الميئوس منها. فهم يعشقون أنفسهم لأنهم قادرون على تبرئة المتهم حتى لو اعترف لهم بذنبه سرا. وهو أيضا أسلوب الجاهلية في العصبية القبلية على حساب حقوق الأقوام الأخرى والحق نفسه:

وما أنا الا من غزية ان غوت
غويت وان ترشد غزيّة أرشدِ

فاذا جاءتهم طامّة مثل الهولوكوست ردّدوا ما قاله موسى هس الأب الروحي للقومية اليهودية: «اليهودية مصيبة أكثر منها ديانة» [٤٣]، مع أنها في الواقع ليست إلا «تحديا إلهيا»[٤٤] مقصودا به بقاء الروح قبل بقاء الأمة. والتهرب من هذا التحدي بتأليه الأمة ليس ضمانا من موت الفرد والأمة على السواء. فالله يعتبر اليهودي كما ينبغي أن يكون عليه وليس كما هو كائن. وكما قال هاري وولفسون أستاذ تاريخ الفلسفة: «اذا أردنا أن نبقى يهودا فلا يكفي أن نظل على ما نحن عليه. لأننا أصلاً لسنا كما ينبغي أن نكون» [٤٥]. تلك هي نقطة البداية في تأزم علاقة القومية اليهودية بالله وما ترتب عليها كما سنرى الآن.

---

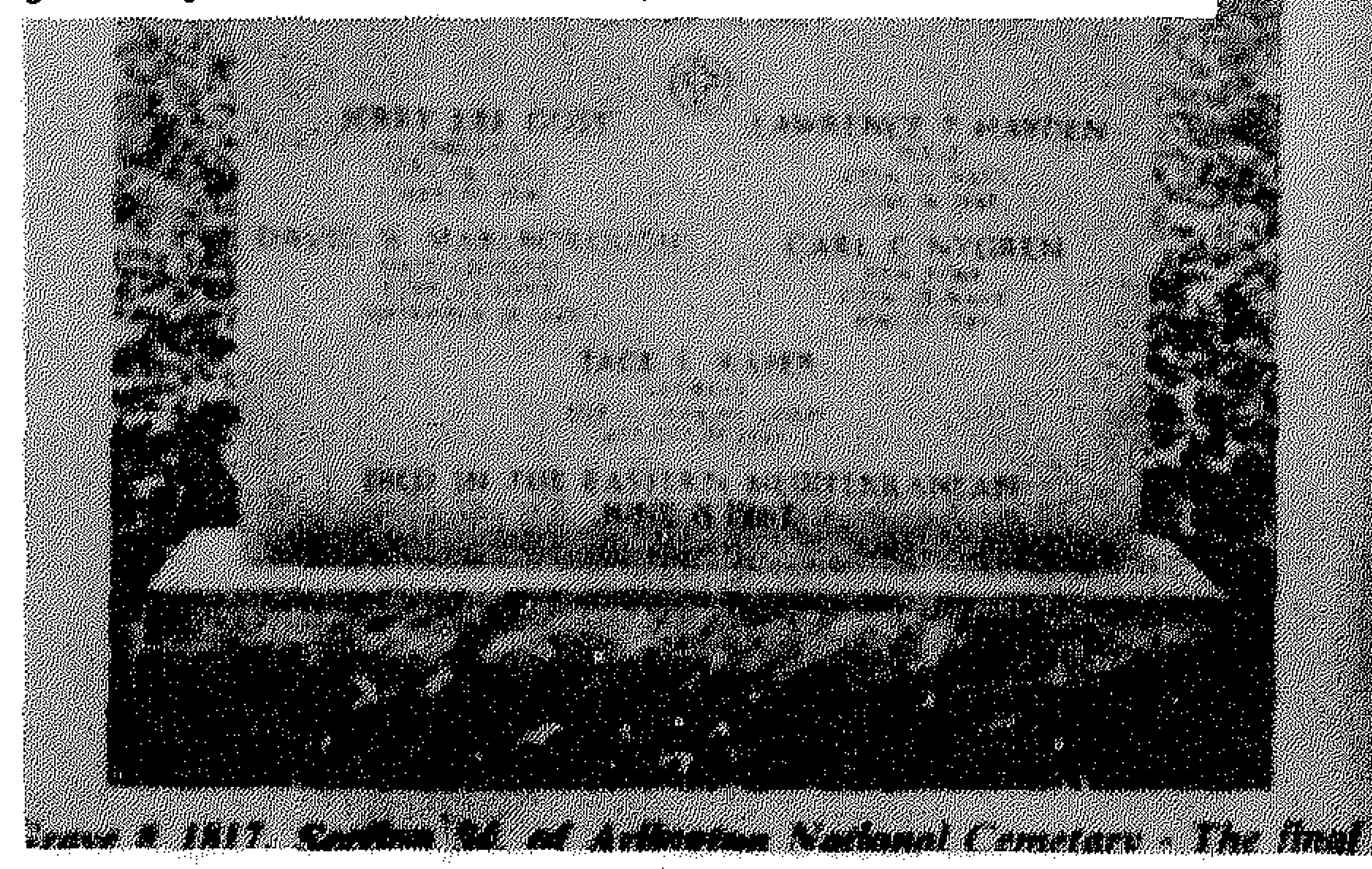
(٤٢) اسرائيل شنكر. معطف متعدد الألوان: صفحات من الحياة اليهودية، دوبلداه، نيويورك، ١٩٨٥، ص ٤.

(٤٣) المرجع السابق.
(٤٤) المرجع السابق.
(٤٥) المرجع السابق.

رفـات سـتـة من قتـلى السـفينـة الأمـريكية ليبرتي في قبر واحد رقمه ١٨١٧ في الجـنـاح ٣٤ من مقبرة ارلنفتو ن الـوطنية التذكارية في واشنطن. و بسبب اعتراض اسرائيل لا يشير شاهد القبر الى انهم «سقطوا في ساحة الشرف» في مكان معين كالعادة وانما الى انهم «ماتوا في شرق البحر المتوسط»، دون تحديد الموقع.

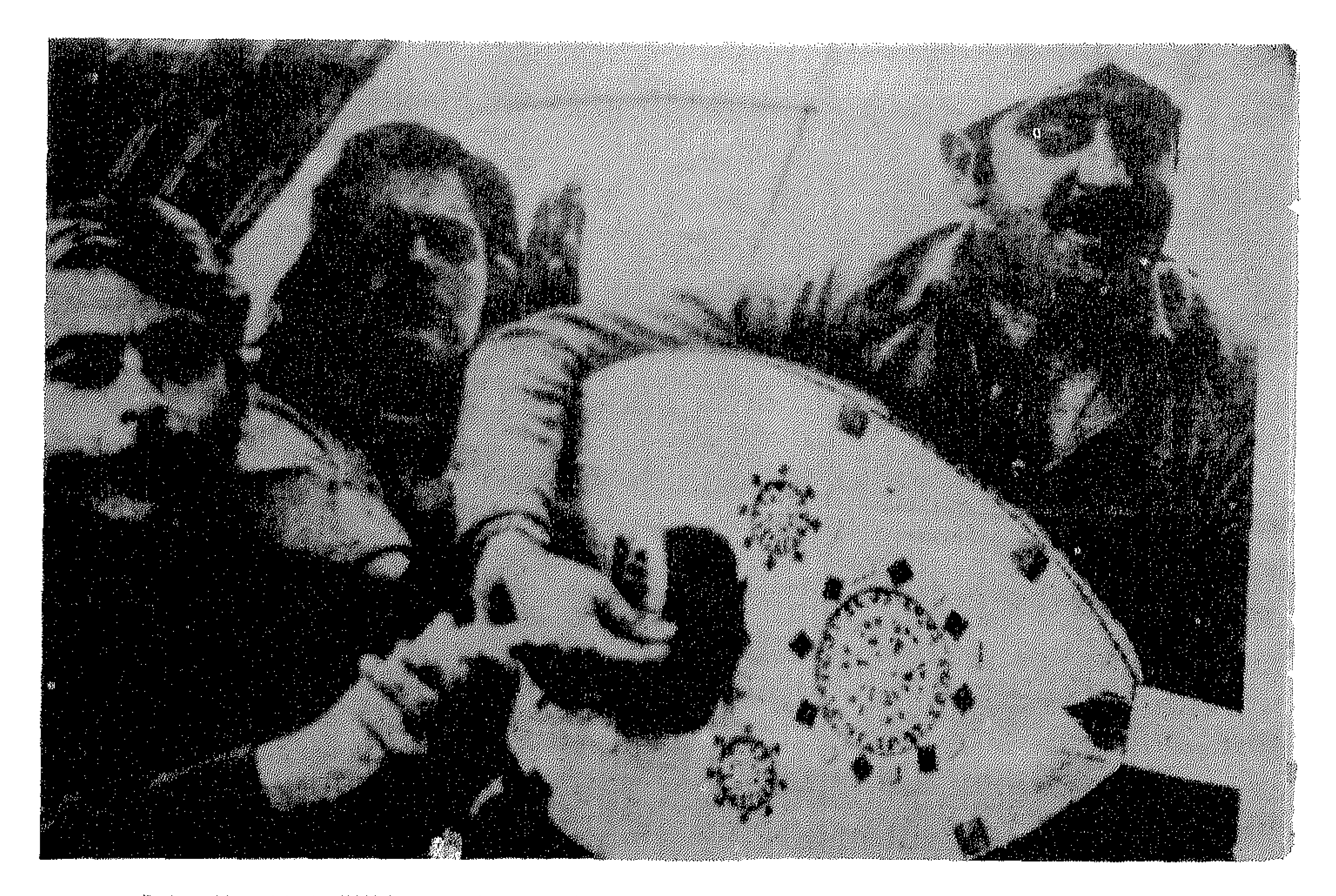
قبضة التحدي في مواجهة القبضة الحديدية للاحتلال: أسير فلسطيني في طريقه الى سجن نيفي تيرتسا باسرائيل.

فقد دايان هالته البطولية عام ١٩٨٧ بعد انكشاف سرقته لآثار حكومية تقارب قيمتها مليون دولار.

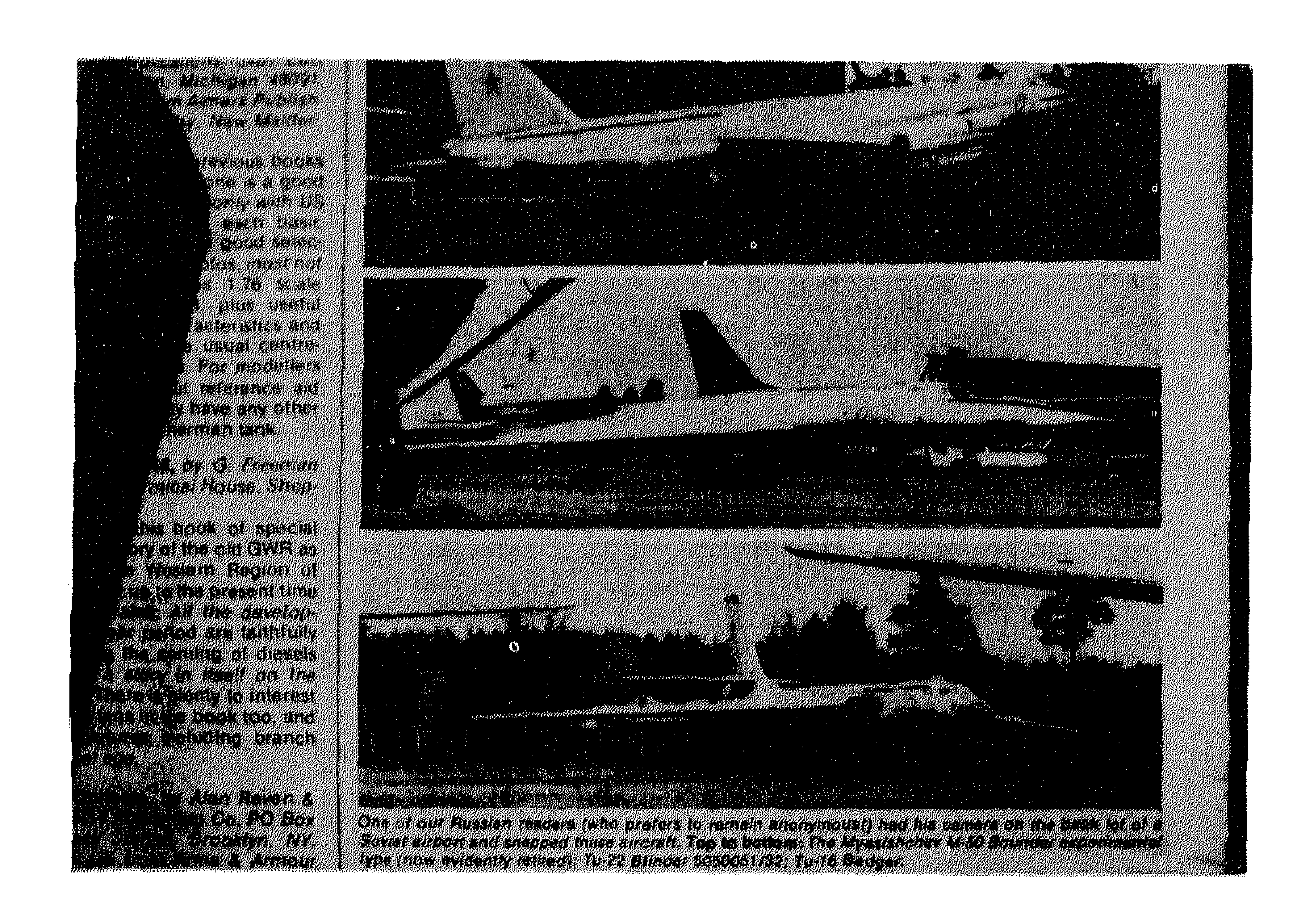








مازال اليهود الشرقيون الذين يشكلون غالبية السكان في اسرائيل يحتفظون بثقافة بلدانهم الاصلية.



...Michigan 48091
...n Armars Publish...
...y, New Malden

...revious books
...rne is a good
...only with US
...each basic
...good selec-
...otos, most not
...1:76 scale
... plus useful
...acteristics and
...usual centre-
... For modellers
...d reference aid
...y have any other
...erman tank.

...s, by G. Freeman
...ssical House, Shep-

...his book of special
...ory of the old GWR as
...Western Region of
...up to the present time
... All the develop-
...period are faithfully
...the coming of diesels
...story in itself on the
...there is plenty to interest
...this book too, and
...including branch
...

...by Alan Raven &
...Co, PO Box
...Brooklyn, NY.
...Arms & Armour

One of our Russian readers (who prefers to remain anonymous!) had his camera on the back lot of a Soviet airport and snapped these aircraft. Top to bottom: The Myasishchev M-50 Bounder experimental type (now evidently retired); Tu-22 Blinder 5050051/32; Tu-16 Badger.

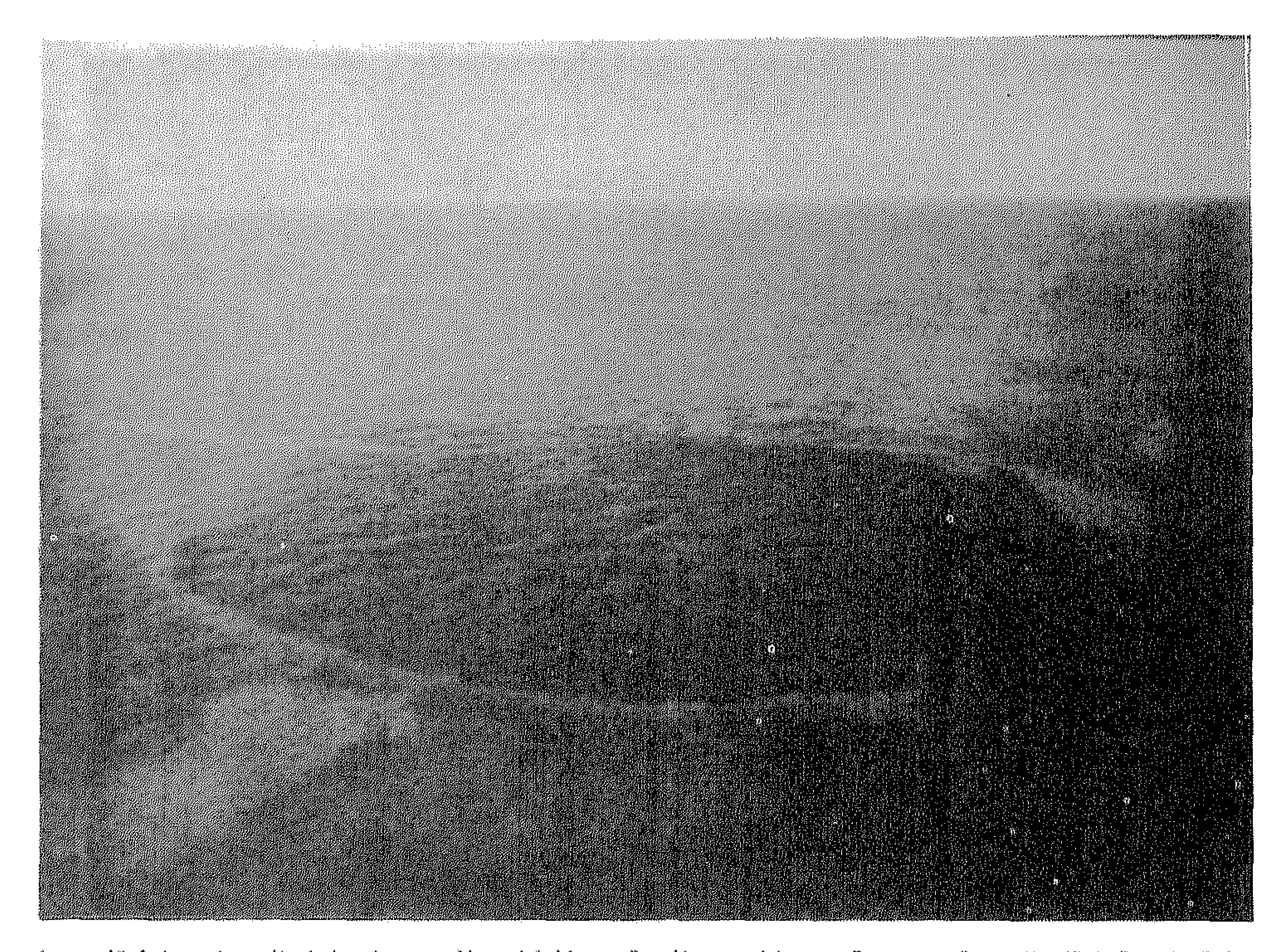
مشكلة ازدواج الـولاء من اهم اسبـاب الـلاسـاميـة. ولا تخفي اسرائيـل انهـا ترسـل معلومـات حيوية عن الاتحاد السـوفيـاتي الى امـريكـا. وهذه صورة أرسلها قارىء روسي مجهول الى مجلة ايرفيكس الامريكية في حزيران/ يونية ١٩٧٩ وهي تبين طائرات في مطار سوفييتي، ويبدو ان هذه الصور لم تنشر من قبل.



فرويد مع زوجته مارتا وشقيقتها مينا بيرنايز (يسار) في مصيف بيرختفادن عام ١٩٢٩ . ويقول يونغ ان مينا اعترفت له بان علاقتها بفرويد كانت «حميمة جدا».



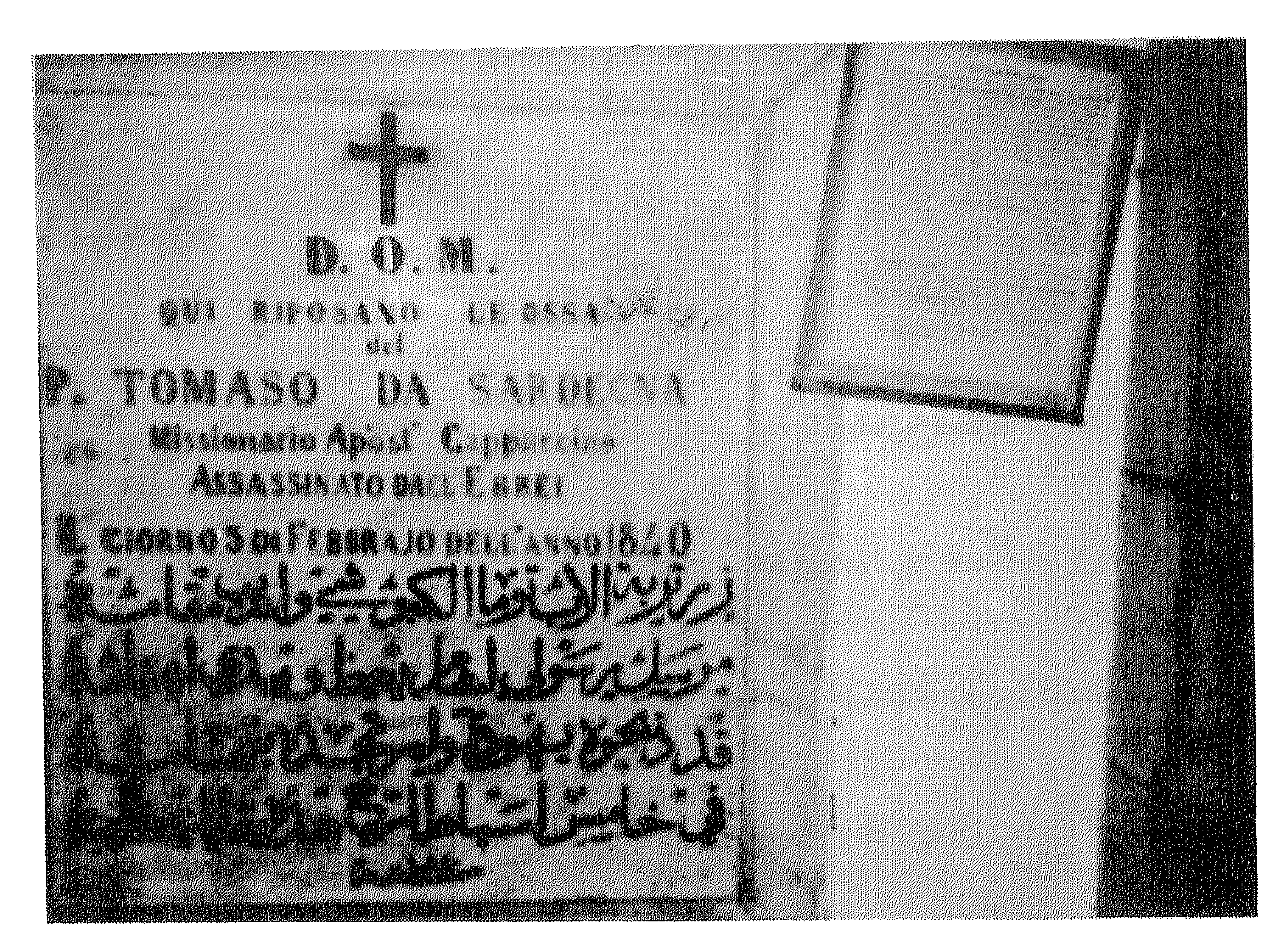
داغ همرشولد الامين العام الراحل للامم المتحدة مع الفيلسوف اليهودي مارتن بوبر في بيت الاخير بالطالبية في القدس عام ١٩٥٩ .



حفرة واسعة في قاع البحر قرب جزيرة برمودا ليست ناجمة عن نشاط بركاني ويحار علماء الجيولوجيا في تفسيرها.



جدران عريضة تمتد عشرات الامتار تحت الماء قرب جزر الازور مقابل شاطىء المغرب . هل هذه المباني الضخمة من مخلفات حضارات بائدة مثل قارة اطلانطيس التي سمي البحر الاطلسي باسمها؟



قبر الاب توما الكبوشي في كنيسة اللاتين بحي باب توما بدمشق هو الدليل الوحيد الباقي تقريبا على «تهمة الدم» Blood Libel أي استخدام القرابين البشرية في الاعياد اليهودية.

الجـزء العلوي من الشـاهـد بالايطالية وترجمته: «هنا ترقد عظام الاب توماسو السرديني المبعوث الرسولي من الطائفة الكبوشية. اغتيل في الخامس من شباط/ فبراير ١٨٤٠»

امـا الجـزء الاسفـل فمكتوب بعربية ركيكة نصها: «زُر تربة الاب توما الكبوشي واندب مقامه. مرسل رسولي يعظ ويبدي اهتمامه. قد ذبحوه يهوذا ولم تجده بتمامه. في خامس اسباط (شباط) ارخ. هذه بقايا عظامه. سنة ١٨٤٠».

وبجوار النصب الرخامي صفحة مبروزة من كتاب لمؤلف يهودي فرنسي، وهي تروي فشل محاولات السير موسى مونتفيوري لازالة هذا النصب في القرن الماضي رغم طلبه وساطة فرنسا وانجلترا والفاتيكان.

الفصل الثالث

عقدة الموت أو المأزق مع الله

«عندما تسود المحبة تنعدم ارادة القوة»

كارل يونغ

«تفضيل الشعور بالانتماء على المحبة هو جوهر السمات اليهودية في العصور الحديثة»

رافائيل باتاي

«الأزمة الفلسطينية ليست سياسية بل روحية»

والتر زاندر

«الذين يحملون خواص التراحم والصفة والاحسان هم وحدهم الجديرون باسم هذه الأمة (الاسرائيلية)»

التلمود

في أوائل القرن الماضي، كتب الشاعر الألماني اليهودي هاينريش هايني عن التوراة قائلا:

«هذا الكتاب وطن لليهود. فهم يحيون ويقتاتون داخل حدوده المحصنة ولا يستطيع أحد أن يخلعهم منها... وهم في انهماكهم في كتابهم المقدس قلما يشعرون بالتغيرات التي طرأت على العالم الحقيقي من حولهم. فالأمم تقوم وتزول، والدول تزدهر وتتحلل، والثورات تستعر في أنحاء الأرض، بينما يجلس اليهود عاكفين على كتابهم غافلين عن انطلاق الزمن الجامح فوق رؤوسهم». [1]

لم يعد الحال كذلك بعد ظهور الثورة الصناعية ونشوء القوميات. فلو طبقنا هذا المقياس اليهودي في رأي اسرائيل شنكر على «عدد من رؤساء وزارة اسرائيل، ناهيك عن مؤسسي الصهيونية، لأخرجناهم من القائمة، ولكان مؤسس المسيحية أجدرهم بالانتساب الكامل» [2].

والحق أن العلاقة بين الله وبني اسرائيل قديما والاسرائيليين حديثا بالغة التعقيد والغرابة، وهي أكثر من مجرد علاقة تقوم على «الاحترام المتبادل والاستقلال الذاتي والمسؤولية والمهابة والغموض والخوف» في تصور دافيد هارتمان في كتابه «العهد الحي» (١٩٨٦)، اذ تتخللها أيضا مشاعر متضاربة من الشك والغضب والاستكانة، والتنافس والاستهانة وحتى الانكار الكامل. ولهذا فان التجريد الفكري

---

(١) اسرائيل شنكر. المرجع السابق، ص٣.

(٢) المرجع نفسه.

وحده لا يكفي لايضاحها. وسيكولوجية التاريخ تسهل مهمتنا كثيرا اذا توخينا الصبر والمقارنة. وخير ضمان هو أن نجمع بين ما تقوله الكتب المقدسة ووقائع التاريخ في وقت واحد. ولا يضيرنا الاستشهاد بالتوراة والقرآن على سبيل المقارنة، فليست التوراة هي الكتاب الوحيد الذي يؤرخ للعلاقة بين الله والانسان، اللهم الا اذا كان الصهيونيون يعتبرون التوراة مرجعا تاريخيا موثوقا والقرآن «وثيقة لاسامية» رغم أن في التوراة من الهجوم على بني اسرائيل أكثر مما في القرآن ذاته.

والمؤسف أن علماء النفس عندما يتناولون العقل القومي اليهودي بالتحليل يعلمون أنه وليد ثلاثة عوامل هيَ التوراة والشتات والاضطهاد. ومع ذلك يركزون على العاملين الأخيرين على حساب الأول، بل كثيرا ما يتجاهلونه رغم دلالته الواضحة في تفسير أمور هامة مثل العلاقة بين التفوق اليهودي والاحساس بالتمايز ونظرية الشعب المختار، ناهيك عن أن الشتات والاضطهاد كانا في حد ذاتهما رد فعل على موقف اليهود من روح التوراة وليس نصها.

لنرجع اذن الى روح التوراة لمعرفة شرعية التمايز اليهودي وما ترتب عليه من آثار عديدة، وذلك بمقارنتها بما قاله مؤلفها الأصلي (الله) في كتبه الأخرى.

المعنى الحقيقي لاسرائيل

١ ـ لم يكن العبرانيون هم الوحيدون الذين عقد الله معهم عهدا أو ميثاقا، فقد عقده مع سيدنا نوح ومع سيدنا ابراهيم من قبلهم، ومع عيسى والمسلمين من بعدهم. ففي سفر التكوين (٩:٨) «كلم الله نوحا وبنيه معه قائلا: ها أنا ذا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلكم». وفي نفس السفر يطلب الله من ابراهيم تغيير اسمه وختن ابن ثمانية أيام، لأن «هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك» (١٧:١٠).

٢ ـ كان هذا الميثاق **مشروطا** بالحفاظ عليه: «واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن. قال اني جاعلك للناس إماما. قال: ومن ذريتي؟ قال: لا ينال عهدي الظالمين» (البقرة ١٢٤). ثم عقده الله مع المسلمين في القرآن: «ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم.... وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن...».

هذا يشير الى أن الله لم يختر بني اسرائيل اختيارا مطلقا دون غيرهم بلا شروط وبدون قيد زمني، «لأن أنبياء الأميين الصادقين.. قد بذلوا الوعد للمؤمنين من شعوبهم» في رأي سبينوزا[٣]. وكما كان الطوفان في عهد نوح عقابا على إخلاف قومه بالعهد، وكما كان ما حل بقوم لوط (معاصر سيدنا ابراهيم) عقابا لهم على فسادهم، فقد حذر موسى بني اسرائيل عند انحرافهم «بانكم ستهلكون كما فنيت شعوب قبلكم» (التثنية ١٨:١٩). وكان محور الاتفاق مع بني اسرائيل كما جاء في القرآن هو «أوفوا بعهدي أوف بعهدكم» (البقرة ٤٠) أي أن المبادأة بيدهم أصلا. فقد أدى الله دوره عندما قال «اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم» بانقاذهم من ظلم فرعون وملاحقة جنوده لهم، وبقي دورهم.

(٣) باروخ سبينوزا. مقالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة ر. الويس، دار دوفر، نيويورك، ١٩٥١، ص ٥٥.

وجدير بالذكر ان العهد مع الله لم يكن أساسا مكتوبا بالحبر أو بألواح الحجر وانما بروح الله، ولكننا لا نعرف بالتحديد كم كان مقدار هذا الكلام. والتوراة نفسها تختلف في تقرير ذلك. فمقدمة سفر التثنية تقول ان شريعة موسى كتبت على ١٢ لوحا بينما الأسفار الخمسة الأولى من التوراة (التي لا يعترف اليهود بغيرها) أكثر من ذلك بكثير في صحائفها[٤]. وهذه الزيادة تعني ان الذي دوّن الوصايا العشر لم يكن موسى وانما إنسان آخر خصوصا وأن «تابوت العهد» (Ark of the Covenant) الأصلي ما زال مفقودا رغم البعثات الأثرية التي تنقب عنه حاليا حتى شرق الأردن.

والفرق كبير مع ذلك بين تدوين التوراة والقرآن. فالذي كتب التوراة مؤرخ واحد مجهول سجل الأحداث منذ أقدم العصور حتى خراب القدس. آية ذلك انه جمع ما كتبه الأنبياء وأشار اليهم غالبا بصيغة الضمير الغائب، كأن يقول أن ابراهيم أقام في أرض الفلسطينيين سنوات عديدة (سفر التكوين) أو أن موسى كتب الشريعة (مقدمة سفر التثنية). وواضح ان الذي كتب هذا ليس ابراهيم ولا موسى، والمؤرخون اليهود انفسهم يقولون ان تدوين التوراة انتهى فعلا بعد ظهور المسيح.

ويلخص سبينوزا نتائج ذلك بقوله ان التدخل البشري في التوراة واضح من التفاصيل، واسلوب السرد، والسياق، والترتيب، وضمير المتكلم[٥].

وهذا ليس حال القرآن، فالله يتحدث فيه بصيغة المتكلم معظم الوقت سواء بوصفه المتحدث او الراوية. كما ان القرآن دوّن بأكمله في حياة محمد، وشارك فيه خمسة نساخ على الأقل، ولو ان جمعه لم ينته الا في عهد ابي بكر. كما أنه الكتاب المقدس الوحيد (حسب علمنا) الذي تعهد فيه الله بالحفاظ عليه من التحريف (انا نحن نزّلنا الذكر وانا له لحافظون)، والوحيد الذي يفصل بين ما قاله نبيه (الحديث) وما قيل له (القرآن نفسه).

التوارة اذن لم يكن تنزيل الله مصدرها الوحيد (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله» ـ البقرة ٧٩) لكن اتباع جوهر اليهودية ظل حتى في نظر المسلمين كافيا لادخال المرء في عداد المؤمنين أو أهل الكتاب أو الذمة. ومن هنا جاء اصرار المسلمين في صدر الاسلام على تنفيذ تعاليم اليهودية والمسيحية حرفياً.. ولكن اليهود تجاهلوا حكم كتابهم فأمر النبي محمد باحترامه. ونزلت في ذلك آية ساخرة تقول «وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك؟» (المائدة ٤٣). ومرة اخرى تدخل النبي عندما تناحر اليهود من قبائل المدينة وطردوا بعضهم بعضا من قراهم خلافا للتوراة، فنزلت في ذلك الآية «واذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم» (البقرة ٨٤). وفي رأي الشيخ محمد الغزالي أن أغلب ما يباعد بين المسلمين واهل الكتاب الأولين ان هؤلاء لا يريدون تنفيذ ما جاء به موسى وعيسى، على حين يتمسك المسلمون به[٦]. ولو تمسك

---

(٤) المرجع السابق، ص ١٢١.

(٥) المرجع السابق، ص ١٢١ ـ ١٢٢.

(٦) محمد الغزالي. حصاد الغرور، دار البيان، الكويت، ١٩٧٠، ص ٢٧٥.

اليهود بالتوراة لما اقتضى الأمر ارسال عيسى ومحمد لتقويمهم، والله أعلم.

وهناك آية مشابهاة تذكر ان التوراة «فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا» (المائدة ٤٤). قد يقال كيف يكون المسلمون حكما للذين هادوا؟ الحق ان ابراهيم وأبناءه كانوا مسلمين اصلا لأن الرسالة واحدة في جوهرها («ووصّى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنّي ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون» (البقرة ١٣٢). وهذا ما فعله يعقوب (اسرائيل) عند وفاته، «إذ قال لبنيه: ما تعبدون من بعدي؟ قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الها واحدا ونحن له مسلمون» (البقرة ١٣٣). الله اذن ساوى بين الأنبياء (وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون) (البقرة ١٣٦). وقياسا على ذلك، كل الانبياء مسلمون، مثلما أن اسم اسرائيل (كما أراد به أصلا سيدنا ابراهيم) معناه حرفيا «نصير الرب». ومن هنا انتهى المصلح الروحي الكبير ادغار كيسي الى ان كل من يلتمسون الله هم بنو اسرائيل «لأن وعد التوراة لم يوجه الى امة مختارة أو عرق معين.. وانما هو موجه الى الفرد.. الى كل واحد منا»[٧]. وانطلاقا من ذلك، تصبح ارض الميعاد من حق جميع المؤمنين، ويصبح من حق الزعيم الزنجي الراحل مارتن لوثر كنغ ان يهتف في خطاب شهير له في الستينات امام محفل مسيحي: «وسنرى الأرض الموعودة».

هذا التبادل في الأدوار بين العرب واليهود في صدر الاسلام هو الذي جعل القرآن يذكر اسم موسى وبني اسرائيل اضعاف ذكره للمسيح والنصرانية ذاتها، بل وللمسلمين انفسهم. فقد ذكر اسم موسى نحو ١٣٦ مرة واليهود وبني اسرائيل نحو ٦٦ مرة، بينما ذكر اسم عيسى زهاء ٢٨ مرة ومريم حوالي ٣٤ مرة والنصارى قرابة ١٥ مرة فقط، والاسلام والمسلمين (بهذا الاسم) نحو ٥٣ مرة. ويرى الشيخ محمد الغزالي ان المقصود بذلك كان جعل بني اسرائيل عظة للمسلمين كي لا ينقضوا عهدهم كما فعل اليهود وسائر الأمم الأولى من قبلهم. فبدخول المدينة انتقل الميثاق والعهد رسميا الى الاسلام (المحمدي) ولم يعد هناك داع للتحذير والاشارة الى الأمم التي نقضت الميثاق. ومرة اخرى نجد ان العهد مع المسلمين مشروط بالحفاظ عليه «ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم».. الخ.

لهذا من السخف ان نتصور بعد كل ذلك ان انتقاء اليهود عرقي كما يزعم مايكل ويشوغرود رئيس قسم الفلسفة بكلية باروخ بجامعة ولاية نيويورك. وحجته في ذلك ان «الله لم يصطف طائفة دينية او من يتبعون وصاياه وانما اصطفى ذرية ابراهيم»[٨]. وقد رد على نفسه بنفسه عندما قال ان هذا هو الذي يجعل الفلسفة بوصفها قمة في منطق التفكير «غير محورية في اليهودية» فلو طبقنا المنطق لقلنا ان ذرية ابراهيم تشمل بني اسماعيل مثلما تشمل ابناء اخيه اسحق وابنه يعقوب (اسرائيل)، بل قد تشمل المسيح لأن امه مريم كانت (مثل سيدنا يحيى) آخر نسل داود. ولكن الاسلام نفسه لا يقر الشعوبية

(٧) روبرت كراجنكي. النداء الى اسرائيل، مطبعة ARE ، (مؤسسة البحث والتنوير) فيرجينيا بيتش، ١٩٦٩، ص ٥٧ .

(٨) مايكل ويشوغرود . جسد الايمان: اليهودية كانتقاء جسماني، نيويورك، ١٩٨٥، نقلا عن نشرة أخبار الكتاب اليهودي، كانون الثاني/ يناير ١٩٨٦.

لهذا السبب، فالدين عند الله الاسلام، ولا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى، والتقوى وحدها هي محك احترام العهد والميثاق.

كيف نقض بنو اسرائيل العهد حتى الآن؟

سنقصر تحليلنا اساسا على مراحل مساهمة القومية اليهودية في هذا النقض، والاساليب التي استخدمتها في كل مرحلة لتأكيد هويتها.

هذه المراحل هي:

١ ـ تقديم الدين على الله.
٢ ـ تقديم الشعب على الدين.
٣ ـ تقديم الدولة على الشعب.

ونظرا لتناول المرحلة الثالثة في الفصل السابق تحت عنوان «تقديس الامن» (بوصفه اعلى مراتب تقديم الدولة على الشعب)، فسنكتفي بتحليل المرحلتين الأوليين.

تقديم الدين على الله

تتفق التوراة مع القرآن على ان بني اسرائيل نقضوا ميثاقهم مع الله مرارا فعاقبهم على ذلك سواء بالتيه في سيناء او بهدم المعبد او باحتلال بني فلسطين ارض اسرائيل ايام شمشون اربعين عاما (وهي نفس مدة التيه) او باختفاء عشرة من اثني عشر سبطا من اسباط اليهود وتشتت الباقين. ومن الطبيعي امتدادا لذلك ان يعتبر كبير اساقفة نيويورك للطائفة الكاثوليكية جون كاردينال اوكونور «الهولوكوست كفارة لليهود عما فعلوه لانكارهم رسالة السيد المسيح».

ويتوسع القرآن في هذه النقطة فيتناول موقف اليهود من الأديان السماوية كلها من خلال احترامهم لعهدهم أوميثاقهم مع الله: «واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذوي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، ثم توليتم الا قليلا منكم وانتم معرضون» (البقرة ٨٣)؛ و«واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم ثم أقررتم وانتم تشهدون» (البقرة ٨٤)؛ و «ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم أدخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدوا في السبت» (أي لا تصطادوا) «واخذنا منهم ميثاقا غليظا» (سورة النساء ١٥٤)؛ واخيرا «فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلّف» (اي لا يفقهون ما يقال لهم) (النساء ١٥٥).

ومن شبه المؤكد ان اليهودية في بدايتها لم تجعل الاحسان عموما حكرا على طائفة دون اخرى ولكن الاخلاقية الطائفية اذا صح التعبير هي التي كانت من بين اول أسباب تحريف الميثاق.

ومخطوطات البحر الميت ودير علا وغيرها تؤكد الشكوى المتكررة في القرآن من حدوث تحريف في التوراة: («فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله» (البقرة ٧٩)) وفي سور

اخرى: « فبما يحرفون الكلم عن مواضعه» (المائدة ١٣) - «من الذين هادوا يحرفـون الكلم عن مواضعه» (النساء ٤٦) - «يحرفون الكلم من بعد مواضعه» (المائدة ٤١)*. ومع هذا لم يكن التحريف وحده السبب الرئيسي لتكرار النقمة الالهية. فالقرآن يعدد في سورة واحدة ١١ موبقة (سورة النساء: الآية ١٥٣ وما بعدها)، ومن اخطر الخطايا تفضيل الدين على الله الى حد تفضيل الكافر على المؤمن غير اليهودي (ودت طائفة من اهل الكتاب لو يضلونكم، وما يضلون الا انفسهم وما يشعرون» (آل عمران ٦٩)، «ود كثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفاراً» (البقرة ١٠٩)، «يا ايها الذين أمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين» (آل عمران ١٠٠ و ١٠١).

وقد يكون من شيمة بني آدم ان يصدقوا رسولا ويكذبوا آخر غيره («واذا قيل لهم آمنوا بما انزل الله قالوا نؤمن بما انزل علينا ويكفرون بما وراءه» - البقرة ٩١)، ولكن هل من المنطقي او الاخلاقي ان يكون الانسان موحدا بالله ثم يحب «ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا» (النور ٧٠)؟ ناهيك عن قتل أنبيائهم مثل زكريا وشعيب ودانيال ويوحنا المعمدان وعيسى بغير حق («قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين» - البقرة ٩١)؟ لا جواب على ذلك سوى ان الولاء في ذلك الوقت كان للدين اكثر منه لله.

ورغم كثرة التمرد على الله ووصاياه فانه كان رحيما بهم بدليل انه ارسـل الى بني اسرائيـل بشهادة التوراة اكثر مما ارسل الى سائر الديانات الاخرى مجتمعة (نبيا واحدا في الاسلام وواحدا او اثنين في المسيحية وأكثر من عشرة كبار في اليهودية منهم موسى وهارون وذو الكفل واليسع والياس (إيليا) وصموئيل وأشعيا وارميا وحزقيال ودانيال وزكريا وملاحي) خصوصا قبل السبي البابلي، ومع ذلك، اتخذت القومية اليهودية الناشئة - شعوريا او في الغالب لا شعوريا - مظاهر او أساليب اخرى محسوسة وأكثر منهجية لتقديم الدين على الله. وهذه بعض منها.

١ - التخلي عن اسم الله الأصلي

التحول عن اسم الله الأصلي (إيل - إيلواه - الوهيم - ايلي - ايليون) الى اسم يهوه، ومنه الى الاكتفاء بصفته أدوناي (الرب). والرغبة في التفرد ظاهرة من النفور من استخدام اسم ايل الذي كان شائعا لدى الأقوام الأخرى (مثل الفينيقيين والكنعانيين في ذلك الوقت) وبعضها لم يكن وثنيا، وكان فيهم انبياء مثل ملكي صادق (ملك الصدق). وكانت كلمة «الله» شائعة بين العبرانيين منذ ايام ابراهيم وقبل ايام موسى على الأقل، مثلما كانت شائعة بين الكنعانيين وانبيائهم، وايضا بين قبائل العرب ايام الجاهلية، بدليل ان اسم والد الرسول هو «عبدالله» وان المسيحيين العرب مازالوا يستخدمون اسم عبدالله. وتدريجيا اصبح يهوه عند اليهود الاسم الوحيد لله وما عداه فأوصاف له، مع ان سفر الخروج (٦:٢) يقول على لسان الله: «عندما تجليت لابراهيم واسحق ويعقوب كان اسمي الاله القدير على كل شيء ولم يعرفوني باسم يهوه». يؤيد ذلك ان معنى كلمة اسرائيل (اسرا - إيل) هو «المحارب في سبيل

* التوراة نفسها تشير الى التزييف فيها، فقد جاء في سفر إرمياء «كيف تقولون نحن حكماء وشريعة زكريا معنا؟ إن قلم الكتبة الكاذب حوَّلها في الحقيقة الى كذب» (إرمياء ٨:٨)

المسيحيين في امريكا اللاتينية بل انهما كانا مستعملين حتى ايام المسيح على الأقل. ومع ذلك استغرب بعض العلماء الاسرائيليين في عام ١٩٨٣ عندما عثروا على قبر مزخرف لوجيه يهودي أسمه اسماعيل جوليات (أو جُليات في التوراة وهو اسم فلسطيني قح)، عاش في اريحا خلال القرن الأول الميلادي(٩)، مع ان المستغرب هو تسييس الاسماء الدينية الى حد التخلي عن الأسماء التي اطلقها أبو الأنبياء سيدنا ابراهيم على ذريته. فالعرب لم يكفوا مثلا حتى الآن عن اطلاق أسماء يعقوب وسارة ويوسف وموسى واسحق على ابنائهم وبناتهم، رغم كل عدائهم لبني اسرائيل (بني يعقوب)، كما انهم كانوا يحتفلون بأعياد النبي النبي شعيب وموسى وروبين في منطقة القدس ويافا حتى عهد قريب.

٢ ـ تأنيس الله وتأليه الانسان

ظهر هذا بوضوح منذ مساواة التلمود (التي كتبها الحاخامات) بالتوراة المنزلة، أي مساواة الوحي الانساني بالوحي الالهي. وأحيانا يلوح التلمود وكأنه لم يكن مجرد شرح واستكمال للتوراة كما أريد منه أصلا وانما ردا عليها وحماية منها. ذلك أن يهوه هو رب الجند العشائري الذي يحمي اليهود (من الله؟) وتربطه باتباعه علاقة مادية تقوم على الرهبة أكثر من المحبة، ومن ثم يتقربون اليه بالذبائح والقرابين اتقاء لغضبه،وهو مايجعله أقرب الى آلهة القبائل الجاهلية (اللات والعزى ومناف ونسر ويعوق وهبل وغيرها) منه الى سائر ديانات التوحيد. والتلمود مع حكمته البالغة يصور الله في صورة بشرية الى حد الاستهانة بعصمته. ويقال أن أماكن كثيرة تركت فارغة في طبعة التلمود في القرن التاسع عشر، *

ومع ذلك بقيت منها سقطات مؤسفة منها «انه لا يمكن نقض تعاليم الحاخامات ولا تغييرها بأمر الله». وقيل فيها أيضـا أن الله اختلف مع أحبار اليهود على أمر ما «وتقرر بعد طول جدال احالته الى حاخام فحكم بخطأ الاله، مما أرغمه على الاعتراف بخطئه» (١٠). وأقوال الحاخامات (أي الوحي البشري) «ليست أفضل من أقوال الأنبياء فحسب (أي من الوحي الالهي)... وانما أصدق حكما من الله نفسه». وبارتفاع الشعب الى مرتبة القداسة يهبط الله الى مرتبة الانسان حتى أنه «يبكي ويندب ويزأر ندما لأنه

---

(٩) مجلة الآثار التوراتية. واشنطن، شباط/ فبراير ١٩٨٣.

* ظلت اسفار التلمود المنشورة طويلا غير معروفة العدد، ولكنها تتراوح بين ٢٠ و ٤٠ جزءا وتصيبها اضافات وتعديلات حسب الظروف. واندم ترجمة معروفة لها كانت أيام الملك الأندلسي المنصور بن أبي عامر ولكنها فقدت، ثم طبع التلمود بالعبرية في أمستردام عام ١٦٤٤ وبراغ ١٨٣٩ ووارسو ١٨٦٢. ومعظم المقتبسات هنا منقولة من سفر حكريم، الفصل الخامس والعشرين من الجزء الثالث. (أنظر د. محمد علي الزعبي، «دفائن النفسية اليهودية من خلال الكتب المقدسة». بيروت، ١٩٦٨، صفحة ١٢٥ وأماكن أخرى). وحتى الآن لم تترجم منه سوى مقتطفات أو ملخصات. ونظرا لصعوبة فهم التلمود الأصلي بسبب خلوه من الفواصل والنقاط، فقد بدأ اصدار أول طبعة عصرية منه في اسرائيل في الستينات وظهر منها حتى عام ١٩٨٧ عشرون جزءا من مجموع أربعين، ومع ذلك لم يصدر منها سوى جزء واحد بالانجليزية حتى الان.

(١٠) عبد الله التل. المرجع السابق، ص ٧٤.

سمح بخراب بيته واحراق الهيكل ونهب أولادي» [١١]. وفي القرآن شكاوى متعددة من اتهام اليهود لله بالفقر: («ان الله فقير ونحن أغنياء») (سورة آل عمران ١٨١)، وبالتعب («وما مسنا من لغوب») [١٢] أي تعب، وذلك ردا على ما جاء في سفر التكوين من أنه استراح بعد خلق العالم في اليوم السابع. هذا ناهيك عن الشكوى من قولهم أن حمل مريم كان بشريا لا الهيا («وقولهم على مريم بهتانا عظيمـا») [١٣]، بادعائهم في التلمود أن يسوع الناصري «أتت به آمه من العسكري الروماني بندارا بخطيئة»عندما كانت تسبح معه في بحيرة [١٤] وقس على ذلك.

وأحدث مثل على هذا التأنيس البشري لله ما كشفت عنه «عملية موسى» التي نقلت بها اسرائيل سرا حوالي عشرة آلاف من اليهود الأحباش (الفلاشا) من مجاعة أثيوبيا بين خريف ١٩٨٤ وربيع ١٩٨٥. وجلبت هذه العملية لاسرائيل صداعا دينيا وصراعا داخليا يعادلان ما كسبته من الدعاية لانسانيتها. فقد اتضح مما كتبه الكاتب الصحفي الاسرائيلي مايكل لاوري أن «هؤلاء الأحباش يؤمنون بالتوراة ويتقيدون تماما بطقوس السبت وسنن الطعام الحلال (الكاشير)، لكن يبدو أن التلمود، وهو سنّة الشريعة التي وضعت خلال الألف الأول بعد الميلاد، لم يصلهم أبدا بسبب انعزالهم الجغرافي» [١٥]. وهذا يعني تلقائيا جريمة تقديم الوحي الالهي على الوحي الانساني، أي تقديم أوامر الله على أوامر الانسان!

والحق ان اسرائيل اعتبرت انعزال الفلاشا عن التلمود خطأ بل شبه خطيئة، ولم يشفع لهم تدينهم ولا أنهم من اليهود القلائل الذين يسمون أنفسهم حتى الآن بني اسرائيل Bene Israel مثل يهود الهند [١٦]. فبعد أقل من عام على وصولهم اعتصم مئات منهم عدة شهور في صيف عام ١٩٨٥ امام الكنيس الكبير بالقدس احتجاجا على قرار الحاخامية بأن على جميع الأحباش الراغبين في الزواج أن يجتازوا طقوس التهود أولاً. وأرجع لاوري ذلك الى أن الحاخامية «تشك في يهوديتهم»، ورأى أن هذا يجعل قيود السنة التلمودية «أشبه بنظام الفصل العنصري» في جنوب افريقيا» [١٧].

---

(١١) التلمود. صفحة ٧١، نقلا عن المرجع السابق.

(١٢) سورة ميم قاف ٣٨.

(١٣) سورة النساء ١٥٦

(١٤) عيد الله التل. المرجع السابق، ص ٣٧ وأيضا د. محمـد علي الزعبي. «من دفـائن النفسية اليهودية»، بيروت، ١٩٦٨ ص ١٢٨.

(١٥) الفجر اسبوعية ١١/١٠/١٩٨٥ وهذا شبيه بحال طائفة اليهود القرائين الذين لا يعترفون بقـدسية التلمود.

(١٦) نيويورك تايمز. ٨/٣/١٩٨٦.

(١٧) مايكل لاوري. الفجر الأسبوعية، المرجع السابق.

٣ ـ الاستنكاف عن السجود والركوع

مفاجأة أخرى كشف عنها هؤلاء الفلاشا ولا تفسير لها سوى تقديم الأنا. فعندما وصلوا الى الأرض المقدسةلاحظ الجمهور الأمريكي من التلفزيون لأول مرة تقريبا أن هؤلاء الأحباش يسجدون ويركعون في صلاتهم. وعلقت محطة ان.بي.سي. على هذا المشهد في أوائل عام ١٩٨٥ قائلة ان هذه الحركات تمثل الشعائر اليهودية «القديمة» في الصلاة

هل معنى ذلك أن تقديم الأنا هو الذي جعل اليهود يتحولون تدريجيا عن الركوع والسجود الى الانحناء قليلا وهم وقوف؟ يجب ألا نستهين بدلالة هذه الظاهرة، فالرسول محمد يقول «أقرب ما يكون العبد من ربه وهوساجد». والمقصود بالسجود أصلاً هو قمع الكبر في بني البشر، فالكبرياء لله وحده، والسجود أعلى درجات التواضع والتسليم لله، فأنت تمكن أعز أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء وهو تراب الأرض، هاتفاً سبحان ربي الأعلى. وكان النبي يطيل السجود حتى تظن زوجته عائشة انه قُبض (أي توفي)[١٨]

ويستدل من القرآن والتوراة والانجيل على السواء ان السجود والركوع كانا معروفين من قديم الزمان. فالقرآن يتحدث عن «أولئك الذين انعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل وممن هدينا واجتبينا، اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيّا»[١٩]. واكثر من ذلك ان الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض، والشمس والقمروالنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس»[٢٠] فالملاحظ هنا ان جميع المخلوقات حتى الدواب تسجد لله، ولكن ليس كل البشر وانما «كثير» منهم. فهل يرجع ذلك الى الكبر وتقديس الأنا؟ لقد ذكر السجود في القرآن اكثر من الركوع (حوالي ٦٥ مرة مقابل ١٦ مرة)، ومع ذلك اختفى السجود من كل الديانات السماوية تقريبا عدا الاسلام. فما اكثر من يتأبون على السجود لله، «واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا: وما الرحمن، انسجد لما تأمرنا؟ وزادهم نفورا»[٢١]. تذكرت هذه الآية بالذات عندما دعاني صديق يهودي الى منزله لاشعال شمعة الحانوكاه (عيد النور). وبعد أن لبس طاقيته راح يصلي بالعبرية او اليديش (لست أدري). وسألته فضولا: هل تركعون او تسجدون؟ ضحك ساخرا مستنكرا ووصف الركوع (ناهيك عن السجود) بانه «مهين» للانسان. قلت له حتى لو كان على محمل الطاعة؟ قال لو كان هذا ما أمر الله به لما صدقته!

ولكن العهد القديم يشير الى سجود ابراهيم ولوط (التكوين ١٢:٨ و ١٩:١١)، كما يوجد دليل على ممارسة السجود حتى بعد ظهور الاسلام في القرون الوسطى. تذكر رسالة وجهها يهود القدس الى يهود الخارج في نهاية القرن العاشر عند احتلال الفاطميين للقدس «اننا وجدنا من فضل الله حظوة لدى

---

(١٨) مجلة الدعوة. المركز الاسلامي، فيينا، عدد نوفمبر/ ديسمبر ١٩٨٥.

(١٩) سورة مريم ٥٨.

(٢٠) سورة الحج ١٨.

(٢١) سورة الفرقان ٦٠.

الحكام من ابناء اسماعيل» (العرب). ثم يذكرون في موضع آخر: «حتى متى يا الهي سيظل الخصوم يشمتون بنا؟ والى متى سيكفرون باسمك؟ عزاؤنا يوم السماح لنا مرة اخرى بأن نطوف بأبوابها كما يحلو لنا وبأن نسجد في صلواتنا لتحرير القدس تماما وترميم معبدها»(٢٢).

وقبل ذلك بكثير كان اليهود الفريسيون يسجدون ١٣ مرة عند دخول الهيكل في القدس، بل كان اسلافهم احيانا يسجدون حتى للشمس. فقد عثر مؤخرا على ختم للملك شاؤول يصور رجلين راكعين امام الاله الشمس، وهو يتخذ صورة جعران على لوح بالعبرية يرجع الى القرن الثامن ق.م.(٢٣). وقد شكا الأنبياء اليهود من تحول اليهود عن السجود لله في المعابد الى السجود للشمس وغيرها، كما ورد مثلا في سفري ارميا (٢:٨) وصفنيا (٥:١) ويذكر مؤرخو الاله يهودا ان سبط منسي كان يعبد الشمس. فقد جاء في سفر الملوك الرابع ان منسي «سجد امام كواكب السماء وعبدها» (٣:٢١)، كما ان حزقيال قال ان الرب أراه في رؤياه «نحو خمسة وعشرين رجلا ظهورهم نحو هيكل الرب ووجوههم نحو الشرق وهم ساجدون للشمس. وقال لي أرأيت يا ابن آدم، اقليل ما فعله بيت يهودا من رجس هنا؟» (حزقيال ١٦:٨ـ١٧). وتدريجيا شاع القسم بالشمس الى ان حللته الشريعة في النهاية بشرط ان يكون خالق الشمس هو المقصود بذلك (ولكن لم يكن ذلك دون ثمن باهظ هو الاشراك بالله).

وهكذا عندما جاء عيسى عليه السلام لتقويم بني اسرائيل أساساً وأغراه الشيطان على الجبل بملكوت الأرض كلها «ان خررت ساجدا لي، قال له يسوع عندئذ: إذهب يا شيطان لأنه مكتوب: للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد» (متّى ٤:٨ـ٩ ولوقا ٤:٧ـ٨).

أما في القرآن فقد قيل لمريم أيضا «يا مريم إقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين» (آل عمران ٤٣). ولا ندري لماذا اختفى السجود بعد ذلك من النصرانية أيضا وظل قاصرا على بعض الرهبان وقلة من الطوائف مثل النساطرة واليعاقبة (في سوريا وتركيا وايران) والأحباش والاقباط الارثوذكس بين النصارى، وعلى الفلاشا والسامريين والقرائين بين اليهود. ونفس القول تقريبا ينطبق على الركوع. بل ان الموسوعات البريطانية والأمريكية خالية تماماً من كلمة السجود Prostration وهذا امر مؤسف ومحير خصوصاً وانها تفرد مساحة ملحوظة لكلمة Prostitution (البغاء) التي تسبقها . والاستثناء الوحيد من ذلك هو موسوعة الدين والاخلاق الامريكية المنشورة عام ١٩٢٧. حدث هذا رغم كثرة التذكير بالسجود والركوع منذ ايام موسى: «يا بني اسرائيل.. أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين» (البقرة ٤٠ـ٤٣)، و «ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا» (النساء ١٥٤).

وعندما كثرت معاصيهم نصحهم الله: « قولوا حطّة وادخلوا الباب سجدًا نغفر لكم خطيئاتكم» (الأعراف ١٦١).

---

(٢٢) نشرة أخبار الكتاب اليهودي، عدد كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٥.

(٢٣) مجلة الآثار التوراتية. عدد سبتمبر/ اكتوبر ١٩٨٤.

ومع ذلك كلما «قيل لهم اركعوا لا يركعون» (المرسلات ٤٨) .

الآية قبل الأخيرة ذات أهمية بالغة في تفسير علاقة الانسان بالله. فالله يغفر للانسان كل الذنوب الا الشرك بالله. روى أبو ذر الغفاري عن النبي أنه قال: «ذلك جبريل أتاني فقال: من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة. قلت: وان زنا وان سرق؟ قال: وان زنا وان سرق» (عن صحيح البخاري).

واذا كانت كل الذنوب مغفورة الا الشرك فان أكبر مصداق على الايمان هو السجود، فنية يكون العبد فيه أقرب الى ربه من اي شيء آخر. ولهذا سميت دور العبادة الاسلامية بالمساجد. ويبدو ان الامتناع عن السجود كان نتيجة طبيعية للسجود للشعب نفسه بعد تأليهه. «فبينما تجسد المسيحية الله في يهودي واحد» (يسوع) «تجسد اليهودية الله في كامل شعب اسرائيل» على حد قول مايكل ويشوغرود.[٢٤]

تقديم الشعب على الدين

ثم خطت القومية اليهودية الناشئة مرحلة أخرى بتقديمها الشعب على الدين والله معا، واتخذت في ذلك أساليب منها:

١ ـ الاحجام عن التبشير

الاصطفاء العرقي يعني بالضرورة الانغلاق على الذات. ومع أن نسبة اليهود الى مجموع سكان الامبراطورية الرومانية أيام المسيح كان كبيرا نسبيا كما ذكرنا (٦ ـ ٧ ملايين من مجموع ٦٠ مليونا)[٢٥]، فان هذا الرقم كان قليلا جدا على أول ديانة موحدة بالله بعد نيف وألف عام من ظهورها. ولا تفسير لذلك سوى الاحجام عن التبشير.

وبرر ذلك الحاخام لورنس شيفمان بقوله أنه لو تهاون الحاخامات وقبلوا ادخال الأغيار المسيحيين في صفوف الشعب اليهودي، «لصار المسيحيون بسرعة هم الاغلبية»[٢٦]. وأصبح الفراق محتما بين المسيحية واليهودية في نهاية المطاف عندما لم يعد النصارى يقبلون تعريف الشريعة اليهودية لمن هو اليهودي (المولود من أم يهودية).[٢٧].

ولتقليل فرص التهود أمام الأغيار منذ البداية، كان سفر المكابيين الثاني يحلل «قتل كل بني كنعان حتى لو تهودوا». وهكذا فان أنصار القومية اليهودية (وليس كل اليهود بالضرورة) كانوا منذ أقدم العصور في رأي عبد الله التل «لا يريدون لأحد أن يكون على دينهم، واذا كان على غير دينهم

(٢٤) مايكل ويشوغرود. المرجع السابق.
(٢٥) من محاضرة للدكتور سايروس غوردون في نيويورك يوم ١٩٨٥/٥/٢٣.
(٢٦) لورنس شيفمان. من الذي كان يهودياً؟، هوبوكن، نيويورك، ١٩٨٥.
(٢٧) المرجع السابق.

حاربوه»! [٢٨]. واذا كانت التنظيمات الصهيونية قد شجعت مؤخرا على التبشير فلأن تعداد اليهود اخذ في التناقص بسرعة هذا القرن.

٢ ـ جعل الانتساب الديني للأم لا الأب

اليهودية هي الديانة الموحدة الوحيدة تقريبا التي تجعل نسب الدم للأب ونسب الدين للأم. وهذا التنسيب للأم غير منطقي بالذات عندما نلاحظ أن كلمة يهوذا مشتقة من يهوذا ابن يعقوب الذي كان سبطه يحتل بين الأسباط الاثني عشر منزلة شبيهة بمنزلة قريش لدى قبائل العرب. ونحن نعلم أن يهوذا رجل وليس امرأة. وأعجب من ذلك أن اليهودية تكاد تكون الديانة السماوية الوحيـدة التي تستمد اسمها من الشعب. وكان الاسلام حتى عهد قريب يسمى بين الأجانب بالمحمدية لولا نفور المسلمين من جعل ولائهم للرسول قبل الله.

اذن ما الذي دعا الى اتخاذ تقليد غير مألوف بين الديانات هو جعل النسب الديني يقوم على الأم لا الأب؟

أغلب الظن أن المقصود بذلك كان تفضيل بعض أبناء ابراهيم على بعض، وبالتحديد تفضيل أبناء يعقوب على اسماعيل، أي بني اسرائيل على العرب. ولا سبيل الى ذلك الا بجعل الزوجة سارة (أم يعقوب) مصدر النسب وليس الزوج ذاته، لأن الانتساب الى ابراهيم يساوي اليهود بالعرب (وهم أبناؤه من جاريته هاجر).

حيلة اخرى استخدمتها القومية اليهودية لحل مأزق «ذرية ابراهيم» هي الايحاء بان ابراهيم كان يهوديا، وفي هذا تناقض. ذلك ان أم ابراهيم لم تكن يهودية (مثل سليمان الذي كانت امه حثّية). فماذا عن كونه عبرانيا؟.

هنا لا بد أن أقول أن الذي يحسم الموضوع هو: ما اللغة التي كان يتحدث بها ابراهيم؟ اذا كانت هي العبرية (وهي من اللغات السامية الشمالية الغربية) فكيف يكون العرب من سلالة ابنه اسماعيل؟ ان مولد اللغة يستغرق آلاف السنين، فكيف تسنى للعرب أن يتكلموا العربية قبل محمد وبينه وبين اسماعيل نحو ألفي عام؟ المعروف أن ابراهيم هاجر من أور حوالي عام ٢٤٠٠ ق.م بتقدير علماء المسلمين (وهو ما ترجحه حفريات ايبلا) وحوالي عام ١٨٠٥ ق.م بتقدير العلماء اليهود. والحقيقة أن العلماء اليهود يعترفون بأن ابراهيم كان يتكلم بالأرامية (مثل المسيح)، ولولا ذلك لما استطاع أن يتفاهم مع عرب الجزيرة. ونفس القول يصدق على ابنه اسماعيل، فهو أبو العرب روحيا فقط لأن العربية كانت موجودة قبله بآلاف السنين. ويتفق مع هذا الرأي الدكتور محمد علي الزعبي.

---

(٢٨) التل. المرجع السابق، ص ٣٧.

٣ ـ تقديم الانتماء على المحبة

أصبح الشعور بالانتماء وليس الحب هو جوهر السمات اليهودية في العصور الحديثة كما يقول رافائيل باتاي [٢٩]*. ولا ينكر باتاي في مؤلفه الممتاز «العقل اليهودي» أن التدين شرط لليهودية [٣٠]. على أنه يكاد يحمل الأغيار مسؤولية تخلي اليهودي عن طاعة الله واطاعة الدولة بدلا منه، وبالتالي مسؤولية تدهور اليهودية. فهو يذكر مثلا أنه «بعد أن جاء اليهود باستبصارات دينية غزت جانبا من البشرية، ظل اليهود ألف سنة محرومين، بسبب اضطهاد الأغيار لهم ورد فعلهم على ذلك، من الاتيان بأفكار جديدة تؤثر في العالم كله»[٣١]. وأغرب من ذلك قوله عند حديثه عن التراحم اقتداء بالله «أن الأمم الأخرى منذ النفي الروماني كانت تفتقد الى هذه الصفة القدسية البشرية الهامة» [٣٢]. وأين ذهبت المسيحة والاسلام؟ وماذا عن التراحم بين اليهود الذي تحول الى «تلاحم» أيام الحروب الأهلية المستمرة المهلكة بين مملكتي يهوذا واسرائيل (وداخل كل منهما)؟ التوراة نفسها تذكر أن مملكة يهودا قتلت نصف مليون اسرائيلي في غزوة واحدة، ثم ألم تكن حرب الابادة هذه بشهادة المؤرخين هي التي أوقفت ظهور أنبياء اليهود (وما أكثرهم) يأسا منهم منذ القرن السابع قبل الميلاد حتى ظهور زكريا ويحيى والمسيح؟

ثم ان باتاي نفسه يذكر في الصفحة التالية مباشرة (صفحة ١٥) أن اليهودية كدين بدأت تنتهي مع عصر التنوير اليهودي بدليل أن كثرة السؤال عمن هو اليهودي «يبين مدى فقدان الشريعة اليهودية سطوتها على العقل اليهودي» [٣٣]. وهذا يعني في تصوره أن الديانة اليهودية ظلت منتعشة حتى عصر التنوير (الذي أنهى الاضطهاد)!

أما اعتقاد باتاي «أن محمدا وضع الاسلام بتأثير من التعاليم اليهودية» [٣٤] فتبسيط ساذج أشبه بالقول أن المسلمين أخذوا الختان عن اليهود وليس عن ابراهيم حين ختن اسماعيل علامة على العهد. ولعل السبب هو أن من اليهود من يعتبرون ابراهيم يهوديا كما أسلفنا، مع أن العبرانيين أنفسهم لم يصبحوا يهودا الا بعد أن عقد الله عهده مع موسى.

ثم أن محمدا كان أميا غير مطلع على التوراة، ولم يكن بحاجة الى ذلك ولديه المرجع الأصلي وهو

(٢٩*) رافائيل باتاي. العقل اليهودي، نيويورك، ١٩٧٧، ارونسون، ص ٩.

* لا يعني أن الاحساس بالانتماء لم يكن موجودا لدى اليهود قبل ذلك، ذلك أن العصبية القبلية ظلت دائما «آفتهم الخالدة» على حد تعبير عباس محمود العقاد.

(٣٠) نفس المرجع، ص ٢٩٧.
(٣١) نفس المرجع، ص ١٤.
(٣٢) نفس المرجع، ص ٥٢٩ ـ ٥٣٠.
(٣٣) نفس المرجع، ص ١٥.
(٣٤) نفس المرجع، ص ١٤.

الوحي المنزل. كما أن أباه عبد الله لم يأخذ اسمه من اليهود وانما من ابراهيم نفسه والاحناف من بعده الذين اتبعوا رسالته خلال اقامته في الحجاز. أي أن الاسلام واليهودية معا امتداد لما جاء به ابراهيم وأوصى به بنيه («ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنيّ أن الله اصطفى لكـــم الدين فلا تموتّن الا وأنتم مسلمون») [٣٥].

٤ ـ التوسع مؤخراً في تعريف اليهودي

عندما بدأت الشريعة اليهودية بالتحديد تفقد سطوتها على العقل اليهودي أصبح من الضروري توسيع القاعدة الشعبية للعقل القومي اليهودي كنوع من التعويض عن تضاؤل الكيف بزيادة الكم. وكان ذلك أساسا نابعا عن الخوف من الذوبان في المجتمعات الحديثة. يؤيد ذلك أن حركة التبشـير اليهودي في الغرب أصبحت حاليا ملحوظة النجاح. وتبع ذلك طبعا التوسع في تعريف اليهودي، وكانت بعض هذه التعاريف دينية اصلاحية وبعضها الآخر دينية ـ قومية.

ذلك أنه قبل عصر الاستنارة في القرن الماضي بظهور الحسيديين كان تعريف اليهودي في السنّة التلمودية أو الشريعة هو من كان مولودا من ام يهودية او تحول الى اليهودية. اما الآن فتوجد في تقدير باتاي أربعة تعاريف شائعة لليهودي هي:

١ ـ من جاء من أصل يهودي.
٢ ـ من اعتنق اليهودية أو آمن بها.
٣ ـ من كان من أبناء الشعب اليهودي.
٤ ـ من ولد من أبوين يهوديين [٣٦].

لكن تقديم الشعب على الدين والله بهذا الشكل «السكاني» لا يتفق مع ما نصت عليه التوراة وهو أن الذين يحملون خواص التراحم والعفـة والاحسان «هـم وحدهم الجـديرون بـاسم هذه الأمـة» (الاسـرائيلية)[٣٧]. ولا تفسـير لانقطاع بني اسـرائيل عن التبشـير في البدايـة ثم التـوسـع فيـه حـاليا سـوى حب البقاء البيـولوجي لا الروحي. والقوميـون اليهود رغم علمـانيتهم يستخـدمـون التوراة سلاحا تاريخيا وسياسيا أكثر منه دينيا، فأصبحوا أشبه بمن يبيع الأناجيل أمام الكنيسة ولا يدخلها، ومع ذلك يتهم كل من لا يتعامل معه بالكفر («مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا») [٣٨]. ولا أحسب أن الله اصطفى بني اسرائيل شعبا أو قومية بل دينـا مفتوحا للبشرية كافة كما أسلفنا.

---

(٣٥) سورة البقرة ١٣٢.
(٣٦) باتاي. المرجع السابق، ص ١٥ .
(٣٧) نفس المرجع.
(٣٨) سورة الجمعة ٥.

٥ ـ تقييد الزمان والمكان

من حيث الزمان، يبدأ التقويم العبري مع بدء الخليقة. ولكنه لا يمتد أكثر من ستة آلاف سنة. وهذا التوقيت أقرب الى أحلام اليقظة او منطق التمني wishful thinking، فنحن بهذا التقويم عاجزون عن تفسير عمر الانسان العاقل على الأرض الذي يتراوح بين نصف مليون و ٤ ملايين سنة(٣٩)، او عن الاعتراف بالحضارات العظيمة البائدة مثل قارة أطلانطيس التي يحمل اسمها المحيط الأطلسي (أتلانتيك)، أو الاعتراف بوجود مخلوقات ذكية أخرى غير سكان الأرض.

وكان أفلاطون أول من أشار الى قارة أطلانطيس التي قد يقترن اختفاؤها بالطوفان أيام سيدنا نوح. ولكنها ظلت مجرد أسطورة الى أن اكتشف الغطاسون حيطانا ومباني ضخمة عام ١٩٦٨ على عمق عشرات الأمتار عند جزيرة بميني قرب شاطيء ولاية فلوريدا الأمريكية، ونشر العالم الجغرافي شارل بيرليتنر أول صور لها عام ١٩٨٣ في كتاب رائج عنوانه «أطلانطيس القارة الثامنة». وفي عام ١٩٨٥ التقطت غواصة سوفياتية للأبحاث شريطا تليفزيونيا لمعابد وقاعات كاملة تحت البحر قرب جزر الأزور في المحيط الأطلسي (٤٠)، وهي ترجع الى نفس الفترة تقريبا.

وقد أصبح العقل المعاصر أكثر تقبلا لهذه المعلومات رغم (ربما بسبب) شدة سطوة التكنولوجيا. فالحقيقة أن التكنولوجيا والباراسايكولوجيا (علم الخوارق النفسية) قد تبدوان ظاهريا خصمين، ولكنهما تشتركان في سمة أساسية هي النزعة الكونية نحو عوالم أخرى مثل الفضاء الخارجي والفضاء الداخلي للانسان (اذا صح التعبير). وليس غريبا مثلا أن تقدم علم تكنولوجيا الفضاء قد خلق اقبالا غير عادي على صنع ومشاهدة القصص العلمي الذي يجمع بين التكنولوجيا والخوارق. وقد أحصيت في صيف عام ١٩٨٦ عدد الأفلام المعروضة في كبريات دور السينما في نيويورك فوجدت أن نسبة لا يستهان بها تتناول الخوارق الكونية الخارجية والداخلية، وبعضها من اخراج مخرجين محترمين يتسمون بالحس الاجتماعي والانساني مثل ستانلي كوبريك (مخرج فيلم سبارتاكوس) وستيفن سبيلبرغ (مخرج فيلمي إي.تي. واللون الأرجواني). وسبيلبرغ يهودي ولكنه استثناء من القاعدة. فبينما يميل الروس الى تصديق وجود الأطباء الطائرة (كما تقول صحيفة نيويورك تايمز) يجد كثير من اليهود صعوبة في تصور مخلوقات ذكية اخرى غيرهم في الفضاء الخارجي حتى لو نشرت مجلة لايف عدة صور واضحة لها التقطها هواة من مختلف بلدان العالم بكاميرات عادية. ولا نعرف الى اي حد مضى الرئيس الامريكي السابق كارتر في اقتراحه بتشكيل لجنة لدراسة ظاهرة الأطباق الطائرة، ولكننا نعلم الآن ان كورت فالدهايم عندما كان امينا عاما للامم المتحدة عام ١٩٧٥ وجه رسالة باللاسلكي من خلال مرصد أرسيبو الارميكي في بورتوريكو الى المجرة ماسييه ـ ٣ يطلب فيها من سكان الاخرى ان يردوا عليه «كي نتعلم من حضارتكم العظيمة». وكانت الحكومات الاخرى اكثر تحمسا من

---

(٣٩) مجلة ناشونال جيوغرافيك. تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٥.

(٤٠) مجلة نيوز ويكلي ورلد ، نيويورك، ١٩٨٥/١٠/٢٢.

الحكومة الامريكية، فقبل سنوات قلائل استجابت الجمعية العامة للأمم المتحدة التي تمثل ١٥٩ دولة لنداء من رئيس وزراء غرينادا الدكتور ايريك بيج وادخلت في جدول اعمالها بندا عن «أهل الفضاء».

اما على صعيد الدول الكبرى، فقد ابرمت يوم ١٩٧١/٩/٣٠ في واشنطن معاهدة سرية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي (وقعها وليام روجرز واندريه غروميكو وزيرا خارجية البلدين آنذاك) للتقليل من خطر نشوب حرب نووية. وذكرت المادة الثالثة منها: «يتعهد كل من الطرفين بان يبلغ الآخر فور ان تكتشف شبكات الانذار من الصواريخ اجساما مجهولة الهوية». وفي ١٩٨١/١١/٢١ ارسل الميجور جنرال ل. شوايتزر بمجلس الامن القومي الامريكي رسالة الى الجنرال نورمان فونكفتشكي عضو لجنة الفضاء الخارجي بالامم المتحدة يبلغه فيها ان الرئيس ريغان «يدرك جيدا» خطر عمليات الاطباق الطائرة على عمليات الامن الدولي». وفي ١٩٨٧/٢/١٦ قال غورباتشوف في احتفال بالكرملين «ان الرئيس الامريكي قد ذكر خلال اجتماعنا في جنيف ان على الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ان تتكاتفا لصد هذا الغزو. وانا لا اخالفه في هذا الافتراض رغم اعتقادي ان القلق على ذلك سابق لأوانه». وكان ريغان قد ذكر هذا قبل ذلك بعامين في مدرسة فولستون بولاية ماريلاند يوم ١٩٨٥/١٢/٤

ولعل أحجام العقل القومي اليهودي عن الانفتاح على الزمان والمكان يرجع الى أن أهل الفضاء الخارجي قد يكونون على مرتبة روحية تزرى بتقدمنا الروحي وتجعلهم أجدر منا بلقب شعب الله المختار.* والحق أن هذه فرضية قوية تفسر تقييدا آخر من العقل القومي اليهودي على التصور البشري هو الارتداد عن فكرة خلود الروح، وهو ارتداد يقودنا الى أهم مظهر من مظاهر تفضيل الشعب على الدين والله كما سنلاحظ أدناه بشيء من التفصيل، كما أنه يقودنا الى الصلة الأساسية بين عقدة الموت في العقل القومي اليهودي وتأزم علاقته بالله.

٦ ـ الارتداد عن فكرة خلود الروح

كانت نظرية الشعب المختار حلا مثاليا، فهي تضمن الوجود القومي اليهودي كشعب مختار من الله دون حاجة الى الله ذاته، أي «صهيونيون بلا صهيون»، أو «يهود بلا يهودية» على حد وصف الحاخام اسحاق دويتشر. وهذا الوضع الطريف يجعلهم أشبه برجل عامي صاهر أسرة ارستقراطية ثم طلق زوجته ومع ذلك ظل يصر على ارستقراطيته، أو أشبه بدولة كبرى سحبت اعترافها بدولة صغرى

* أصبح إنكار الأطباق الطائرة «فضيحة وترجيت كونية» كما يقول عالم الفيزياء الأمريكي ستانتون فريدمان. فقد رآها عدة شخصيات عالمية مثل الرئيس كارتر ورئيس سابق للأرجنتين، وملاحا الفضاء ماكديفت وكوبر، فضلاً عن عشرات خطفهم وأعادهم «أهل الفضاء» وفشل جهاز كشف الكذب في اثبات كذبهم. وبعض الطيارين هاجموا الأطباق الطائرة وفقدوا حياتهم، ومن تفادوها ينفون أنها مركبات أرضية لأن قطرها يبلغ أحيانا ميلاً كاملاً وتطير بسرعة ٦ ـ ٧ آلاف ميل في الساعة ومع ذلك تغير اتجاهاتها فجأة في كل اتجاه، وتطير احيانا من تحت الماء، ولا يمكن زرع التراب الذي تهبط عليه لانه لا يمتص الماء. وتطرأ على المخطوفين العائدين تغيرات روحية منها التسامح وتغير الاولويات المادية والايمان بالله وقلة الخوف من الموت بدلاً من العكس. ويبرر المخطوفون كثرة التجارب المعملية عليهم بحرصهم على انقاذ أهل الارض «من أنفسهم»!

ولكن الأخيرة ظلت ترفض الاعتراف بشرعية سحب هذا الاعتراف.

وحاول الحاخام وليام بيركوفتنر عند مقابلته مناحيم بيغن في نيويورك عام ١٩٧٩ أن يبين أن المسألة ليست مسألة العودة الى الأرض بل الى صهيون، وانه كان في مدينة نيويورك حتى ذلك العام حوالي ٧٠٠ كنيس يهودي أغلق ٧٩٪ منها حتى الآن «لأن كل أموال التبرعات اليهودية تقريبا تذهب الى اسرائيل على حساب المعابد». وكان تعليق بيغن هو أنه «لا توجد يهودية بدون صهيونية»، فرد عليه بيركوفتنر قائلا «بل لا توجد صهيونية بدون يهودية والا سينتهي مبرر قيام اسرائيل» [٤١].

ومن المؤسف أن الذي أسهم في ذلك هو عدم تأصل فكرة خلود الروح وحرية الفرد في العقل اليهودي، كما يقول هيغل،[٤٢] مع أن اليهودية ذاتها (مثل الاسلام) تؤمن أصلا بأن الروح لا تفنى بعد الموت وانما تظل مجمدة في برزخ حتى البعث. ووافقني كل اليهود الذين ناقشت هذا التضارب الغريب معهم، وومع ذلك ظلوا يصرون على أنهم لا يؤمنون بالحياة بعد الموت. وربما ساعدت على ذلك قلة الاشارات الى خلود الروح في التوراة والشريعة اليهودية عكس الاسلام. لكن الدراسات الحديثة في السنوات العشر الماضية أظهرت أن ذلك ليس مسؤولية اليهود وحدهم لأن الاشارات الى فكرة خلود الروح كانت موجودة بكثرة في الكتاب المقدس بشطريه ثم حذفت خلال انعقاد مجمع نيقية المسكوني في القسطنطينية عام ٥٥٣ ميلادية*، تماما مثلما حذفت منه السنوات المجهولة من حياة المسيح بين سن ١٢ و ٣٠ سنة. أما القرآن فظلت فيه دون مساس اشارات متعددة الى خلود الروح منها «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون»[٤٣]. وتوحي آلة أخرى بأن بعض اليهود كانوا يؤمنون بالآخرة (وان لم يكن بخلود الروح بالضرورة) أيام النبي، اذ تقول سورة البقرة: «قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين. ولن يتمنوه أبدا»[٤٤].
ما الذي استدعى هذا الحذف اذن؟

يقال أن جوهر النزاع التاريخي بين الفريسيين والصدوقيين (١٤٢ ق.م ـ ٧٥ م) كان بين الديمقراطية واتوقراطية الكهنة، وانتصرت فيه التقاليد الديمقراطية التي حملها الفريسيون بعد اندحارها طويلا منذ وفاة سليمان الذي نشر الديمقراطية وأشاع احترام الحرية الشخصية وحرمة الفرد والتعايش بين الأقوام المختلفة. وحاول الفريسيون اعطاء الشعب مزيدا من الاستقلال عن الكهنة، فأشاعوا بين العامة فكرة خلود الروح وتناسخها بعد اختلاط ٣٠٠ عام بديانات الأقوام

(٤١) حديث اذاعي للحاخام وليام بيركوفتز في ١٩٧٩/٩/٢٣ من محطة DPI، نيويورك.
(٤٢) هيغل. المرجع السابق، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧.

* أنظر مثلا كِتاب: Noel Langely: Edgar Cayce and Reincarnation
وكتاب Shirley Maclaine: Out On A Limb: Bantam Books, 1984 .

(٤٣) سورة البقرة ٢٨.
(٤٤) سورة البقرة ٩٤ ـ ٩٥.

المجاورة وبتأثير من الفلسفة الهيللينية التي كانت تحمل هذا الاعتقاد، ومن فلسفة أفلاطون بالذات، وعندما تمزق المجتمع الاسرائيلي بعد فترة طويلة من هدم الهيكل الثاني عام ٧٠ م، لم يعد الشعب قائما بتركيبه الاجتماعي وانما كتنظيم ديني استرد معه الأحبار سلطتهم الزمنية. ولما كان الشعب اليهودي في الشتات لا يحتمل أية هزة أخرى، فقد كان حذف فكرة خلود الروح من الكتب اليهودية المقدسة حلا مثاليا أيضا لأنه أراحهم من عاقبتين مزعجتين هما:

* ان الروح بعد الموت لا تفرق بين دين وآخر، فالولاء لله وحده.
* ان الله بعد الموت لا يفرق ـ في تصورهم ـ بين عرق وآخر، وبهذا تنتهي العلاقة الخاصة بين الله والشعب المختار.

لكن هذا الحل «المثالي» ساعد على ايقاع العقل القومي اليهودي في مأزق أشد هو الهلع المرضي من الموت الى حد التهالك على الحياة. فاذا لم تكن هناك حياة بعد الموت، فان تقديس الحياة الدنيا واجب. «ولتجدنهم أحرص الناس على حياة، ومن الذين أشركوا، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة» كما جاء في الذكر الحكيم [٤٥]. ومن الغريب أن يكون هؤلاء أحرص على الحياة من الذين أشركوا، ومع ذلك يصرون على أنهم أقرب المقربين الى الله، مع أن الدنيا سجن المؤمن والآخرة جنته. ولا عجب أن تحداهم الله مرة أخرى ـ كالعادة ـ بقوله «قل يا أيها الذين هادوا ان زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين، ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم» [٤٦] (للخوف المفرط من الموت أسباب أخرى داخلية سنتناولها فيما بعد).

ومن مظاهر هذا التشبث بالحياة استاذية العقل اليهودي في فن البقاء. وهو يتمثل في الدهاء، والاهتمام الملحوظ بالمال بوصفه الضمان الفردي الوحيد في غياب العناية الالهية، مع ضراوة المساومة عموما، وكثرة الأعياد التاريخية (وكثير منها حزين) الى حد أن أبي كان يستغرب ذلك رغم شدة تدينه، وكثرة التزين بالذهب والمجوهرات مع كثرة الأسماء التي تشير الى أسماء المشتغلين بها مثل جولد وجولدمان وسيلفر وسيلفرباوم ودياموند وديامنت.. الخ (في نيويورك وحدها عشرات الآلاف يحملون اسماء من هذا النوع ومعظم حامليها من اليهود). هناك ايضا ظاهرة فريدة تبدو في التمائم والقلائد، فما يحمل منها كلمة «لحايم» العبرية (اي للحياة) يعادل ما يحمل منها نجمة داود، ان لم يزد. هناك ايضا الحداد الدائم الى حد تقديس الهولوكوست تدريجيا (وهو امر لا نظير له في التاريخ)، وسرعة شيوع الدفن فوق مستوى الارض خصوصا في امريكا، ولعله الخوف من الوحدة بعد الموت. وذكرت لي طبيبة نفسية امريكية ان مرضاها اليهود يتعذبون كثيرا (أو أكثر من غيرهم) عند مواجهة الموت او احتمال حدوثه.

قد يبدو تناقض بين كثرة الحداد في الأعياد وبين الخوف من الموت، ولكنه تناقض ظاهري. فالأعياد مهما كانت حزينة تقوى ولا تقلل من تحالف الناس ضد العدو المشترك: الموت. وليست الفكاهة

---

(٤٥) سورة البقرة ٩٦.

(٤٦) سورة الجمعة ٦.

اليهودية المأثورة سوى محاولة من هذا القبيل، فهي هرب متوتر من الموت أكثر منها احتفاء بالحياة. *
الايطاليون مثلا محبون للحياة جدا ومع ذلك لا يضعون حول أعناقهم سلسلة تمجد الحياة بعبارات مثل! Viva la dolce vita والا كانوا اشبه بسجين يصرخ طالبا ما لذ وطاب في ساعاته الأخيرة قبل أن يساق الى المشنقة.

والممثل الفكاهي اليهودي المعروف وودي ألن رجل من هذا النوع. فالقضية الكبرى عنده هي مشكلة الموت (٤٧). وهو يقول هذا دون مبرر ظاهري. فلا هو شيخ، ولا هو على عتبة الموت، ولا كان مريضا حتى بالانفلونزا حين قال ذلك. وهذا لا يطعن في نزاهته مع نفسه وبحثه الدائم عن الحقيقة، وتأييده لحقوق الانسان عامة والفلسطينيين منهم خاصة خلال الانتفاضة..

وفرويد لا يختلف عنه كثيرا، فهو يدخل اكلنيكيا في عداد الانبساطيين، ولكن كتاباته قاتمة تخلو من الأمل أو حتى من الاشارة الى الطبيعة، «والسمة الرئيسية في شخصيته هي المرارة» حسب رأي زميله يونغ. وتوحي المواد الكثيرة التي تجمعت عن فرويد مؤخرا بأن عقدة الموت لديه كانت أوضح من غيره. اذ يقول يونغ أن فرويد أصيب بالاغماء مرتين عندما تحدث فيهما معه عن الموت (كان موت اخناتون المبكر موضع الحديث في الحالة الثانية). وأسرف فرويد في ذلك الى حد اتهام يونغ بأن حديثه عن الموت يعني أنه يتمنى له الموت! وعلل يونغ ذلك بأن فرويد الذي كان لا يخفي نفوره من أبيه قد استعاد في المناسبتين خطيئته اللاشعورية في تمنيه الموت لوالده. (٤٨)

وفرويد عموما نموذج طيب للعبقرية السيكولوجية عند اليهود على حساب العبقرية الروحية، ولذلك كان عاجزا عن شفاء نفسه باستغراقه في قذارة اللاشعور أو «الاسطبل البشري» على حد تعبير يونغ. وهذا النبوغ في مراقبة الانسان ممتع ولكن لا بد من موازنته بمراقبة الطبيعة والموضوع، والا انتهى بنا الأمر الى خلل نفسي يكون انكار الله أولى نتائجه، لأنه يشلنا تماما عن الاحساس بوحدة الوجود. والعكس صحيح، فأي افراط في العلاقة بين الله والانسان يؤدي الى خلل في علاقة المخلوق بالخالق. ولعل هذا هو سبب تحريم الرهبنة في الاسلام. ورغم أن اليهودية لا تعرف الرهبانية أيضا فانها تقف مع ذلك في الجانب المضاد بافراطها في الاهتمام بالمخلوق على حساب الخالق. وهنا نشهد حلقة مفرغة من التنكر المتبادل: فالله يهمل من يمعن في عصيانه، والعاصي يمعن في الابتعاد عمن يهمله («أتذكرون حين تخلى الله عنا في الهولوكوست؟»). وينتهي الأمر بجبل من المخاوف تنسف أية ثقة وتجعل القوة والسلطة والمال الملاذ الوحيد. والبارانويا المأثورة في النفسية اليهودية من أكثر الأمراض النفسية التي يشتد فيها

---

* تقول سارة بلاخر كوهين في كتابها «مقالات في الفكاهة اليهودية» ان الفكاهة اليهودية ظاهرة جديدة نسبياً وأنها ظهرت من قبيل «التهكم على الذات.. فهي وليدة الاختلاف الشاسع بين المصير الباهر الذي كان مفروضا أن يلقاه الشعب المختار وبين سماته اليائسة... ومع أنهم (اليهود) يفخرون بترابط عالمهم الداخلي فانهم يشعرون بانعزالهم عن العالم بأسره. ولمواجهة القلق الناجم عن هذه التضاربات، خلقوا الفكاهة التي يتشابك فيها الضحك بالارتعاد» (نقلاً عن «أخبار الكتاب اليهودي» عدد أيار/ مايو ١٩٨٧).

(٤٧) جريدة نيوز داي. نيويورك، ٧/٢/١٩٨٦.
(٤٨) كارل يونغ. ذكريات وأحلام وتأملات، فنتاج، نيويورك، ١٩٧٣، ص ١٥٦ـ١٥٩.

الخوف والشك في العالم الخارجي (رغم التهافت على ارضائه). وتشتد عمليات التعويض دون نجاح يذكر في النهاية ـ الى أن تلاحظ بالصدفة شيئا غريبا هو أن التسليم لله (غير المرئي) يأتينا بسكينة في النفس أكثر من التسليم للسلطان والمجتمع وسائر البشر المرئيين.

لكن رفض التسليم لله ـ شأنه شأن انكار خلود الروح ـ يأتي أصلا من رفضنا الاعتراف بأن في الكون الها غير ذاتنا المتضخمة. فنحن في أعماقنا ـ شئنا أم أبينا ـ موحدون عاجزون عن عبادة أكثر من اله واحد ـ أما الله أو أنفسنا! وكثيرا ما نتفانى في خدمة الانسانية التماسا للسلام الداخلي دون طائل. والسبب هو ان الاهتمام بالقضايا العامة كثيرا ما يكون إسقاطا، أي تعبيرا عن عجزنا عن حل القضايا الخاصة («لست الوحيد الذي يحتاج الى اصلاح» او «العلة ليست بي وانما بالمجتمع»).

خـــذ مثلا زعيما اشتراكيا مشهورا في بريطانيا هو جيريمي ثورب. لقد لاحظت عليه صديقته الحميمة شيرلي ماكلين الممثلة الأمريكية المشهورة أنه يهتم بالمجتمع لا بالانسان، وبالغنى الخارجي لا الداخلي، وهو لا يتحدث عن الجمال وانما عن الفقر وكأنه يندب افتقاره الى الجمال. وهو يعترف أنه «ممل» وكأنه يندب احساسه بالجدب [٤٩]. وهو يتسلى بافتراس خصومه السياسيين في البرلمان باسم الجماهير الى حد الاهانة، فالسياسة عنده «لعبة ... والا لما كنت هنا»، وعدوانيته هنا ليست سوى تعبير عن «احساسه بالعار» [٥٠].

وقد يتخذ هذا الاهتمام المفرط الزائف بالاخرين شكلا رومانسيا فكاهيا مثل شخصية كازانوفا الذي يعشق كل النساء لأنه كان عاجزا عن الالتزام بامرأة واحدة. فهو لم يتزوج قط، وكان كلما غزا امرأة تركها فورا الى غيرها بعد ان استنفذ منها ما يحتاج الى تأكيده باستمرار: وهو انه انسان جدير بالحب. والانسان السوي لا يحتاج الى مثل هذه القائمة الطويلة من المعبجات الضحايا (أحيانا الى حد اذلال نفسه حرفيا معهن) الا اذا كان بذلك يكفر عن عمق احساسه بالنقص والذنب، وبالتالي عن خوفه من الحب.

ان الخوف أكبر عدو للحب الحقيقي، والمحبة أكبر حليف لله. واذا استفحل الخوف الى حد الشك في الله تلاشى الأمل، واذا تلاشى الأمل فمعنى ذلك أن جزءا منا قد مات في أنفسنا. وهذا سبب خوفنا المرضي من الموت.

هذه اذن خلاصة المعادلة مبدئيا: اذا كنت تخشى الموت اكثر من غيرك فلأن الله (الحب؟) في اعماقك شبه ميت او آخذ في الموت. واية تفسيرات اخرى قد لا تفلح كثيرا.

ومع ذلك حاول ملحدان «يهوديان» (لاحظ هذه المفارقة) أن يجدا تفسيرات وحلولا أخرى لهذه المشكلة بالدعوة الى اخوة الانسان والأخذ بالعقل وحدهما دون الدين، ولكن المحاولة لم تشفهما كثيرا من الخلل النفسي: فانسانية فرويد لم تنقذه من المرارة والادمان المرضي على المخدرات ثم التنس. وعالمية

---

(٤٩) شيرلي ماكلين، المأزق، بانتام، نيويورك، ١٩٨٤، ص ٤١ ـ ٤٣

(٥٠) نفس المرجع، ص ٣٠ ـ ٣١.

ايلي ديزل (داعية الهولوكوست الأول) لم تحل دون ادمانه الحداد. والفرق بينهما بسيط، فالأول اختار الالحاد طائعا، والثاني مكرها. لكن النتيجة واحدة، فقد كان كل منهما أسوأ عدو لنفسه، لأنه كان أصلا عاجزا عن معرفته على حقيقتها.

فلنتناول حالة كل منهما بشيء من التفصيل.

محترف الحداد: مأزق ايلي ويزل

الكاتب اليهودي ايلي ويزل الفائز بجائزة نوبل للأدب عام ١٩٨٦ هو الوجه الآخر للعملة. لأن فرويد رغم اهتمامه بالتنقيب في مجاهل النفس البشرية كان محبا للحياة في رأي يونغ. أما ويزل فيعلن دون مواربة أنه «رسول الموتى الى الأحياء» لأنه شاهد أفران الغاز النازية تبتلع كل أسرته تقريبا عندما كان دون العاشرة. ولم يتحرر ويزل من هذه التجربة، فصار من أبلغ الدعاة الى عدم نسيان الهولوكوست، ورئيس المجلس الأمريكي للتذكير بالهولوكوست الذي فرضته اسرائيل على واشنطن في أواخر السبعينات.

ونلاحظ في ثلاثيته التي كتبها بين ١٩٥٥ و ١٩٦٠ بعنوان «الليل/ الفجر/ النهار» ان الله كان موجودا في الليل، وقتل في الفجر، وغاب مع النهار. وهو يرى أن مصرع الله في الفجر كان ضروريا «كي يستطيع الانسان أن يحيا» . ومع ذلك يقول في موضع آخر أن الانسان في مملكة النهار «يحيا بلا معنى وبلا اله». ومن سخرية القدر كما يقول مايكل برنباوم «ان أسلوب ويزل يزداد اشراقا كلما انحسر عنه نور الله» وكأنه يسدل الستائر الكثيفة على غرفته ثم يشعل مصباحا قويا ليقول أنه هو وحده القادر على ادخال الضياء الى حياته. ولهذا يعتقد مايكل برنباوم «ان حب تدمير الذات» عند ويزل هو محور الصراع الروحي.

يروي ويزل في ثلاثيته: «لن أنسى ذلك الصمت الحالك الذي جردني الى الأبد من رغبتي في الحياة. لن أنسى أبدا تلك اللحظات التي اغتالت الهي وروحي وأحالت أحلامي الى غبار. لن أنسى أبدا هذه الأشياء حتى لو كتب علي أن أعيش طالما عاش الله نفسه».

القضية الأساسية هنا: من الذي اغتال الله؟ أي من الذي اغتال النور والأمل؟

الواضح أن افتقاد ويزل الله ممزوج بألم داخلي أشبه بالحداد. ولعله لم يلاحظ أنه كان في حداد حتى قبل حرق أسرته. فهو يذكر أنه كان في صباه غلاما شديد الايمان، يدرس التلمود في النهار ويبكي على خراب المعبد في الليل، وكأن الله انتهى بانتهاء المعبد. وكانت الصلاة عنده تلقائية كالتنفس، يحلم خلالها بعودة الماشيح (المهدي المنتظر) . وعويل ويزل على حائط مبكاه كل مساء أشبه بالحداد مقدما قبل الموت. وحداد العقل القومي اليهودي الدائم على الله اقرب الى الانكار منه الى التعاطف. فمن لا يرى نور الله هو نفسه الميت وليس الله. وربما كان ويزل ملزما بدافع الوطنية (او محاربة الشر في رأيه) عندما قبل مهمة تنفيذ حكم الأعدام في انجليزي في فلسطين ايام الانتداب. لا نملك سوى ان نفترض ذلك ازاء قوله في مقدمة ثلاثيته: «نظرا لأن اوشفتس (وهو اكبر معسكر نازي للابادة) يمثل ذروة العنف

والكراهية والموت، فمن واجبنا ان نحارب العنف والكراهية والموت» . ومع ذلك لم يحرك ويزل ساكنا ولو بكلمة احتجاج واحدة ازاء كل الفظائع التي تعرض لها الفلسطينيون واللبنانيون داخل وخارج البلد الذي ارتكب فيه جريمة قتل للقضاء على الشر إلا بعد ان وضعت الانتفاضة سمعة اسرائيل في خطر، وبذلك فهو مجرد ميت يحاول احياء نفسه بالتعلل بان الذي مات ليس هو وانما الله.

ومهما بلغت فصاحة ويزل في حداده الدائم على الهولوكست فسيظل انسانا جرده من حريته قبوله بأن يظل عبدا للماضي وعدم استعداده للغفران أو حتى النسيان. ولا يمكن لرسول الموتى الى الاحياء أن يكون حيا، فقد احتضر في رومانيا عندما دخل معسكر الاعتقال، واحتضر في فلسطين عندما قتل رهينة بريطانية دون ذنب، وأزهق ما تبقى من روحه عندما ظل يتحدث عن الهولوكوست في ذروة مذابح صبرا وشاتيلا. وعندما انسحبت اسرائيل من لبنان وظلت تقصف المخيمات بانتظام كان ويزل مشغولاً بالاحتجاج على زيارة ريغان لمقبرة بيتبرغ الألمانية بحجة أنها تضم رفات بعض رجال الصاعقة النازية.

نبي بلا اله: المأزق الروحي لفرويد

أدى خلو علاقة يهوه بأتباعه من المحبة الى تجريد الله من صفة الرحمة وسائر الصفات الانسانية عند التعامل مع الأغيار، والى تشجيع الانكفاء على الذات وتقديم الاستبطان (الاستغراق في الأنا) على التأمل (الاستغراق في الأنا الأعلى). وكان التأمل meditation موجودا لدى المتصوفين اليهود في القبالة (بوصفه نورا داخليا يحفظ التوازن بين الذات والموضوع) باسم «شيما» Shema (٥١)، لكنه اندثر مع القبالة في القرن الثامن عشر حتى احيائه في العقد الماضي لأسباب سياسية أساسا هي القضاء على تهافت اليهود على مذاهب اليوغا الهندية، حتى ليقول ارييه كابلان في كتابه «التأمل اليهودي» أن حوالي ٧٥٪ من أعضاء الحركات الروحية في أمريكا من اليهود. وهذه مبالغة قدر المبالغة عند القول بأن ٧٥٪ من يهود أمريكا أعضاء في الحركات الروحية. والواقع ان تقدير عام ١٩٨٨ الاحصائي قد هبط بهذه النسبة الى أقل من ١٥٪ في الولايات المتحدة. ولكن لنعد الى حقيقة روحانية فرويد التي كان يتفاخر بها.

لا جدال في أن فرويد كان على شجاعة معنوية هائلة مثل نيتشه في سعيه وراء نور الحقيقة، ولكنه كان دون أن يدري «يعمل ضد نفسه وضد هدفه» كما وصفه يونغ (٥٢). وساعد على ذلك أنه كان أساسا غير مرن في تفكيره، ويعتقد أنه هو والحقيقة شيء واحد مقدس، وأي تطاول عليه تطاول عليها. وبهذا جعل من نفسه الها جديدا في ملكوت الليبدو (الدافع الحيوي)، واستثنى نفسه بذلك آليا من أي محاولة

---

* عندما طلب منه فيصل الحسيني المسؤول عن جمعية الدراسات العربية في الضفة الغربية أن يتدخل ضد سياسة «القبضة الحديدية» لاسرائيل هناك عام ١٩٨٦، لم نسمع أنه رد عليه حتى الآن. ويقول سيمون فيزنتال صياد النازيين أن ويزل ظل طويلا لا يعترف بأية تنظيمات غير يهودية للناجين من معسكرات الاعتقال النازية.

(٥١) آريه كابلان. التأمل اليهودي، نشرة أخبار الكتاب اليهودي، نيويورك، تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٥.

(٥٢) المرجع السابق. ص ١٥٢.

جادة للبحث الروحي. فرغم كثرة تمحيصه لأحلامه لتحليل نفسيته، كان محصنا من الداخل ضد نفسه هو أكثر مما يعلم. وربما أدرك الفيلسوف الفرنسي اليهودي هنري برغسون هذا المأزق عند تناوله لمسألة الدافع الحيوي فلم يجد متنفسا له خارج أسوار العقل القومي اليهودي الا باعتناق المسيحية، لأنه كان يعتبر الدفاع الحيوي هو المحبة، وأن المحبة ليست سوى الله ذاته أو مستمدة من الله.

لكن فرويد لم يستطع تجاوز هذا المأزق، فظل في شعوره الدائم بالاغتراب «يحلم دائما أنه ضل طريقه الى المنزل» [٥٣] دون أن ينتبه الى أن هذا الحلم تفسير لحاضره وليس لماضيه في الطفولة فقط. وعندما كانت أحلامه تضل الى حد الانحراف كان يحسب أن السبب خارجي وليس داخليا أخلاقيا. فقد تساءل مثلا في رسالة الى صديقه الحميم فيلهلم فليس في ١٨٩٨ عن سبب فحش أحلامه قائلا: «هل يرجع هذا الى الفقر، أم الى مارتا (زوجته) أم لعدم وجود وطني أرض أجدادي؟» [٥٤]. ولدينا الآن، لحسن الحظ، معلومات كثيرة جديدة عن حياة فرويد تساعدنا على أن نرد نيابة عنه على هذا السؤال، وسنبدأ بالرد على الشق الأخير (السياسي) منه اي «ارض اجداده»، لان جانب القومية اليهودية فيه كان على حساب نموه الروحي:

كان فرويد رغم الحاده نشطا في منظمة بناي بريث الصهيونية في فيينا طيلة ٤١ عاما حتى حلها هتلر عام ١٩٣٨. وكان ينسب الحاده الى اعتبارات انسانية ولكنها تقوم أساسا على تعاطفه مع طائفته. يشهد بذلك أنه نشر في صحيفة المنظمة عند احتفالها بعيد ميلاده السبعين في محفل فييناالنمسوي الرسالة التالية المؤرخة في ٦ أيار/ مايو ١٩٢٦:

«لا بد لي أن أعترف أن ما يربطني باليهودية ليس الدين ولا حتى الكبرياء الوطنية، فقد ظللت دائما غير مؤمن، وشببت دائما بدون دين، ولكن دون استخفاف بما يسمى بالمقتضيات «الأخلاقية» للحضارة الانسانية... ومع ذلك بقي عندي دائما ما يكفي لأن أعجز عن مقاومة جاذبية اليهودية واليهود، ولان تظل كثيرات من القوى العاطفية المظلمة تزداد قوة بازدياد عجزي عن التعبير عنها بالكلمات، فضلا عن الوعي الواضح بالهوية الداخلية والادراك بتشابه التركيب النفسي» [٥٥].

هذا اعتراف أقرب الى ما ذكره الفيلسوف اليعازر: «أن تكون يهوديا ليس معناه «أنني أؤمن بهذا أو ذاك» وانما معناه «ها أنذا» فهناك عناصر في الهوية اليهودية تحدد اليهودي رغما عن أنفه». وهذه الجبرية المادية المأثورة عن فرويد تذكرنا بقول هاري وولفسون أستاذ الفلسفة أن اليهود «لم يعودوا تراثا دائما بل مجموعة من الخصائص المتوارثة» [٥٦].

ترى ما الذي جعل كثيرا من «القوى العاطفية المظلمة» تزداد قوة في نفسه مع تقدمه في السن

---

(٥٣) مجلة نيويورك تايمز الأسبوعية. ١٧/٣/١٩٨٥.
(٥٤) نفس المرجع .
(٥٥) من أوراق متحف فرويد في فيينا.
(٥٦) نشرة أخبار الكتاب اليهودي. آذار/ مارس ١٩٨٥.

والعلم رغم عدم استخفافه بالمقتضيات «الأخلاقية»؟ للجواب صلة بنظرية فرويد في التحليل النفسي فقد جعلته باختياره واحدا من الذين «يوجهون اهتمامهم العلمي الى عالم الانسان الباطن وكأنهم يدخلون قارة مظلمة تقطنها قبائل بدائية مجهولة» على حد تعبير ابنته آنا فرويد في الذكرى المئوية لمولده(٥٧).

فالمعروف أن فرويد قسم البنية النفسية للانسان الى ثلاثة مستويات هي العقل الباطن (اللاشعور) والأنا (الشعور) والأنا الأعلى (الشعور الأعلى). واهتمام فرويد بالقوة الأخيرة كان أقل كثيرا من اهتمامه بالقوتين الباقيتين، مع انها أرقى وأكثر غموضا منهما بمراحل لشدة صلتها بالطاقة الروحية الأخلاقية والخوارق النفسية (الباراسيكولوجيا) بالذات. وكثيرا ما عبر عن امنيته في تكريس السنوات الأخيرة من حياته لدراسة هذه الظواهر الروحية والباراسايكولوجية التي عجز العلم مثله عن تفسيرها، ومنها التنويم المغناطيسي الذي استخدمه بنفسه، وعلم العدد الذي كان مولعا به، والاستشفاف (التلباثية)، وتفسير الأحلام التي تتنبأ بالمستقبل. لكن أمنيته لم تتحقق، ولو فعل ذلك لغيّر كثيرا من نظرياته خصوصا في تأويل الأحلام وتفسير العصاب ومنشأ الأنا الأعلى بالذات، لأن الأحلام تعبر عن الأنا الأعلى (الضمير) على الأقل بقدر تعبيرها عن العقل الباطن. فليست كل الأحلام أضغاث أو تخاريف خصوصا بعد ساعات الفجر عندما يكون الجسم قد أخذ كفايته من الراحة. فهنا بالذات يبدأ الأنا الأعلى في ارسال اشارات تنبيه متكررة تدعونا الى التخلص من شوائب الدنيا مثلما ينبهنا الصداع الى علة في الجسد. لكن فرويد كان يعتبر الأنا الأعلى وليد الأوامر والنواهي في الطفولة بالذات وليس نتاج القانون «الاخلاقي» والتجارب السابقة للولادة (أو اللاشعور الجمعي كما سماه يونغ).

١ - ولم يكن هذا هو الفرق الوحيد الحاسم بين فرويد وتلميذه يونغ، فبينما اهتم الأول «بالعواطف المظلمة» ركز الثاني تدريجيا على الأنا الأعلى أو الشعور الأعلى وصلته الوثيقة بالله، وهو القانون «الأخلاقي» الأعم.

٢ - وكان فرويد يعتقد أن الدين يرجع الى الخوف والى «شعور الطفل بالعجز وحاجة الرجل الى ضبط غرائزه الجنسية والعدوانية» حفظا للجماعة، بينما رأى يونغ مثل الفيلسوف المسلم رجاء (روجيه) جارودي أنه لم يعد تعبيرا عن الخوف (من غضب الطبيعة بالذات) كما كان شأنه أيام القبائل البدائية، وانما أصبح تعبيرا عن فكرة المطلق المغروسة في الذهن بالفطرة.

٣ - وكان فرويد قطعيا في نظرياته منذ صدر الشباب رغم (وربما بسبب) كثرة تغييره لها، بينما كان يونغ يترك مجالا كبيرا للشك والانتظار بحيث أنه لم يصدر أول كتاب له عن الأحلام الا بعد أن درس ٦٧ ألف حلم. (٥٨)

٤ - ولم تكن لفرويد ثقافة فلسفية (لم يقرأ نيتشه مثلا رغم شدة تشابه أفكارهما)، على عكس يونغ الذي كان متأثرا كثيرا بالفيلسوف كانت. ولم يستطع فرويد طبعا التوفيق بين العلم والدين

---

(٥٧) محاضرة آنا فرويد في جامعة فيينا يوم ٦ أيار/ مايو ١٩٨٠.

(٥٨) من حديث ليونغ مع جون فريمان مراسل هيئة الاذاعة البريطانية عام ١٩٥٩.

للسبب المذكور، كما أنه في ايمانه العلمي الصارم بمبدأ العلة والمعلول كان يطبق الجبرية على الآخرين الى حد التعسف.

كان يونغ يكن له احتراما حقيقيا ويناديه دائما باسم «الأستاذ» ويكتم حقيقة مشاعره وأفكاره أحيانا كيلا يفقد صداقة أستاذه. لكنه بدأ يدرك تدريجيا أن فرويد يقدس نفسه أكثر من الحقيقة. وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير بين الاثنين عندما كانا يزوران الولايات المتحدة بدعوة من جامعة كلارك عام ١٩٠٩. وكالعادة أخذا يتبادلان تفسير احلامهما. وذات صباح روى فرويد حلما أزعجه، وحاول يونغ مساعدته في تحليله فطلب منه معلومات اضافية عن حياته الخاصة. ورد الأستاذ على ذلك بنظرة غريبة.. «نظرة شك عارم» قائلا: «ولكنني لا أستطيع أن أجازف بمركزي».. ويضيف يونغ: «عندئذ سقط من عيني دفعة واحدة» [٥٩].

مع ذلك ظل التلميذ يتردد في كتابة آرائه الذاتية خشية أن يفقد صداقة الأستاذ. وقد عذبه ذلك إلا أنه لم يجرؤ على لمس القلم شهرين. وأخيرا قرر أن أستاذا لا يحترم حق الآخرين في مخالفة آرائه يستحق التضحية بصداقته. وقد كان. فقد قطع فرويد صلته بيونغ لمجرد أنه نشر كتابه «سيكولوجية اللاشعور» وقدم فيه تفسيرات مختلفة عن تفسيرات الأستاذ! وعموما فان فرويد سبب لصديقه آلاما نفسية جمة لم يبرأ منها الا بعد زمن طويل.

لكن الثمن كان يستحق ذلك. فاليوم يزداد تدريجيا اقتراب علماء النفس من نظريات يونغ بازدياد الأزمة الروحية في الغرب وازدياد الاقتناع بأن علم النفس نسي أن مهمته دراسة الروح حتى أصبح أسلوبه العملي يقتل الخيال ولا يحفل كثيرا بالعاطفة ومعايشة الحياة. [٦٠]. ومن السهل أن نخمن هل هو فرويد أم يونغ الذي قال: «حيثما تسود المحبة تنعدم ارادة القوة»، لأن هذا الاختلاف بينهما ينقل الليبيدو الفرويدية من عالم الغرائز الى عالم ارادة الحياة والطاقة الروحية وليس ارادة القوة الفرويدية. ولم يكن فرويد راضيا عن ذلك لان تعاطفه مع الهوية اليهودية الضيقة كان يتزايد باعترافه، واكثر كثيرا من تعاطفه مع الديانة اليهودية ذاتها بكل قيمتها الأخلاقية.

ومع أن فرويد ربط في كتابه «موسى والتوحيد» ربطا قويا بين الشريعة الموسوية والشرائع المصرية القديمة فانه أغفل أعظم جانب في التراث الفرعوني وهو الايمان بخلود الروح. وانصافا للحقيقة، يجب أن نستدرك قائلين أن فرويد كان مخلصا في أمله أن يتمكن العلم والعقل في يوم ما من أن يحلا «محل الأضاليل القديمة وضوابط الكنيسة وتعسف القوانين الدينية» [٦١]. ولكنه كان يعتبر اليهودية (كديانة لا كقومية) «احدى العقبات الرئيسية أمام العقلانية الجديدة» التي كان يحلم بها هووهاينريش

---

(٥٩) كارل يونغ. المرجع السابق، ص ١٥٨.

(٦٠) نيويورك تايمز، ٢ تموز/ يوليه ١٩٨٥.

(٦١) آن رويفي. جيل بلا ذاكرة، رحلة يهودية في أمريكا المسيحية، سايمون وشوستر، نيويورك، ١٩٨١، الصفحة ٣٣ ـ ٣٥.

هايني[٦٢]. ولعل ما يشفع لفرويد هنا ايمانه بأن «عدم اندماج اليهود عقبة رئيسية أخرى»[٦٣] في هذا المجال، وإن كان لم يدرك أن انتسابه الى منظمة بناي بريث ليس أفضل تعبير عن هذه النزعة العالمية، فحتى اسم بناي بريث بالعربية هو «أبناء العهد»[٦٤]. وهذا العهد وحده لا يضمن سكينة الروح أو النور الداخلي كما رأينا في حالة ويزل[٦٥]، وبالتالي لا بد أن ينعكس على علاقة الانسان بأخيه. ويتضح هذا بوضوح من علاقات فرويد المهزوزة بالآخرين.

طبيعة علاقة فرويد الاجتماعية

نلاحظ أن فرويد يشترك نظريا مع ويزل في فكرة الانتماء والتضامن الانساني لحماية الانسان (من الانسان عند فرويد ومن الله عند ويزل)[٦٦]. بيد أنه هل يمكن أن يقطع الانسان صلته بالله دون أن يدفع الثمن غالياً من توازنه النفسي؟

ان الكتابات المجهولة لفرويد التي نشرت عام ١٩٨٥ قد تفجع القارىء العربي بالذات[٦٧]، ولكنها تلقي ظلا من الحقيقة على صدمة يونغ ازاء عدم افصاح فرويد عن الحلم الذي قد يسيء الى مركزه. والمعروف الآن أن فرويد كانت تتكرر عليه نوبات من الاكتئاب بعد الحرب العالمية الأولى، خصوصا عند انقطاعه عن لعب التنس. فقد كانت علاقته بهذه اللعبة بالغة الغرابة والشذوذ والعمق الى حد أنه كتب عام ١٩٣٨:

«ان الحقائق التي كشفت عنها نظريتي في غريزة التنس تبلغ من الخطر والاثارة حدا قد يستحسن معه كتمانها الى الأبد»[٦٨]. ويعتقد بعض العلماء مثل ثيودور ساريتسكي الذي جمع هذه الكتابات المجهولة وشرحها أن نظرية فرويد في الجنس كانت مجرد تحويل للأنظار عن نظريته السرية في غريزة التنس[٦٩]. وهو يشير هنا الى أن فرويد كان يساوي بين التنس والجنس في الأهمية، على الأقل حتى عام ١٩٢٣ عندما كتب «أن جميع المنجزات الثقافية التي يفخر بها الانسان، وكل قيمه الروحية

---

(٦٢) المرجع السابق.

(٦٣) مايكل بارنباوم. الرؤيا والفراغ: تأملات لاهوتية في أعمال إيلي ويزل، نيويورك، ١٩٨٥.

(٦٤) المرجع السابق.

(٦٥) روبرت ماكفي. ايلي ويزل: رسول للانسانية جمعاء، نشرة أخبار الكتاب اليهودي، تموز/ يوليه ١٩٨٥.

(٦٦) المرجع السابق.

(٦٧) نيويورك تايمز. ٢٩/١٢/١٩٨٥.

(٦٨) د. ثيودور ساريتسكي. الجنس كاعلاء للتنس: من الكتابات السرية لفرويد، منشورات وركمان، نيويورك، ١٩٨٥، ص ٧

(٦٩) المرجع السابق، ص ٢٢

وما اليها ليست سوى مجرد اعلاءات للدوافع الغريزية الأساسية فيه وأهمها الجنس والتنس» (٧٠).
بيد أنه لم يلبث أن أخذ يقدم التنس على الجنس حتى جعل الأخير إعلاءا للأول وتنفيسا عنه وليس العكس. وشاعت نظرية فرويد في التنس الى حد أن طبيبه الخاص أوسكار فستر اعتنقها وأصدر كتابا عنها. وتحدث فستر عام ١٩٤٧ بعد وفاة فرويد عن عبقرية الأخير في «تحويل العادات المستهجنة الى مفاهيم مفيدة اجتماعيا»(٧١). لأنه كان يعتمد في ذلك أساسا على ايمانه «بأن أفضل سمات الثقافة والتهذيب هي تشجيع الأنشطة العقلية للانسان، ومنجزاته الفكرية والعلمية والفنية» (لا اشارة الى الروحية هنا)، «والدور القيادي للأفكار في الحياة البشرية».

ولا جدال هنا في سطوة فرويد العقلية، فقد أخذ مئات من مهووسي التنس يطلبون نثر رمادهم بعد وفاتهم على ملاعب التنس الى أن استنجدت الحكومة النمساوية بفرويد الذي أفتى بأن ذر الرماد سيؤثر على استواء الملاعب (٧٢).

مع ذلك لا نستطيع أن نطلق على فرويد صفة «الدجال المقنع» التي أطلقها على صديقه الحميم (فليس) بعد ان اخذ بنظريته الغريبة في العلاقة العارضة بين الأنف والجهاز التناسلي. بل سنذهب الى اكثر من ذلك ونقول ان نظرية فرويد في التنس ربما كانت صحيحة من حيث انطباقها عليه وعلى فئة معينة. ولكن ما اكثر القادرين على العيش بدون التنس، وليس هذا حال الجنس معهم. فقد تعبر نظرية التنس عن زمان ومكان معين هو العصر الصناعي، ولكنها ليست عالمية الزمان والمكان بحيث تجعل كل المثقفين يشاركونه أفكاره في أن مضرب التنس رمز للقضيب، وان كرة التنس رمـز لثدي الأم، وان الشبكة تعبير عن المحارم وان قفاز اللعب رمز للغشاء المانع للحمل. بل انهم قد يشككون في توازنه العقلي عندما يلاحظون ما يلي:

* في عام ١٩٠١ شكا لطبيبه أن جنون عصاب التنس يستولي عليه الى حد «أنني لا أستطيع النوم. ضاعت شهيتي. فقدت اهتمامي بعملي. بدأت أدرك جذور الصراع بين طموحي وشبقية مثانتي (أي رغبتي في التبول في غرفة أبي وأمي، وفي أن أقول لمارثا ـ زوجته ـ أن ترحل عن ظهري) ربما كان للأمر علاقة بأبي عندما كان يمنعني من ركوب الحصان الخشبي شأن سائر الصبيان» (٧٣).
* في نفس السنة شكت مريضة كان يعالجها فرويد الى الطبيب آرنست جونز من أن سحنة فرويد «كانت تتغير عند حديثه عن التنس وكأنه من عالم آخر... انني أشك في توازنه العاطفي.... بعد أن طلب مني أن أقابله في ملعب التنس.. وأن لا أخبر أحدا بذلك» (٧٤).

---

(٧٠) المرجع السابق، ص ١

(٧١) المرجع السابق، ص ١٩.

(٧٢) المرجع السابق، ص ٢٢.

(٧٣) المرجع السابق، ص ١٩.

(٧٤) المرجع السابق، ص ١٧.

* في عام ١٩٠٣ كتب فرويد: «بعد أن حللت نفسي جيدا اعترفُ أن استمتاعي بالتنس نابع عن كراهية وغيرة خالصتين».[٧٥] ولهذا لا عجب أن وزع على معجبيه أزرارا تحمل عبارة «أنا أحب فرويد». [٧٦] فقد كان عاجزا عن الحب الحقيقي، لأن حبه الأول كان نفسه. ولا أدل على ذلك من موقفه من المرأة وأصدقائه بالذات، فقد كان يحملهم مسؤولية فشله في علاقاته بهم.

علاقة فرويد بمحبيه

اعتبر ايريك فروم أحلام فرويد قرائن مباشرة على عقده وعلى شخصيته المتناقضة [٧٧]. والآن تشير كتابات فرويد السرية الى أن عقدة كانت ظاهرة في اليقظة أيضا، وفي ميدانه المفضل: الجنس.

كان فتور فرويد الجنسي ملحوظا تجاه المرأة عموما حتى ابنته آنا، فقدكان يضع زوجته وابنته آنا في مرتبة واحدة. وهو يوصينا: «لا تلعب التنس مع زوجتك. فمن المشكوك فيه ما اذا كان ينبغي أن يتزوج الناس من أبناء أسرتهم. والتنس لا يختلف عن ذلك» [٧٨].

وبلغت كراهيته للمرأة حدا جعله يقول في رسالة له في عام ١٩١٢ الى الكاتبة الاشتراكية ايما غولدمان «ان النساء هن حقا سبب الحرب ونهاية السلم، وهن أساس الخطورة ومسار القضاء، وهن مفتاح كل الغمزات ومعنى كل التلميحات الغامضة» [٧٩].

ورغم أن دراسات كينزي قد أظهرت بعد وفاة فرويد أن القدرة الجنسية للمرأة أقوى وأطول منها لدى الرجل، فقد وجد فرويد مخرجا مناسبا لفتوره العاطفي بادعائه أن المرأة «تفضل التسوق على الجنس» وانها «جنس غريب حقا» [٨٠]

وطالب في مقالة له بعنوان «الرغبَة في النكوص» عام ١٩٣٧ بجعل ملابس لاعبي التنس متعددة الألوان بدعوى أن اللون الأبيض «كان منذ أقدم العصور يوحي بالدعوة الى الجنسية المثلية» (الشذوذ الجنسي) [٨١].

وفي نفس الوقت ربط فرويد بشدة بين ضعف ضربة ظاهر اليد (الباكهاند) عند لعب التنس وبين الاحساس باثم الشذوذ الجنسي [٨٢]. ولكن المعروف أن الضربة الخلفية لفرويد كانت ضعيفة جدا

---

(٧٥) المرجع السابق، ص ٢٠.
(٧٦) المرجع السابق، ص ٨٧.
(٧٧) مصطفى محمود. الأحلام، دار العودة، بيروت، الصفحة ٢٤.
(٧٨) . ساريتسكي. المرجع السابق، ص ٨٩.
(٧٩) المرجع السابق، ص ٥٧.
(٨٠) نفس المرَجع.
(٨١) المرجع السابق، ص ١٠٤
(٨٢) المرجع السابق، ص ٢٢.

حتى أنه كان يتحايل على ذلك بأن ينقل مضرب التنس من يد الى أخرى بسرعة كيلا يستعمل الضربة الخلفية [٨٣]. فهل كان لهذا علاقة بالحلم الذي حجبه فرويد عن صديقه يونغ كيلا يسيء الى سمعته؟ وهل هذا هو الذي جعل فرويد يتصور أحيانا ان قضيبه في طول ذراعه من قبيل التعويض؟ (ساريتسكي، ص ٤٨ـ٤٩).

لم يكن لفرويد أصدقاء دائمون. ويبدو أنه كلما وجد راعيا جديدا له مثل (بروير) كان يستغني عن أصدقائه القدامى مثل (فليس) وكأنه لا يستطيع أن يتخذ من خلال الصداقة أكثر من أب واحد [٨٤]. والغريب أن فرويد كان يعتقد «أنني لم أفعل مطلقا أي شيء وضيع أو خسيس، ولا أغرتني نفسي بشيء من هذا القبيل» [٨٥]. وهو يعترف أن الاستثناء الوحيد هو «أنني كلما كنت قريبا من الشبكة حطمت الكرة على ابن الحرام يونغ لأسباب معروفة»[٨٦]. لاحظ أن فرويد كتب هذا عام ١٩١٤، وهو نفس العام الذي انشق فيه أيضاً عن تلميذه (الفريد آدلر) وبرر موقفه هذا في رسالة مقذعة الى تلميذه قائلا: «أنت من القلائل الذين أرشحهم لعملية تعقيم حبالهم الصوتية. فليس من المستحسن لشخصين كفا عن التفاهم ولم يعودا يعرفان معنى التوافق مثلنا أن يستمرا في اللعب معا. فأرجوك أن تبحث لنفسك عن شريك آخر.. انني أفهم الآن لماذا ذاع صيتك كخبير بمركبات النقص. فاذهب وافتح لنفسك محلا للأحذية» [٨٧].

لم يكن فرويد شتّاما فحسب وانما كان قطعيا متصلبا بقدر سرعة تغييره لآرائه، وأحيانا كان يقاوم الحرص على تطابق الأفكار، ومع ذلك يغتاظ بشدة ممن يتهمه بأنه مذبذب الرأي [٨٨]. وتشير رسالة مبكرة له الى صديقه (فليس) ان محاضرته عن الهستيريا في جمعية الطب النفسي في ٢٦/٤/١٨٨٦ «لقيت استقبالا باردا من الحمير». وكعادة فرويد في اعلان الحرب على من ينفرون من اغراقه نظرياته في التعميم (رغم قوله بأنه يفضل دراسة الجزئيات على الكليات)، استغل فرصة وفاة خصمه في التنويم المغناطيسي ثيودور مينارت وذهب معزيا الى أرملته التي ردت له لفتته بأن عرضت عليه أن يختار لنفسه بعض كتب زوجها. ووصف فرويد في رسالة لصديقه فليس هذه اللحظات بأنها «لمتعة بشرية نادرة أن أختار لنفسي من مكتبة مينارت ما يروق لي ـ وكأنني أشبه بهمجي يشرب النخاع من جمجمة عدوه» [٨٩].

وكان متجهما بقدر ما كان متهجما، ونفسيته مفرطة في التقلب، وتتعاقب عليه فترات من خصوبة

---

(٨٣) المرجع السابق، ص ١٢٢.
(٨٤) مجلة نيويورك تايمز الأسبوعية، ١٧/٧/١٩٨٥.
(٨٥) ساريتسكي. المرجع السابق، ص ٦٧.
(٨٦) نفس المرجع.
(٨٧) المرجع السابق، ص ٦٨.
(٨٨) المرجع السابق، ص ٤٢.
(٨٩) مجلة نيويورك تايمز الأسبوعية. ١٧/٧/١٩٨٥.

الكتابة وهمود الهمة والاكتئاب (٩٠). وكانت مخاوفه المرضية كثيرة مثل الخوف من السفر بالقطار ومن عبور الخطوط البيضاء في الملعب. (٩١). كما كانت تنتابه نوبات طويلة من الصراع النفسي.* ومع أنه كان يعتبر «ارواء تعطشه الجنسي أمرا هاما في حياته»، فقد اتضح مؤخرا أنه انقطع عن معاشرة زوجته قبل نهاية القرن الماضي بعد أن أنجب منها ستة أولاد، وان كان هذا لم يمنعه بعد ذلك من الاستمرار في معاشرة شقيقتها مينا بيرنايز بشهادة أكثر من مؤرخ لسيرة فرويد .

* * *

بعد اكتشاف هذه الكتابات والرسائل المجهولة لفرويد أو بعد أن أعيدت اليها السطور الكثيرة المحذوفة منها طيلة أكثر من نصف قرن حفاظا على هالته العلمية، أصبح واضحا أن عزلة فرويد عن أصدقائه والانسان لم تكن سوى الوجه الآخر لعزلته عن الله. صحيح أنه كان مخلصا في احترامه للسلم عندما كتب مع اينشتاين أكثر من عمل يدعو الى السلم والى أوروبا جديدة وعالم جديد، ولكن هذا أيضا هو مشكلة الاسرائيليين الذين يتلهفون على السلم بقدر ما يفعلون كل ما في وسعهم لتحطيمه لأنهم لا يدرون ما يفعلون. أما أينشتاين فكان يؤمن بأن العلم يقودنا الى الله، وكان متطابقا في العمل والتفكير ويخشى «من الضرر الذي سيصيب صميم اليهودية بخلق قومية ضيقة داخل دولة يهودية. فلم نعد يهود العصر المكابي، وأية عودة الى الأمة بالمعنى السياسي للكلمة ابتعاد عن روحانية مجتمعنا التي ندين بها لعبقرية أنبيائنا» (٩٢). وبقدر ما كان فرويد موهوبا في معرفة الآخرين كان موهوبا في تقييمه الخاطيء لنفسه، وكان عقلا عظيما معذبا بلا روح، وهو يذكرنا بحوار مارتن بوبر مع هرتزل عندما كان الأخير رئيسا له في جريدة دي فيلت. فقد قال له هرتزل عشية انعقاد المؤتمر الصهيوني العالمي الأول: «اننا نحتاج كلمة جديدة يا سيد بوبر». فرد عليه المحرر الشاب: «سيدي الدكتور، ما نحتاجه ليس كلمة جديدة بل روحا جديدة» (٩٣). وذهب كل منهما بعد ذلك في طريق.

فقد عارض بوبر الحركة الصهيونية السياسية دفاعا عن الصهيونية الديمقراطية والثقافية، وظل أكثر من أربعين عاما يحارب من أجل التفاهم العربي ـ اليهودي، وكان عميق الشك في الدولة اليهودية عندما كان بن غوريون ممثلا لعقيدة الدولة وسياسة الأمر الواقع. ورفض رغم هجرته الى اسرائيل أن

---

(٩٠) المرجع السابق، ص ٨٧.

* كان أيضا شديد القلق، مسرفاً في التدخين حتى أصيب بسرطان الفم. ولم يكن يفهم المرأة ولا يتذوق الموسيقى، ويذهب الى المحطة قبل وصول القطار بساعة كما يقول طبيبه آرنست جونز. وكثيرا ما حرق أوراقه قبل أن يطلع عليها أحد، فقد كان قلما يثق بأحد ولهذا قلما عمل مع أحد ـ باستثناء مَن هم من دينه ـ سواء في المعمل أو في العيادة او المستشفى.

(٩١) ساريتسكي. المرجع السابق، ص ٩٦.

(٩٢) موشي منوحين. انحلال اليهودية في عصرنا هذا، معهد الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٦٩، ص ١٣ من المقدمة.

(٩٣) موريس فريدمان. حياة مارتن بوبر وأعماله، السنوات الأخيرة، دوتون، ١٩٨٣، ص ٣٤٢

يكون وزيرا للتربية قبل أن تكفل الدولة حرية الفرد والمجتمع. وحارب ما سماه «الأنانية الجماعية المقدسة» Sacro egoismo Collective، وقاد المقاومة الروحية ضد النازية في أيام هتلر عندما كان جابوتنسكي يتعاون مع سفاح المانيا. ورفض الانحياز في الحرب الباردة بين الشرق والغرب، ودافع عن نزع السلاح النووي، وعارض بن غوريون في أمور شتى منها قضية اللاجئين الفلسطينيين والحكم العسكري في اسرائيل وقضية لافون التي أسقطت وزارة شرتوك (شاريت)، مثلما عارض اعدام ايخمان والمتاجرة بالهولوكوست. وقال أن السبيل الوحيد لاسترداد روح اسرائيل هو أن نعوض عن كل ما افتقدناه قبل ذلك: فلا بد لنا مرة أخرى أن نطهر الطريق المسدود الذي يقودنا الى التفاهم مع الشعوب العربية» (٩٤)

كل هذه الأمور أدت طبعا الى انعزال بوبر تماما في اسرائيل، ولكنه لم ينعزل عن الله ولم يفقد روحه مثل فرويد وبن غوريون مهندس دولة «الأمر الواقع» والأنانية الجماعية المقدسة .

أليس من المذهل أن فرويد بكل عبقريته السيكولوجية كان عاجزا ليس فقط عن معرفة حقيقة نفسه بل عن حفظ توازنه النفسي؟ وهل كثير اذا قلنا أن هذا العجز الفاجع هو نتيجة طبيعية لجهله بمأزق وثنيته اليهودية؟

---

(٩٤) المرجع السابق، الصفحة الثانية من المقدمة.

خلاصة

خلاصة القول أن تقديم العقل القومي اليهودي للشعب على حساب الدين لم يقربه من الانسانية وانما زاده اغترابا عن الآخرين أو عن الذات أو عنهما معا على الأغلب. فمن يضع الشعب قبل الله انما يضع نفسه قبل الشعب دون أن يدري، لأن تقديم الشعب ينتهي آليا الى تقديم الأنا. طبعا حاولت القومية اليهودية غريزيا التوفيق بين هذين النقيضين بتقديس الأنا الجماعي، لكن هذا لم يحل مشكلة الأغتراب فيها، وبالتالي مشكلة التخاصم. قد تنفع هذه الحيلة في شعوب أخرى علمانية، لكن اليهودية بحكم تعريفها لا يمكن أن تكون كذلك. فمن المناقضة أن يصف يهودي نفسه بأنه يهودي ملحد، خصوصا وأن الشرط الأول الذي تضعه اسرائيل للانتساب الى القومية اليهودية هو اعتناق الدين اليهودي. وبكلمة أخرى إما أن يكون المرء يهوديا أو ملحدا ولا ثالث لذلك. وقد يتظاهر بغير ذلك ولكنه يدفع الثمن في أعماقه من توازنه النفسي.

هذا ما أدركه أكبر الفلاسفة والمفكرين «اليهود» فقد تنصلوا جميعا من مأزق القومية اليهودية إما بالالحاد او بالتدين: اذ هرب منها ماركس وسارتر بالأسلوب الأول، وهرب برجسون واينشتاين وسبينوزا منها بالأسلوب الثاني.

ومأساة فرويد («ذلك المتشائم الأزلي» على حد تعبير وودي آلن) أنه حاول الجمع بين هذين النقيضين باستخدام سلاح العقلانية والعلم والأخوة العالمية، مستعيضا بالانسان عن الله. لكنه وقع في الكمين المعهود وهو تقديم أناه على الشعب ذاته بوصفه «الأستاذ النبي» المعصوم عن الخطأ. وشفع ذلك بحيلة أخرى هي الاستعاضة عن الاله الغيور الذي فقده (يهوه) بتأليه الليبيدو الى حد جعله محور الايمان، أو بكلماته شخصيا، «حصننا ضد سحر الدين والفلسفة والباراسايكولوجيا». بيد أنه ظل متمسكا بالاله الخفي deus absconditus، وكل ما تغير هو الاسم والموقع: فهو لم يلتمس الله في الأعالي وإنما في الأسافل (الجنس). «لكن تبقى المشكلة على حالها وهي كيف نهزم أو نتفادى القلق وعذاب الضمير والذنب والسلوك القهري؟... اذا لم نستطع أن ننجح في ذلك من الجانب المشرق والمثالي فربما أسعفنا الحظ اذا عالجنا المشكلة من الجانب البيولوجي المظلم» [٩٥].

لكن حظه لم يسعفه فقد كان مثل ويزل «شخصية فاجعة... وأسوأ عدو لنفسه». وكلاهما يوجهان نظرنا الى أهم جوانب الخلل في العقل القومي اليهودي:

١ ـ انه قد يكون موهوبا سيكولوجيا ولكنه هارب من الذات لعجزه عن التغلب على مخلفات الماضي. والمشكلة هنا مزدوجة، فهو لا يعرف نفسه من ناحية (رغم براعة تحليله للآخرين)، واذا حدث وعرفها كان عاجزا عن مواجهتها وشفائها.

٢ ـ انه رغم انبساطيته وحبه للفكاهة أحيانا قلما يرى النور والأمل أو الطبيعة. فهو مغرق في الاستبطان دون طائل (أفلام وودي آلن مثلا شبه خالية من الطبيعة، مسرفة في الحوار والمحاجة

---

(٩٥) يونغ. المرجع السابق، ص ١٥٣.

والانشغال بالموت، والتهكم على العبث، وهي تدور غالبا في اماكن مغلقة وكأنها تعبير رمزي عن الغيتو الفكري).

٣ ـ ان دعوته الى العلم والأخوة العالمية شبه مشلولة غالبا بتمييزه اللاشعوري (واللاإرادي) بين اليهود والأغيار، وبالتالي بتفضيله الانتماء على المحبة، أي تقديم السلطة على الحقيقة. كما أن الدعوة الى نبذ القسوة وتمجيد الحياة تصطدم بالمرارة وعدم النسيان والنزوع الى الانتقام.

٤ ـ الاستخفاف بالدين مع شدة الاهتمام بالميثولوجيا الدينية، أي ما يمكن تسميته مجازا بالوثنية اليهودية، مع الايمان بأن موت الله شرط لحياة الانسان، ولكن دون الشعور بالتفاؤل ودون الكف عن الانشغال بالموت حتى عند انتصار هذا الحَل.

٥ ـ ان احساسه بالاغتراب يرجع الى تصارع نزعاته الروحية المكبوتة مع المخاوف البدائية القبلية الناشئة عن تقديم الذات (والشعب) على الدين، وتقديم الدين على الله.

٦ ـ بوجه عام، «نزعة تدمير الذات... والعمل ضد الهدف المنشود» (٩٦).

هكذا تتضح اركان المثلث؛ الله والانسان والموت. فالخوف الزائد من الموت راجع الى صراع شبه متكافيء بين ضدين: تقديس الله وتقديس الأنا. وعندما يموت جزء من أعماقنا بسبب شدة الاغتراب الناجم عن ذلك، يتضخم هذا الخوف نحو الخارج ويتخذ شكلا ماديا هو الخوف من الموت الجسماني أو موت الدافع الحيوي بيولوجيا. وبعبارة أخرى، يبدو أن الانشغال بالموت دون مبرر جسماني تعبير في اللاشعور الجمعي عن جزعنا من ثمن قتل الله في أعماقنا وقتل طاقتنا الحيوية ومهمتنا المرسومة لنا.

والمؤسف أن البشرية موهوبة في تكرار نفس الأخطاء. فهي لا تدرك مثلا أن تكرار الشدائد الجماعية (مثل الهولوكوست والمجاعات) ليست سوى ضرب من العلاج بالصدمات كي نتنبه نحن وغيرنا ونقطع الحلقة المفرغة في لا شعورنا الجمعي (وهي تقديم الانتماء القبلي على المحبة أو الشعب على الله، بدعوى أن الله غاضب علينا دون سبب!).

ويزل مثلا مندهش من نقمة الله رغم صلواته في طفولته، دون أن ينتبه الى أن صلواته لظهور الماشيح تعني ضمنا إنكارا لاشعورياً جمعيا لظهور المسيح أصلا، وأن تخليده أو تقديسه لمآسي الماضي اليهودي (بالبكاء على خراب المعبد) دعوة الى تجديدها، وان الهولوكوست برمته كان تحدياً له أن يغفر وينسى تعصبه ومغالاته في الانتماء والعصبية القبلية. اما فرويد فكان رغم شططه يعتقد ان العلة ليست فيه ولا في الحاده، مع انه كان قادرا بعبقريته على أن يتنبه الى أن في أعماقه تدينا مخنوقاً عندما ألَحّ على يونغ أن يذهب الى الكنيسة خوفا عليه من «طوفان الوحل الأسود» (أي الفلسفة والسحر). ورأى يونغ بسهولة أن هذا الطلب الغريب من أستاذه ضرب من الصراع بين نقيضين هما نزعاته الروحية الدفينة ولا أخلاقيته(٩٧).

---

(٩٦) نفس المرجع.

(٩٧) المرجع السابق، ص ١٥١ و ١٦٤.

يروى وليام هيز في روايته «قطار منتصف الليل السريع» أنه قابل أثناء وجوده في سجن تركي بتهمة تهريب الحشيش سجينا آخر تركيا اسمه الدكتور أحمد قال له: «... الآلة الفاسدة لا تعرف أنها فاسدة... وأنت لا تؤمن حتى الآن أنك آلة فاسدة. لكن معرفتك لذاتك يا صديقي هي أن تعرف إلهك. والحقيقة أن هذا هو سبب وجودك هنا... وسوف تدرك ذلك في يوم ما».

ولا مفر من استمرار اغتراب اليهودي عن باقي الانسانية طالما استمر اغتراب الانسان عن الله، لأن اليهودي المعاصر في نهاية الأمر ليس سوى نموذج لاغتراب الانسان عن ذاته الحقيقية.

الفصل الرابع

الخلاص بالإنتحار - عقدة مسادة

«من نصر الى نصر تركض اسرائيل نحو خرابها»

ناثان فاينستوك، كاتب فرنسي وصهيوني سابق

«نحن أسوأ أعداء لأنفسنا.. واذا لم نقم بتقييم جديد لموقفنا الأخلاقي فسندمر أنفسنا»

عازف الكمان اليهودي
العالمي يهودي منوحين

«اسرائيل بعد الاحتلال انسان برأسين، أحدهما ديمقراطي والآخر استبدادي، ولا بد لأحدهما أن يذهب»

النائب الاسرائيلي آدم كيللر
في خطاب له في نيويورك
يوم ١٩٨٧/٦/٢٢

مسادا كلمة آرامية تعني القلعة. وهي آخر قلعة سقطت في أيدي الرومان أثناء الثورة اليهودية في القرن الأول الميلادي (٧٣ ميلادية)، وتقع على صخرة مرتفعة منعزلة عن البحر الميت، وفيها انتحر عشرات من الثائرين اليهود عندما حاصرهم الرومان، خشية التنكيل بهم. وحتى وقت قريب كان جنود اسرائيل يقسمون في الصخرة يمينا نصه: «لن تسقط مسادة بعد اليوم»، ولكنهم صاروا خجلا بعد فظائع حرب لبنان بالذات يؤدونه في وادي النطرون حيث دارت اقسى معارك حرب فلسطين.

وقد جعلت اسرائيل من الصخرة قبلة للسواح الأهالي، فأصبحت موضع تمجيد مهووس. فهناك دواوين شعرية كاملة وأناشيد ومسلسلات تليفزيونية عنها، وروايات طويلة يتغنى فيها مؤلفون غير اسرائيليين بهذه الملحمة اليهودية ويستخدمون فيها أحيانا أسماء عربية «تدل على جهلهم بالأسماء اليهودية» على حد رأي صحيفة جويش أوبزرفر البريطانية.

ولكن مسادة أصبحت بالتدريج أيضا تعبيرا عن «نزعة الانتحار الجماعي عند اليهود» التي تحدث عنها المفكر الفرنسي اليهودي ماكسيم رودنسون. وربما كـان الصحفي الأمريكي اليهـودي ستيوارت ألسوب أول من استعمل تعبير «عقدة مسادة» عام ١٩٧١ عندما جعلها عنوانا لمقالة نشرها وقال فيها: «اذا كان للاسرائيليين أن يبلغوا تسوية جيدة فعليهم أن يظهروا مزيدا جما من التخلي عن

روح مسادة ومزيدا جما من العطاء»[1].

قبل كل شيء، هل قصة مسادة حقيقة أم أسطورة؟ واذا كانت حقيقة، فهل هناك عقدة أسمها عقدة مسادة، أم أن الأمر تهويش وحرب أعصاب كما يقول الكتّاب العرب ومنهم د. عبد الوهاب المسيري وسليمان الشيخ وتوفيق فياض؟

فلنتناول كل نقطة على حدة.

١ ـ هل مسادة حقيقية أم أسطورة؟

المصدر الوحيد لقصة مسادة هو المؤرخ يوسف (يوسيفوس) فلافيوس حاكم الجليل الذي غدر بالثوار اليهود بعد أن سار في ركابهم، فقد عاهدهم على الانتحار معهم في كهف عندما حاصرهم الرومان، وعندما فعلوا ذلك نكث بوعده، وتخلى عن اسمه اليهودي يوسف بن متاتيا هاكوهين وتقرب الى الامبراطور فسبازيان. ومع ذلك كتب في مؤلفه «الحروب اليهودية» ملحمة الانتحار الجماعي في مسادة بقيادة اليعازر بن مئير.

الآراء مختلفة حول هذه الرواية. فاليهود عامة لا يغفرون ليوسف خيانته، والموسوعة اليهودية لسيسيل روث تصفه بأنه لا يُعْتَدُّ به كمؤرخ. والباحثة اليهودية الأمريكية ويبس رومارين تقول أن دراستها أكدت أن مسادة خرافة ولا يمكن التدليل على سلامة استناد هذه القصة الى الاكتشافات الأثرية التي قام بها في القلعة يغآل يادين (الذي أصبح نائب رئيس وزراء اسرائيل فيما بعد). ويشاركها في هذا الرأي الدكتور سايروس غوردون، عميد علماء الآثار اليهودية في أمريكا.

أما الكتّاب العرب فيشككون عموما في واقعة الانتحار. فالدكتور عبد الوهاب المسيري يرى أن يوسف أراد التكفير عن خيانته بهذه «القطعة الاعلامية الباهرة» وأن اليعازر أرغم بعض رجاله على الانتحار ومنعهم من الفرار. والقصاص الفلسطيني توفيق فياض يرى أن اتباع اليعازر ماتوا جوعا، «فلو كانوا يريدون الانتحار هناك لكان أحرى بهم أن يفعلوا ذلك وراء أسوار القدس بدلا من أن يهربوا منها الى مسادة».

ربما كان هذا كله صحيحا. ولكن هذا لا يحل النقطة الثانية.

٢ ـ هل عقدة مسادة موجودة أصلاً؟

أي هل نزعة الانتحار الجماعي كامنة في العقل القومي اليهودي؟

ان الشريعة اليهودية (مثل الاسلامية) تحرم الانتحار، ولكن لا توجد في التاريخ الاسلامي حوادث انتحار جماعية أو فردية بدافع وطني أو ديني، بينما التاريخ القومي اليهودي ليس كذلك. وهاك

(١) مجلة نيوزويك، ١٢/٧/١٩٧١.

أمثلة عليها قبل مسادة وبعدها:

١ ـ أن الحاكم الروماني بيلاطس البنطي الذي صلب المسيح في عهده ذكر في رسائله الى الحكيم الروماني سنيكا أن آلافاً من اليهود مدوا رقابهم قائلين أنهم يفضلون أن يقطعها ولا يسيء الى حرمة دينهم[٢].*

٢ ـ أن رفاق يوسف ارتكبوا الانتحار فعلا بأمر منه قبل سقوط مسادة خلال ثورة الجليل. وهذا ما رواه المؤرخ ويل ديورانت في المجلد الثالث من مؤلفه الشهير «قصة الحضارة» في حديثه عن الثورة اليهودية الكبرى (٦٦ ـ ٧٠ ميلادية).

٣ ـ أن ثورة باركوخبا (١٣٢ ـ ١٣٥ ق.م) كانت قمة في الانتحار الجماعي، بعد ثورات الفترة ١١٥ ـ ١١٧ ق.م التي دمرت الطوائف اليهودية في ولاية برقة (ليبيا) ومصر وقبرص في عهد الامبراطور تراجان. فقد أدت الى مقتل ٥٨٠ ألف يهودي في فلسطين وتدمير ٩٠٠ قرية حسب التقديرات الرومانية..[٣] كما أدت الى انتهاء مملكة يهودا. «ومن سخرية القدر أن تتحول ثورة لها هذه النتائج المدمرة وكادت تبيد وجودنا القومي الى رمز للبعث «على حد رأي الدكتور يهوشفاط حركابي في كتابه «أسلوب باركوخبا» عام ١٩٨٣. وهذا حكم لا يستهان به من أستاذ العلاقات الدولية ودراسات الشرق الأوسط بالجامعة العبرية والرئيس السابق للمخابرات العسكرية الاسرائيلية. ومع أن حركابي كان يكرر رأي المفكرين اليهود عبر العصور إلا أن كتابه نزل على اسرائيل نزول الصاعقة لأنه يتعارض مع أسلوب القوميين والاسرائيليين في «تحويل هذا الرمز السلبي الى رمز ايجابي»، أي الى ملحمة بطولية أخرى تلقن للأطفال وتلاميذ المدارس منذ انشاء الدولة. ولهذا اعتبروا تهجم حركابي «دنسا قوميا» مما يعني أن أسلوب الانتحار الجماعي ما زال موضع التمجيد.

طبعا هناك جانب التهويش والاتجار بهذه العقدة، أو ما سماه الدكتور المسيري محاولة «جعل الانتحار اليهودي مسألة لا تفسير لها ـ جزءا أزليا من الطبيعة البشرية اليهودية» التي تعلو على الافهام فاذا تصدى العرب لشمشون الاسرائيلي فسوف يهد المعبد على رأسه وعلى أعدائه معا دون أي تفكير أو تبرير أو تردد.

وهناك ايضا جانب مقذع في سخريته هو تصوير اعداء اليهود ابطالاً لهم. إذ يذكر يوسف ان المنتحرين في مسادة كانوا من طائفة متطرفة منبوذة اسمها السيكاريون، وهي طائفة اشبه بقطاع

---

(٢) رسائل بيلاطس البنطي الى سنيكا، ترجمة جاد المنفلوطي، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية، القاهرة ١٩٧٣، ص ٣٧

* زحفوا الى قيصر احتجاجاً على رفعه صور قياصرة روما على قلعة أنطونيا بالقدس مقابل الهيكل، وقال أحدهم بالآرامية وقد ركع عند قدمي جندي روماني واضعاً رقبته تحت سيفه: «الموت أهون علينا من الاستسلام». فحذت حذوه الآلاف، ووصف بيلاطس ذلك المشهد بأنه كان «مضحكا حقاً».

(٣) نيويورك تايمز، ٣١/١/١٩٨٢.

الطرق وكانت متخصصة في مهاجمة اليهود عامة واغنيائهم خاصة، ولكنها قتلت ايضا ٧٠٠ طفل وإمرأة من اليهود في قرية عين جدي، مما جعل اليهود يتحالفون مع الرومان لتصفيتها. وهكذا فمن سخرية القدر ان هؤلاء المتدينين السفاحين الذين لم يحاربوا الرومان ابدا صاروا ابطالا ليهود اليوم!

لكن يجب أن نلاحظ أنه رغم حرص العقل اليهودي على الحياة فان العقل القومي اليهودي عبر العصور لم تكن تهمة حياة الفرد أو حرية ارادته قدر اهتمامه بتأليه الجماعة أو تقديس الأمن، خصوصا في عمليات فدائية لاحتجاز الرهائن كما أسلفنا في الفصل الثاني.

والحقيقة أن التاريخ اليهودي كله كما أشرنا من قبل سلسلة غير عادية من النكبات التي لا تفسير لها ظاهريا، ولكن المتعمق يلاحظ أن هذه المحن غالبا ما تكون من صنع الذات عندما يفرط العقل اليهودي في الشطط أو المغالاة التي ذكرها سول بيلو. وطبعا يكون رد الفعل صدمة جديدة يعقبها الحلم بمعجزة الخلاص. ولكن بمجرد أن يأتي «مخلص» أو قائدجديد تراه غالباما يقودهم الى نزعة قومية عشائرية فيوقعهم في شطط جديد وبالتالي نكبة جديدة وحلم جديد بمعجزة ظهور المخلص. والتاريخ اليهودي حافل بالدجالين الذين ادعوا أنهم «الماشيح» المخلص الموعود. وإذا صح قول هيغل «أن المعجزات تشكل سمة مزعجة في تاريخهم» (٤)، فان اسرائيل أعلى تعبير عن المعجزة الجماعية، وهي وحدها التي تقرر وقت عودة الماشيح Moschiah.

هذا الايمان بالمعجزات وضع الدولة اليهودية الحديثة نفسها في طريق مسدود من التناقضات المزعجة الى حد الطرافة: فهي تصر على معجزات مثل الجمع بين الديمقراطية والثيوقراطية (الحكم الديني)، وبين التكنولوجيا العصرية ومنطق التمني (Wishful thinnking)، وبين الشكوى من الاضطهاد والولع بالتسلط، وبين تصيد الصدقات من الغرب ومعاملته بغطرسة، وبين الحلم بالسلم والتوسع الجغرافي، وبين احتقار العرب والتهالك على الصلح معهم، وبين الاصرار على التفوق والحرص على البقاء.

وبكلمة أخرى أصبح العقل الاسرائيلي ـ كما قالت جريدة نيويورك تايمز عقب غزو بيروت ـ «أسير نفسه في الاختيار الفاجع بين المستحيل والانتحار، أي الاختيار بين روما العاصمة الامبراطورية، ومسادة القلعة المحاصرة».

والعلاقة جدلية بين أخذ اسرائيل بأسلوب السلم الروماني Pax Romana الذي يفرض السلم والعمران بالقوة، وبين انتحار بني اسرائيل بالجملة في قلعة مسادة. فخوف اسرائيل المرضي على بقائها يدفعها الى المغالاة في الأمن والمطالب الدينية الى حد التوسع المتزايد، والعكس صحيح، فكلما ازداد توسعها ازداد خوفها المرضي على بقائها وتشبثها بما استحوذت عليه. يقول هنا الفنان العالمي يهودي منوحين: «نحن مذعورون خشية أن يلجأ من استغللناهم وأسأنا معاملتهم الى الثورة علينا ومهاجمتنا. ولهذا نلجأ الى أساليب متزايدة القسوة» (٥).

---

(٤) هيغل. المرجع السابق.

(٥) مجلة اكشن. نيويورك، حزيران/ يونيه ١٩٨٢.

ولكن حيث أن اسرائيل أقل بأسا من روما وأكثر أعداء منها، فان الشعار الذي يحلف به ضباط سلاح المدرعات الاسرائيلي عند تخرجهم («لن تسقط مسادة بعد اليوم») قد يكون ذاته العامل الأول في جعل سقوط اسرائيل الامبراطورية ـ القلعة أسرع من سقوط روما. وبكلمة أخرى أن السبب الرئيسي الذي يعجّل بفقدان اسرائيل مقومات الدولة عاجلا أم آجلا هو أن من يفرض سياسة الأمر الواقع يرفض عموما أن يكون واقعيا حتى ينتهي الأمر الى انسلاخه تدريجيا عن العالم. واسرائيل حاليا (مع أنصارها) في غيبوبة متزايدة تتخذ أربعة مظاهر رئيسية هي: عدم التعـايش مع الذات، واستفـزاز المجتمع الدولي والمنظمات الدولية، واستعداء الأصدقاء، وطبعا استعداء الجيران.

وقد ألقينا في الفصل السابق نظرة على صعوبة التعايش في دولة يهودية وبقي أن نعالج المظاهر الثلاث الباقية لقياس مـدى انعزال اسـرائيل انسـانيا.

١ ـ استفزاز المجتمع الدولي والمنظمات العالمية

ذكرنا أن النتيجة التلقائية لشعور العقل القومي اليهودي بالتمايز والانفصال هو تحوله الى عقلية منغلقة «غيتوية» ذات سمة أثرية بدائية تجتر نفسها. وبعض العقليات المنغلقة (مثل الغجر) تكتفي بهذا الانغلاق. ولكن اقترانه بالايمان بالتفوق لدى القومية اليهودية مزيج غريب متفجر لم يقتصر أثره على مجرد احالة الطوائف اليهودية في رأي الدكتور استاذ التاريخ بجامعة كونتيكت الامريكية الى «طبقة مستقلة في حـدّ ذاتهـا»، لا تنتمي الى الأغلبيـة او الى الاقليـات وانمـا جعلهـا ايضـا تحـاول «أن تملي قانونها الخاص على العالم» كما قال ايلي فور [٦]. لذلك طبيعي أن يكون صراعها حتميا مع التنظيمات الدولية. فاسرائيل مثلا لا تحفل كثيرا بالقضايا العالمية الانسانية مثل التفرقة العنصرية والاستعمار وحق تقرير المصير والفصل العنصري (أبارتايد) الا اذا أرغمت على ذلك. فقد استغلت اسرائيل مثلا قرار الأمم المتحدة بمقاطعة جنوب افريقيا فضاعفت من علاقاتها بها عندما خلا الجو لها وكانت الدولة الوحيدة التي رفعت عقب ذلك تمثيلها الدبلوماسي معها الى مستوى السفارة. كذلك لا تتقيد القومية اليهودية بأية قوانين دولية او اتفاقات او مواثيق فيها ادنى مساس بمصالحها الذاتية حتى لو صدقت عليها، ويتضح ذلك من ضخامة سجل مخالفات اسرائيل في لجنة حقوق الانسان بالأمم المتحدة، سواء في التعاون الذري مع جنوب افريقيا او في توريد الأسلحة (أحيانا الى الطرفين) لاسقاط حكومات او اطالة الحرب بين ايران والعراق، او في مخالفة اتفـاقيات جنيف لمعـاملة اسـرى الحرب والمدنيين وقت الاحتلال، او في ضم اراضي سلختها من الدول المجاورة بدعوى الأمن، او في الاغارة على دول لم تحاربها (مثل تونس وأوغندا). وتلخص الآية هذا الموقف على لسان بني اسرائيل بقولها في سورة آل عمران «ليس علينا في الأميين سبيل» (أي ليس لنا التزام بالأمميين او غير اليهود).

وهذا يفسر تهالك اسرائيل على تحصين صورتها الى حد الاستماتـة في السيطرة عـلى أجهزة

---

(٦) غومار. المرجع السابق.

الاعلام. ولكن بينما لا يخلو أي برنامج تليفزيوني عالمي حتى ولو كان تمثيلية فكاهية من الغمز بالعرب أو الاشادة الذكية بالشطارة اليهودية، نجد بالمقابل أن اهتمام اسرائيل بالعالم الخارجي في وسائل اعلامها ضيق الى حد جعل مجلة عالمية تصف التلفزيون الاسرائيل بأنه «نموذج كلاسيكي للتلفزيون الذي لا تتجاوز اهتماماته حدود البلاد»(٧).

واذا حدث وتناولت العقلية الاسرائيلية أية اهتمامات أو قضايا انسانية، خصوصا على المستوى الرسمي، فهي غالبا ما تتناولها من حيث وضعها النرجسي الخاص ومصالحها الذاتية. فاذا انتقدت التفرقة العنصرية مثلا لم تنتقد نفسها أو جنوب افريقيا وانما تشير الى اللاسامية فقط. واذا تحدثت عن الاستعمار لم تقصد استعمار أمريكا لفيتنام أو فرنسا للجزائر، أو جنوب افريقيا لناميبيا، أو اسرائيل للبنان، وانما تقصد «استعمار» مصر لليمن، وسوريا للبنان، والأردن للضفة الغربية (رغم أن هذه التسمية أصلا تتناقض مع ادعاءاتها بأن شرق الأردن جزء من فلسطين ومن ثم ينبغي ايجاد دولة فلسطينية هناك). واذا تكلمت عن حق تقرير المصير لم تقصد حق الفلسطينيين في الاستفتاء على مشروع التقسيم مثلا عام ١٩٤٧، وانما تقصد به حق اسرائيل في تقرير مصيرها بل مصير سكان الأراضي المحتلة نيابة عنهم. وليس مهما لديها انعزالها في الأمم المتحدة، لأن دستور الأمم المتحدة (وهو ميثاقها والاعلان العالمي لحقوق الانسان) يشترط أساسا المساواة بين بني البشر، وهذا مطلب لا يقبله العقل الاسرائيلي. ومما يستلفت النظر هنا ليس فقط أن قرارات الأمم المتحدة التي تدين اسرائيل تعد بالمئات ، وانما أن الموظفين اليهود فيها رغم كثرتهم ورغم قلة الموظفين الاسرائيليين (عددهم أربعة تقريبا) يفضلون اخفاء هويتهم تفاديا للحرج. صحيح أن الحركة الصهيونية لعبت دورا هاما في انشاء الأمم المتحدة لاعتبارات انسانية وسياسية، لكن الاعتبارات السياسية لديها رجحت كفتها تماما بعد أن استنفدت أغراضها الانسانية من الأمم المتحدة، لأن هذه الأغراض كما هو متوقع، كان المقصود بها اليهود أساسا.

٢ ـ استعداء الأصدقاء

واسرائيل لا تطلب المستحيل من العرب فقط، وهو فرض السلم الروماني عليهم بالقوة الغاشمة، وانما من أصدقائها أيضا. فشراستها في مساومتهم لا يصدقها عقل حتى أن هنري كيسنجر وزير الخارجية الأميريكي السابق، وهو يهودي، قد ذكر من خبرته «المكوكية» كوسيط بين العرب واسرائيل أن أسلوبها في التفاوض هو «أن تساوم حتى على أبسط التنازلات، وأن لا تقبل أبدا أي حل وسط لا يكون منتظرا منها، وأن لا تقنع الا بعد أن يكون الجميع قد وصلوا مرحلة من الأعياء تسلب الاتفاق هيبته أو حتى النية الصادقة فيه».

وكان كيسنجر نفسه موهوبا في استعداء الأغيار عليه مهما اشتد تأييدهم لاسرائيل. فقد كاد الكونغرس الأمريكي أن يوجه اليه تهمة إهانته. وعدة شخصيات بارزة من الشرق والغرب (مثل

(٧) نيوزويك، ٢٢/٨/١٩٧٤.

غروميكو ودانيل باتريك مويتهان نائب نيويورك وسيمور هيرش الصحفي الفائز بجائزة بولتزر) تتفق مع وصف الرئيس السابق كارتر له بانه «رجل عديم الاخلاق والمبادىء» كما ان موينهان شكا عندما كان سفيرا لامريكا لدى الأمم المتحدة ورغم تأييد الأعمى لاسرائيل من ان كيسنجر يبدو وكأنه «دخل البيت الأبيض ليخدم اسرائيل وحدها». ومع ان الرئيس السابق نيكسون وصفه في صيف عام ١٩٨٨ بانه «خبيث ومقيت» devious and obnoxious إلا أنه كان يعتبره مفاوضاً رائعاً وكان هذا أساس سبب اختياره لمهمته المكوكية في الشرق الاوسط.

وقد تغرغرت عيناكيسنجربالدموع أكثر من مرة عندما اتهمه كثير من يهود أمريكا واسرائيل بأنه خائن وعدو لشعبه لأنه انتزع الكثير من اسرائيل خلال مفاوضات فض الاشتباك بعد حرب ١٩٧٣. فلم يكن قادراً على مصارحتهم طبعا أنه انتزع من أمريكا في سبيلهم أضعاف ذلك!. وفي نهاية الأمر وبعد مساومات شرسة مع «عشيرته» على حد تعبيره (ولم يكن قادراً عليها سوى يهودي مثله)، ضاق ذرع الرئيس فورد ووزارة الخارجية وقررا «أن علينا أن ننقذ الاسرائيليين من أنفسهم». واكتشف كسنجر دون اسرائيل نفسها ان بقاءها نفسه مهددا لو تجددت الحرب وان انقاذها لا يكون الا بردها إلى حجمها الطبيعي»* لكنه دفع الثمن من فاتورة امريكا وببلايين الدولارات، ولعل جانبا كبيرا من دموعه كان راجعا الى احساسه بجحود عشيرته في غمرة انهماكها في المساومة مع دولة دفعت عنها «ثمنا باهظا» في رأي الصحفي الامريكي ادوارد شيهان الذي رافق كيسنجر في جولاته عامي ١٩٧٤ـ١٩٧٥ .

وهناك تفسيران لشراسة المساومة هذه، أحدهما ساخر والآخر مأساوي، ولكن كلاهما مخلص وصادر عن يهوديين بارزين.

التفسير الأول، جاء على لسان ناحوم جولدمان الذي قاد الحركة الصهيونية في الخارج زهاء نصف قرن، ومع ذلك كان يحلو له أن يصف نفسه بأنه «أممي» (Goy) وعندما سئل عن السبب قال صراحة: «ما أقصده بذلك هو أنني لست عنيدا، ولست متعصبا. فأنا مرن ومتسامح وأفهم وجهة نظر الآخرين. وهذا ليس من طبع اليهودي».

أما التفسير الثاني فهو من الفنان يهودي منوحين الذي قال: «لقد أسأنا، لقد أستغللنا. ونحن خائفون من أن نفقد سطوتنا».

وضياع هذه السطوة مهدد ليس في الأراضي المحتلة وحدها وانما داخل أرض الصديق الوحيد الأوفى: الولايات المتحدة. فهناك يذهب الجناح الاسرائيلي الى حد التطرف سواء باصدار كتاب يلقن الرئيس ريغان درسا في الأخلاق لأنه زار مقبرة المانية (بتبرغ) بها رفات بعض جنود الصاعقة النازية، أو باتهام أمريكا بالتواطؤ مع مجرمي الحرب لأنها استخدمت بعضهم عملاء لدى وكالة المخابرات المركزية أو سمحت بدخولهم وتجنسهم في أمريكا، أو بتوريط مجلس الأمن القومي في توريد الأسلحة

* نقلا عن كتاب «العرب والاسرائيليون وكسنجر» لادوارد شيهان، وعن مقال للدكتور جمال حمدان «اسرائيل تنتهي بهجرة اليهود غرباً» في مجلة المعرفة السورية في عام ١٩٧٧.

سرا مع اسرائيل من وراء ظهر الكونغرس كيلا يقال أن اسرائيل وحدها هي التي انفردت بذلك منذ بداية الحرب الايرانية ـ العراقية، وقس على ذلك.

واذا فكرت الولايات المتحدة في أن تنصح حكومة اسرائيل بالاعتدال (دون الضغط عليها طبعا) كما هو الحال مثلا خلال غزو لبنان، وجدت بيغن يقول لها: «ليس للأمريكيين أن يلقوا علينا موعظة في الأخلاق... وعليهم ان يتذكروا ما فعلوه بفيتنام». ولم يتذكر بيغن ما فعلته فيتنام بأمريكا الا بعد أن حطمته حرب لبنان وأرغمته على الاستقالة رغم فوزه بثقة البرلمان في كل تصويت حتى لحظة تقاعده.

ورغم ما يشوب العلاقة الأمريكية ـ الاسرائيلية من استغلال متبادل يقوم على تشابه المصالح (اسرائيل تقوم بكل الأعمال القذرة التي لا تريد أمريكا أن تفعلها علنا، مقابل تلقيها أعلى أجر يناله أي عميل) فان عطف أمريكا على اسرائيل لا شك فيه. وهذا ليس حال اسرائيل تجاه شقيقتها الكبرى، فموقفها منها يتسم بالتضليل، والابتزاز، والغطرسة التي تبلغ أحيانا حد الاهانة والعنف، والشك الى حد التجسس.

من حيث التضليل، اسرائيل تعرف كل ما تريد عن أمريكا، لأن الرقابة في الأخيرة ليست عسكرية كما هي في الأولى. وهي تستميت في بث صورتها كدرع ضد الشيوعية في الشرق الأوسط، مع أنها الدولة الوحيدة التي تسمح بقيام أحزاب شيوعية فيها (وهذا غير موجود حتى في الولايات المتحدة)، بل انها شجعت معظم الدول العربية على التعاون كارهة مع المعسكر الشرقي كما فعل عبد الناصر وقت صفقة الأسلحة التشيكية وبناء السد العالي بعد أن سحبت أمريكا عرضها بتمويله بشكل مهين. وقلما يذكر أحد دور الشعوب الاسلامية في التصدي للشيوعية في أفغانستان وايران وتركيا. ثم ان اسرائيل عجزت عن الدفاع عن مصالح امريكا بانقاذ شاه ايران رغم علاقاتها الممتازة مع مخابراته، فكيف تستطيع ان تدافع عن اي نظام عربي مهما كانت علاقاته بامريكا ممتازة دون ان تعرضه للسقوط بتهمة التواطؤ مع العدو؟

أما عن الابتزاز فهو مرادف لمصطلح «الدفاع» الأثير لدى العقل القومي اليهودي. فجيش «الدفاع» الاسرائيلي يفتك بالسفينة ليبرتي دون أن يجرؤ أحد في الكونغرس أو حكومة جونسون على الاحتجاج، ورابطة «الدفاع» اليهودية تقتل أو تنسف مكاتب معارضيها في أمريكا ثم ينتهي الأمر كالعادة بقيد التهمة ضد مجهولين، لأن العلاقة بين الرابطة والمباحث الفيدرالية معروفة. ومنظمة بناي بريت المختصة بالدفاع عن اليهود ضد كل من ينال من حقوقهم كأمريكيين لا تتورع عن التصدي لشكاوى الناجين من السفينة الأمريكية ليبرتي، وكأن الدفاع عن اسرائيل أصبح فجأة أهم من الدفاع عن أمريكا. ووزارة الخارجية الأمريكية تحذر المواطنين «السود والعرب الأمريكيين» في منتصف عام ١٩٨٧ من السفر الى اسرائيل خشية اساءة معاملتهم هناك وكأنها عاجزة عن حمايتهم في أرض أوفى حليفة لها. والجيش الأمريكي عاجز عن منع جنود اسرائيل من التحرش بمشاة بحريته في لبنان خلال الشهور الثلاثة الأولى من عام ١٩٨٣ حتى أن قائدهم شكا لوزير الدفاع واينبرغر من أن قوات الدفاع الاسرائيلية «تهدد عمدا أرواح العسكريين الأمريكيين... وأنها دأبت على مضايقتهم وتعريضهم للخطر وامتهانهم... في سلسلة من الحوادث كانت موقوتة ومنسقة ونفذت لأغراض سياسية اسرائيلية

سافرة بلهاء»[8]. ولكن هذه السلسلة أدت مراميها البلهاء، فقد «طفّشت» عساكر أمريكا من لبنان نهائيا.

اما من حيث الغطرسة والتطاول، فقد شكا هذا القائد من ان جنوده لم يتعرضوا للموت فقط وانما مروا ايضا بحوادث «حافلة بالفاظ كانت تحطمنقدر ضباطهم وزيهم العسكري وبلدهم»[9].

وعندما انتقد أصدقاء اسرائيل حكومتها على تصرفاتها في حرب لبنان راح بيغن يكيل الشتائم لرؤساء فرنسا والمانيا وغيرها حتى وصفته جريدة نيويورك تايمز بأنه «مزعج ومتعصب وغوغائي وشتّام للأصدقاء». وقد ظل يصر بعد أن أزهق آلاف الأرواح البريئة في لبنان أن اللاسامية هي التفسير الوحيد لحملة الصحافة الغربية عليه. أما تفسيره لمذبحة مخيمي اللاجئين في صبرا وشاتيلا في ظل الاحتلال الاسرائيلي فهو ببساطة «أن الأممي يقتل الأممي، وبعد ذلك يطالبون بشنق اليهودي»!

ان المأساة الحقيقية للعقل الاسرائيلي هو آنه لم يجد قائدا لمسيرته ولا حاميا لديمقراطيته طوال نحو سبع سنوات عسيرة سوى رجل مثل بيغن. رجل يتفاخر «بنقاء السلاح» الاسرائيلي ثم يزعم أنه سمع بأخبار مذبحة صبرا وشاتيلا لأول مرة من اذاعة لندن بعد ثلاثة أيام من بدئها. رجل يدعي أن أجداده بنوا الأهرام بالسخرة رغم أن بناءها بدأ قبل ظهور بني اسرائيل في مصر بأكثر من الف عام.* رجل وصفه الكاتب الاسرائيلي يعقوب تميرمان في كتابه عن غزو لبنان وعنوانه «أطول حرب» بأنه انسان «مختل» وأنه يفكر في المطالبة بمحاكمته بدعوى الجنون. فكيف يستطيع زعيم كهذا أن يميز بين الأعداء والأصدقاء؟ واذا كان قادرا على ذلك فهل يعاملهم على هذا الأساس أم على أساس أنهم مجرد شركاء في صفقة خالية من عواطف الصداقة، أم على أساس أن الناس جميعا يحبون اسرائيل ولكنها لا تحب احدا؟ (يذكرنا هذا بزجل شوقي المشهور «كلنا نحب القمر، والقمر بيحب مين؟»). واخيرا، هل يختلف اسحاق شامير «زعيم» اسرائيل الجديد او «أبوها الروحي» (عرابها) الجديد كما يسمونه هناك، عن زعيمها وعرابها السابق بيغن؟

ايهما التابع وأيهما المتبوع؟

والحقيقة أن علاقة اسرائيل بأمريكا علاقة شاذة الى حد المرض ولا نظير لها تقريبا في التاريخ السياسي. ولهذا يحار المرء في وصفها: هل هي علاقة التابع بالمتبوع؟ أم علاقة العميل بحركة امبريالية

---

(٨) نيويورك تايمز ١٨/٣/١٩٨٣.

(٩) نشرة لنك، المجلس الأمريكي للتفاهم في الشرق الأوسط، عدد تشرين الأول/ أكتوبر - تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٨٦.

* أظهرت البحوث التي أجريت على الهرم الأكبر مؤخرا سواء بالكربون المشع أو بالوثائق المكتشفة حديثا انه كان موجودا قبل عصر خوفو بعدة قرون، وبالتحديد قبل عام ٢٨٦٩ ق.م.

عالمية؟ أم علاقة الخادم الشاطر الذي يستخف بغباء مخدومه ويستغله؟

في البداية كان الناس يقولون أن اسرائيل ولاية أمريكية، والآن بتزايد عدد القائلين بالعكس وهو أن أمريكا مستعمرة اسرائيلية أو في «جيب اسرائيل» على حد قول الكاتب والقس الأمريكي وليام بيكر مؤلف كتاب «سرقة أمة»(١٠). فأين الحقيقة اذن؟

المواقف التالية قد تعطينا فكرة عن التشخيص السليم لطبيعة هذه العلاقة الشاذة.

* أي صراع بين مصالح اسرائيل مهما قلت ومصالح أمريكا مهما عظمت ينتهي غالبا لصالح اسرائيل. فمن يتصور أن ترجح كفة أمن اسرائيل (كما تدعي) على أمن أمريكا وحلفائها بمنع ارسال صواريخ ستنغ الى الكويت، أو بارسال طائرات ايواكس الى السعودية، أو بإنشاء قوة عسكرية متحركة منتقاة في الأردن لمساعدة الخليج العربي في التصدي للتهديد الايراني؟ ومع ذلك هذا ما حدث. بل أن البحوث العسكرية في أمريكا ذاتها تجرى وفقا لمصالح اسرائيل أولا قبل مصالح أمريكا.
* في فضيحة ووترغيت عوقبت كل الأطراف المعنية في مجلس الأمن القومي المسؤول عن الفضيحة فما فوق حتى الرئيس نيكسون، باستثناء رئيس المجلس وهو الصهيوني العريق هنري كيسنجر، رغم أنه أبدى «مخاوفه» من انكشاف عمل «السبّاكين» (كما سمى مساعديه الذين دسوا أجهزة التجسس).
* في فضيحة ايران جيت طبخت اسرائيل خطة بيع السلاح لايران وتحويل فائض الربح الى متمردي نيكاراغوا (الكونترا). وقد طار بسبب ذلك مستشار الرئيس الأمريكي لشؤون مجلس الأمن القومي روبرت ماكفارلان وعوقب سلفه الأميرال بويندكستر واهتزت كثيرا ثقة الشعب الأمريكي بحكومته، ومع ذلك لم يتأثر مسؤول أو سمسمار اسرائيلي بذلك.
* كانت فضيحة الجاسوس الأمريكي اليهودي جوناثان بولارد أقسى ضربة للجناح الاسرائيلي في أمريكا، فقد كانت أول دليل واضح على ازدواج الولاء القومي اليهودي في أمريكا وعلى اختلاف المصالح (والمبادىء) لدى الطرفين. فقد شحن بولارد بفخر شبه علني ملء غرفة كاملة (٣٦٠ قدما مكعبا) من الوثائق السرية الى مخابرات اسرائيل يعادل طولها المسافة بين نيويورك وواشنطن. وقد ساعد بعضها في هجوم اسرائيل الجوي على تونس عام ١٩٨٦، كما ساعد جنوب افريقيا على كشف عملاء أمريكا الذين يتجسسون عليها فيها! وكالعادة شكلت حكومة اسرائيل لجنة تحقيق مع نفسها وانتهت كالعادة الى «أن الجميع مذنبون، وبالتالي لا تقع المسؤولية على شخص معين!». وزاد من سخط الولايات المتحدة أن اسرائيل لم تتعاون مع لجنة التحقيق الأمريكية ولم تسلم أحدا من رجالها المتهمين في القضية مثل الجنرالين ايتان وسيلا والدبلوماسيين إيرب وياغور. بل انها كافأت الجنرالين بمنصبين أفضل حتى أرغمتها نقمة الصحافة الأمريكية على سحب ترقية سيلا وحده. كما أنها لم ترد بعد ستة شهور سوى جزء بسيط (١٠ في المائة تقريبا) من الوثائق المسروقة(١١).

---

(١٠) وليام بيكر. من محاضرة له في نادي نيويورك الرياضي، عام ١٩٨٣.
(١١) مجلة تايم، ١٩٨٧.

هذه الأمثلة توحي بأن العلاقة بين الدولتين ليست علاقة التابع بالمتبوع، أو العميل بـرئيسه الامبريالي، وانما أشبه بعلاقة مصلحة واستغلال متبادل بين زوجين من نوع ما نشهده في المسلسل الأمريكي «دالاس» أو «ديناستي». فالزوجات يتظاهرن بالسعادة والوئام أمام الغير، والزوج يتصرف على أنه سيد البيت وامبراطور شركاته العملاقة، والزوجة تشجع الانطباع بأنها «تقف وراء زوجها»، ولكنها سرا هي التي تتحكم فيه فلا يعصي لها أمرا. ومقابل ذلك تتكفل بجميع احتياجاته المنزلية التي تأبى عليه رجولته القيام بها من غسيل وتنظيف (العمليات السرية القذرة وجمع المعلومات في حـالة اسرائيل)، بشرط أن يتكفل هو بكل مصروفاتها وفواتيرها الباهظة. ويكفي اذا استأسد وتمرد عليها أن توحي اليه بأنها تعرف عن أسرار عمله ومغامراته أكثر مما يظن، وأن ثمن الطلاق فادح كفيل بخراب بيته!

ولكن ما أسرع الطلاق في حلقات هذه الأفلام وما أكثره. فأي زوجـين لا يمكن أن يتظاهـرا بالسعادة الى الأبد، خصوصا اذا كانت الزوجة مولعة بالخيانة (التجسس)، وكان الزوج مفتوح الشهية لغزو أسواق ونساء جديدات على الدوام.

الشك في الخل الوفي

هذا التشبيه ليس خياليا، لأنه موجود في أذهان اليهود، فقد أبدت الصحفية الاسرائيلية أنيت دولزين اندهاشها من شدة انزعاج يهود أمريكا من اتهامهم بازدواج الولاء عقب قضية بولارد، فهذا الجزء في رأيها «أشبه بالقول أن حب المرء لأبيه يقلل من حبه لأمه»[(١٢)]. والذي يدهشنا نحن ليس هذا الانكار الاسرائيلي المعهود لرجولة أمريكا (كما فعلت معها في لبنان) بأن عكست الآية بعد أن كنا نظن أن الولايات المتحدة هي الأب لا الأم، وانما لأن المسألة أصلا مسألة «خيانة زوجية» أو «انعدام ثقة» أحد الزوجين بالآخر، ولا يمكن تبريرها بالحب.

وأغرب من ذلك أن تجسس الزوجة الاسرائيلية على زوجها الأمريكي أخذ يزداد بازدياد انفاقه عليها، فمع شدة ارتفاع المساعدات الأمريكية وجعلها هبات خالصة (بعد حرب لبنان ويا للعجب!) * ارتفعت أيضا قائمة قضايا التجسس الاسرائيلية، وكانت مصادر مكتب التحقيقات الاتحادي (FBI) قد قدرت عدد هذه القضايا بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٨٥ بأربعين قضية حفظت جميعها لضغوط سياسية [(١٣)]. بيد أن الظاهرة تسارعت في العقد الماضي حتى قال المسؤولون الأمريكيون في أيار/ مايو ١٩٨٦ أن قضية بولارد «لم تكن سوى حلقة واحدة في شبكة تجسس اسرائيلية حسنة التنظيم والتمويل داخل

---

(١٢) مجلة نيوزويك، ٩ تموز/ يوليه ١٩٨٦.

* تقدر المصادر الاسرائيلية أن حرب لبنان كلفت اسرائيل خسائر مباشرة وغير مباشرة (من الانتاج والسياحة) قدرها خمسة بلايين دولار خلال السنوات الخمس الأولى، وأن الحكومة الأمريكية دفعت منها نحو نصف بليون دولار على الأقل في صورة نفقات مباشرة، ومقابل ذلك خفضت أمريكا مساعدتها للبنان من ٢٧ مليون دولار عام ١٩٧٩ الى ٢,٨ مليون فقط عام ١٩٨٥ (ميديل إيست اوبزرفر ١٥/ ٢/ ١٩٨٠ وميدل إيست انترناشونال ١١/٧/١٩٨٦).

(١٣) صحيفة اليوم السابع، باريس ٢٣/١٢/١٩٨٥.)امريكـــا.

الولايات المتحدة»[١٤]. ومن قضايا التجسس والسرقة والتهريب التي وصل امرها الى الصحافة خلال تلك الفترة:

١ ـ قضية ستيفن برايان التي ما زالت معروضة على القضاء منذ ١٩٧٨ لاتهامه بعرض معلومات سرية على مخابرات اسرائيل. [١٥].

٢ ـ سرقة ٢٠٠ رطل من اليورانيوم من شركة نيوميك/أبوللو الأمريكية بولاية بنسلفانيا في السبعينات [١٦].

٣ ـ اتهام مهندس أمريكي اسمه ريتشارد ك. سميث من كاليفورنيا في أيار/ مايو ١٩٨٥ بتهريب ٨١٠ أجهزة الكترونية للتفجير النووي من طراز كرايترون، ولكنه هرب من أمريكا قبل المحاكمة [١٧].

٤ ـ في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٥ جرى التحقيق مع عدد من أعضاء الكونغرس بتهريب معدات لتحسين مدافع الدبابات [١٨].

٥ ـ في نيسان/ ابريل ١٩٨٦ قبض على ثلاثة اسرائيليين منهم الجنرال الاحتياطي افراهام بارعام في برمودا بتهمة تهريب ٢,٥ بليون دولار من الأسلحة المتقدمة الى ايران [١٩]. وأنكرت حكومة اسرائيل علمها بهذه الصفقة «المفزعة في حجمها» ولكن بارعام هدد بافشاء تفاصيل تورطها فيها اذا أيدت تسليمه الى أمريكا [٢٠].

٦ ـ كشفت فضيحة بولارد الذي قبض عليه في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٥ عن علاقة اسرائيل قبل ذلك بايران عندما اعترف بأنه أرسل الى اسرائيل بناء على طلبها تقييما من ملفات المخابرات البحرية الأمريكية لصاروخ فرنسي أرض ـ جو من طراز كاكتوس لشحنه الى ايران [٢١].

٧ ـ في تموز/ يوليه ١٩٨٦ جرى تفتيش وتحقيق مع عدد من الشركات الأمريكية ومن رجال بعثة وزارة الدفاع الاسرائيلية في نيويورك بتهمة محاولة تهريب تكنولوجيا محظورة لتحسين صنع القنابل العنقودية [٢٢].

والغريب أن الصحافة الأمريكية رغم تغطيتها الهائلة لفضيحة ايران جيت تجاهلت تقريبا دور

---

(١٤) ميامي هيرالد، ٣٠/٥/١٩٨٦.
(١٥) بوسطن غلوب، ٢٨/٨/١٩٨٦.
(١٦) محطة اي بي سي التلفزيونية الأمريكية، ٢٧/٤/١٩٨١.
(١٧) نشرة لنك، المرجع السابق.
(١٨) بالستاين برسبكتف، واشنطن، عدد تموز/ يوليه ـ آب/ أغسطس ١٩٨٦.
(١٩) المرجع السابق.
(٢٠) جيروزاليم بوست، ٢٥/٤/١٩٨٦.
(٢١) مجلة فورين أفيرز، المجلد الثاني، العدد السادس، حزيران/ يونيه ١٩٨٦، ص ٣ ـ ٧.
(٢٢) كريستيان سيانس مونيتور، ١٠/٧/١٩٨٦ ونيويورك تايمز، ٩/٧/١٩٨٦.

اسرائيل الرئيسي فيها حتى أن الصحفي اليهودي الأمريكي المعروف روبرت نوفاك تساءل في دهشة لماذا «يولي الجميع الأدبار كلما ذكر اسم اسرائيل» في هذه القضية؟ (٢٣).

لا يساورنا شك في أن عطف أمريكا على اسرائيل حقيقي من ناحية، وأنه متلاحم مع تصورها لمصالحها الذاتية أيضا من ناحية أخرى. بيد أن هذه التعاطف غير متبادل من جانب اسرائيل، فهي تستخف سرا في اعماقها بخضوع دولة عظمى لأوامر دولة صغرى، تشهد بذلك غطرستها في التعامل معها. والمتسول المتغطرس شخصية معروفة في التراث الشعبي («شحاذ وبشروطه»).

نقطة أخرى هي أن المصالح بين الطرفين مهما كانت متلاحمة لا بد أن تختلف في نهاية الأمر، ليس فقط لاختلاف العقليتين أو لأن العلاقة قائمة على الاستغلال المتبادل، وانما أيضا لأن العقل الاسرائيلي المغالي يتصور أنه مغبون دائما في هذه الصفقة فيحاول أن ينتزع من شريكه ما استطاع سرا أو جهرا. مثال ذلك أن بولارد علل تجسسه بأن أمريكا لا تعطي اسرائيل معلومات سرية قدر ما تنال منها. ويبدو أن العكس صحيح، ليس فقط بسبب طبيعة حجم جهاز المخابرات الأمريكي وتغلغل أنصار اسرائيل فيه، وانما أيضا لأنها ضنينة بطبعها بالمعلومات لعدم ثقتها بالشريك الكبير، وهذا يتضح من أن «تلهفها على الأسرار الأمريكية يعادل تلهف الاتحاد السوفياتي عليها» على حد تعبير جريدة أمريكية معروفة(٢٤).

وأوثق تقييم لما تقدمه اسرائيل بالمقابل هو ما ذكره ستانسفيلد تيرنر المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية في مقابلة صحفية مع الصحفية الاسرائيلية نيلي شاحاك بوفمان في كانون الثاني/ يناير ١٩٨١ حين قال: «المخابرات الاسرائيلية فاشلة و٩٠ في المائة من البيانات التي تتحدث عن فضل اسرائيل على أمن أمريكا دعاية... انها (المخابرات الاسرائيلية) تبلغ القمة عندما تبيع ما لديها بأكثر مما تستحق». (٢٥)

مجال آخر تتجلى فيه موهبة الصهيونيين السياسيين في عجزهم عن التمييز بين الأصدقاء والأعداء هو موقفهم من انتخابات الرئاسة. فمعظم الرؤساء الأمريكيين الذين ساعدوا اسرائيل بسخاء لم يسلموا من تهمة اللاسامية. وينطبق هذا على نيكسون الذي خسر معركته مع كيندي في انتخابات عام ١٩٦٠ لعوامل منها أن الصهيونيين حجبوا عنه أصوات اليهود بعد اتهامه باللاسامية في اعلان نشرته صحيفة نيويورك تايمز في صفحة كاملة. وقد استوعب نيكسون الدرس فيما بعد فجعل هنري كيسنجر أول وزير يهودي لم يولد في أمريكا، فكافأه كيسنجر على ذلك بأن أخذ يصف ساخرا كيف ركع نيكسون ضارعا الى الله في مكتبه بالبيت الأبيض عشية استقالته من الرئاسة بسبب فضيحة ووترغيت. أما كارتر الذي خدم اسرائيل ـ بشهادة الاسرائيليين ـ أكثر من أي رئيس أمريكي سبقه فقد سقط في انتخابات الاعادة بعد ان اعتبره الجناح الاسرائيلي في امريكا «العدو الأول لاسرائيل» وتكررت المهزلة مع ريغان

---

(٢٣) برنامج «كروس فاير». محطة سي إن إن CNN للأخبار، منتصف تموز/ يوليه ١٩٨٧.

(٢٤) بوسطن غلوب، المرجع السابق.

(٢٥) نشرة لنك. المرجع السابق، نقلا عن نشرة «اسرائيل سورس»، واشنطن، ٢٥/ ٤/ ١٩٨٦.

الذي ضاعف المساعدة الامريكية بأن جعلها هبات خالصة لأول مرة في تاريخ اسرائيل، ومع ذلك أيد جناحها منافسه مونديل في انتخابات ١٩٨٤.

واتضح في نهاية ١٩٨٦ أن الزوجة الاسرائيلية كذبت على زوجها في أهم مجال عسكري هو المجال النووي. فقد أظهرت وثائق هربها مردخاي فانونو من مفاعل ديمونة الذي كان يعمل فيه أنها أخفت عن زوجها (وعن الوكالة الدولية للطاقة الذرية) وجود عدة طوابق سرية تحت الأرض يجري فيها النشاط النووي الحربي الحقيقي. فهل تفعل أية زوجة ذلك اذا كانت تثق باستمرار الزواج؟ وهل تعمل سرا لحسابها الخاص اذا كان مستقبلها أصلا مضمونا؟

٣ ـ استعداء الجيران

موقف الاسرائيليين من الكنعانيين والفلسطينيين القدامى (بنو فلسطين) منذ القدم مثال فاجع على التقوقع المتعالي على الآخرين. فقد نزل بنو فلسطين بأرض كنعان قبل بني اسرائيل بمئات السنين بدليل أن التوراة تذكر أن سيدنا ابراهيم «تغرّب في أرض الفلسطينيين سنوات كثيرة» (سفر التكوين ٢١:٣٤). ومع أنهم تركوا آثارا معمارية وأدوات موسيقية تفوق كثيرا التراث المتواضع جدا الذي تركه بنو اسرائيل، فان مجرد عداء بني اسرائيل لهم شجعهم على تحريف التاريخ حتى أنهم نجحوا في تصويرهم برابرة. مثال ذلك أن كلمة Philistine (نسبة الى قدامى الفلسطينيين) تعني في القواميس الأجنبية (قاموس وبستر الدولي مثلا) عدة صفات منها: داعر ـ سكير ـ عدو ـ نجس ـ جلف الذوق ـ متبلد الحس ـ منغلق الذهن ـ متزمت ـ عدو للتقدم. ومع أن هيغل استنكر ما قام به العبرانيون من تدمير شامل للحضارة الكنعانية، فما زال حاخامات الجيش الاسرائيلي المتحضر يحرضون الجنود حتى الآن على القضاء على آخر كنعاني» (أي آخر عربي في فلسطين). وفي حين أن رفع علم فلسطين مألوف في العالم كله حتى في الولايات المتحدة التي توجد فيها ثلاثة قرى تحمل اسم فلسطين (في ولايات تكساس والينوى واركنساس) فضلا عن وجوده في ثلاثة بلدان أخرى هي شيلي والمكسيك وجزيرة سانت جون التي تديرها أمريكا، فان عقوبة رفع العلم الفلسطيني مثلا في الأراضي المحتلة تصل الى السجن خمس سنوات. وأحيانا يتخذ التنكيل صورة لا يصدقها عقل، فقد ذكرت جريدة دافار الاسرائيلية (٢١/١١/١٩٨٠) مثلا أن ضابطا اسرائيليا وجد علما فلسطينيا مرفوعا في طريق عام في بيت لحم، فراح يجول ويعاين المنطقة حتى حصر كل الدكاكين التي يمكن مشاهدة العلم منها ثم أمر باغلاقها جميعا! وقد عدل في عام ١٩٨٠ قانون مكافحة الارهاب لعام ١٩٤٩ فأصبح يعاقب كل من يحمل العلم الفلسطيني أو يرسمه مع العلم الاسرائيلي في ورقة واحدة.

ومع ذلك فان عرب اسرائيل أدرى منا بخصائص الاسرائيليين كجيران، ومن حقنا أن نسمع رأيهم. ففي ١٩٦٩ مثلا أجرى يوحانان بيريز وزيبوراه ليفي دراسة على مجموعة عربية في اسرائيل وأخرى يهودية من طلاب الجامعة العبرية بالقدس لمعرفة تصور كل منهما للشخصيتين العربية واليهودية. واتفقت المجموعتان على أن الاحساس بالحرمان والتكافل والروحانية والنقد الذاتي من سمات الشخصية العربية، بينما ذكرت المجموعة العربية ان تمجيد القوة، واللاانسانية، والشعور

بالتفوق والتعصب ضد الآخرين من سمات الشخصية الاسرائيلية. وللوهلة الأولى قد يبدو ذلك غريباً في دولة تفخر بديمقراطيتها، ولكن الديمقراطية في اسرائيل فريدة لانها طائفية بحيث ان حكومتها لم تشهد وزيراً واحداً غير يهودي، على عكس معظم الدول الغربية وحتى بعض الدول العربية.

وهكذا يصعب على الاسرائيلي أن يصدق مثلا قرار الأمم المتحدة الشهير رقم ٣٣٧٩ الذي صدر يوم ١٠/١٠/١٩٧٥ وساوى الصهيونية بالعنصرية. بل ان شارون الملقب بملك اسرائيل ثار على اتهام الصحافة الغربية له بالتستر على مذبحة مخيمي صبرا وشاتيلا في بيروت، فقال: «نحن ندرك معنى الحياة أكثر من أي شخص آخر». وربما كان هذا صحيحا، فالآية الكريمة ـ كما أسلفنا ـ تقول «ولتجدنهم أحرص الناس على حياة». ولكن هذا الحرص مرة أخرى طائفي ومقصود به حياة اليهودي لا الأممي، بدليل ما ارتكبه بيغن في مذبحة دير ياسين، وشارون في مذبحة قبية، واسحاق شامير وزير الخارجية الذي نسف فندق الملك داوود على مئات الاشخاص من عسكريين ومدنيين عام ١٩٤٨. أما نسف مقر القيادة العسكرية الاسرائيلية في مدينة صور اللبنانية المحتلة في شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٢ فهو ليس في تصور بيغن سوى «فظاعة ارتكبها أعداء الانسانية»!

قد يقول قائل: «وماذا عن المظاهرة التي شارك فيها زهاء ربع مليون اسرائيلي احتجاجا على مذبحة صبرا وشاتيلا؟». والرد على ذلك بسؤال مماثل: «ولماذا ارتفعت شعبية بيغن في الاستفتاءات عندما اجتاح لبنان؟ ولماذا لم يتظاهر سوى مئات عندما كانت المدافع الاسرائيلية تحصد أرواح مئات المدنيين كل يوم في بيروت في صيف ١٩٨٢؟. والحقيقة أنه حتى آذار/ مارس ١٩٨٧ كان ٤١ في المائة من الاسرائيليين يؤيدون الغزو و١١ في المائة فقط يعارضونه، ولم تزد أكبر مظاهرة عن ٥٠ ألفا رغم أن عدد من قتلتهم اسرائيل حتى نهاية ١٩٨٢ فقط كان يتجاوز ١٩ ألفاً بتقدير الحكومة اللبنانية[٢٦]. كما كان عدد ضحايا مذبحة صبرا وشاتيلا يتجاوزون الألف بالتقديرات الغربية. ثم انك لو أعملت ذاكرتك قليلا لوجدت أن مظاهرة الربع مليون لم تحدث الا بعد رد الفعل العنيف من الصحافة الغربية، ولولا ذلك لقل عدد المتظاهرين كثيرا على الأرجح. ومعنى ذلك أن المتظاهرين لم يفعلوا ذلك حرصا على حياة المدنيين بقدر حرصهم على سمعة اسرائيل في الخارج، وما يتبع ذلك من هبوط المساعدات المادية والمعنوية الخارجية. فمن المعروف أن المهنة الرئيسية للاسرائيليين هي الدعاية لبلدهم على حد رأي الكاتب البريطاني اليهودي مايكل فراين، مهما بلغ تناحرهم. يشهد بذلك أن كثيرا من لافتات المتظاهرين كانت مكتوبة بالانكليزية وكأنها موجهة خصيصا الى الخارج.

لكن الدول لا تحيا بالتلفزيون بل بالتفاهم مع غيرها. واذا كان التفاهم ضئيلا أو معدوما مع الجار فلا أقل من فهم عقليته. فهل يفهموننا حقا؟ واذا كان الأمر كذلك فهل يضمن التوسع بقاءهم حتى تتاح لهم فرصة الفهم في النهاية؟

---

(٢٦) نيويورك تايمز، ٢/١٢/١٩٨٢.

هل يفهموننا حقا؟

يردد زعماء اسرائيل بين الحين والآخر «أننا نفهم العرب جيدا» أو «اننا نعرف كيف نتعامل معهم» أو «أن القوة هي اللغة الوحيدة التي يفهمها العرب»، مع أن مطالبهم تتزايد كلما قللنا مطالبنا (من دولة ديمقراطية في كامل فلسطين الى دولة فلسطينية مستقلة في جزء منها الى الاستقلال الذاتي تحت الاحتلال ـ وحتى هذا رفضته ايضا إلا على نطاق محدود).

ويلزم الاعتراف بصعوبة فهم العقل العربي حتى أن مايلز كوبلاند صاحب كتاب «لعبة الأمم» ذكر في حديث صحفي أن المخابرات المركزية (التي تغذي اسرائيل بأهم معلوماتها الأمنية») كانت تشكو من أن أحداث المنطقة العربية كثيرا ما تخالف تقديرات عقولها الألكترونية. ولعل من أسباب ذلك عامل الكبرياء ورفض الاعتراف بالأمر الواقع والتناول العاطفي وغير ذلك مما سماه أحمد بهاء الدين والكاتب الاسرائيلي عموس ألون «العامل المجهول» منذ الستينات. مثال ذلك:

* أية حاسبات الكترونية كانت تتوقع مثلا أن يخالف الفدائيون أبسط مبادىء حرب العصابات في الكرامة ويصمدوا لهجوم قوات نظامية؟ ومن كان في القيادة الاسرائيلية يتصور أن المدفعية الأردنية ستدخل المعركة بشدة رغم التفوق الساحق لعدوها؟
* من كان يتوقع أن يعبر العرب قناة السويس في ست ساعات، وفي شهر صوم، ويفاجئوا عساكر اسرائيل حفاة أو نائمين أو يغسلون ملابسهم أو بملابسهم الداخلية، ومواصلاتهم اللاسلكية مقطوعة وطائراتهم جاثمة مكشوفة للهجوم رغم حصول قيادتهم على معلومات كافية عن موعد الهجوم؟ لم يكن الخطأ في دقة المعلومات وانما في تحليلها غير الموضوعي.
* ماذا كانت النتيجة عندما نزل الفدائيون أول مرة في مطار اللد في ١٩٧٣/٥/٨ ورفض دايان مطالبهم بدعوى فهمه للعقل العربي الذي سوف يسيء تفسير أي تنازل لهم؟ لم تمض ثلاثة أسابيع حتى حصدت المقاومة أكثر من مائتي شخص في المطار، وفغر دايان فمه مصعوقا أمام غولدا مئير المنهارة. ومع ان لدى اسرائيل «مستشارين متمرسين خصوصا بتحليل النفسية العربية» فقد «أساءت دائما تحليل وتقدير خطط الفدائيين»[٢٧].
* وقع شارون في سوء تقدير أفدح عندما ورط بيغن في غزو لبنان للقضاء على المقاومة الفلسطينية، ثم انتهى الأمر بأن حل الشيعة والدروز محلها حتى بعد عودتها، فصاروا يطاردون اسرائيل داخل مستعمراتها. ووصف زئيف شيف كبير المعلقين العسكريين في اسرائيل التحول «المذهل الكئيب» لجيشها بعد حرب لبنان بقوله: «قبل ذلك كانوا (أي الجنود) يقولون ماذا نفعل هنا؟ واليوم صاروا يقولون من سيحمينا؟»[٢٨].

طبعا ساعدنا اسرائيل كثيرا دون قصد في عدم اخذنا مأخذ الجد بسبب اكثارنا من التهديد والوعيد والمبالغات. وترجح كفة الصقور في اسرائيل في العادة لأن العرب عاجزون الا عن الخطابة، فما

---

(٢٧) نيوزويك، ١٩٧٤/٢/٢٣.
(٢٨) هآرتس، ١٩٨٥/٢/١٣.

الداعي الى التساهل والتعفف عند المغنم على طريقة عنترة بن شداد؟ ثم لماذا يتسامحون مع جار «متخلف» لا يستطيعون معايشته «حضاريا» أصلا؟

ان الاستهانة بالعرب قائمة على أن النصر الاسرائيلي مضمون. وهذا سوء تقدير فادح نشجعه نحن أيضا بالظن أن معركتنا معهم حضارية (وكأن الجزائر وفيتنام تحررتا بالتكنولوجيا). ولكن لو سلمنا جدلا بصحة ذلك، ماذا عن المستقبل والتاريخ لا يتجمد؟ هل يظل العرب في مكانهم أبدا محلك سر؟

كتب الصحفي المشهور برنارد ليفين في التايمز البريطانية في أواخر ١٩٧١، محذرا غولدا مئير من «أخلاق التجار»:

«شيعت اسرائيل خصومها باحتقار بعد هزيمة حزيران/ يونيه (حرب ١٩٦٧). لكن ماذا يحدث لو تعلم العرب الحرب الحديثة خصوصا وأنهم كانوا من أشجع وأنجح مقاتلي العالم؟ ان بطل رواية «تاجر البندقية» يقول للمرابي اليهودي شايلوك «على اليهودي أن يكون رحيما». فيرد عليه شايلوك: «وما الذي يحوجني الى ذلك؟». وغولدا مئير تعرف ما حدث لشايلوك بعد ذلك»[٢٩].

وشايلوك الاسرائيلي يريد الأرض والسلم معا (وبشروطه طبعا). ولكن مخاطر هذا التصلب عديدة مع مرور الوقت:

* كلما تقدم الزمن ازدادت صعوبة الانسحاب سلميا لأسباب أهمها تزايد اعتماده على الأيدي العاملة العربية والأراضي المحتلة التي تعتبر أول سوق له بعد الولايات المتحدة.
* هناك العامل السكاني والعقائدي في القدس. كيف يمكنه الانسحاب من القدس العربية دون انقلاب عسكري أو انهيار الوحدة الوطنية الهشة؟ وكيف يتخلى الحكام العرب والمسلمون عن القدس أو يسمحون ببناء معبد سليمان فوق أرض المسجد الأقصى دون أن يفقدوا سلطانهم والقدس رمز لما بقي من كرامتهم الدينية في فلسطين؟
* التفريغ السكاني للأراضي المحتلة خرافي في أبعاده (أكثر من الثلث). فرغم الزيادة الطبيعية الهائلة بين الفلسطينيين هناك (٦٤٠ ألفا) بين عامي ١٩٦٧ و ١٩٨٤، انخفض تعدادهم الأصلي في الأراضي المحتلة خلال هذه المدة بمقدار ٢٤ ألفا (من مليون و٣٤ ألفا الى مليون وعشرة آلاف)[٣٠]. ولا يمكن التخلص من الأهالي برصهم حول الحدود دون أن يتحولوا الى قنبلة زمنية لعدة أسباب:*

---

(٢٩) التايمز البريطانية، أوائل نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧١.

(٣٠) مجلة الدراسات الفلسطينية، واشنطن، حزيران/ يونيه ١٩٨٣.

* في تقدير آخر للمؤسسة الفلسطينية للتطور الاجتماعي والاقتصادي في جنيف عام ١٩٨٦ أن عدد الفلسطينيين يقارب خمسة ملايين منهم مليونان داخل فلسطين (٨٩٤ ألفا من الضفة و٥٣٦ ألفا في غزة و٦٠٨ آلاف في اسرائيل)، وان ٥٥٠ ألفاً هاجروا من الضفة والقطاع منذ عام ١٩٦٧ لضغوط سياسية واقتصادية، وبذلك تكون الزيادة الصافية فيهما ٩ آلاف فقط. وفي كلا التقديرين فالنزيف السكاني مروع. (الأرقام منقولة من الفجر المقدسية في ٨٦/٥/٥).

١ ـ أن الفلسطينيين ليسوا شعباً من الهنود الحمر يمكن ابادتهم أو حجزهم في محتجزات، لأنهم على مستوى ثقافي واجتماعي مرتفع ونسبة التعليم بينهم عـالية وقـدرتهم على التـأثير في البلدان المجاورة ملحوظة. ثم أن الهنود الحمر لم يطردوا أصلا من أمـريكا مثلمـا حدث في الأراضي المحتلة.

٢ ـ لكي تخلق اسرائيل دولة يهودية لا بد من الهجرة. والهجرة تعني تفريغ فلسطين بـاستمرار. وتفريغ فلسطين يعني مقاومة في الداخل والخارج. والمقاومة تعني احتلال مزيد من الأراضي لبلوغ حدود آمنة. والحدود الآمنة تعني تصوير «كل حرب جديدة تشنها على أنها حرب وقائية» كما يقول موشي ماخوفر الأستاذ اليهودي بجامعة لندن، وبالتالي مقاومة جديدة، وهكذا دواليك.

٣ ـ الانسحاب في حد ذاته من الأراضي المحتلة قد يساء تفسيره في نظر الاسرائيليين كما أسلفنا. ذكر حاييم بارليف رئيس أركانها السابق أن اسرائيل لو اقتنعت جدلا بضرورة الجلاء عن المناطق المحتلة لجازفت بجعل العرب يفسرون هذا الانسحاب بالضعف ويغريهم بالخروج باستنتاجات لا تخدم صالح اسرائيل. نفس مخاوف دايان في مطار اللد!

نحن اذن أمام طفل متفوق Super — Child مذعور وليس أمام رجل متفوق أو سوبرمان. ولا يمكن لطفل مذعور يعيش على الدماء لا الحليب ويعتمد على الصدقات لا على نفسه أن يكون على أخلاق الرجال. والمدهش أن كثيرا من الاسرائيليين يعتقدون أن دولتهم مقضي عليها مهما طال الزمن، ومع ذلك فان النبوءات التوراتية سلاح أثير في يد اسرائيل وأمريكا خصوصا لدى المبشرين الانجيليين، وكأن تصرفات اسرائيل قدر لا يمكن رده ولا صده.*

في هذه الحالة يتحول النظام الحاكم في نظر الكاتب الاسرائيلي روفيك روزنتال الى «طفل متخلف عقليا... يستطيع أن يفعل كل ما يحلو له لأن الأطفال يظنون أنهم مركز العالم ولا وجود له بدونهم»[٣١]. وهو يستشهد هنا بقول ابن غوريون: «لا يهمنا ما يقوله الأغيار (الأمميون)»، ويضيف معلقا:

«يبدو أن حرب اكتوبر كانت شفاء فاجعا من احساسنا بالأمن، ذلك الاعتقاد الطفولي بأنه لن يصيبنا شيء. ويبدو أيضا أن بيغن أدرك في كامب ديفيد لأول مرة الطريقة التي يجب أن يعيش بها مع العالم ومع جيراننا. ومع ذلك يبدو الآن أنه كلما أحس بأن الأرض راسخة تحت كرسيه وطالما لم تقع كارثة، عاوده ذلك الأسلوب الطفولي واستحوذ عليه وعلى الحكومة كلها من بعده»[٣٢].

ان زعماء اسرائيل بالغو الذكاء والدهاء. ولكن الذكاء والدهاء شيء والحكمة شيء آخر. والحكمة

---

* أنظر مثلا كتاب «وستبلو اسرائيل بلاء حسنا» بقلم فيم (وليام) مالغو العراف الاسرائيلي الشهير الذي تنبأ فيه من واقع التوراة بانتشار الفساد في القدس وتحلل اسرائيل حتى يصبح اسمها سدوم وتنقلب عليها كل الأمم ومنها انجلترا وفرنسا والمانيا وسويسرا وحتى أمريكا. ومع ذلك فان مالغو صهيوني متعصب! (منشورات جاكوب، سويسرا، ١٩٧١).

(٣١) الفجر الأسبوعية، ١٩٨٢/١١/١٢.

(٣٢) المرجع السابق.

ليست من شيم الأطفال مهما كانوا نابغين. واذا عرفوا أنهم أخطأوا دفعهم الخوف الى القاء التبعية على الآخرين والنكوص الى الايمان بالمعجزات السوبرمانية التي قد تنقذهم من العقاب، أما اذا لم يعرفوا ما يفعلون بسبب صمت الأغيار فان عامل المغالاة يدفعهم الى منطق التمني وتصديق ما يرددونـه على أنفسهم بحيث يصبح اللاجئون الفلسطينيون أمة من الارهابيين، واللاسامية من مسؤولية الأغيار، واليهود قاسوا من الهولوكوست (المقتلة النازية) اكثر من الروس، وقس على ذلك.

حتى فكرة القومية اليهودية نفسها قامت على أساس أحلام تفوق طفولي وعقلية اجترارية بدائية تحول الخرافات الى حق تاريخي الهي. صحيح أن القوميين اليهود يحاربون بأسلحة عصرية جدا ولكن يظل الذي يستخدمها طفل متقوقع في حجرته يلهو بالحاسب الألكتروني (الكومبيوتر)، لاعباً عليه لعبة الحرب حتى ينفصل تدريجيا عن العالم (الأغيار) ليقول أن العالم كله على خطأ وأن عليه أن يتحمل ثمن ذلك. وكما قال ضابط اسرائيلي لضابط فلسطيني أسير خلال حرب ١٩٧٣: «عندما ندرك أن العرب سينتصرون فسوف نستعمل القنابل الذرية ونقضي عليهم وعلى أنفسنا!» وهذه نسخة عصـرية من الجملة الشمشونية السابق ذكرها والتي قالها حاييم وايزمان قبل ذلك بنصف قرن للحكومة البريطانية في القدس عام ١٩٢٠: «خير لكم أن تساعدونا والا انقلبت قوتنا البناءة هدامة تنزل الدمار والفساد بالعالم كله»[٣٣].

ومن الواضح أن الطفل المتخلف عقليا الذي يقول ذلك لا يستطيع التمييز بين التهديد وغـير التهديد. والحل الوحيد لا يكون بالتصدي له بتهديد مماثل فحسب وانما بتجريده أولا من سلاحه اللعبة قبل أن يستخدمه. وهذا ما نحاول أن نفعله بنزع سلاحه الفكري الفتاك حتى يفقد مصداقيته وقدرته على استغلال عبقريته السيكولوجية في التسلط على الفكر العالمي اذا أردنا تجنيب العالم دفع الثمن الفادح لأخطاء عقلية مسادة المريضة.

لقد كان ديجول من أخلص أصدقاء اسرائيل لكنه لم يخف رأيه في رسالته الى بن غوريون بعد غزوة ١٩٦٧ وهو أن المجتمع الاسرائيلي «عدواني ودموي». وكانت اسرائيل تظن أنها ستقرر مصير الأراضي المحتلة، والآن يتضح أن الأراضي المحتلة هي التي ستقرر مصير اسرائيل، وأن العدوانية أخذت ترتد الى نحرها مع تزايد التطرف الديني الأعمى والانقسام الحـزبي والطائفي على الأراضي المحتلة.

ترى هل أخطأ يهودي منوحين حين قال: «نحن أسوأ أعداء لأنفسنا... واذا لم نقم بتقييم جديد لموقفنا الأخلاقي فسوف ندمر أنفسنا»؟

واذا كان من انقضى عهدهم لا يصلحون لاجراء هذا التقييم الجديد، فمن سيقوم به خصوصا وأن الجيل الاسرائيلي الصاعد يتلهف على اقامة حكم عسكري ديكتاتوري كما أظهرت الاستفتاءات الأخيرة؟

واذا كان بيغن يقول «انه ليس للأمريكيين أن يلقوا علينا موعـظة في الأخلاق. وأن عليهم أن

(٣٣) نقلا عن بنيامين ماتوفو، المرجع السابق.

يتذكروا ما فعلوه بفيتنام»، فأحرى بالاسرائيليين أنفسهم أن يتذكروا ما فعلته فيتنام بأمريكا، فقد أوشكت أن تمزقها من الداخل حتى أدركت في نهاية المطاف أن من الحكمة أن تنسحب تماما من فيتنام، وأن من المستحيل فرض أسلوب السلم الروماني على من لا يريدونه، وأن من الانتحار الظن بأن التلويح باستعمال الأسلحة النووية سبيل للخلود في القرن العشرين.

ولكن كاتب اسرائيل الأول عموس ألون يلخص الموقف في المستقبل كما يلي: «باستطاعتنا أن نعلن النصر وننسحب على طريقة أمريكا في فيتنام.. ولكن من يعرف نفسية هذا البلد يدرك أنه لن يحدث أبدا. وأخشى أننا سنظل قابعين هنا طويلا طويلا»[٣٤].

التحفظ الوحيد هو أن اسرائيل لا تستطيع أن تظل طويلا طويلا على قيد الحياة اذا فعلت ذلك، بل اذهب الى حد القول أنها لو انسحبت لواجهت نفس المصير بسبب التناحر الداخلي. فهي لا تستطيع أن تظل دون حرب خارجية أو داخلية. ويتضح من الفصل التالي أن هذا ليس تخريفا بل مفارقة فاجعة وساخرة معا. وسيذكر التاريخ ان اسرائيل هي الدولة الوحيدة التي كان الاحتلال والسلم معاً خطرين عليها من الداخل والخارج على السواء.

* * *

في ختام هذا القسم سوف نلاحظ أن أهم الأسلحة النفسية والحيل الفكرية التي تستخدمها القومية اليهودية في الهرب من معركتها مع باقي العالم (وبالتالي مع نفسها) هي:

١ ـ سلاح التفاوض على المستحيل (السلم أخطر من الحرب ـ أو الأرض والسلم معا).
٢ ـ سلاح العبقرية اليهودية (فضلها على العالم يستوجب اعفاءها من قواعد السلوك الانساني مثل أي عبقري غريب الأطوار يجب أن يؤخذ على علاته).
٣ ـ سلاح اللاسامية (فهي عنصرية من خلق الأغيار وحدهم).
٤ ـ سلاح تخليد هتلر وعبادة الموت (بجعل الهولوكوست ديانة جديدة).
وبذلك ننتهي الى الغاية من هذا الكتاب وهي:
٥ ـ دروس عالمية من الصراع العربي الاسرائيلي والمغزى الكوني للتجربة الاسرائيلية: الحاجة الى نظام عالمي جديد.

---

(٣٤) نيويورك تايمز، العدد الأسبوعي، ١٩٨٣/١١/٢٠.

القسم الثاني

المهـــرب

الفصل الخامس

الصلح أخطر من الحرب على اسرائيل

(لعبة استحالة التفاوض، ثم التفاوض على المستحيل)

«منذ عشرين عاما واسرائيل تتوسع بقوة السلاح. وكانت بعد كل مرحلة من هذا التوسع تدعو الى «التعقل» وتقترح اجراء «مفاوضات». ذلك هو الدور التقليدي للدولة المستعمرة. فهي تريد أن تعزز بأقل صعوبة ممكنة ما أخذته بالعنف، وأن يصبح كل غزو جديد أساسا للتفاوض المقترح من موقع القوة يتجاهل ظلم العدوان السابق».

برتراندراسل الفيلسوف البريطاني وواحد من اكبر دعاة السلم في القرن العشرين في رسالة كتبها في ٢١/١/١٩٧٠ قبل وفاته بأيام ووجهها الى مؤتمر البرلمانيين الدوليين لنصرة الشعوب العربية في القاهرة.

«لا بد في أي اتفاق بين الحركة الصهيونية والعرب من أن يكون نتيجة واقع ملموس يفرض عليهم فرضا ولا يختارونه بارادتهم. ... وبعد ذلك تاتي الجماعات المعتدلة طالبة التفاوض حول «مسائل عملية» مثل ضمانات منع التمييز، والمساواة، وموضوع الحكم الذاتي».

فلاديمير جابوتنسكي المنظم الصهيوني ومؤسس حركة بيتار العسكرية والأب الروحي للمنظمات الارهابية اليهودية نقلا عن مجلة راسفيت البولندية في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٢٣.

لعبة اسرائيل البارعة المفضلة هي أن تصر أكثر فأكثر على الدعوة الى الصلح كلما جعلت شروطه أصعب فأصعب. هدفها من ذلك ليس مجرد اظهار العرب دعاة حرب ومخربين للسلام فحسب، بل أيضا أن تقطع على الدول الكبرى طريق المطالبة بحلول وسطى مثل اعادة اللاجئين وتدويل القدس العربية والتخلي عن الجولان والانسحاب الكامل من لبنان ووقف بناء المستوطنات.

والسلاح الأثير لدى اسرائيل لمنع المفاوضات هو «أن تطلب التفاوض دائما مع العرب بشرط عدم اشراك الفلسطينيين (كما يقول الكاتب اليهودي الكبير نعوم شومسكي في كتابه «المثلث المشؤوم: الولايات المتحدة واسرائيل والفلسطينيون)، بل ان اسرائيل قطعت على بعض الزعماء العرب طريق التفاوض معها بغض النظر عن موقفهم من مسألة اشتراك الفلسطينيين فيها.

تذكر الوثائق التي كشفت عنها محفوظات الحكومة الاسرائيلية عام ١٩٨٣ أنها رفضت عام ١٩٤٩ اقتراحا من حسني الزعيم الرئيس العسكري لسوريا آنذاك باجراء محادثات صلح مباشرة معها حتى رغم موافقته على التخلي عن الأراضي التي كانت تحتلها غرب نهر الأردن وبحيرة طبرية. وكانت حجة بن غوريون رئيس الوزراء آنذاك عجيبة: «أنا مستعد تماما لمقابلة العقيد حسني الزعيم للنهوض بالسلم بين البلدين، ولكن هذا الاجتماع لا يخدم أي غرض طالما لم يعلن ممثلو سوريا في

مفاوضات الهدنة بأسلوب قاطع استعدادهم لسحب قواتهم الى حدود ما قبل الحرب» (أي شرق نهر الأردن). وخالفه في هذا الرأي موشيه شاريت وزير الخارجية وأبا ايبان سفير اسـرائيل لدى الأمم المتحدة حينذاك.(١).

وذكرناحوم غولدمان الذي تولى رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية قرابة نصف قرن أن حكومة اسرائيل أجهضت مرتين محاولته للوساطة مع عبد الناصر: في عام ١٩٥٦ عقب غزو اسرائيل لسيناء، وفي عام ١٩٧٠ عندما اتهم غولدمان غولدا مئير رئيسة الوزراء بأنها نسفت مقابلة أخرى طلبها مع عبد الناصر، بدعوى أنه لا يحق له التحدث باسم الدولة. وأنكر عبد الناصر أنه دعا غولدمان لمقابلته. مع ذلك أغضب خبر هذه المقابلة المحتملة بعض الاسرائيليين الى حد القيام بمظاهرات.

ولم تفلح المحاولات المتكررة للاتفاق مع الملك الحسين قبل حرب ١٩٦٧ وبعدها لأن العاهـل الأردني كان يرى أن غرض اسرائيل من هذه المفاوضات هو فرض الأمر الواقع. وبعد هزيمة ١٩٦٧ بأسبوع واحد عرض بعض زعماء فلسطين المحتلة على اسرائيل فرصة الاعتراف بقرار التقسيم، فقالوا لهم ما فحواه: لا داعي للفلسفة، وخير لكم ألا تعيدوا ذكر هذا الاقتراح. وعندما أصر بعضهم على ذلك كان نصيبه الابعاد على الفور.

ويضيف الجنرال المتقاعد ماتتياهو بيليد النائب في البرلمان الاسرائيلي الذي أكد هذه الواقعة في محاضرة ألقاها في جامعة كولومبيا الأمريكية يوم ٢٥/٩/١٩٧٩ أن الأردن طلبت خلال مفاوضات فض الاشتباك مع مصر وسوريا عام ١٩٧٤ اجراء مفاوضات مماثلة معها، فرفضت اسرائيل بحجة أنها لم تكن «في حرب مع الأردن في يوم من الأيام». ومعنى ذلك في تفسير بيليد «أنه لا يحق لأية دولة عربية أن تتفاوض معنا الا اذا حاربتنا ونكدت علينا».

وقال السفير الأمريكي السابق فيليب حبيب المبعوث الخاص للرئيس ريغان خلال غزو اسرائيل للبنان أن من الأسباب الرئيسية لاستقالته لجوء الاسرائيليين الى فتح النار بكثافة كلما أوشك على التوصل الى اتفاق على الهدنة.

وهناك أدلة تاريخية كثيرة أخرى تبين أن اسرائيل لا يهمها كثيرا الصلح مع العرب:

١ ـ في عام ١٩٥٥ قال مناحيم بيغن عندما كان زعيم المعارضة في الكنيست: «لن يكون لاسرائيل وشعبها وللعرب أيضا سلام طالما لم نحرر وطننا بأكمله، حتى لو وقعنا معاهدة صلح».
٢ ـ في عام ١٩٥٦ صرح زعيم آخر في حزب حيروت في نيويورك: «أن الصلح مع البلدان العربية مستحيل لأن حدود اسرائيل الحالية تجعلها مفتوحة سهلة الاقتحام» .
٣ ـ في عام ١٩٥٩ صرح المدير العام لوزارة الدفاع الاسرائيلية: «كلما ازداد سكان اسرائيل ازداد جيشها. ان مليون جندي كفيلون بحماية دولة اسرائيل من أي هجوم عربي. ولن تجرؤ أية دولة عربية على مهاجمة اسرائيل اذا بلغ جيشها المليون عدا».

---

(١) مجلة فويس، واشنطن، حزيران/ يونيه ١٩٨٣.

فاذا ضربنا الشهادة الثانية بالثالثة لاستنتجنا أن اسرائيل لا تفكر في الصلح جديا الا بعد أن يبلغ جيشها المليون، وبعد أن تصبح حدودها بالتالي غير مفتوحة سهلة الاقتحام أو على الأصح بعدما يستكمل هذا الجيش غزو ما تبقى من «أرض اسرائيل» أي حدودها المطلوبة. قد يقال أن هذه الاعترافات جاءت قبل حرب ١٩٦٧ وأن الوضع تغير بعدها تماما لأنها قدمت للدولة اليهودية حدودا مثالية تجعلها غير سهلة الاقتحام. وهذا صحيح ولكن اسرائيل لو خيّرت بين الحدود والصلح لفضلت الحدود فورا. والشواهد التالية تؤيد ذلك.

٤ ـ بدأت اسرائيل انشاء المستعمرات السكنية المسلحة في الجولان والضفة الغربية وسيناء (فضلا عن اعلانها ضم القدس) حتى قبل أن يحدد العرب موقفهم في مؤتمر الخرطوم عام ١٩٦٧ باللاءات الأربعة الشهيرة (لا صلح ولا اعتراف ولا تفاوض ولا تفريط في حق شعب فلسطين).

٥ ـ قال موشيه ديان في أمريكا في أواخر كانون الثاني/ يناير ١٩٦٩: «أعارض العودة الى حدود ما قبل تموز/ يوليه ١٩٦٧ حتى مقابل سلام حقيقي».

٦ ـ قال يغآل آلون نائب رئيس الوزراء في مؤتمر القدس لأصحاب الملايين اليهود يوم ٢٩ حزيران/ يونيه ١٩٦٩:

«الأمن الاسرائيلي لا يتحقق بالمناطق المنزوعة بالسلاح ولا بالبوليس الدولي ولا بضمانات الدول أو الهيئات الدولية وانما بالأرض: وأعني بالأرض القنوات (يقصد قناة السويس) والممرات والأنهار (نهر الأردن) والمرتفعات (الجولان)». وأضاف أنه يعني بذلك «الاستيطان المسلح أولا».

نبوءة تحققت

قبل توقيع معاهدة كامب ديفيد بسنوات نشر الكاتب الاسرائيلي ايلي نقولا نبوءة مذهلة جاء فيها:

«اسرائيل لا تريد السلام، بل لا طاقة لها بالسلام، حتى لو سلم الفلسطينيون والعرب بكل ما تريده اسرائيل وتنازلوا عن المناطق المحتلة فان اسرائيل سوف تجد ذريعة لرفض السلام. واذا كان هناك سذّج في الخارج لا يفهمون كيف يمكن لاسرائيل أن تفعل هذا فانني أذكرهم بالشعار الاسرائيلي المتعصب: لا يستطيع المرء الثقة بالعرب فتواقيعهم لا تساوي قيمة الورق الذي يكتبونها عليه .

«وكلما كشر العرب عن أنيابهم وأغلظوا القول ادعى الاسرائيليون أن العرب لا يريدون السلام. وكلما وافق العرب على تقديم التنازلات، قال الاسرائيليون أن المرء لا يستطيع الوثوق بالعهود التي يقطعها أناس كانوا في الماضي يريدون تدمير الدولة اليهودية .

«تلك هي الحلقة المفرغة التي لا مخرج منها طالما ظلت اسرائيل دولة صهيونية رأسمالية. ذلك أن الأيديولوجية الصهيونية تريد دولة يهودية خالصة أو أغلب سكانها من اليهود، والا لما كان هناك ما يدعو يهود الخارج الى الهجرة الى دولة اسرائيل طالما كانوا يستطيعون العيش بين أكثرية من الأمميين (الأغيار) هنا أو هناك».

«الحركة الصهيونية تستغل خوف يهود الخارج من اللاسامية بأن تقول لهم أنهم سـوف لا يكونون في مأمن الا بين اليهود فقط وفي دولة مغلقة مثل اسرائيل».[٢].

فمفهوم الأمن لدى اسرائيل أهم عندها بكثير من معاهدة الصلح المكتوبة، بل من السلام نفسه. وحالة اللاسلم واللاحرب أفضـل سبيل لهـذا الأمن حتى تستكمل اسـرائيل شخصيتهـا وجيشـها وحدودها. يروي محمد حسنين هيكل أن سياسيا أوروبيا كبيرا قال له أنه ذهل حين سمع غولدا مئير تقول له بالحرف الواحد: «حتى المفاوضات المبـاشرة سـوف لا تحل المشكلة. مـاذا في استطاعتهم (العرب) أن يعطونا؟ وماذا في استطاعتنا أن نعطيهم؟ الميزة الوحيدة في المفاوضات المباشرة هي أنها تخلق لديهم اضطرابا عميقا اذا قبلها واحد منهم. ومن يقبلها سوف يضطر للدفاع عن نفسه الى حد الموت والقتل».[٣]

وقد نشرت صحيفة اسرائيلية وثيقة خيالية صادرة عن وزارة الشؤون الاجتماعية تعدد فيها الأخطار الاقتصادية والاجتماعية للسلم في حالة توقيع صلح مع مصر:

١ ـ المخاطر الاقتصادية

١ ـ حذرت المذكرة من تدفق رأس المال العربي في السلم بحيث يخلق خللا في التوازن الاقتصادي الحرج بين القطاع الخاص والعام في اسرائيل.

٢ ـ باستطاعة الأيدي العاملة العربية الرخيصة أن تحـل محل العمـال اليهود وأن تقـوض بذلك الاستقلال الاقتصادي للبلد.

٣ ـ تطوع نائب وزير المالية حزقيال فلومين باستكمال هذه المخاوف بقوله إن رجال الاقتصاد يخشون من أن يؤدي الصلح الى تزايد التضخم خصوصا مع تدفق المساعدة الأمريكية بعد الجلاء عن سيناء (وهذا ما حدث فعلا). وقال انه لا بد عندئذ من تخفيض الميزانية، وتأجيل مشاريع مثل تعميم المعاشات التقاعدية، وتأجيل نظام الصحة القطرية وضمان الحد الادنى للأجر. (٣)

وهناك أخطار أخرى لم تتحدث عنها الوثيقة أو الحكومة وهي:

٤ ـ هبوط التبرعات من يهود الخارج. وقد تكهن بذلك منذ عام ١٩٧٩ عمدة تل أبيب شلومو لاهات فقال ان اسرائيل ستشهد وقت السلم «مشاكل اقتصادية تأتي بسرعة كبيرة» عندما يشعـر اليهود الأمريكيون «أنه لم تعد توجد حاجات عاجلة لمساعدتها». وذكّر لاهات يهود أمريكا بأن اسرائيل «دولة لها ٣,٥ مليون مواطن و١٤ مليوناً من دافعي الضرائب».

٥ ـ ان اسرائيل تنتج من الأسلحة أكثر مما تنتج بريطانيا. والصلح يؤثر على بحوثها العسكريـة وبالتالي على مستوى صادراتها من الأسلحة التي تمثل البند الأول في الصادرات بفارق كبير (أصبحت عام ١٩٨٧ ثالث دولة منتجة للسلاح في العالم).

(٢) نشرة «اسرائيل/ فلسطين»، باريس، شباط/ فبراير ١٩٧٢.

(٣) المرجع السابق.

٦ ـ ان الاعتماد على المساعدة الأمريكية سوف يقلل من الانتاج ويزيد من قطاع الخدمات.

٢ ـ المخاطر الاجتماعية

٧ ـ تؤكد الوثيقة الوهمية تنبؤ ايلي نقولا، مدعية ان فتح الحدود مع العرب سيؤدي الى تزايد التزاوج بين العرب واليهود وقد يؤزم التوترات بين اليهود الغربيين والشرقيين.

٨ ـ ان هذا سيؤجج مشاعر القومية العربية بين نصف مليون عربي من سكان اسرائيل.

٩ ـ ان فتح الحدود أمام العرب سيزيد الجريمة المنظمة بالتعاون على تهريب المخدرات الموجود أصلا بين اليهود والعرب في بعض البلدان المجاورة لاسرائيل، وانفتاح الاسواق العربية سيشجع المافيا الاسرائيلية (التي امتدت فروعها الى أمريكا، خصوصا في كاليفورنيا) على رعاية الجريمة المنظمة الناشئة في بعض البلدان العربية، بحيث تظهر في المنطقة دولة سرية اقليمية تعجز حتى اسرائيل عن التحكم فيها.

٣ ـ المخاطر السكانية

١٠ـ الهجرة هي العنصر الرئيسي لمستقبل اسرائيل. وهي ترتفع قبل كل حرب جديدة وبعدها مباشرة اذا كسبتها (١٩٥٦ و ١٩٦٧). كما ترتفع نسبة المواليد فيها كلما كسبت هذه الحروب.

١١ـ قد يؤدي الصلح الى هجرة مضادة (نزوح) كما حدث بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد بحيث أصبح عدد الاسرائيليين الموجودين في أمريكا أكثر من الأمريكيين المقيمين في اسرائيل.

١٢ـ عودة العلاقات الطبيعية مع الدول الاشتراكية يخفف من تأزم وضع اليهود فيها ومن ثم يخفض هجرتهم منها.

١٣ـ ان اسرائيل بتعدادها الحالي الضئيل ستذوب في المحيط السكاني العربي مع تبادل الخبراء والموظفين والعمال وعائلاتهم.

٤ ـ المخاطر الامنية

١٤ـ الانفتاح معناه فقدان اسرائيل تدريجيا للروح القتالية ولطابعها اليهودي الغربي الذي لم يتبلور تماما بعد، مما يحولها تدريجيا الى دولة شرقية مثلما تحول الصليبيون الى مدنيين في نهاية حكمهم عند خروجهم من قلاعهم العسكرية المغلقة الى صفوف الشعب، فتزاوجوا وفقدوا بذلك طابعهم الأوروبي القتالي، وهذا ما يجعل جنرالات اسرائيل «يخشون أن يفقد الجيش.... لياقته العسكرية الفائقة»[٤] عند السلم.

١٥ـ حتى لو تخلى العرب جدلا عن الأراضي المحتلة، لا تستطيع اسرائيل انهاء حالة الحرب واللاسلم

---

(٤) هيرالد تربيون، ١٨ ـ ١٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٨.

الا بعد استكمال حاجتها من المهاجرين (حوالي المليون). وهي لذلك تقدر أن يستمر الصراع مع العرب عشرين عاما على الأقل قبل أن تحقق احتياجاتها من المهاجرين والمقاتلين والحدود الآمنة.

١٦- ان أمريكا تحتاج الى تجربة أسلحتها المتقدمة في الحروب التي تخوضها اسرائيل، بقدر حاجة اسرائيل الى اثبات تفوقها العسكري دائما كقوة رادعة باستخدام هذه الاسلحة المتقدمة باعتراف الجنرال الجنرال شارون وموشيه أرينز[٥]. وأضاف صحيفة امريكية الى ذلك «أن هناك قلقا كبيرا في الدوائر العسكرية من أن يؤدي مروره الزمن دون وقوع حرب إلى جعل القادة العسكريين الاسرائيليين يشكون في فاعلية قواتهم. وقد برز هذا التوتر العصبي خلال المقابلات التي أجريت في اسرائيل»[٦].

١٧- ان الصلح مع الأردن بالذات يعني تزايد النشاط السياسي للفلسطينيين في الضفة الغربية على الأقل، وقد يتحول ذلك الى نوع من المطالبة بالحكم الذاتي. «كما أن حزب العمل... يتنبأ بأن مشروع الحكم الذاتي سيؤدي الى قيام دولة فلسطينية معادية»[٧].

٥ ـ مخاطر الوحدة الوطنية

هذه مشكلة المشاكل لمن يعرف طباع الاسرائيليين.

١٨- قال أروين فرانكل رئيس تحرير جريدة جيروزاليم بوست الاسرائيلية «أن الضوابط التي تبني التماسك الاجتماعي الخليق بأمة محاصرة سوف تضعف»[٨]. وفسرت جريدة كريستشان سيانس مونيتور ذلك عام ١٩٧٩ بأنه يعني تزايد الانقسامات بسبب «اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء التيكانت أقل ظهورا في أيام الرواد قبل مولد الدولة اليهودية في عام ١٩٤٨ وبعدها مباشرة».[٩]

١٩- حتى في غياب المظالم الاجتماعية، يظل للعناصر اليمينية المتطرفة ثقلها في التوازن السياسي الحساس، ومن ثم عدم التخلي عن الأرض المحتلة بضغط من أنصار اسرائيل الكبرى. مثال ذلك أن غولدا مئير قالت في آخر خطاب لها في أيار/ مايو ١٩٧٨ أمام حزب العمل: «لا أقبل أن تكون الضفة والقطاع جزءاً من اسرائيل حتى لو قدموهما لي على طبق من فضة». بيد أن هذا لا يعني أن اسرائيل كانت مستعدة للتخلي عنها. فقد نفذت غولدا خلال خمس سنوات من حكمها جزءاً كبيراً من مشروع آلون حتى أصبح نحو ثلث أراضي الضفة الغربية عام ١٩٨٠ «اما مشتراة أو منزوعة

---

(٥) مجلة أتلانتيك الأمريكية، ١٩٨٣.

(٦) نيويورك تايمز، ٢٤/١/١٩٨٢.

(٧) هيرالد تربيون، المرجع السابق.

(٨) كريستيان سيانس مونيتور، ٢٩ أيار/ مايو ١٩٧٩.

(٩) المرجع السابق.

الملكيــة أومغلقــة أومصــادرة لأغـراض مدنيـة وعسكرية»[10]. ولكن ما أن جاء عام ١٩٨٧ حتى اصبحت تشارف النصف.

فقد كرر بيغن هذا الأسلوب عندما خلف مئير. ذلك أنه بعد أن وقع في كامب ديفيد على مبدأ الحكم الذاتي الكامل وعلى عودة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني بضغط وتهديد من نائبه يادين، شعر«بأنه ارتكب خطأ فاحشا» على حد تعبير أبا ايبان. فراح يعالج هذا الخطــأ بخطأ آخر هو محاولة «تطفيش»الفلسطينيين من محادثات الحكم الذاتي... وبـاعادة تعـريف الحكم الذاتي المحدود للفلسطينيين بحيث يصبح أقرب الى القبول عـلى مضض بوجـود أقلية في اسـرائيل الكبرى»[11].

* * * *

موجز القول أن اسرائيل تصر على طلب الصلح مناورة فقط لاظهار أن رفض العرب للصلح يهدد كيان اسرائيل، وبذلك ترفع رصيدها من الأموال والمهاجرين كلما بدت في خطر. ولاحظ الكاتب الفرنسي اليهودي مارك هيلل في كتابه الذي سماه صراحة «اسرئيل في خطر من السلام» في الستينات أن التجربة دلت على أن التبرعات تبلغ رقما قياسيا كلما كانت اسرائيل في خطر، وأن الحرب بـالتالي ضـرورية للاقتصاد الاسرائيلي المتأزم.

كيف تتصرف اسرائيل وتخرج من المأزق لو افترضنا جدلا أن بعض الدول العربية وافقت على المفاوضات المباشرة مثلما حدث مع مصر أيام السادات؟

ستقدم اسرائيل كل الشروط التي تضمن استحالة موافقة العرب عليها وبالتالي استحالة توقيع الصلح (تفسير عيزر فايتسمان السابق لأسباب تشدد بيغن في كامب ديفيد). فاذا أرغمهـا الضغط الخارجي (كارتر) على الموافقة على الحكم الذاتي والمستوطنات مثلا تنصلت منه فورا بحجة التوازن السياسي الداخلي ومصالح الأمن المقدسة. وليضرب كارتر رأسه بالحائط.

ماذا لو لم تسفر المفاوضات المباشرة عن شيء؟ ستكون اسرائيل قد حققت عدة فوائد هامة جدا منها ضرب الحكومات العربية ببعضها، وضرب الشعوب العربية بحكوماتها، واسقاط بعض أنظمة الحكم العربية، وخلق اضطراب عميق لأي زعيم عربي يقبلها بحيث يضطر في النهاية الى «الدفاع عن نفسه الى حد الموت والقتل» كما قالت غولدا مئير. وهذا ما حدث.

لا شيء أصدق مما قاله مارك هيلل في كتابه المذكور: «اذا كان هناك اله يحمي اسرائيل فانه مارس اله الحرب».

لا جدال في أن الاسرائيليين يتلهفون على السلم وكأنه أملهم الأسمى. لكن عامل المغالاة يجعلهم يطلبون المستحيـل وهو الحصـول على السلم والأرض معـا. وهكذا كلمـا اقترب السلم منهم فعلوا

---

(١٠) واشنطن بوست، ٧/٩/١٩٨٠.

(١١) نيويورك تايمز، ١٠/٥/١٩٧٩.

شعوريا أو لا شعوريا كل شيء لتدميره بحجة الأمن (العجل الذهبي الجديد). وكلما ابتعد السلم جروا وراءه وكأن الامر كله مأساة اغريقية تسودها الجبرية والعبث حتى ينطبق عليهم القول المأثور للقديسة تيريزا: «اللهم اننا نبعد أنفسنا دائما عما نطلب».

الفصل السادس

ماذا قدم العبرانيون للحضارة؟

فضل «العبقرية اليهودية» على الحضارة العالمية: دراسة مقارنة مع التراث العربي

«يبدى التاريخ اليهودي عموما سمات عظيمة في طابعها، وانما يشوهه موقفه غير الديمقراطي من عبقرية الأمم الأخرى (ومنه تدميره للسكان الكنعانيين) والافتقار الى الثقافة بوجه عام».

الفيلسوف الألماني هيغل

«كان النازيون يحرقون كتب المؤلفين الذين يعارضون تعاليمهم، أما أنتم في اسرائيل فتحرقون الكاتب أولا».

افرايم سفيلا، صاحب كتاب
«سلام عليك يا اسرائيل»

يروّج القوميون اليهود وأنصارهم أن الحضارة مدينة لليهود بالكثير، وأن العرب ليسوا سوى تتار المدنية. وقد بدأ اغتيال الصورة الانسانية للعرب يمتد كالنار في الهشيم منذ الخمسينات، وبلغت المحاولة ذروتها الآن وأفلحت في بث النفور والتوجس منا في أقطار كثيرة، مع أن الآية كانت معكوسة في القرون الماضية.

ترى ماذا قدم اليهود حيال العرب للمدنية؟*

باديء ذي بدء، حريّ بنا أن نتحاشى المزالق العنصرية والدينية التي قد يقع فيها أي شخص شأن هنري فورد الأكبر الذي وصف اليهود في كتابه «اليهودي العالمي» بأنهم «شعب بلا حضارة تستحق الذكر، ولا ديانة تنطوي على الايحاء والألهام، ولا لغة ذات مكانة عالمية، ولا مآثر خالدة إلا في ملكوت الابتزاز وتكديس المال».

ذلك أن هذه الفقرة تحفل بعدة أخطاء شاسعة تبعدها عن روح العلم وتقربها من اللاسامية، مهما قاسى فورد نفسه من يهود امريكا والعالم اجمع.

فاليهود أولا ليسوا شعبا، بل طائفة لها تقاليدها، لأن التجانس بينهم انثروبولوجيا وثقافيا متباعد قدر تباعد عشرات اللغات التي يتحدثون بها في اسرائيل (جاء الاسرائيليون من ١٠٨ بلدان وهم يتحدثون بنحو ٨١ لغة).

(*) حاولت في هذه الدراسة أن أتناول بالتفصيل والاستكمال والتحديث ما نشر في كتاب «دعايتهم نصف الحرب» من تناول موجز لهذا الموضوع عام ١٩٦٧.

ثم ان ديانتهم ـ كأية عقيدة سماوية ـ تحفل بالايحاء والالهام سواء التزموا بها أو نبذوها أو حرّفوها.

أما وأن اليهود «بلا حضارة تستحق الذكر» فأمر يستحق التفصيل والتدقيق، وهو موضوع بحثنا هذا.

العبرة بالتراث القومي

لا ينكر أحد أن يهود العالم قدموا عبقريات علمية وفكرية وفنية في سياق التاريخ. ولكننا نستطيع هنا افتراض نقطتين في غاية من الأهمية:

أولا: أنهم أيام عبرانيتهم لم يسدوا للمعرفة في الماضي والحاضر شيئا يذكر غير التوراة (والأديان على أية حال وحي الهي وليست موضوع بحثنا هذا، قرآنا كان أم توراة أم انجيلا). ثم أنهم ضنوا بالتبشير بها على غيرهم الى ان جاءت المسيحية فبشرت بتعاليم العهدين القديم والجديد معا.

ثانيا: ان العبقريات اليهودية العديدة خارج فلسطين التي أسدت كثيرا الى المعرفة الانسانية لم يحمل نتاجها شيئا من الثقافة العبرية، بل لم يكن يحمل أي ارتباط ظاهر بتراث الجيتو اليهودي في الخارج.

اذا أثبتنا هاتين النقطتين صح القول بأن الثقافة اليهودية في فلسطين (المكتوبة بالعبرية أو الآرامية) أو خارج فلسطين (المكتوبة باليديش أو اللادينو) لم يكن لها شأن يذكر في تقدم البشرية وانما الفضل في تقدمها يرجع الى «يهود الصدفة» الذين لم يكن ليهوديتهم فضل على تفكيرهم وأعمالهم الخلاقة.

لنمحص النقطة الاولى: ماذا قدم العبرانيون؟

الحق أن ما في قواميس اللغات الحية من مفردات يمكننا من ايضاح مدى اسهام أي شعب في الحضارة. أقصد بذلك أن أصول الاشتقاق اللغوي لمفردات اللغات الحية مقياس جيد لتأثير أية ثقافة في حضارات العالم.

فاذا رجعنا الى معجمي اوكسفورد الانجليزي ولاروس الفرنسي، لوجدنا أن الفرق بين عدد ونوع الكلمات المشتقة من العبرية من ناحية، والعربية من ناحية أخرى ـ على سبيل الدراسة المقارنة ـ أمر يستلفت النظر حقا.*

لنأخذ اللغة الانجليزية مثلا..

من حيث العدد، يكاد عدد الكلمات المأخوذة عن العربية يبلغ ضعف المأخوذه عن العبرية.

(*) تأثير العربية حتى في المصطلحات الدينية والاخلاقية لا يستهان به. فعدد الكلمات العربية التي استشهدت بها «الموسوعة الامريكية للدين والاخلاق» لجيمس هاستنغ بلغ ٤٧٥ كلمة عربية مقابل ٣٠٢ كلمة عبرية. (انظر Encyclopdia of Religion and Ethics، تشارلز سكريبنر، نيويورك، ١٩٢٧، الصفحتان ٦٨٠ و٦٦٥ من المجلد الاخير (الثالث عشر) وما بعدهما.

ومن حيث النوع، تغطي هذه الكلمات المأخوذة عن العربية كل ميادين المعرفة من طب وصيدلة واقتصاديات ورياضيات وجغرافيا وفلك وكيمياء وطبيعيات وأدب وفلسفة وعمارة وموسيقى وأزياء.. هذا بينما تكاد نظيراتها المشتقة من العبرية تقتصر على الدين وحفنة من مصطلحات النبات والمعادن والمقاييس القديمة.

لنأخذ مثلا قاموس اوكسفورد المعروف باسم «القاموس الاشتقاقي للغة الانجليزية» أو Etymo-logical Dictionary of the English Language لمؤلفه العلّامة الأب ولترسكيت.

صدر هذا المعجم الضخم عام ١٨٨٢ أي قبل ان تشتد سطوة الصهيونية وقدرتها على «اعادة كتابة التاريخ» على حد تعبير العلّامة اليهودي موشى منوحين.

واذا فتحت المعجم على صفحة ٧٧٤ من طبعة عام ١٩٦٣ لا حظت أن عدد الكلمات الانجليزية التي يرى العلّامة سكيت أنها مأخوذة من كل من العربية والعبرية (بشكل مباشر أو غير مباشر) كما يلي:

	نقل مباشر	غير مباشر	المجموع
عن العربية	٥٠	١١٧	١٦٧
عن العبرية	٢٩	٥٤	٨٣

أي أن المشتقات من العربية ضعفها من العبرية عددا.

أما من حيث النوع فهي أكثر دلالة. فأكبر جزء من المشتقات العبرية (١٦ من ٢٩) مصطلحات دينية مقابل ١٤ من ٥٠ بالنسبة لنظيراتها العربية، هذا رغم فرص التأثير الهائل للتوراة على اللغات الاوروبية الحية، خاصة لسان انجلترا المسيحية البعيدة عنا وعن تأثيرنا.

أما عن تأثير اللغات اليهودية الأخرى مثل اليديش واللادينو على اللغات الحية، فيمكن القول أنه ضئيل إلا على العامية في كبرى المدن الامريكية. بل ان اليديش واللادينو أخذتا عن الجرمانية واللاتينية معظم رصيدهما دون مقابل منهما تقريبا.

والفهرس المنشور يعرفنا بأهم المصطلحات التي دخلت اللغة الانجليزية من العربية والعبرية ومعظمها مما اثبته العلامة سكيت، وبعضها مما غفل عنه (مثل قميص ـ مساج ـ تمر هندي ـ ارجوزة أو مركب). وقد وضعت بين قوسين الكلمة الأصلية مصدر الاشتقاق.

مفردات في اللغة الانجليزية

	ماخـوذة عـن العربيـة	ماخـوذة عـن العبريـة
تجارة وملاحة	(١) ترسانة (دار الصناعة) (٢) تعريفة (٣) عيار (قالب) (٤) ارجوزة (٥) قناة (٦) مخازن (1) arsenal (2) tarriff (3) calibre (4) argosy (5) canal (6) magazines	(١) قاب (مقياس قديم) (٢) هن (مكيال) (1) cab (2) hin
كيمياء وطبيعة	(١) قلوي (قالي) (٢) الكحول (٣) حجر الصابون (طلق) (٤) جبس (٥) المر (٦) اليشب (٧) كهرمان (٨) الكيمياء *(1) alkali (2) alchohol (3) talc (4) gypsum* (5) myrrh (6) jasper (7) amber (8) alchemy	(١) نطرون (نترات) (٢) زمرد (1) natron (nitre) (2) emerald
نبات وحيوان	(١) قطن (٢) قهوة (٣) تمر هندي (٤) سمسم (٥) حشيش (٦) عنبر (٧) خروب (٨) غزال (٩) زرافة (١٠) حناء (1) cotton (2) coffee (3) tamarind (4) sesame (5) hashish (6) ambergals (7) carob (8) gazalle (9) giraffe (10) henna	(١) ابنوس (٢) سيدر (٣) جمل (1) ebony (2) cider (3) camel
رياضيات وهندسة	(١) الجبر (٢) صفر (٣) شفرة (٤) مساحة الأرض (العضادة) + الأرقام العربية (الصفر بالذات) (1) algebra (2) cipher (3) cipher (4) alidade + Arabic numerals	رافعة Jack
فلك وجغرافيا	(١) نجم الدبران (٢) المناخ (٣) السمت (٤) نظير السمت (٥) الرياح الموسمية (٦) برج الثور (1) aldebran (2) almanac (3) azzimuth (4) nadir (5) monsoon (6) taurus	delta
طب وصيدلة	(١) مساج (مس) (٢) بلسم (٣) حكيم (٤) شراب (1) massage (2) balsam (3) hakim (4) syrup	
أزياء وفرش	(١) قميص (٢) موهير (مختير) (٣) جيبون (جبة) (٤) برنص (٥) قناع (مسخرة) (٦) مرتبة (مطرح) (٧) صوفا (صفة) (1) camisole (2) mohair (3) jupon (4) burnouse *(5) mask (masquerrade)* (6) matress (7) sofa	(١) جاكيت (٢) اراجوز (1) jacket (2) marionette
موسيقى وازياء	(١) عود (٢) الرق (طنبور) (٣) الطبل (٤) مجلة (مخزن اخبار) (٥) رزمة ورق (٦) ترجمان (1) lute (2) tambourine (3) altabal (4) magazine (5) ream (6) dragoman	
اسماء والقاب	(١) اميرال (امير الاعالي) (٢) قاضي (٣) قائد (٤) امير (1) admiral (2) cadi (3) caide (4) emir	اسماء كثيرة مثل جاكوب ـ آنا ـ ابراهام ـ روبن...الخ (1) Jacob (2) Anna (3) Abraham (4) Reuven

هذا الفهرس المقارن يوحي لنا بعدة ملاحظات:

١ - ان العربية تفاعلت مع اللغات الاوروبية والاسيوية (خاصة الفارسية والتركية والاردية) على نطاق واسع، بينما كان تفاعل العبرية مع هذه اللغات حتى انشاء اسرائيل ضيقا جدا بسبب تقوقعها الطائفي واحجامها عن التبشير حفظا للشعب المختار.

٢ - هذا التأثير العبراني المحدود كان أغلبه دينيا سبيله التوراة. وهو يفسر كثرة الاسماء العبرية الشائعة. أما الاسهام في التقدم العلمي فقد كان شبه معدوم.

٣ - من الملاحظ أن بعض المصطلحات الدينية العبرية مأخوذة عن لغات أجنبية، فكلمتا «التلمود» و «الترجوم» (كتاب السامريين المقدس) مأخوذتان عن الكلدانية. وكلمة «يهود» منقولة من اوغاريت، والتوراة كلمة آرامية، وكلمة آمين أصلها غالبا فرعوني (آمون). والمجلس اليهودي الديني الأعلى (السانهدرين) مأخوذ عن (سندريون) اليونانية.. الخ.

٤ - ليس دقيقاً القول ان مهمة العرب اقتصرت على نقل الارقام الى اوروبا لتحل محل الاعداد اللاتينية المزعجة، فالواقع أنهم أدخلوا الى الاعداد العربية (الهندية أيضا) ابتكارا خطيرا جدا هو الصفر الذي لم يكن معروفا من قبل، والذي وصفته دائرة المعارف الامريكية بأنه «فكرة عظيمة» و «من أهم خطوات تطور الرياضيات على الاطلاق».. ويقول ديفيد كوك في كتابه «معجزة على الصحراء» أن «اضافة الصفر صار أساسا لعلم الحساب كله، فبدونه كان الحساب شبه متعذر إلا على فطاحل العلماء».

٥ - لم نذكر في الفهرس المفردات التي أدخلتها حضارات العالم العربي القديمة الى الغرب، مثل الكلمات ذات الأصل المصري (ورق - انجيل - فستان - جنيه - امونيا) التي دخلت اللغة الانجليزية، أو الكلمات السورية القديمة كالموسلين والداماسك (الدمقس). وقد يبدو غريبا ان كلمة انجيل بالانجليزية مأخوذة عن الهيروغليفية ولكنها في الحقيقة حرفت عن ورق البردى (الذي كانت تكتب عليه) على الشكل التالي: papyrus, byblos, bible .

٦ - من الخطأ الظن أن اللاتينية والاغريقية لم تأخذا شيئا عن العربية، اذ فيهما منها كلمات مثل الجبر والكحول والجبس والبلسم وغيرها.

ويمتد التأثير بصورة أوسع كثيرا الى اللغات المعاصرة المشتقة عن اللاتينية:

في الفرنسية والايطالية نجد كلمات مثل قميص وبرنص وموهير وجبة (جيبون) وراحة اليد (مضرب) وسيد وطبيب ومخزن والكيمياء.وفي اللغة الالمانية أكثر من مائتي حكمة عربية شائعة. وفي اللغة الرومانية مئات الكلمات العربية (كبريت - عربة - دولاب - قطيفة - ابريق - دخان - حوض.. الخ).

وفي الاسبانية والبرتغالية نجد أكثر من ذلك بكثير. ففي الاسبانية مثلا نحو ثلاثة آلاف لفظ منقول أو مشتق عن العربية.

قالت لي شاعرة أوروغواي الشهيرة بيانكا تيرافيرا صاحبة كتاب «النيل يمر ببلادي» ومؤلفات أخرى عن العالم العربي خلال زيارتها للقاهرة في الستينات:

«لا يزال أبناء أمريكا اللاتينية يستخدمون كلمات عربية أصيلة جاءتهم عن طريق الاندلس، وبعضها لم يعد يستعمل الآن في اسبانيا نفسها. ومن هذا الكازار أو الكاثار (القصر أو القلعة) والمهادا (المخدة) والزيت والسكر وأسماء الأشخاص.«واسم ليلى وعايده مثلا شائع جدا في بلدي».

شهادة المؤرخين

وبالمقابل هناك أقوال عدة لكبار المؤرخين تؤكد وتفسر ضحالة ما قدمته الثقافة العبرية بالمقارنة مع ثقافات الشرق الأوسط الأخرى.

قال هـ.ج. ويلز المؤرخ المشهور في كتابه «موجز التاريخ»:

«كانت حياة العبرانيين أشبه بحياة رجل يصر على الاقامة وسط طريق مزدحم فتدوسه المركبات والشاحنات على الدوام. ومنذ البداية حتى النهاية لم تكن مملكتهم سوى حدث طارىء في تاريخ مصر وسوريا وآشور وفينيقيا، ذلك التاريخ الذي كان أكبر وأعظم من تاريخهم».

وقال جوستاف لوبون في كتابه «اليهود في تاريخ الحضارات الأولى»:

«لم تكن فلسطين أو أرض الميعاد غير بيئة مختلفة لبني اسرائيل، فالبادية كانت وطنهم الحقيقي».

ويقول في موضع آخر:

«بقي بنو اسرائيل حتى في عهد ملوكهم بدويين آفاقين جفاة كالوحوش والأطفال.. وكانوا عاطلين مع ذلك في كل وقت من المفاتن التي يتجلى فيها سحر الصبا عند الناس والشعوب».

وقال جان اندريه ايمار استاذ التاريخ بجامعة السوربون في الجزء الأول من المؤلف الضخم «تاريخ الحضارات العام»:

«العبرانيون لم يدخلوا سياسيا شيئا يستحق الذكر على تاريخ الحضارة. وكذلك فان اسهامهم الفني بقدر تخيلنا له مفقود تماما ولم يكن له على أية حال أثر في التاريخ»[1].

بيد أننا يجب ألا نقع في مصيدة الأهواء والعصبيات «فالعبرانيون ينفردون منذ أيامهم الأولى بأنهم قد أدخلوا أكثر من غيرهم الاخلاق في صميم شريعتهم، وشريعتهم في صميم ديانتهم» كما يقول ايمار.

صحيح أن بعض علماء الآثار المصرية برهن على أن أدب التوراة كان أكثر من مرة صدى للأدب المصري والعراقي والسوري مثل المزمور الرابع والتسعين المستوحى بصورة ظاهرة من «النشيد لآتون» المنسوب لامينوفيس الرابع والموضوع منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد، والمزمور ١٠٤ المنقول عن نشيد «الشمس» في عهد اخناتون[2]، والمزمور ٢٩ المأخوذ من «نشيد كنعاني وضع أصلا لبعل

---

(١) جان اندريه ايمار، تاريخ الحضارات العام، بيروت، ١٩٦٦.

(٢) مجلة المعرفة السورية، آذار/ مارس ١٩٨٤.

«إله العاصفة» وعثروا عليه في أوغاريت،[٣] ومثل قصة الطوفان الموجودة في عدة مصادر قديمة مثل قصة جلجاميش[٤]. وصحيح ايضا ان الوصايا العشر فيها اشياء من شريعة حمورابي (خصوصا المادتان ٥٧ و ١٠٢)، وان اليهودية اخذت التوحيد والختان وتحريم الخنازير ومبدأ النجاسة والتحريم والتعميد وغيرها عن الفراعنه، كما يرى فرويد وبرستيد.

لكن هذا ليس بالمقياس ولا بالمهم.

العبرة بالقدوة التي يكونها كل مبشر. فهل طبق العبرانيون على أنفسهم ما لقنوه للآخرين؟ لقد أرادوا أن يكون (يهوه) الها وحيدا شاملا لكل البشر، فهل فعلوا ذلك، وهل تمسكوا بالاخلاق التي سنوها شريعة للعالمين؟ وباختصار، هل تخلوا عن عامل المغالاة والتطرف المأثور فيهم؟

لنسمع ما قاله جوستاف لوبون:

«يعرف جميع قراء التوراة وحشية اليهود (العبرانيين) التي لا أثر فيها لأية رحمة. وليقتنع القارىء بذلك ما عليه الا أن يتصفح سفر الملوك الذي يقول أن الملك داود كان يأمر بحرق جميع المغلوبين وسلخ جلودهم ونشرهم بالمنشار، كما كان الذبح الجماعي المنظم يعقب كل فتح مهما قل .

«وكان الاهالي الأصليون يوقفون فيحكم عليهم بالقتل ويبادون باسم (يهوه) دفعة واحدة بدون اعتبار للجنس أو السن. وكان التحريق والسلب يلازمان سفك الدماء».

وشهادة مماثلة من ايمار:

«لم يبد يهوه من ناحيته الها عاما يهتم بشؤون الشعوب الأخرى، بل خص العبرانيين وحدهم بمحبته وعدله وازره، مبغضا جميع اعدائهم. وقد تجلى حيال هؤلاء تحيزه وعنفه وتعطشه للدم، فقد حبّذ كل مكيدة، وأوصى بكل ابادة، واسترذل كل شفقة. واذا كان قد سمي باسم «اله الجنود» فلكي يوّطن شعبه في كنعان وينصرهم على الفلسطينيين»[٥].

ويقول الدكتور جمال حمدان في كتابه «اليهود انثروبولوجيا»:

«كانت الدولة اليهودية في فلسطين التي دامت ستة قرون جد متقطعة، قبل المسيح وبعده، يغلب عليها طابع البداوة الدموية العنيفة. بل أن تاريخ اليهود قبل عصر التوراة وبعده كله غزو وعدوان»[٦].

مثل هذه الضراوة الوحشية في الواقع تحفل بها صفحات كثيرة من التوراة. فبالاضافة الى سفر الملوك نجد في سفر التثنية وسفر يشوع وسفر الخروج وغيرها حثا قويا على هذا التنكيل. وهناك ما هو انكى من ذلك كله في نصوص التلمود فيما يتعلق بمعاملة الأمميين (الاغيار). وربما علل هذا اختفاء

---

(٣) مجلة الآثار التوراتية، ١٩٨٤/١٠/٩.

(٤) المعرفة السورية، المرجع السابق.

(٥) ايمار، المرجع السابق.

(٦) جمال حمدان، المرجع السابق.

التلمود بصورته الأصلية الكاملة من المكتبات. وما زال الاسرائيليون يطبقون حرفيا تعاليم التلمود في العقوبات الجماعية للسكان وسبيهم وتدمير ممتلكاتهم أو مصادرتها.

هنا من حقنا أن نضحك عندما نسمع مناحيم بيغن صاحب مذبحة دير ياسين وهو يقول خلال مفاوضات كامب ديفيد: «لقد منح الشعب اليهودي العريق العالم رؤى السلام الأبدي ونزع السلاح العالمي الشامل، وانهاء تعليم الحرب وتعلمها»(٧) وعندما نسمعه يقول بعد أن حرث بيروت بالقنابل: «الجيش الاسرائيلي أرحم جيش في العالم».

العرب فاتحين

ماذا كانت أخلاقيات العرب في التعامل مع الآخرين؟

من الشائع في الغرب القول «ان الاسلام أيضا فتح العالم بحد السيف»، ولكن كيف استعمل العرب هذا السيف؟

قال أبو بكر الصديق لجيش أسامة وهو متجه لغزو الشام: «قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا (من الغلول وهو أخذ الشيء من الغنيمة خفية قبل القسمة)، ولا تمثّلوا (أي لا تشوهوا جثة قتيل) ولا تقتلوا طفلاً صغيرا ولا شيخا صبيرا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً (أي لا تقطعوا النخل من أصله) ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم بالصوامع فدعوهم لما فرَّغوا أنفسهم له ....»*.

فهل أخذ الفاتحون بهذه الوصايا؟

كتب غوستاف لوبون في مؤلفه السابق: «لم تعرف الأمم فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا دينا سمحاً مثل دينهم».

وقال الدكتور مونتجومري واط رئيس قسم الدراسات العربية والاسلامية بجامعة كمبريدج في محاضرة ألقاها بالكويت في آذار/ مارس ١٩٧١:

«على القائلين بأن الاسلام فتح العالم بحد السيف أن يذكروا أيضا أنه كان يعامل الشعوب المقهورة معاملة طيبة».

وعندما كان يهود أوروبا يتقوقعون رعبا في القرون الوسطى، كانوا في الأندلس العربية يعيشون عهدهم الذهبي ويسمونها «الفردوس» لرخائها وتسامحها. ففي غرناطة وقرطبة واليوسانة (لوسينا)

---

(٧) نيويورك تايمز، ١٠/١٢/١٩٧٨.

* - قارن ذلك بما ذكره الحاخام الأول شموئيل ديرليش المستشار الديني لقوات الاحتلال في الضفة الغربية في كتيب وزعه على الجنود بعنوان «كتيب اعلامي يهودي» وقال فيه: «يجب الا ترحموا أي مخلوق من أمة العمالقة (Amalek)، سواء اكان رجلاً او امراة أو طفلاً أو حتى بقرة»، نقلا عن صحيفة حداشوت الاسرائيلية في ٥ أيار / مايو ١٩٨٥. والمقصود بالعمالقة الكنعانيون أو الفلسطينيون العرب.

كان منهم سفراء وعلماء وأطباء وأمناء الخزانة والمستشارون. وكان ابن ميمون (ميمونيدس) يضع كتابه الشهير «دلالة الحائرين» ويبشر بفلسفة ابن رشد قبل أن يذهب الى الاسكندرية ويصبح طبيبا خاصاً للملك الأفضل بن صلاح الدين الأيوبي ويعلم اللاهوت والطب في مدرسة يهودية بالفسطاط. وكان ابن شبروت (شفروط) طبيب عبدالرحمن الثالث ومستشاره. وكان معظم أهل اليوسانة يهودا كثر بينهم العلماء والاطباء والشعراء الذين يتغنون بالحب والخمر أكثر من الحرب، ولكن محاكم التفتيش الاسبانية لم تلبث ان أحالتهم نصارى وأساقفة وأحيانا محققين لمحاكم التفتيش، أو نفتهم الى المغرب وفلسطين.

مثل هذا التسامح لم يعرفه بنو اسرائيل مع جيرانهم قديما ولا حديثا.

ويزيد الدكتور شاكر مصطفى أستاذ التاريخ بجامعة الكويت على ذلك فيقدم اعتراضه اساسا على الخلط عند استخدام لفظ «الاسلام» سواء في معرض الدفاع أو الهجوم. فهو يرى أن «الاسلام» يعني ثلاثة أشياء: الدين، والدولة، والأمة. ومن غير المنطقي اتهام الدين والأمة بعمل عسكري لأن هذه مهمة الدولة وحدها. ولكن الغزو أو الفتح على أية حال لم يكن قاصرا على الدولة الاسلامية، فقد كانت هذه شريعة كل الدول تلك الأيام، شرقيها وغربيها».

لكن كيف جاءت هذه الصورة المشوهة للاسلام والعرب؟

يرى الدكتور واط أن هذا التشويه نشأ أصلا في القرون الوسطى، حتى امتدت آثاره الى عصرنا هذا. وهو يعلل ذلك بأنه رد فعل من أوروبا المسيحية من أجل «توكيد الذات» أمام التأثير الكاسح للحضارة الاسلامية. ولم يكن هذا منبعثا فحسب من الخوف من أن ينسخ الاسلام النصرانية (خاصة بعد تحول كثير من المسيحيين الى دين محمد) وانما كان صادرا أيضا بالدرجة الأولى عن تطبع الطبقة المسيحية الراقية في أوروبا بأسلوب الحياة العربية الذي بلغ أوج أناقته أيام الموسيقار زرياب الذي كان يضع «الموضة» ويعلم النساء فن تصفيف الشعر وتنسيق الموائد. وكيف لا يحق للكنيسة الرومانية أن تخشى هذا التيار والبابا سيلفستر الثاني نفسه يدرس في جامعة غرناطة، شأنه شأن أمراء وأميرات أوروبا؟

كل هذه المخاوف ـ في رأي واط ـ غذت الادعاء بأن عصر النهضة في أوروبا كان امتدادا طبيعيا تلقائيا للحضارة الكلاسيكية (الاغريقية ـ الرومانية) ولا فضل للاسلام عليه في صونه أو الاضافة اليه من عندها.

لكن انكار التأثير الواسع للاسلام (دينا وأمة ودولة) لا يجدي. فالشاعر دانتي الذي أرشد الغرب الى الثقافة الاغريقية ـ الرومانية لم يسلم من تأثير الفكر العربي على يد أبي العلاء المعري. وعالم النشر كله في أوروبا أصلا مدين للعرب الذين نقلوا صناعة الورق اليها حين أخرجوا أول وثيقة مصنوعة من الورق في مصنع بَنْوه في صقلية عام ١٠٩٠ ميلادية.

* * * *

صفوة القول إن فضل الثقافة العبرية كان ضئيلا على العلوم والفنون، وجماً على الأخلاق، رغم اقتباسها الكثير من مصر والشام والرافدين، ورغم كون بني اسرائيل أسوأ قدوة لما نادوا به في الوصايا العشر وغيرها.

وأخيرا يجب أن لا ننسى فضل أربعة من الأنبياء العرب على اليهودية. فالتوراة تشير الى أيوب ابن تيماء (حوالي ٢٣٠٠ ق.م) الذي كان توحيديا خالصا، وبلعام (لقمان؟) ابن الفرات الذي احتكم إليه شيوخ العبرانيين في سفر العدد، وملكي صادق الكنعاني ابن فلسطين الذي بارك سيدنا ابراهيم في سفر التكوين وقارنه الانجيل (في رسالة العبرانيين) بالسيد المسيح حين قال عن الأخير أنه كان «في مرتبة ملكي صادق، رئيس كهنة الى الأبد». وأخيرا النبي شعيب حَمْو سيدنا موسى الذي نظَّم القضاء لشيوخ اسرائيل في سفر الخروج وعلم موسى الحكمة في سورة الكهف من القرآن. ويستدل عباس محمود العقاد على الرأي الأخير من ملاحظته أن شعيب مذكور في التوراة باسمين هما «جوباب» و «يثرون» أو «جثرون».* وربما كان الأخير محرفا من اسم خترون (خضرون) أو «الخضر» بالتراث العربي.

من سبينوزا الى بريسلي

ننتقل الآن الى النقطة الثانية من بحثنا وهي:

هل كانت العبقريات اليهودية العديدة خارج فلسطين التي أسدت الكثير الى المعرفة الانسانية متأثرة في انتاجها بالثقافة العبرية، أو على الأقل بثقافة الغيتو اليهودي في الخارج؟

هذه المرة نستطيع الرد نفيا بالقطع دون تخمين أو افتراضات أو تكبد لعناء البرهان المفصل.

فكل من يقرأ لاينشتاين أو فرويد أو هايني أو سبينوزا، أو يستمع الى مندلسون وروبنشتاين بل وحتىالفيس بريسلي (المغني الأمريكي) لا يخطر له قط أنهم يهود، لأن تأثير الثقافة اليهودية في كتاباتهم ومنظوماتهم معدوم تماما. فهم لا يستعملون المصطلحات العبرية (ان حدث وعرفوها) ولا يستخدمون الصور اليهودية فولكلورية كانت أم دينية، أي أنهم كانوا شبه غرباء عن مجتمعهم اليهودي وثقافته.

ومن المضحك مثلا أن حكومة اسرائيل تصر على الاحتفال كل عام بذكرى الملحن المصري الكبير داوود حسني لمجرد أنه يهودي، مع أنه كان «ابن بلد» أصيلا يتمسك بالتقاليد الشعبية المصرية العربية، وليست في ألحانه وأغانيه ذات الطابع الشرقي الصميم ذرة من تأثير الموسيقى أو التراث اليهودي. بل ان الاسرائيليين الشرقيين غالبا ما يستخدمون في مجالسهم الخاصة الأغاني والآلات الموسيقية العربية بسبب صعوبة اندماجهم ثقافيا.

---

* ـ أنظر عباس محمود العقاد: «الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونانيين والعبريين»، كتب ثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧١، ص٨٨. وفي رواية الاخرى ان الخضر هو الياس او ايليا، ولكن هذا ليس مرجحا لأن الياس جاء بعد موسى غالبا.

وهذا هو المقصود من القول بأن هؤلاء العباقرة كانوا من «يهود الصدفة» حتى وان كان بعضهم متدينا.

بل ان كثيرا منهم ترفع عن التفاهات الشوفينية لأقرانه اليهود في أوروبا وأمريكا الى حد الانعزال، كما حدث مع الفيلسوف سبينوزا الذي نبذته جاليته في هولندا لنفوره من ضيق أفقها وتعصبها حتى قال «ان الله أنزل شريعة موسى على اليهود لتكون هراوة تأديب لهم».

وهناك فرويد الذي لا نعرف له اتصالا مطبوعا بالثقافة العبرية، والأثر الوحيد الذي يمكن أن يشير الى اهتمامه باليهودية (كثقافة) كتابه الصغير «موسى والتوحيد» الذي أصدره في أواخر حياته. وقد انتقد القوميون اليهود الكتاب لأنه ربط بين الشريعة الموسوية والحضارة المصرية التي سبقتها بمراحل ربطا قويا. ولم يمنع هذا فرويد من أن يصبح صهيونيا (ربما بسبب إلحاده) في أواخر أيامه.

ثم هناك العلامة اينشتاين الذي ذكّروه بأنه كيهودي مكانه اسرائيل وعرضوا عليه رئاسة جمهوريتها، فاعتذر قائلا «ان عودتنا الى الأمة بالمعنى السياسي معناه انصرافنا عن روحانية طائفتنا التي ندين بها لعبقرية أنبيائنا».

ثم تعالوا ننظر: كم يهوديا نال جائزة نوبل؟ عشرات يزيدون على السبعين.* ولكن كم منهم جاء من فلسطين أو بان عليه تأثير التراث اليهودي؟ أقل من خمسة ، أحدهم بيغن نفسه. وواحد آخر اسمه عجنون يكتب بعبرية عتيقة ولم يسمع باسمه أحد حتى نال الجائزة فجأة في الستينات لاعتبارات سياسية، كأن دولة اسرائيل قد هالها جدب العبقريات فيها. وليس هذا بعيدا لأن سارتر رفض جائزة نوبل للأدب على أساس تدخل الاعتبارات الشخصية فيها.

توخيا للانصاف، سألت كاتبا هولنديا اسمه دوماريه عن رأيه في الكتاب الذي نال عليه هذا العجنون جائزة نوبل للأدب فقال:

«انه كاتب جيد ولكنه لا يتميز بشيء خارق على مئات الكتاب الآخرين الذين قرأت لهم ولم ولن يبلغوا من الجودة حدا يسمح لهم بنيل الجائزة»★

ثم ما تفسير ضآلة النابهين اليهود في الموسيقى والألعاب الرياضية وانعدامهم في الفنون

---

* يقول باتاي إن اليهود كانوا يمثلون ١٥,٤٪ فقط من مجموع الفائزين بجوائز نوبل حتى عام ١٩٧٥، وأعلى نسبة لهم في الاقتصاد (٢٩٪) واقلها في السلام والأدب (نحو ٧٪) والانسانيات عامة. (انظر باتاي، صفحة ٢٤٠ ـ ٢٤١).

★ يرى العقاد أن الكاتب اليهودي «ينال من الشهرة فوق ما يستحقه... ويبدو ذلك في شهرة اناس أمثال لودفيج وموروا وزفايج وكافكاو ريلكه وبروست وآخرين وآخرين... فانهم اقل من نظرائهم في بلادهم و ولكنهم يشتهرون بفعل الدعاية... ثم ان كلًا منهم يستفيد من ثقافة البلد الذي عاش فيه، ولذلك فان المقياس الصحيح لنبوغهم هو تاريخهم القديم. وكانت في مكتبة الاسكندرية مئات الألوف من المجدات في سائر العلوم لشتى الأمم من يونان ورومان ومصريين وبابليين ولم يكن منها كتاب أو أثر يذكر لليهود فيه حتى كان المثقفون يعيرونهم بهذه السبّة كما فعل أبيسان (صحته آبيون) مع المؤرخ اليهودي «يوسيفوس». ولعل هذا يفسر شدة تهالك القوميين اليهود على جوائز نوبل ومحاربتهم لترشيح أي كاتب عربي مثل العقاد لها.

التشكيلية والشعر، على الأقل حتى القرن الماضي؟ إن أول مجموعة شعرية للشعراء اليهود المحدثين من كافة البلدان صدرت عام ١٩٨١ بالانكليزية بعنوان «أصوات من صحائف الشريعة» (Voices With-in the Ark) وتناولت ٣٥٠ شاعرا منهم ٩٠ من أمريكا ونحو ٤ فقط من اسرائيل. وأكثر من ذلك أن الصلة الوحيدة بين القصائد والشريعة هي عنوان الديوان نفسه!

ومن المفيد أن نختم حديثنا هذا بالأثر الحضاري الذي خلفه العبرانيون في فلسطين نفسها، والذي تجمع كل الشواهد الحفرية على ضآلته.

كثيرا ما يردد العلماء من الاسرائيليين أن الآثار التي اكتشفت تؤكد صحة تراثهم. وهذا أمر محير، فقد تابعت الحفريات الأثرية ومجلات الآثار المختصة بالشرق الأوسط منذ السبعينات. وأدهشتني التغيرات الجذرية التي أسفرت عنها حفرياتهم وحفريات ايبلا (تل مرديخ). من ذلك مثلا:

١ - أن الحفريات الأثرية في بلاد الشام منذ السبعينات تعيد كتابة أول ثلاثة قرون من تاريخ بني اسرائيل.

٢ - أن الكنعانيين والفلسطينيين القدماء وبعض العرب كانوا أرقى كثيرا في الحضارة مما كان مظنونا عنهم (حفريات روث عميران وترودي دوتان).

٣ - أن الأسينيين الذين كتبوا مخطوطات البحر الميت كانوا خلافا للمعروف عنهم أقرب العبرانيين (واليهود عامة) الى شريعة موسى، وأنهم كانوا يتميزون مثلنا باعتقادهم أنه لا فضل ليهودي على أممي الا بالتقوى.

٤ - أن بعض الاشارات التاريخية التي أوردها القرآن الكريم والمؤرخون المسلمون كانت أحيانا تصحح كثيرا من التاريخ اليهودي (مثل تاريخ هجرة سيدنا ابراهيم من أور) وأحيانا أخرى تنفرد بهذه المعلومات دون أجزاء العهد ا لقديم (قوم إرم وعاد وثمود).

اعادة كتابة ظهور بني اسرائيل

في أول مايو/ أيار ١٩٧٢ مثلا أعلن الدكتور هي.جي. فرانكين رئيس بعثة هولندية حكومية للآثار أن اكتشاف نصوص بالآرامية على جدار معبد قديم في تل دير علا بوادي الأردن (الغور) ترجع الى القرن السابع قبل الميلاد يؤكد حدوث تزييف في كتابة التوراة.

فبعد دراسة دقيقة دامت خمس سنوات لهذه النصوص قال فرانكين: «في ضوء هذا الاكتشاف الفريد أستطيع التأكيد أن جميع المعلومات الموجودة في التوراة عن فلسطين والأردن بين القرنين الثالث عشر والعاشر قبل الميلاد غير موثوقة لأنها حصيلة محاولة من كهنة القدس لتعديل تاريخ الماضي بحيث يتفق مع الآراء الدينية للقرن السابع قبل الميلاد».

ومع منتصف السبعينات بدأ علماء الآثار يجمعون أيضاً على صعوبة «التوفيق» بين نتائج الحفريات الفلسطينية ـ الشامية والمصرية عامة، وبين التواريخ التقليدية للتوراة خصوصا فيما يتعلق بخروج اليهود من مصر ودخولهم فلسطين بقيادة يشوع بن نون. وأخذ هذا يظهر بوضوح في

المؤتمر الدولي الأول للآثار التوراتية عام ١٩٨٤ عندما أنكر بعض العلماء الأمريكيين أن تاريخ اسرائيل بدأ في كنعان حوالي ١٢٠٠ ق.م. ورأوا أن تأريخ قصص التوراة في هذا السياق «خدعة زائفة»[٨].

وأثيرت هذه القضية مرة أخرى في ندوة عالمية أقامتها جمعية آثار الشرق الأدنى في ممفيس بولاية تنيسي الأمريكية صيف ١٩٨٧ وكان موضوعها «من هو فرعون موسى؟» وحضرها علماء ء اثريات بارزون مثل عالم المصريات هانز غوديكه من جامعة جون هوبكنز (التي بدأت حفريات ايبلا) والمؤرخ اليهودي سايروس غوردون والعالمان الاسرائيليان دافيد اوسيشكين وعمانوئيل عناتي. ورفض معظمهم النظرية الشائعة بأن الخروج حدث في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. عمانوئيل عناتي يرى مثلا كمؤرخ أنه حدث في الألف الثالث وليس الثاني قبل الميلاد. وغوديكه يرى أن قصص التوراة في هذا الوقت «خرافة أدبية» لما حدث فعلا في القرن الخامس عشر قبل الميلاد. بينما وصفها ماكسويل ميللر بأنها «حكايات فولكلورية تقليدية معادة قيمتها التاريخة ضئيلة ان لم تكن معدومة».[٩]

بيد أن مفاجأة المؤتمر كانت عالمين توراتيين انجليزيين هما جون بيسون ودافيد لفنغستون اللذان حفرا عدة سنوات في قرية نسية شمال القدس بأحد عشر ميلا وذكرا انهما لم يجدا اثرا للمعارك الرئيسية لفتح اليهود فلسطين في هذه القرية أو في غيرها من الأماكن التي حددتها التوراة في ذلك الوقت، مثل أريحا والخليل وعراد. والأثريون متفقون اصلا على ان اريحا ولخيش وعراد لم تكن موجودة آنذاك لكي يخربها يشوع لأنها كانت مهجورة من الألف الثالث حتى القرن العاشر. فإما ان تواريخ التوراة خطأ وإما أن القصة مختلقة. والذي يرجح الراي الأخير هو ان عي كانت موقع معركة تاريخية فصّلت ذكرها التوراة (سفر يشوع ٨:٧) بينما تنفي الحفريات احتلالها بين ٢٤٠٠ و ١٢٠٠ ق.م.

وحاول بيسون ولفنغستون تفادي المأزق بافتراض هو ان خربة نسية ليست عي، بينما ذهب آخرون الى أن القصة تؤيد نظرية العلماء الألمان في ان توسع بني اسرائيل حدث «بالتغلغل السلمي» على مدى قرنين وليس بحد السيف. وقد يصح قول بيمسون وزميله ان الخروج من مصر كان حوالي ١٤٦٠ ق.م. ودخول فلسطين حوالي ١٤٢٠ ق.م. وتعترف مجلة الآثار التوراتية عموما ان بلدتي حاصور وبيت ايل (بتّين) وحدهما دون سائر مواقع فتوحات يشوع تحملان آثار دمار من القرن الثالث عشر. أما معركة لخيش فيرى أوسيشكين أنها كانت حوالي ١١٥٠ ق.م. او بعد ذلك وليس بين ١٢٣٠ و ١٢٢٠ ق.م كما قال أولبرايت.

ويبدو عموما ان هذه الحفريات تتفق مع النصوص التي وجدها فرانكين في تل دير علا والتي تؤكد في رأيه «رأي مدرسة النقاد من المعلقين التوراتيين التي ظهرت منذ القرن الماضي وهي ان قصصا كثيرة أوردتها التوراة عن مجيء قبائل وأسباط اليهود من مصر عبر شرق الأردن لغزو فلسطين غير مضبوطة».

---

(٨) مجلة الآثار التوراتية، ايلول/ سبتمبر ١٩٨٣.

(٩) المرجع السابق، ص ٨.

والا فلماذا منعت اسرائيل حتى الآن نشر جزء كبير من مخطوطات البحر الميت المكتشفة في الكهف رقم ٤ منذ عام ١٩٥٢؟ ولماذا لم ينشر سفر اللاويين الذي عثروا عليه في الكهف رقم ٢ من دير قمران عام ١٩٦٨ حتى الآن (على الأقل بغير اللغة العبرية)؟ ان العالم اليهودي نويل فريدمان يرجع ذلك الى خوف اسرائيل «من المضاعفات السياسية»(١٠). ومتى دخلت السياسة علم الآثار أصبحت طبعا قضية أمنية أيضا كعادة اسرائيل.

إعادة كتابة تاريخ الجيران الأمميين

وماذا عن تاريخ غير اليهود في التوراة؟ هنا أيضا يبرز منطق التمني واضحا لدى القوميين اليهود.

منذ طفولتي وأنا أتعجب لماذا خرج سيدنا موسى باليهود من مصر ولم يتبع الطريق الساحلي المباشرعلى طول البحر المتوسط بدلا من التيه في سيناء؟ ولماذا سلك بدلا من ذلك طريق الضفة الشرقية لنهر الأردن؟ لم أعرف الا في السبعينات أن مدينة عراد الكنعانية هي التي حالت بينه وبين ذلك.

كانت عراد مدينة هامة في العهد الكنعاني وقلعة في عهد اسرائيل. وهي تقع شمال شرق بئر السبع بنحو ١٨ ميلا، وعلى مقربة من المدينة قلعة سكنها بنو اسرائيل (١٢٢٠ ـ ٥٨٦ ق.م) على أنقاض حصن بناه القينيون (المدينيون؟).

تذكر التوراة عراد ثلاث مرات، أولها في سفر العدد (١:٢١ و ٣٣:٤٠) الذي يقول أن ملك عراد المقيم في الجنوب هو الذي منع بني اسرائيل من اختراق النقب مباشرة الى جبال اليهودية (الخليل) فأرغمهم على دخول أرض كنعان من شرق الأردن.

وفي سفر يشوع (١٢:١٤) تظهر عراد في قائمة المدن الكنعانية المحتلة دون الاشارة الى طبيعة الغزو. ويذكر سفر القضاة أن «أبناء الملك حوباب الكنعاني ـ حمي موسى* ـ ذهبوا مع شعب يهودا من مدينة النخل (أريحا) الى صحراء اليهودية الواقعة في النقب قرب عراد (القضاة ١٢:٤ و ١٦:١). ولا نعلم اذا كان حموه هذا هو نفس شعيب (يثرون) كاهن مدين الذي زوّجه ابنته ولكننا نعلم الآن أن عراد ظلت مأهولة زهاء ثلاثة قرون ونصف (من ٣٢٠٠ ق.م ـ ٢٠٥٠ ق.م) أي قبل وصول بني اسرائيل الى فلسطين بعدة قرون.

وقلما تشير الصحف الغربية الى هذا الاكتشاف رغم أهميته واستمرار التنقيب فيه متقطعا منذ عام ١٩٦٢. وأول اشارة الى عراد قرأتها كانت في جريدة ديلي تليغراف اللندنية صيف عام ١٩٧١ عند

---

(١٠) مجلة الآثار التوراتية، آذار/ مارس ١٩٧٨.

* في رواية أخرى أن حوباب كان صهرا لموسى وليس حماه. وعلى أية حال اذا صح القول الأخير ربما كان تحريفا لاسم جوآب (شعيب) أوجثرون أويثرون الذي كان شائعا حينذاك، أو ربما كان لقباً لهذا الملك وليس اسمه الأصلي على عادة الملوك. فمثلا كان الفراعنة يستخدمون خمسة أسماء ويشتهرون بالاسمين الأخيرين منها. واسم صلاح الدين الأيوبي مثلا هو يوسف بن أيوب، ولقبه السلطان الناصر.

استئناف الحفر فيها، وكانت تقول أن الكنعانيين كانوا أول من ابتدعوا تخطيط المدن وأن عراد «تستحق لقب المدينة عن جدارة». فقد كانت تضم سورا طوله ميل وسمكه ٣ أمتار، ويتخللها نظام لتوريد المياه،مع تقسيمها الى جزء للسكن وآخر للتجارة والنشاط العام على اتساع ٢٢ فدانا. وكان في المدينة خزان للماء وأول نافورة عامة في فلسطين ـ وفي قلب صحراء النقب. وذكرت جمعية الآثار التورانية التي ساهمت في تعمير الموقع، أن الكنعانيين بنوا مدينتهم ببساطة داخل غور منخفض تصب فيه كل كل مياه المطر من قنوات على جانبي الشوارع وتلتقي في قلب المدينة. وتصف هذه الجمعية الأمريكية الموقع بأنه «بالغ الروعة»[١١] حتى أنها تبيع ثلاث شرائح ملونة (سلايدز) له ضمن المجموعة التي تصور أهم مواقع الآثار في اسرائيل، ومع ذلك راحت تستجدي التبرعات له لأن حكومة اسرائيل في العادة لا تعطي الأولوية لتمويل الحفريات في موقع كنعاني. فأول ما يسمعه الجندي الاسرائيلي من الحاخام العسكري لفرقته (كما يقول اسرائيل شحاك رئيس الرابطة الاسرائيلية للحقوق المدنية) قبل أن يذهب الى الأرض المحتلة للخدمة فيها هو أن من الواجب الديني القضاء على العرب «حتى آخر كنعاني» منهم.

وفي خريف ١٩٧١ اكتشف الاسرائيليون أن مناجم الملك سليمان في تمناع لم تكن مناجم الملك سليمان. ولا بد أن الروائي البريطاني الشهير السير رايدر هاغارد سوف يتململ في قبره لو علم أن مناجم الملك سليمان هذه التي كتب حولها رواية مشهورة بنفس الاسم كانت موجودة قبل مولد المسيح بثلاثة آلاف سنة، أو قبل مولد الملك سليمان بألفي عام تقريبا. والذي أقام مناجم النحاس في تمناع هم أهل مدين أنفسهم بالتعاون مع المصريين الذين تركوا هناك معبدا بناه الملك سيتي الأول حوالي عام ١٤٠٠ ق.م.

أما عن الفلسطينيين القدامى أو بني فلسطين فقد وجدت الأثرية ترود دوتان الأستاذة بالجامعة العبرية بالقدس أن مخلفاتهم «تدل على قدرات فنية جمالية عالية». ويصف روبرت ستيغلتز رئيس قسم الدراسات العبرية في جامعة راتجرز الأمريكية بني فلسطين بأنهم أصحاب «حضارة قديمة وعظيمة». وفي رأيه «أن المعلقين على التوراة هم الذين أكسبوا بني فلسطين سمعة سيئة» خاصة وأنه لم يكن معروفا عنهم شيء حتى القرن التاسع عشر عندما وجد العلماء من الآثار المصرية القديمة أن الملك رمسيس الثالث سمح لبني فلسطين بالاستيطان جنوب الساحل الفلسطيني، وأن حدودهم امتدت عام ألف قبل الميلاد حتى الأردن وبحيرة طبرية حتى هزمهم الملك داود. ولا نعرف من شخصياتهم سوى غوليات (جليات) الذي قتله داود، ودليلة التي أغرت شمشون بالكشف عن سر قوته.

ويعادل ذلك في الأهمية اكتشاف دوتان «عدم وجود دليل أثري» على أن الفلسطينيين جاءوا من جزيرة كريت (كاف تور) طبقا للنظرية التقليدية. فلا أثر لهم تقريبا في هذه الجزيرة، ولو أن دوتان تقول أن للفلسطينيين صلة قرابة بسبط دان الذي جاء منه شمشون بن ممنوح والذي كانت أرضه متاخمة لأرضهم. كما أن سفر التكوين (٢١:٣٤) يذكر أن سيدنا ابراهيم أقام في «بلاد الفلسطينيين فترة

---

(١١) نشرة جمعية الاثار التوراتية ١٣/ ١٠/ ١٩٨٠.

طويلة» والقول بأن مصطلح الفلسطينيين في هذا السفر إنما كان استخداما للتسمية الشائعة عندما وضعت التوراة (بين القرنين العاشر والخامس ق.م) ليس مقنعا تماما لأن تدوينها الفعلي بدأ بعد ذلك بعدة قرون عندما لم يكن لبني فلسطين مرة أخرى وجود سياسي.*

ولكن المسألة ليست بهذه البساطة. فاذا لم يأت بنو فلسطين من كريت، فهل جاؤوا من مكان خارجي آخر أم أنهم كانوا موجودين في البلد قبل وقت طويل من دخول بني اسرائيل فلسطين كما يقول الدكتور ابراهيم الشريقي في كتابه «أورشليم وأرض كنعان»؟ اننا نعلم أن ممالك المدن الخمس في جنوب الساحل الفلسطيني (وهي غزة وأسدود وعسقلان وعقرون وجت) قد بناها الكنعانيون بين ٢٥٠٠ـ٢٣٠٠ ق.م، فلماذا أصبح اسمها منسوبا الى الفلسطينيين لا الكنعانيين؟ الذي يحسم الموضوع هو طبيعة اللغة التي كان يتحدث بها بنو فلسطين والآلهة التي عبدوها، وهل كانت كنعانية الأصل أم لا. ولا نعرف شيئا عن لغة بني فلسطين، ولكننا نعرف الآن من مكتشفات وحفريات ايبلا في شمالي سوريا (وسنتحدث عنها فيما بعد) في منتصف السبعينات ان إلههم داغان كان معبوداً في ايبلا (التي كانت لغتها سامية) في الألف الثالث قبل الميلاد. وهذا يبين انتساباً قويا الى الثقافة السامية أو محاولة الانتساب اليها.

أما حضارة الكنعانيين فمعروفة وغنية عن الذكر مادياً وروحيا. ويكفي أن نشير الى ملكي صادق الذي كان من رواد التوحيد في التوراة، والى أن حلم يغآل يادين الأكبر حتى وفاته كان أن يعثر على مكتبة حاصور، عاصمة ملوك الكنعانيين التي دمرها يشوع عند غزوه لفلسطين والتي كان يادين يعتقد أنها تفوق في محفوظاتها مملكة إيبلا المذكورة أدناه. وعثر يادين على طرف الخيط عند اكتشافه رسائل من ملوك حاصور الى مصر جاء ذكرها في آثار بلاد الرافدين، وعند عثوره على معجم سومري ـ أكادي ووثيقة قانونية في قصر يعود الى الفترة بين القرنين ١٨ـ١٤ق.م.(١٢) وكان يادين يتوقع اكتشاف المكتبة خلال سنتين، ولكنه توفي قبل ذلك.

آثار الاسينيين والعبرانيين

رغم كثرة الأموال والمتطوعين في الحفريات الاسرائيلية، من المدهش قلة الكتابات والمخطوطات التي اكتشفوها في مملكتي اسرائيل ويهوذا،فنحن لانعرف منهاسوى رسائل ومذكرات باركوخبا (قائد ثورة ١٣٥ ـ ١٣٢ ق.م) ونحو مائة كتابة على جرار الفخار في عراد الاسرائيلية، وكانت معظم الكتابات العبرية التي عثروا عليها تعود الى أيام الأنبياء، ولكنهم وجدوها في سيناء نفسها وتعذر عليهم حلها حتى الآن. أما مخطوطات البحر الميت فقد عثر عليها العرب (الرعاة أو البدو منهم)، حتى أن يادين عثر على أهم مخطوطات البحر الميت من اعلان عن بيعها في جريدة أمريكية، بل ان

---

* المرجح حاليا أن العصر البرونزي المتوسط كان يمتد في فلسطين حتى عام ١٥٥٠ ق.م. وأن بني فلسطين كانوا موجودين هناك بين القرنين ١٧ و ١٥ ق.م (أنظر مجلة الآثار التورانية، واشنطن، صيف عام ١٩٨٢).

(١٢) مجلة ديسكفر ، نيويورك، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨١.

رسالة الماجستير التي قدمها يادين الى الجامعة العبرية كان موضوعها «الكتابات العربية غير المنشورة في فلسطين»، وربما ساعدت قلة الكتابات العبرية (المنشورة أو غير المنشورة) على اختيار هذا الموضوع! أما موضوع رسالته في الدكتوراة فكان ثلاثة مخطوطات من البحر الميت اشتراها أبوه من تاجر للعاديات في بيت لحم عام ١٩٤٧.

وفي عام ١٩٥٤ عثر يادين بعد استقصاء طويل على أربعة أخرى من مخطوطات البحر الميت من اعلان نشرته جريدة وول ستريت جورنال الأمريكية عند وجوده بالصدفة في نيويورك. والحقيقة أن جميع مخطوطات البحر الميت وجدها الأردنيون في الطرف الشمالي من البحر الميت في دير قمران. وزاد من استياء اسرائيل علمها عام ١٩٥٩ أن البدو كانوا يتسللون عبر الحدود ليبحثوا في الكهوف الموجودة داخل اسرائيل ذاتها. فقام علماء الآثار الاسرائيليون بحفريات مضادة وجدوا خلالها رسائل بار كوخبا السابقة الذكر. ومع أنهم بعد ذلك جندوا حوالي ألفي متطوع وفدوا من ٢٨ بلدا للتنقيب في قلعة مسادة، فانهم لم يجدوا فيها أية كتابات ذات شأن.

ومرة أخرى، وبعد استقصاء طويل، دفع يادين حكومة اسرائيل الى أن تشتري أهم مخطوطات البحر الميت على الاطلاق، وهو «مخطوط المعبد» لقاء مائة ألف دولار فقط لتاجر عربي للعاديات في بيت لحم. وفي هذا المخطوط الذي يبلغ طوله نحو عشرة أمتار، يتحدث الأسينيون ببصيرتهم النافذة عن مجتمع مثالي في المستقبل بعد أن ينتصر أبناء النور على أبناء الظلام، ويتنبأون فيه بتشييد معبد في القدس بعد تطهيرها. وهناك الآن حفريات في مواقع عديدة من أهمها بعثة التنقيب في أوفيل عند الناحية الجنوبية الغربية من الحرم الشريف مباشرة بقيادة يغآل شيلوه منذ ١٩٧٨. وتتراكم في هذا الموقع آثار ٢٢ بلدة بنيت فوق بعضهاالبعض،منها مدينة كنعانية يقال أنها تعود الى القرن ١٣ ـ ١٤ ق.م ثم مبنى حجري ضخم يرجع الى أيام داود وسليمان لم تعرف بعد طبيعة وظيفته، ثم آثار هللينية ارتفاعها نحو ١٥ مترا. وتبين الآثار أن هذا الموقع ظل مسكونا باستمرار منذ ستة آلاف سنة رغم ضآلة مساحته. ومرة أخرى ورغم ضخامة عدد المتطوعين في هذا الموقع لم يعثر فيه على أية كتابات أو نقوش تذكر. والضجة الدعائية الهائلة للحفريات بحثاً عن «مدينة داود» في هذه المنطقة لم تتمخض سوى عن أكوام من المباني الفجة.

ويجري حاليا البحث في أكثر من موقع عن «تابوت العهد» الذي استولى عليه الفلسطينيون في معركة «أفيق»، وهو الألواح التي يقال أن الله أنزل بها الوصايا العشر على موسى في سيناء. ولم ينته البحث حتى الآن الى شيء. وبغض النظر عن الكتابات، فان قيمة الآثار الفنية التي وجـدها العلماء الاسرائيليون متواضعة جدا اذا قورنت فنيا وحضاريا بالآثار المصرية أو الفينيقية أو حتى الكنعانية. ورغم شدة تركيز البعثات الاسرائيلية على الآثار الفنية فان أجمل المكتشف منها غير عبراني. ويفسر البعض ذلك بأن الشريعة اليهودية تحرم الفنون التشكيلية. ولكن هذا القول لا يفسر تفوق الكنعانيين وحتى المسلمين (الذين تحرم شريعتهم التصوير) في المعمار والزخرفة. ولعل هذا سبب الهذيان الذي أصاب القوميين اليهود بعد اكتشاف محفوظات ايبلا في منتصف السبعينات. وكنت محظوظا عندما زرت هذا الموقع في يوم لاهب من صيف ١٩٧٥ عندما عثروا فيه على أهم هذه المخطوطات. وعندما

نشرت مقالة عن هذه المكتشفات التي غيَّرت تاريخ الشرق الأوسط القديم في جريدة الأهرام القاهرية يوم ١٩٧٥/١١/٤، لم أكن أتصور أن ايبلا ستكون موضع معركة سياسية دولية يبلغ فيها الأمر حد الاغتيال.

معركة عالمية حول ألواح ايبلا

أقول «معركة» لأن اكتشاف أكثر من ١٧ ألف لوحة قيّمة في هذه المدينة القديمة القريبة من تل مرديخ في شمال سوريا لا يقل أهمية في رأي العلماء عن اكتشاف مخطوطات البحر الميت، خصوصا وأن هذا العدد يبلغ أربعة أضعاف اللوحات المكتشفة في بلاد الشام حتى الآن. وكثير منها يتناول التاريخ والدين والأدب في لوحات فخارية عثروا عليها في محفوظات القصر الملكي وتعود الى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، وهي فترة مجهولة تماما من تاريخنا، وبالتالي أعادت كتابة التاريخ القديم للأرض المقدسة، وبذلك أثارت معارك سياسية ودينية وتاريخية مستعرة اشتركت فيها اسرائيل والفاتيكان والولايات المتحدة وأيضا سوريا والعراق، حتى قبل حل كتابة ايبلا.

مثال ذلك ما قدمه ميشيل داود العميد السابق للمعهد البابوي للدراسات الشرقية في روما من أمثلة درامية على الآثار «الناسفة» التي أحدثتها حفريات ايبلا وألهبت مشاعر العرب واسرائيل والغرب المسيحي على السواء:

١ - في عام ٢٣٠٠ ق.م تذكر لوحات ايبلا أسماء شخصيات قديمة مثل أبرامو (ابراهيم) وساؤلو (شاؤول) وداوودو (داود). وهذا يخالف «التقديرات التورانية التي تقول أن سيدنا ابراهيم هاجر من أور نحو عام ١٨٠٥ ق.م، ويرجح رأي علماء المسلمين الذين نادوا دائما بأن رحلة سيدنا ابراهيم من أور كانت نحو ٢٤٠٠ ق.م.». (١٣)

٢ - الألواح المكتشفة تشير الى أن مدينة أور «القريبة» التي جاء منها ابراهيم مدينة سورية. يؤيد هذه النظرية أن سفر التثنية في التوراة وصف ابراهيم بأنه «آرامي جوال» وأن ابنه يعقوب سوري (على نقيض سفر التكوين الذي يقول أن ابراهيم «من أور الكلدانية» في جنوب العراق)*.

٣ - تشير اللوحات الى مدن في السهل مثل سدوم وعمورة، كما تشير الى بلدان لم يرد ذكرها الا في القرآن الكريم وهي إرم وثمود وعاد (١٤).

٤ - اتضح أن بيروت ودمشق وغزة أقدم كثيرا مما كان مظنونا، فقد ظهر أنها كانت موجودة في أيام مملكة ايبلا أي في الألف الثالث قبل الميلاد، بينما كان الرأي السائد هو أنها ظهرت بعد ذلك بكثير.

٥ - رغم أن أهل ايبلا عبدوا آلهة كثيرة (حوالي ٥٠٠) فقد تحولوا تدريجيا الى التوحيد وكان لهم اله

---

(١٣) مجلة ناشونال جيوغرافيك، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٨.

* يرفض المؤرخ الفلسطيني مصطفى مراد الدباغ اعتبار سيدنا ابراهيم آراميا «لأن الآراميين أخذوا ينزلون مشارف الجزيرة العربية بعد أيام هذا النبي بنحو ثلاثة قرون» (أنظر كتابه «بلادنا فلسطين»، ص ٤١٤).

(١٤) نفس المرجع.

يعبدونه في المعبد الرئيسي وهو الخالق الأعلى واسمه «ايل» و «يا». والكلمة الأولى تذكرنا باسم الله في العبرية (ايل) الذي جاء في الأسفار الأولى للتوراة ثم تحول في سفر الخروج الى اسم يهوه (الذي يذكرنا بالاسم الثاني «يا»). والكلمتان معا (يا إيل) اسم شائع بين اليهود مثلما أن عكس ترتيبه (ايل - يا) يذكرنا باسم ايليا الشائع بين مصر والشام وباسم القدس القديم (ايلياء) عندما فتحها عمر. وتحمل لوحات ايبلا أسماء مثل ميكائيل ومعناه «من مثل الله» أو «ليس كمثله شيء».

٦ - يقول الأب داود في مقدمة كتاب «محفوظات ايبلا» الذي نشره بالانجليزية في ١٩٨١ جيوفاني بتيناتو الذي كان مختصا بتفسير الكتابة تحت قيادة باولو ماتيه الذي رأس البعثة الايطالية في ايبلا منذ عام ١٩٦٤، أن المكتشفات أكدت شكوك العلماء في «أنه ليس في جميع أسفار العهد القديم سفر واحد كان موضع التحديث» بدليل أن حوالي ربع الكلمات العبرية الواردة في التوراة مذكورة مرة واحدة، وظلت تحير مترجميها. والعثور على ٧٠ كلمة منها في ايبلا يؤكد عدم دقة ترجمتها في التوراة من لغاتها الأصلية».

استنتج الاسرائيليون والقوميون اليهود من تصريحات الأب داود «أن سكان مملكة ايبلا كانوا أسلاف بني اسرائيل» وأن كل الأحداث التاريخية التي تذكرها التوراة تجعلهم أوصياء على كل البلدان التي حدثت فيها. والنموذج التقليدي لهم هو موشيه ديان الذي قال: «اذا كنا نملك الكتاب المقدس فيجب ان تكون جميع الأراضي التوراتية لنا».

هذا الموقف عموما نموذج للرؤية التوراتية التي تتحول الى «دين قبلي ضيق متعصب غير نابع من ايمان» على حد تعبير الفيلسوف الفرنسي روجيه (رجاء) غارودي، وانما عن احتكار للتاريخ. وعلى أساس هذا المنطق لماذا لا يحق لديان مثلا أن يضم أرض غاسان في دلتا مصر أو أرض الكلدانيين لأن اليهود جاءوا منها وحتى جبال أرارات لمجرد أنها وردت في التوراة؟!

لكن حيث أن المنطق لا يفلح مع عامل المغالاة في العقل القومي اليهودي فلا عجب من ضراوة حملة أنصار اسرائيل في المطالبة بنشر كل اللوحات المتعلقة بالتوراة، وكأن اسرائيل نشرت كل مخطوطات البحر الميت!* ثم ان السوريين لو استخدموا المنطق الصهيوني لكانوا أولى من الاسرائيليين بأن يطالبوا بأرض فلسطين بوصفهم أسبق ذكرا في التوراة من بني اسرائيل، ولكان من حق الفلسطينيين المطالبة بايبلا التي كانت تعبد داغان اله الفلسطينيين القدامى قبل نزولهم أرض فلسطين بأكثر من ألف عام.

وانصافا للحقيقة هناك سبب لا شعوري آخر غير عنصر المغالاة يدفع أنصار اسرائيل الى احتكار ايبلا، وهو في رأي الفيلسوف هيغل «عدم اعتراف بني اسرائيل بوجود دين يوحد الله قبل ظهور سيدنا ابراهيم»(١٥).

---

* تأخر كثيرا نشر مخطوطات اكتشفها اسرائيلي من مسادة، وكذلك رسائل بن كوخبا وبردية وادي دالية (الكرمل؟). كما ترفض اسرائيل اطلاع العلماء على اصول المخطوطات المكتشفة والموجودة في قبو حديدي من كليرمونت بولاية كاليفورنيا الامريكية الا باذن نادر. وقد وصفت مجلة الاثار التوراتية هذه التصرفات بأنها «فاضحة». (عدد ايلول/ سبتمبر ١٩٨٥).

(١٥) هيغل. المرجع السابق.

والمفارقة العجيبة هي أنه كلما كشفت كتب التاريخ والحفريات أن جيران اسرائيل كانوا أسبق منها في الحضارة، ازدادت اصرارا على حقها في احتكار الأراضي التوراتية، وبالتالي ازدادت هوسا بالآثار الى حد محاولة ارسال سواح للسطو على آثار ايبلا.

وللوهلة الأولى يفترض المرء أن هوس اسرائيل بالتنقيب جزء من ظاهرة عالمية هي بحث الأقليات العرقية عن جذورها كما فعل اليكس هيلي حين استقصى في كتابه «جذور» منشأه الافريقي في السنغال وتبعه الأمريكيون البيض وراحوا يكلفون وكالات متخصصة في البحث عن «شجرة العائلة»، أوكما فعل الفرنسي ماريك هالتر في روايته «سفر ابراهيم» التي تقصى فيها جذوره الفرنسية حتى هدم الهيكل الثاني في القدس عام ٧٠ ميلادية(١٦).

ولكن هذا التقصي ميئوس منه تقريبا في حالة معظم الاسرائيليين الأشكناز لأن اسلافهم غالبا ما كانوا مسيحيين أو وثنيين متهودين حول بحر الخزر. مشكلة أخرى هي أن فلسطين لم تكن يهودية خالصة أصلا، وهكذا يشير الصحفي البريطاني والتر شوارتز عندما كان يعمل في اسرائيل عام ١٩٧١ الى يهودي يعجب من أنه «كلما حفر في أعماق حديقة منزله لم يجد غير آثار عربية!».

وعدوى التنقيب عن الآثار في اسرائيل بين غير المتخصصين لا نظير لها في أية دولة أخرى. وبفضل ذلك سطا موشيه دايان على مسلات فرعونية كاملة (رغم اعترافه أنه لا يفقه في الآثار وانما يتخذها هواية للترويح والتواصل مع الماضي) حتى قيل إنه خسر سمعته ومات بسببها «للمرة الثالثة» بعد موته المعنوي الأول في هزيمة حرب ١٩٧٣.

ولماذا كل هذه المغالاة في تقصي جذور لا وجود لها غالبا؟ هل لأن «جميع هؤلاء الأثريين الهواة» كما تقول صحيفة أمريكية «يبحثون عن سند قاطع لاحتلال الأرض المقدسة»(١٧)، أم لأن ولعهم بالتنقيب ضرب من العلاج النفسي؟ أخبرني الصحفي البريطاني دافيد هيرست أن عقدة الذنب ربما تفسر هذه الهواية. فهم ظاهرا يبحثون في بطن الأرض عما يؤكد حقهم في أرض الميعاد، مع هدف لا شعوري آخر هو البحث عن مبرر أخلاقي لقضائهم على عرب فلسطين .

وسواء أكان هذا أو ذاك، فان بني اسرائيل لم يتركوا في فلسطين تراثا قومياً يذكر، وأعظم ما قدمه اليهود عملا للحضارة العالمية كان خارج فلسطين، وعلى يد يهود «خارجين على التقاليد اليهودية»(١٨) مثل المسيح وماركس وسبينوزا وبرغسون وفرويد وهاينريش هايني، وحتى هرتزل الملحد وابن ميمون الذي أسلم. كما ان التلمود البابلي الموضوع خلال السبي البابلي أشمل وأعمق كثيرا من التلمود الفلسطيني.

وما دام اليهود كما يقول باتاي «لم يحققوا عظمتهم كمبدعين في الحركة الفكرية المعاصرة إلا داخل الثقافات الأممية» فخير لهم أن يبقوا خارج فلسطين خدمة للانسانية ولأنفسهم.

---

(١٦) ماريك هالتر، سفر ابراهيم، هنري هولت، نيويورك، ١٩٨٣.

(١٧) نيويورك تايمز، ١٩٨٥/٣/٣١.

(١٨) باتاي. المرجع السابق، ص ٣٢٨.

الفصل السابع

الاصول والمصالح المشتركة بين اللاسامية والصهيونية

«الصهيونية قديمة قدم اللاسامية، واللاسامية قديمة قدم الصهيونية»..

الكاتب الاسرائيلي عموس الون في كتاب
«الاسرائيليون: المؤسسون والابناء»

«اليهودية واللاسامية رفيقتان لا تنفصلان مدى التاريخ عبر القرون»

المنظّر الصهيوني ليوبنسكر

وكيف انفردت بتقريبهم وهم في البلاد من المبعدين
فصارت حوائجنا عنده ونحن على بابه قائمون
ويضحك منا ومن ديننا فإنّا إلى ربنا راجعون

(من قصيدة لابي اسحق الالبيري الاندلسي
شكا فيها لصاحب غرناطة باديس بن حبوس
من يهود غرناطة عندما قرب زعيمهم اليه)

«في الماضي كان اليهود يقسمون العالم الى يهود واغيار، أما الآن فان أنصار اسرائيل يقسمون العالم الى صهيونيين ولاساميين» .

الكاتب الاسرائيلي ميرون بنفنستي

اذا أردنا أن نعرف لماذا تُحرق بعض المعابد اليهودية في نيويورك، أو تُنسف بالقنابل اليدوية في بغداد، ولماذا يطعن حاخام طنجة بالخناجر، وترسم شارات الصليب المعقوف في لندن وبرلين، ويحرق ملجأ للعجزة اليهود في شتوتغارت، يجب علينا أن نعود الى الأصول النظرية للاسامية التي أرساها مفكرو الصهيونية، ثم نتابع تطبيقاتها بعد ذلك.

* * *

يخطيء من يظن أن الصهيونية كانت وليدة المحن اليهودية أساسا، فقد ظهرت الصهيونية نظريا في أكثر العهود الأوروبية تسامحا، ثم ظهرت عمليا كدولة على أرض أكثر الشعوب الآسيوية تسامحا أيضا: فلسطين.

نظريا.. ظهرت الصهيونية في فترة ذهبية نادرة من التسامح القومي الذي شاع عقب الثورات القومية الأوروبية منذ عام ١٨٤٠ . وكانت هذه الثورات وليدة الثورة الصناعية التي حولت المجتمعات من العقلية الاقطاعية الزراعية والطائفية العنصرية والدينية الى الوطنية القومية التي تفتح صدرها لكل الطوائف والأديان التي تقيم في وطن واحد موحد المصير والمصالح هو الدولة ـ الأمة. بهذه الطريقة

انصهرت أو تعايشت كل الجنسيات والأديان داخل حركات التوحيد القومي في المانيا وايطاليا والولايات المتحدة، ثم يوغوسلافيا والاتحاد السوفياتي وتشيكوسلوفاكيا وغيرها.

لم يشذ عن هذه القاعدة غير القوميين اليهود تقريبا. فقد ظلوا في معظم البلدان على تقوقعهم الطائفي ولم يندمجوا تماما الا في بلاد تعد على الأصابع مثل يوغوسلافيا والمجر لغياب التنظيمات السياسية القومية فيهما. ثم تعقد الأمر كثيرا بظهور اسرائيل، فتحول كثير من يهود العالم من موقف «اللامنتمي داخليا» الى «المنتمي خارجيا» أي أنهم صاروا يدينون بالولاء لاسرائيل بعد أن كانوا يكتفون بعدم الولاء للدول التي يعيشون فيها.

كيف بدأ التفكير الصهيوني السياسي الحديث يتبلور، ولماذا؟ وهل كان مرجع ذلك الى خوف الصهيونيين من أن يؤدي التحرر القومي والتقدم التكنولوجي العالمي الى ذوبان اليهود وانقراضهم نهائيا كثقافة وطائفة؟

هل الاندماج «خيانة»؟

عندما اجتمع ثلاثمائة من شيوخ صهيون في المؤتمر الصهيوني الأول في بازل عام ١٨٩٧ برئاسة هرتزل وماكس نورداو، كانت ملايين اليهود الألمان والبولنديين والروس (رغم المذابح القصيرة المتقطعة) تعيش حياة متزايدة الحرية والرخاء حتى بداية الحرب العالمية الأولى، بحيث أنه لم يكن ثمة نذير واحد على المأساة التي ستحدث في المانيا ثم في فلسطين.

لكن الصهيونيين وحدهم ربما كانوا يعرفون ما سيحدث..

كشف المفكر اليهودي يعقوب آغوس في كتابه «معنى التاريخ اليهودي» عن حقيقة غريبة هي أن هناك ترابطا عكسياً بين تزايد تحرر المجتمع ومدى حرص الصهيونيين على عدم الاندماج فيه، عندما قال:

«لقد بعث ظهور القوميات الأوروبية في القرن الماضي روحا جديدة من التوكيد العنصري بين يهود الغرب»[1].

والأدلة على قول آغوس كثيرة..

* ففي المانيا مثلا، ذكر هانز كوهين في كتابه «الحياة وسط ثورة عالمية» أن ظهور القومية الألمانية جعل تفكير اليهود يسلك اتجاها غير متوقع، «فقد حولوا دلالة الشعور القومي ـ كما يقول كوهين ـ من الألمانية الى اليهودية». وكوهين هذا كان قوميا يهوديا ذات يوم، وكان أصحابه الصهيونيون القوميون يقولون له: «من كان يهودي النسب والثقافة تعذر عليه أن يكون هولنديا أو المانيا أو ايطاليا أو فرنسيا مخلصا. ولهذا لا بد أن يظل غريبا عن أي مكان الا أرض أجداده».

---

(١) الاقتباسات الواردة في الصفحتين التاليتين مأخوذة من دراسة ماتوفو، المرجع السابق.

* وفي انجلترا، كتبت لورى ماغوس عام ١٩٠٢ تقول في كتابها «أوجه المسألة اليهودية»:

«الصهيونيون شركاء في قيام الحركة اللاسامية التي يستنكرونها. والا فكيف ترضى دول أوروبا بيهود يتبرأون منها؟ ثم ما الذي يدعوها الى مساواتهم في الحقوق المدنية وهم أول المطالبين باخلاء طرفهم من المجتمع واعتبارهم زوارا أجانب؟».

* وفي فرنسا حدث نفس الشيء تقريبا. ففي عام ١٩٠٦ قال سيمون دوبنوف المؤرخ الصهيوني المشهور في مؤلفه الضخم «تاريخ الشعب اليهودي»:

«الاندماج خيانة عامة للشعب اليهودي». ثم يضيف في مكان آخر: «حتى لو ولد اليهودي في فرنسا وقضى كل عمره فيها فهل معنى ذلك أنه صار فرنسيا يهودي الديانة؟ كلا مطلقا، فسواء شاء أم لم يشأ، عرف أم لم يعرف، فسيظل ابن الأمة اليهودية الحامل لوسم نشوئها عبر التاريخ».

والحق أن المرء ليحار حتى الغيظ في هذه العنجهية الحاقدة. فهذا صهيوني أوروبي أبيض أشقر، لم يعرف أجداده ـ ولا حتى أجداد أجداده ـ أرض فلسطين قط، ومع ذلك يربط نفسه بها حتى الأبد بصورة أسطورية عنصرية، بينما نجد الفرنسي الكاثوليكي القح مثلا ينسى بلاده بعد جيل أو جيلين من هجرته الى أمريكا ويعتبر نفسه مواطنا أمريكيا لا يتلقى تعليماته من الفاتيكان.

ومن الغريب أن أغلب المقاومين لمبدأ اندماج اليهود في الدول الأوروبية لم يكونوا من اليهود المتدينين، بل من الصهاينة العلمانيين، فمعظم اليهود المتدينين في غرب أوروبا (خصوصا المانيا) كانوا منذ نهاية القرن الماضي يحاولون اصلاح الدين اليهودي للتعجيل بتحرير اليهود ودمجهم، ولكن بعض الصهيونيين الزاهدين في الدين (خصوصا في شرق أوروبا ووسطها) حاربوا هذا الاندماج ونادوا بنظرية «الخلاص اليهودي داخل دولة يهودية».

وفي بداية الأمر كان صهاينة النصف الأخير من القرن الماضي يعبرون عن الأشواق الدينية التقليدية لأرض الميعاد في قالب فلسفي وعلماني. ولكن سرعان ما اتخذت كتابات خلفائهم في عشرينات وثلاثينيات القرن الحالي قالبا قوميا سياسيا عمليا. وبينما كان المتدينون الأوائل يحلمون فحسب بالعودة الى فلسطين، صار صهيونيو القرن العشرين يشرطون هذه العودة بانشاء دولة يهودية خاصة بهم. وكان هذا يستلزم طبعا تقويض المجتمعات اليهودية القائمة خارج فلسطين كي تضطر الى الهجرة.

وبرر ليوبنسكر هذا الحل الوحشي في كتابه « الانعتـــــاق» عام ١٨٨٢ بقوله: «ان جوهر المسألة هو أن اليهود عنصر متميز متجانس داخل الأمم التي يعيشون وسطها. ولذلك يتعذر عليهم الاندماج والانتماء، بقدر ما يتعذر على أية أمة أن تهضمهم. فاليهودية واللاسامية ظلتا رفيقتين لا تنفصلان على مدى التاريخ عبر القرون».

ولكن من السذاجة الادعاء بأن القوميين اليهود مسؤولون وحدهم عن خلق اللاسامية. صحيح أن الانفصال اليهودي كان دينيا في البداية وعندما ضعفت المشاعر الدينية صار سياسيا ـ قوميا. وصحيح أن الصهيونية السياسية قديمة قدم اللاسامية، مثلما أن اللاسامية قديمة قدم الصهيونية

السياسية، كما يقول الكاتب الاسرائيلي عموس الون[٢]. ولكن هذا يضعنا مرة أخرى أمام حلقة مفرغة يتعذر معها معرفة المسيء من البريء. فمن الواضح أن عدم الانتماء ليس كافيا لاضطهاد الأقليات (خذ الغجر مثلا أو الأرمن)، وبالتالي هناك أسباب أخرى غير الانفصال الطائفي تعلل معاناة اليهود عبر القرون أكثر من غيرهم، كما أن عدم الانتماء لا يفسر ظاهرة أخرى هي اشتداد اللاسامية في الغرب أكثر من الشرق، مع أن تعصب اليهود الشرقيين لا يقل عن تعصب اليهود الغربيين ان لم يكن أكثر، فهل لظهور العلمانية الغربية يد في اشتداد هذا الاضطهاد؟

اللاسامية في المشرق

ربما كان السبب تساهل الشرقيين مع التطرف اليهودي، وقلة تساهل اليهود مع تطرف الغرب المسيحي، والعكس، خصوصا بسبب شدة حساسيتهم للنقد وأخذهم له مأخذا شخصياً.

في الشرق نجا المسلمون نسبيا من النزوات الدينية اليهودية لتسامحهم مع أهل الكتاب عامة، واعترافهم بشريعة موسى. ويضرب لنا الشاعر أبو نواس مثلا طيبا على التسامح مع اللامنتمي اليهودي في المشرق، فيروى أنه نزل بالبصرة في شهر رمضان، فلم يجد سوى خمارة واحدة مفتوحة صاحبها يهودي. ويصف لنا الشاعر العربي ما دار بينهما من حوار:

ولكن يهوديا يحبك ظاهرا	ويضمر في المكنون منه لك الغدرا
فقلت له ما الاسم؟ قال سموأل	ولكنني أكنى بعمرو ولا عمرا
وما شرفتني كنية عربية	ولا أكسبتني لا ثناء ولا فخرا

قد يقال هنا أن توجس أبي نواس من اليهودي ضرب من اللاسامية، ولكن عرب الجاهلية أنفسهم لم يأنفوا من جعل سلفه السموأل ـ وهو يهودي مثله ـ مضرب المثل في الوفاء، فهل يذنب أبو نواس لو عادى اليهود لأن هذا السموأل العباسي يرفض أية كنية عربية ويرفض الانتماء الى بلده؟ ولماذا يؤاخذ الأصمعي مثلا على قوله عن اليهود:

لو كنت سائلهم عن أصل دينهم	فان دينهم أن يقتل العرب

وبعض المتطرفين اليهود يشكلون مفرزة مسلحة لمهاجمة البصرة والقاهرة ودمشق، ويقتلون الحجاج ويلقونهم في بئر زمزم عام ٣١٨ هجرية (الزغبي، ص ١١٨)، ويذبحون أطفال العرب لاستخدام دمهم قربانا بشريا في أعياد دينية مثل عيد الفصح والبوريم؟ ليس من الأكاديمية العلمية تجاهل دور هذه الأحداث في اثارة اللاسامية أو تجاهل كثرة حدوثها لمجرد بشاعتها والاكتفاء بنفي اليهود هذه التهمة عنهم. وهل يتوقع أحد منا لو كنا نحن الفعلة أن نعترف بهذه الأعمال اعترافا انتحاريا؟ ثم ان الشكوى من هذه الظاهرة جاءت من المشرق والمغرب والجنوب وحتى الاتحاد السوفياتي. الكاتب الانجليزي أرنولد ليز مثلا أورد تفاصيل ٥٩ حالة استنزاف لدماء المسيحيين (معظمهم من الأطفال)

---

(٢) عموس ألون، المرجع السابق.

بين عامي ١١٤٤ ـ ١٩٣٢ في بريطانيا وفرنسا واسبانيا وفرنسا والمانيا وايطاليا وبولندا والمجر وسويسرا (كان في الحي اليهودي في برن كما يقول تمثال ليهودي يأكل طفلا). وقد طرد اليهود من انجلترا بسبب ذلك عام ١٢٩٠ ومن اسبانيا عام ١٤٩٢. وبعض هؤلاء الأطفال نصبوا قديسين مثل القديس وليام وسيمون وريتشارد. أما في المشرق فهناك ١١ حالة من هذا القبيل وقعت بين عامي ١٨١٠ و ١٨٤٠ فقط في حلب وحماة وبيروت وانطاكية وطرابلس ورودس وجزيرة كورفو اليونانية وأورد تفاصيلها عبد الله التل في كتابه «خطر اليهودية العالمية على الاسلام والمسيحية» وأشهرها ذبح الأب توما الكبوشي في دمشق عام ١٨٤٠. وقد جاء السير موسى مونتفيوري الى دمشق خصيصا لمعاينة نصب تذكاري موجود حتى الآن في كنيسة اللاتين بحي باب توما (الذي يبدو أنه سمي باسمه) وهو مكتوب بالايطالية والعربية ولكنه يتهم اليهود بذبحهم له في النص العربي وحده (وأسلوبه ركيك يبدو أن كاتبه أجنبي وربما ايطالي). وضغط مونتيفوري بعد ذلك على حكومات فرنسا وانجلترا والفاتيكان لازالته من الكنيسة منذ منتصف القرن الماضي ولم ينجح. وقصة هذه المحاولة موجودة في لوحة بالفرنسية بجانب النصب وهي مأخوذة من كتاب لمؤلف يهودي فرنسي.

هل أستفزهم العرب الى ذلك؟

بعض المؤرخين اليهود يشكون من إكراههم في الدين. أبو الفرج إبن العبري مثلا يشكو في كتابه «مختصر تاريخ الدول» الصادر في بيروت عام ١٨٩٠ أن الخليفة المهدي العباسي أرغم خمسة آلاف غير مسلم على الاسلام (ص ٤٤١). ولا منس يشكو في كتابه «مختصر تاريخ سورية» (الجزء الثالث، ص ٤٥) أن المتوكل العباسي أمر بذبح كل يهودي لا ينتعل بابوجا (شبشباً) أصفر. وربما كان هذا صحيحا. ولكنه لا يفسر استمرار انفراد اليهود بالتطرف في رد الفعل دون سائر الأقليات الأخرى التي اكرهت في دينها. فالنصارى لقوا من عنف بعض غلاة الحكام العرب أكثر مما لقيه اليهود، ومع ذلك ظلوا اقرب الى المسلمين منهم الى اليهود، حتى أنهم اشترطوا على الخليفة عمر بن الخطاب قبل تسليم القدس له ألا يسمح لليهود بالسكن فيها. وحتى بعد أن أحرق حاكم معروف بهوسه هو الآمر بالله (الحاكم بأمر الله) كنيسة القيامة كما جاء في الموسوعة الفلسطينية (المجلد الثالث، ص ٥١٢) وجر علينا الحملات الصليبية، ظلت مفاتيح كنيسة القيامة وغيرها عهدة في يد عائلة نسيبة المسلمة حتى الآن بطلب من الطوائف المسيحية باعتبار أن الحاكم بالله كان استثناء لا قاعدة، وأنه نكل بجميع الطوائف دون استثناء.

وعلى العكس من ذلك نلاحظ نزوع العقل القومي اليهودي الى التعصب حتى في أكثر فترات التاريخ العربي تسامحا. وفي التراث العربي واقعتان نموذجيتان دراميتان حدثتا في الأندلس وتبينان أن رد الفعل العربي اللاسامي كان عارضا ولا يعرف أسلوب العين بالسن على أي حال.

قرب باديس بن حبوس أمير غرناطة اليه شاعرا يهوديا مجيدا هو يوسف بن نغريله*، وجعله في

* كان من عادة اليهود أن يتخذوا اسمين، اسم يعرفون به فيما بينهم وآخر بين غيرهم، وكان اسم ابن نغريلة بين اليهود شموئيل هنا جيد. والواقعتان منقولتان من كتاب «اليهود في الأندلس» للدكتور محمد بحر عبد المجيد نقلا عن «الاحاطة في اخبار غرناطة» للوزير لسان الدين إبن الخطيب، القاهرة، ١٩٥٥، المجلد الأول، صفحة ٤٤٦، وما بعدها.

نهاية أيامه مسؤولا عن الجيش. فعين الأخير عدة يهود في مناصب حكومية عالية ثم ألف كتابا يطعن في الاسلام (رد عليه ابن حزم في مصنفه «الرد على ابن نغريلة اليهودي» وحققه د. احسان عباس عام ١٩٦٠). واحتج المسلمون على حبوس ولكن الأخير لم يتخلص منه الا بعد أن اكتشف أن ابن نغريلة اتصل سرا بغريمه ابن صمادح بالمرية للتخلص من ولي نعمته، فقتله باديس وصلبه على نهر سنجل.

رثى يهوسف نجل ابن نغريلة أباه بقصيدة جارحة قال فيها:

ان يكن قتلكم له دون ذنب	قد قتلنا من قبل ذاك المسيحا
ونبيا من هاشم قد سممنا	خر من أكلة الذراع طريحا

اشارة الى ذراع الشاة التي دست فيها اليهودية زينب بنت الحارث السم للنبي عندما أولمت له بعد مقتل زوجها سلام بن مشكم الذي قاد اليهود في معركة خيبر ضد المسلمين. وتجاهل بن حبوس القصيدة ورأف به فاستوزره بعد أبيه وأعطاه سلطات واسعة شغلته عن الامارة. واستغل يهوسف (يوسف) هذا وسامته في استخدام النساء عيونا له على باديس والتحكم فيه، ثم بالغ في منح الامتيازات لليهود مثل تخفيف الضرائب عنهم وتفضيلهم في الوظائف العامة حتى ضاق أهل غرناطة بهذا التمييز وبه، فثاروا عليه وقتلوه في قصره عام ١٠٦٦ ميلادية. وامتدت الثورة الى كل حارة اليهود فقتل بعضهم وهرب الباقون، وكانت تلك نهاية باديس بن حبوس أيضا.

ورغم أن اسرائيل لا تمنح عربيا فيها مثل هذه الحظوة والمنصب، فان انصارها يشككون في تسامح العرب والمسلمين مع اليهود قبل ظهور اسرائيل، مركزين مثلا على الصدام الدموي بين العرب واليهود المتطرفين في القدس أيام الصليبيين، أو على قتل العرب لليهود في الخليل عام ١٩٢٩ (خلال ثورة البراق عندما ادعى اليهود ملكية حائط المبكى (البراق)، باعتبار ان هذه الحوادث هي القاعدة لا الاستثناء. لكن الصحفية البريطانية اليهودية ماريون وولفسون تقول في كتابها «أنبياء في بابل» بعد استعراض تاريخ اليهود في بابل واليمن واسبانيا والمغرب والعهد العثماني في العراق وسوريا ومصر وفلسطين انه رغم اسا ءة العرب معاملة اليهود او اضطهادهم احيانا فان حظهم لم يكن أسوأ من أية اقلية اخرى، بل انهم كثيرا ما كانت لهم حظوة واحترام لدى المسلمين والمسيحيين على السواء بوصفهم «أهل الكتاب».

أما في الغرب فكان التوجس متبادلا منذ البداية بسبب الحزازات الدينية (انكار اليهود للمسيحية بدعوى أن سيدنا عيسى ليس المسيح المنتظر، وتحميل المسيحيين لليهود مسؤولية قتله). وزاد الطين بلة أن الضحايا البشرية التي كان المتعصبون اليهود يمتصون دماءها كي يعجنوا بها فطيرة عيد الفصح كانت كلها تقريبا من الأطفال النصارى حتى في الدول الشرقية والاسلامية. وقد ظل العرب المسيحيون (والمسلمون منهم أحيانا) حتى الستينات يمنعون أولادهم من الاقتراب من حارات اليهود كلما شارف عيد الفسح اليهودي. ومع أن التلمود، وهو الموحي بهذه المذابح، كان يحض على التنكيل بكل الأغيار فانه خص المسيحيين بالذات، وتفسير ذلك تاريخيا هو أن العداء اليهودي ـ المسيحي العنيف في صدر المسيحية سبق مباشرة تدوين معظم التلمود. ولهذا لا نرى في التلمود إشارات كثيرة الى المسلمين بالذات بينما نجد فيه تحريضا على التنكيل بالمسيحيين ثماني مرات على الأقل مثل: «قتل المسيحي من

الأمور الواجب تنفيذها» و «الجحيم مأوى كل الأغيار وفي مقدمتهم المسيحيون» و «كل مسيحي عدو ليهوه ولليهود». وعندما دارت المعارك بين المسلمين واليهود في صدر الاسلام في يثرب وغيرها كان تأليف التلمود قد انتهى تقريبا.*

لكن هذا كله كان أيام زمان، فقد طرأت على اللاسامية خصوصا في الغرب أسباب جديدة غير معهودة سنتناولها مع العوامل التقليدية بالتفصيل.

أسباب اللاسامية وأشكالها المعاصرة

يرجع القوميون اليهود اللاسامية الى أربعة أسباب رئيسية هي عدم الانتماء، النجاح غير الطبيعي، العداء الديني، الانحراف النفسي[٣].

ويضيف فرويد الى ذلك عوامل أخرى لا شعورية منها السخط على اليهود لادعائهم انهم شعب الله المختار، وتميزهم الواضح عمن حولهم الى حد معاملتهم كبش فداء.

أما اليسار اليهودي مثل الكاتبة اليس ويليس، فتذكر أسبابا أخرى منها العنصرية والتميز الطبقي بين اليهود (بحيث أصبح اليهود في أمريكا طبقة مستقلة) وتضامنهم مع السلطة واعتمادهم على حماية الأقوياء.فهي تلاحظ هنا أن اللاسامية تتغذى بتعاسة الانسان والظلم الاجتماعي. وقد كان اليهود دائما موضع نقمة المضطهدين، وكلما تضامنوا مع السلطة واعتمدوا على حماية الأقوياء أعد اليهود أنفسهم لهذا الدور[٤].

ويمكن ان نضيف سببا جديدا نسبيا هو هوس القوميين اليهود بالمحرقة (المقتلة النازية) او الهولوكوست التي سنتعرض لها في الفصلين التاليين. وهذا التركيز المرضي على المقتلة النازية يخدم غرضين هما تخويف الأغيار بابتزازهم، وابعاد اليهود عن الأغيار (وهو الهدف الصهيوني الأول).

وهناك اسباب جديدة اخرى للاسامية في امريكا بالذات منها شدة نفوذ اسرائيل وسلوك الاسرائيليين النازحين اليها، وعلقت لي ذلك صحفية يهودية تعمل بوكالة يونايتدبرس في نيويورك بأنهم «متغطرسون جارحون في تعبيراتهم». هذا بالاضافة الى النفوذ غير العادي للوبي الاسرائيلي هناك، وقد رأى زعيم امريكي يهودي «ان اللاساميين الذين يخلقهم (هذا النفوذ) أكثر من الذين يطفشهم» كما جاء في كتاب إدوارد تيفنان «اللوبي: القوة السياسية اليهودية» (ص ١٦٥). ثم هناك النشاط الملحوظ للمافيا الاسرائيلية في امريكا (في امريكا حاليا من الاسرائيليين كما أسلفنا حوالي المليون في تقدير. اسرائيل شاحاك). ولا ندري هل ندخل موقف يهود امريكا هذا من الاسرائيليين النازحين في عداد اللاسامية ام

---

* هاجم التلمود محمداً «لانه كذاب مثل المسيح» (نقلا عن كتاب الزعبي، صفحة ١٠٠) وادعى أن اسرائيل «دولة بلا جيران، ولها عاصمتان هما مكة وروما» (ص ١٢٦).

(٣) نيويورك تايمز، ٤/٩/١٩٨٤.

(٤) مجلة نيويورك تايمز، العدد الأسبوعي، ٣/ ١٠/١٩٨٢.

لا، فالقوميون اليهود يستثنون عادة من تهمة اللاسامية اي يهودي ينتقد اسرائيل. وحتى لو مضى الى حد انكار شرعية اسرائيل نفسها فانه لا يوصف غالباً باللاسامية وانما بأنه «يهودي يكره ذاته» بل ان بعض الاسرائيليين يقولون جادين انه لا يحق لاي شخص ان ينتقد اسرائيل الا اذا كان يهوديا. وهذا يتضح من ان اليهود كثيرا ما يعترفون باخطاءهم في مجلاتهم العبرية او المقصورة عليهم وينكرونها في صحف الاغيار خشية استغلالها ضدهم.

أما في الاتحاد السوفياتي، ودول أوروبا الشرقية عامة، فقد أدى اشتراك اسرائيل في الحرب الباردة بين الشرق والغرب بحجة السماح لليهود السوفيات بالهجرة الى «تزايد عدد الروس الذين يرون أن اليهودية العالمية عدوة لهم أكثر من الرأسمالية»، كما يقول ناحوم غولدمان في كتابه «المناقضة اليهودية».

قد يتساءل القارىء: وأين دور البناء التحتي، والاقتصادي خاصة، الذي يركز عليه الاشتراكيون في تفسيرهم للمسألة اليهودية وهو أن الدور التقليدي لليهودي في الانتاج كان هامشيا لارتباطه أساسا بالتجارة والربا؟ الحقيقة أن العامل الاقتصادي متداخل في عاملين فقط من العوامل التي ذكرناها (النجاح غير الطبيعي ـ التميز الطبقي لليهود). يضاف الى ذلك، أن العامل الاقتصادي لم يكن عالمي التأثير في ظهور اللاسامية، بدليل أنه لم تكن له أهمية تذكر في المشرق العربي خاصة والآسيوي عامة.

هذا عن الأسباب، فماذا عن الأشكال؟

ان أنصار اسرائيل يشيرون الى تعددها: (١) فهناك لاسامية عفوية غالبا ما تكون شعبية. (٢) وهناك لاسامية المؤسسات(Structured Anti-Semitism)، والمقصود بها أساسا الأمم المتحدة بعد أن أصدرت قرارها المشهور عام ١٩٧٥ بمساواة الصهيونية بالعنصرية. (٣) وهناك لاسامية منظمة تنكر الهولوكوست وتحمل اليهود مسؤولية اضطهادهم. وبذلك صار لاساميا ليس فقط من يتهم اسرائيل بالعنصرية وانما أيضا من ينكر أن النازية قتلت ستة ملايين يهودي، أو من يحمل الصهيونية العالمية تهمة التواطؤ مع النازية في هذه المقتلة حتى لو استنكر فظاعة الهولوكوست.

وبينما يرى بعضهم أن النازية الجديدة هي المصدر الأساسي للاسامية حاليا، يرى ناثان برلميوتر المدير العام السابق لمنظمة عصبة مكافحة التشهير (بناي بريث) «ان اللاسامية الحقيقية في أمريكا هي اليسار الذي ينتقد اسرائيل ويلقى تسامحا خطرا من اليهود المتحررين ويخترع «خرافة» اضطهاد الفلسطينيين كذريعة لمهاجمة اسرائيل والولايات المتحدة»[٥]. (لاحظ هنا ذكاء وضع اسرائيل والولايات المتحدة في معسكر واحد). مع ان العكس صحيح ايضا في رأي الصحفي اليهودي روبرت فريدمان الفائز بجائزة بوليتزر للصحافة لتغطيته اخبار لبنان. فقد قال في مجلة فيلدج فويس (١٢/١١/٨٥) «ان السر الذي لا يفشى به احد في الدوائر اليهودية المتحررة علنا هو مقدار دعمها الهائل لجماعة غوش ايمونيم والحاخام كهانا».

---

(٥) ناثان برلميوتر. اللاسامية الحقيقية، هاربر ورو، ١٩٨٥.

ومع ذلك يستحيل التأكد عمليا من المصالح المشتركة بين اللاسامية والصهيونية الا بدراسة تطور اللاسامية (ودور اسرائيل فيها) في كل من الغرب والدول الاشتراكية الأوروبية لأن موقف العالم الثالث من المسألة سياسي يرجح أية عوامل أخرى (ولذلك لم يشهد أية فظاعات تذكر في حق اليهود)، ولأنه ليس من الانصاف اعتبار العداء بين العالمين العربي والاسلامي (بتعدادهما الذي يتجاوز الألف مليون من ناحية وبين اسرائيل من ناحية أخرى ضربا)من اللاسامية.

اللاسامية الحالية في الغرب

تتضارب تقارير مختلف المصادر الصهيونية السياسية حول مسألة هل اللاسامية في ازدياد ام في انخفاض. فبينما تقول وسائل الاعلام ان اللاسامية انخفضت فـان الوسائـل الاعلاميـة الخاصـة والمجلات اليهودية المتخصصة تعلن العكس. مثال ذلك ان برنامج دوناهيو التلفزيوني الشهير في امريكا عقد في تموز / يولية ١٩٨١ ندوة حضرها صهيونيون من ضحايا الهولوكوست واتفقوا فيها على ان اللاسامية هبطت في امريكا، بينما قالت صحيفة «المجلة الشهـرية اليهـودية» (جـويش مونثـلي) ان استقصاء اجرته في امريكا مؤخرا عصبة مكافحة التشهير اليهودية في كانون الثاني / يناير ١٩٨١ اظهر ان «عدد الحوادث المناهضة للسامية تضاعفت اكثر من مرتين خلال عام ١٩٨١ وللسنة الثالثة على التوالي» فقد ارتفعت من ٣٧٧ حالة في ٣١ ولاية عام ١٩٨٠ الى ٩٧٤ حالة في ٢٨ ولاية عام ١٩٨١، كما لوحظت بالذات زيادة كبيرة في عدد الاعتداءات الجسمانية التي سميت جرائم التحيز. وربما ساعد على ذلك ان ٨ ولايات امريكية سنت عام ١٩٨١ بالذات قوانين تفرض عقوبات اشد على التهجم الديني او العنصري، واصبحت اكثر نشاطا في تقصي هذه الحوادث او تبويبها على انها لاسامية، كما يلاحظ ان ذلك العام ايضا شهد عدة جرائم ارتكبها اليهود ضد اليهود انفسهم، ومن ثم لا يصح ادخالها في عداد «الحوادث المناهضة للسامية». فقد لوحظ في تلك السنة شيوع سرقة صحائف التوراة من المعابد اليهودية (حوالي ٩٠ سرقة في الربع الأول من ذلك العام، وقع ثلثها في ولاية نيـويورك وكـان معظم السارقين من اليهود)(٦). كما ان من الخطأ الشائع اعتبار الهجوم على اسرائيل ضربا من اللاسامية وليس من قبيل اللاصهيونية. ومما يرجح هذه الفرضية ان الحوادث اللاسامية في الأرجنتـين التي تستضيف أكبر تجمع يهودي بعد امريكا الشمالية (٢٥٠ الفا) قد هبطت في نفس العام(٧).

ومع ذلك من الانصاف آن نقول أن الاتجاه العام للمنظمات الصهيونيـة يشير الى انخفـاض اللاسامية مؤخرا في الأمريكتين منذ عام ١٩٨٣ وتزايدها في أوروبا الغربية. لكن مركز سيمون فيزنتال (صياد مجرمي الحرب) يصر مثلا في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٤ على خطر حدوث موجة جديدة من اللاسامية الأمريكية في آوروبا عندما وجه رسائل بتوقيع بعض مشاهير السينما الأمريكية مثل أورسون ويلز وجود هيرش، مدعيا أن «القنابل وضعت في المعابد اليهودية في باريس ولندن وروما وميونيخ (التي

---

(٦) نيويورك تايمز، ١٧/ ٤/ ١٩٨٢.

(٧) نيويورك تايمز ١٢/ ٤/ ١٩٨٢.

شهدت أيضا وضع اشارة الصليب المعقوف على المؤسسات والمقابر والمعابد والمنازل اليهودية) أكثر من أي وقت مضى منذ الحرب العالمية الثانية». ولم ينس هذا التعميم أن يحمل الأمريكيين مسؤولية هذه الموجة بدعوى أن الشرطة الألمانية وجدت منشورات نازية مطبوعة في أمريكا في ألفي منزل في المانيا الغربية. كما ادعى المركز أن فرعه في لوس انجلوس (الذي افتتح عام ١٩٧٧) قد وضع على جداره شعار «الموت لكم أيها اليهود»، وأن فيلادلفيا شهدت منشورات تطلب متطوعين وأموالا لمقاومة «الاضطهاد اليهودي للبيض»، وان تصاعد اللاسامية المصدرة من أمريكا واضح من ظهور فروع في ١٣ ولاية أمريكية لمنظمة «الأمم الآرية» التي قال رئيسها ريتشارد بتلر «ان المسألة اليهودية ليست مشكلة أمريكية فحسب بل مشكلة عالمية»، وكذلك من وجود الحزب الوطني الاشتراكي (النازي الجديد) برئاسة جيرهارد لوك الذي مقره ولاية نبراسكا وله فروع في ٣٣ مدينة تمتد من ولاية كاليفورنيا في الغرب الى نيوجيرسي في الشرق، ومعظم عمله سري، وهو المسؤول الأول عن تهريب المنشورات الى المانيا الغربية.

وبصرف النظر عن تصدير امريكا للاسامية فان اللاسامية فيها أخذت تنخفض ولو مؤقتاً بشهادة منظمة بناي بريت التي تشير الى هبوط الاعتداءات اللاسامية على اليهود وأملاكهم خلال عام ١٩٨٦ «وللعام الثالث على التوالي رغم زيادتها المزعجة في الجامعات»[٨] مع أن هذه الزيادة فيها راجعة الى مهاجمة اسرائيل لا اليهودية ذاتها. وقد وجه مركز سيمون فيزنتال تهمة اللاسامية حتى الى اليهود الذين يطالبون بمقاطعة اسرائيل مثل الممثلة اليهودية فانيسا ريد غريف عام ١٩٨٧.

أما ما يزعجنا نحن فهو تزايد نشاط مراكز مناهضة اللاسامية كلما هبطت اللاسامية نفسها! ففي الوقت الذي أجمع فيه المعمرون اليهود المشتركون في ندوة دوناهيو التلفزيونية المذكورة «على أن اللاسامية في أمريكا قلت عما كانت عليه في أمريكا قبل خمسين عاما»، نرى أن نشاط مركز سيمون فيزنتال يتزايد بصورة غير معقولة حتى أصبحت له مؤخرا ٣٠ محطة اذاعية وقاعدة من ٣٢٠ ألف شخص يزودونه بالمعلومات والمال، ويعلم حوالي ٧٥٠ ألف طالب في مدارس أمريكا وكلياتها «حقيقة» الهولوكوست. كما أنه مول أو ساند فنيا أفلاما سينمائية وتلفزيونية مثل «الهولوكوست» و «الابادة»، وساهم في اعداد دائرة معارف عن الهولوكوست، وأقام متحفا عن الهولوكوست في لوس انجلوس ونصبا تذكارياً له في معظم المدن الكبرى في الولايات المتحدة (ولكنه يهمل في كل أنشطته أية اشارة الى دور التطرف اليهودي في معاداة اليهود انفسهم). ونجح عام ١٩٨٧ في حجب درجة الدكتوراه عن اللواء مصطفى طلاس وزير الدفاع السوري في جامعتين فرنسيتين بسبب كتابه عن «فطيرة صهيون» رغم كثرة الشواهد التاريخية عليها كما أسلفنا.

هذا يدخلنا مرة اخلاى في أحجية الدجاجة والبيضةوأيهماجاءت أولا. أعني بذلك هل أدىظهور المركز الى تقليل اللاسامية فقط كما يدعون ام ايضا الى زيادة الصهيونيين المتطرفين (مثل بولارد) الذين يضمنون بتطرفهم استفزاز الأمريكيين واثارة اللاسامية التي تضمن صحة النظرية الصهيونية في أنه

---

(٨) نيويورك تايمز، ١٣/١/١٩٨٧.

لا أمان لليهود الا في دولة اسرائيل؟ وهل غالى سيمون فيزنتال في ذلك حتى أغرى المتطرفين بالقاءء قنبلة على منزله في فيينا وتلطيخ جدار مركزه في لوس انجلوس بالشعارات اللاسامية؟ ولماذا تسرف هذه الجهات في الحديث عن اللاسامية بين الأغيار وقلما تتحدث عن مساهمة اليهود في اللاسامية بأسلوبين هما اللاسامية الصهيونية المباشرة ضد اليهود أنفسهم، والأسلوب غير المباشر وهو تشجيع لاسامية الأغيار؟ ان تحليل تفاصيل هذين الأسلوبين شبه معدوم في الكتب التي صدرت عن اللاسامية والتي تركز على مبدأ أن اللاسامية دليل على اعتلال الشخصية.

١ ـ اللاسامية اليهودية

في عام ١٩٧١ أجرت بناي بريث(رابطة مكافحة التشهير)اليهودية دراسة وجدت منها تحيزا في البنوك وشركات التأمين والمؤسسات المالية وشركات البترول، ولكن دراسات اخرى اجريت في عام ١٩٧٨ وتناولت حوالي ٤٠ مصرفا كبيرا (مثل بانكرز ترست وتشيس مانهاتن وكيميكال بنك) قد أظهرت أن أكبر سبعة مصارف في نيويورك أبعدت اليهود فيها عن مراكز اتخاذ القرارات، وأن مصارف يهودية مثل مورغان غارنتي وايرفينج ترست تستثني اليهود (والكاثوليك) من فرص التوظيف المتكافيء.

بل ان اليهود ساهموا أيضا في أعمال العنف اللاسامية. ففي عام ١٩٧٩ مثلا لقي يهوديان مصرعهما خلال اشتباك بين المتدينين اليهود وحرس القنصلية الاسرائيلية، وفي نفس الوقت تقريبا حدثتت اشتباكات دامية بين الألمان واليهود في حي كوينز بنيويورك. وبعدها بشهور اجتمع آلاف اليهود الحسيديين في قاعة ماديسون سكوير غاردن في نيويورك احتجاجا على سوء معاملة رجال الدين اليهود في اسرائيل. وفي نهاية العام احرق اليهود الحسيديون معبدا لليهود المتدينين (الارثوذكس) في حي بروكلين من المدينة. وأصبح الآن من المألوف ان يتظاهر هؤلاء اليهود ـ بالالاف احيانا ـ امام القنصلية الاسرائيلية في ذكرى قيام اسرائيل ويحرقون اعلامها علنا كل عام. وغالبا ما تعتبر هذه الحوادث لا سامية عند حسابها.

ويجد المرء مشقة في جمع هذه البيانات لأن الصحف قلما تشير اليها، كما يكتفي التلفزيون باشارة سريعة اليها، وفي ساعات متأخرة غالبا، وبحيث لا تذهب أخبارها خارج الولايات المتحدة.

ثم ان لدينا أصلا شواهد تاريخية كافية على دور القوميين اليهود في اضطهاد اليهود. ولنبدأ بموقفهم من اخوانهم اللاجئين أيام النازية وبعد الحرب العالمية الثانية.

معروف الآن أن زعماء الصهيونية في أمريكا عارضوا بعنف معظم محاولات الرئيس روزفلت خلال الحرب لايواء اللاجئين اليهود في الولايات المتحدة. ففي عام ١٩٤٦ قتلوا مشروع قانون ستراتون للمشردين لانقاذ ٤٠٠ ألف يهودي وكاثوليكي رغم جهود روزفلت مع موريس ايرنست (اليهودي) «بسبب الخوف من فقدان المال الذي سيحول الى اسرائيل بسببهم» (نيويورك تايمز، ١٧/٤/٨١). وأثار هذا الرفض صواب الصحفي سيروس سولزبرغر فكتب في صحيفة نيويورك تايمز عام ١٩٤٦: «بحق السماء لماذا تجعلون مصير كل هؤلاء التعساء متوقفا على انشاء الدولة؟».

وفي ٢٥ شباط/ فبراير ١٩٥٩ عقد الرئيس الأمريكي ايزنهاور اجتماعا خاصا لبحث ايواء اليهود المهاجرين من رومانيا في الولايات المتحدة بحضور ممثلي ١٩ منظمة صهيونية. ورفض هؤلاء الفكرة لتعارضها مع خطتهم في تهجيرهم الى فلسطين. كما أحبطوا محاولة للسناتور اليهودي جاكوب جافتس لتقديم مشروع بذلك الى الكونغرس. وبلغ من أسفافهم أنهم استردوا من المهاجرين الرومانيين نفقات السفر المدفوعة لهم لأنهم قرروا بعد وصولهم الى فيينا الهجرة الى الولايات المتحدة من هناك مباشرة بدلا من الذهاب الى اسرائيل.

وتكررت القصة في الثمانينات عندما واجه مجلس الشيوخ الأمريكي احتجاجا صهيونيا جارفا على مشروع قانون يستهدف تهجير ٣٠ ألف يهودي روسي الى أمريكا وكندا. فلماذا؟

في عام ١٩٤٧ كتب ريتشارد كروسمان عندما كان نائبا عماليا بريطانيا مشهورا بمناصرته للصهيونية رغم (وربما بسبب) لاساميته: «هؤلاء الصهيونيون مدهشون، فكل همهم ليس انقاذ اليهود أحياء من أوروبا، بل ارسال اليهود الى فلسطين». وأيده في ذلك متحسرا الدكتور يهودا ماغنيس العميد الراحل للجامعة العبرية في القدس في عام ١٩٦٠: «كنت أحسب دائما أن الصهيونية ستخفف من حدة اللاسامية، واذا بنا نشهد اليوم العكس».

كان ماغنس مثاليا مخدوعا. فهذا «العكس» لم يبدأ «اليوم»، وانما دعا اليه هرتسل بوضوح عندما قال أن «اللاسامية تخدم الهدف أحيانا»، ثم أصبحت له على ما يبدو سياسة مرسومة واضحة في عام ١٩٥٢، عندما تجاوز عدد النازحين من اسرائيل لأول مرة عدد المهاجرين اليها، وهو نفس العام الذي تغير فيه نظام الحكم في أقوى جارة معادية لها هي مصر، فقد قال شارون عضو حزب الماباي في ذلك العام[٩]:

«لن اتورع عن الاعتراف بأنه لو كان الأمر بيدي لاخترت عشرات من الشباب الأذكياء المثقفين الشرفاء المتفانين في مبادئنا والمتلهفين على انقاذ اليهود، وأرسلتهم الى البلاد التي يغرق فيها اليهود في خطيئة القناعة والرضا بما هم عليه. ثم جعلتهم يخفون هويتهم اليهودية عن الناس هناك ويثيرون الفتنة باطلاق شعارات لاسامية مثل «أيها اليهود الأوساخ.. اتركونا واذهبوا الى فلسطين». أؤكد لكم أن عدد المهاجرين من هذه الدول الى اسرائيل سيبلغ عندئذ عشرة أضعاف العدد الحالي الذي كلفنا حتى الآن آلاف المبعوثين والوفود ممن ظلوا طوال عشرات السنين يصيحون في آذان صماء».*

وعدّل بن غوريون هذا الأسلوب في البلدان العربية بأن اقترح «أن يرتدي هؤلاء الشبان ملابس عربية ويطلقوا نفس الشعارات العدائية». وأعلنت غولدا مائير «أن يهود اسرائيل لن يتركوا يهود الشتات في سلام حتى تأتي أعداد كبيرة منهم الى هنا»[١٠]

(٩) صحيفة كمبر الصادرة باليديش، نيويورك، ١٩٥٢/٧/١١.

* يقول الفريد ليلنتال مؤلف كتاب «ثمن اسرائيل» و «الوسيط الصهيوني» وغيرهما أن قائل ذلك هو بن غوريون نفسه وليس شارون. (انظر نشرة ميدل ايست برسبكتف، نيويورك، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٣).

(١٠) غولدا مائير. ماذا نريد من يهود الشتات، نقلا عن نشرة أخبار الكتاب اليهودي، ١٩٨٤.

ومرة أخرى عندما عادت كفة النازحين ترجح في الثمانينات، ذكر الكاتب الاسرائيلي عمـوس عوز أن عسكريا اسرائيليا معروفا اسمه الرمزي «زد» وصف له تصوره لطريقة التعامل مع يهـود الخارج (zhids أي «الأولاد اليهود») على النحو التالي: «ضع نارا تحت أقدامهم في الشتات بحيث يرغمون على المجيء ركضا لاهثين حتى لو استوجب ذلك مني أن أنسف بعض المعابد هنا وهناك لتحقيق ذلك»(١١).

والغريب أن بعض كبار الكتاب الاسرائيليين مثل آهارون ميغد اتهمـوا عوز بـأنه لفق هـذه الشخصية الوهمية، فاضطر عوز في الطبعة الثانية أن يؤكد صحتها..

وقد استهل الصهيونيون تطبيق هذا الأسلوب في الولايات المتحدة نفسها حيث يعيش سبعة ملايين يهودي في «خطيئة القناعة والرضا».

من ذلك ما ذكرته وكالة للأنباء عام ١٩٦٩ «ان حاييم ليتر (١٨ سنـة) ابن أحد حـاخامـات نيويورك، قد قبض عليه واعترف بأنه أشعل النار في كنيس «حكماء صهيون»، ثم أحرق في اليوم التالي مقر جمعية آهافات اسرائيل (أحبّاء اسرائيل) في حي بروكلين بالمدينة(١٢).

وقبل ذلك (في يناير/ كانون الثاني ١٩٦٩) قالت الوكالات أن «تلميذا في مدرسة يهودية قد أشعل النار في كنيس مجاور»، ولكنها لم تعط أية تفصيلات. أما في أوروبا فقد أخبر برونو كرايسكي مستشار النمسا السابق في عام ١٩٨٢ عدة جهات عربية أن لديه معلومات موثوقة بأن المخابرات الاسرائيلية قامت بسلسلة عمليات ارهابية ضد المؤسسات اليهودية في أوروبا خلال احتلالها لبنان(١٣).

٢ ـ استعداء الأغيار على اليهود

ولكي يجعل دهاقنة الصهيونية حياة يهـود أمريكـا جحيما، لم يكتفـوا بذلك وانمـا استغلوا الحزازات بين اليهود والزنوج بالذات. فقد أوردت جريدة جيروزاليم بوست الاسرائيلية يـوم ٢٣ مايو/ أيار ١٩٦٨ شهادة لمايكل تابور اليهودي رئيس «جمعية اليهود المطالبين بالعدالة المدنيـة» في مؤتمر صحفي اتهم فيها «اليهود بأنهم مسؤولون عن ظهور اللاسامية في الأحياء الأمريكية الفقيرة». ثم أضاف أن دراسة أجريت حول الموضوع قد أظهرت «عدة حالات اضطهد فيها اليهود فقراء الزنوج بأساليب تجارية غاشمة وتفرقة لا رحمة فيها»(١٤).

هل رأيت حي برونكس في نيويورك؟ لقد وصف صحفي فرنسي جزءه الجنوبي بأنه يبدو كأنما دكته غارة جوية. فالقطار يسير عبره أميالا لا ترى خلالها سوى عمارات مهجورة من الطوب الأحمر

(١١) عموس عوز. في أرض أرض اسرائيل، هاركورت، نيويورك، ص ٩٥.

(١٢) وكالة الأنباء الفرنسية، ١٩٦٩/٣/٣١.

(١٣) مجلة «المجلة»، باريس، ٢/ ١٩٨٢/١٠.

(١٤) مجلة تايم، ١٩٦٩/١/٣١.

سوّد الدخان نوافذها. هذا الحي كان حتى نهاية الخمسينات راقيا مزدهرا معظم سكانه من الأقليات اليهودية والايطالية. وعندما تسربت اليه أقليات أخرى مطحونة مثل الزنوج والاسبان هرب اليهود من الحي. ولكي يتخلصوا من الانخفاض المستمر في ايراد عماراتهم هناك كانوا يستأجرون مجرمين محترفين لحرقها سرا وقبض التأمين عليها. وما زالت الحرائق مستمرة في كل الأحياء الشعبية اما بدافع الربح أو بدافع الانتقام. وأظهرت دراسة سيكولوجية أن في طليعة الحارقين بدافع الانتقام «أشخاص طرد الملاك اليهود أسرهم من منازلهم أيام الكساد الكبير في الثلاثينات[١٥]». وحتى عام ١٩٨٠ بلغ عدد الحرائق العمد في نيويورك وحدها ١٢ ألف حريق[١٦].

قد يقال وما علاقة الزعماء الصهيونيين بالملاك اليهود؟ ولماذا لا يكون هذا الحرق بدافع الربح وحده لا التأليب؟ هذا صحيح، ولكن القياديين من اليهود (ومعظمهم من الصهيونيين) لا يتحركون عادة لمنع الشطط ضد الأغيار. فقد عقد زعيم يهودي في رابطة التمدن الجديدة في بوسطن اسمه مارتن أوبن مؤتمرا صحفيا للدفاع عن الحقوق المدنية للأقليات الأخرى عام ١٩٦٨ اتهم فيه «رجال الدين وزعماء التنظيمات الشعبية اليهودية باذكاء نار اللاسامية الخامدة في هذه البلاد... وبأنهم يتجاهلون هذه الأساليب التجارية الغاشمة التي تدور في محافلهم»[١٧].

ومن الطريف أن انكشاف التفرقة العنصرية في اسرائيل ضد الشرقيين والزنوج مد العداء بين اليهود والزنوج عامة الى الزنوج اليهود أنفسهم. فالزنوج اليهود مثلا صاروا «أقرب عاطفيا الى الدول الاسلامية منهم الى اسرائيل نفسها» كما تقوله مجلة تايم (ربما بسبب خلو الاسلام من التمييز العنصري)، هذا بينما نرى يهود نيويورك البيض يعارضون مثلا انتقال الزنجي اليهود الى الأحياء السكنية الراقية المقصورة على البيض. وفي ولاية نيويورك وحدها عشرات الآلاف من هؤلاء الزنوج اليهود.

وقد بدأت نقمة الزنوج من اليهود وغير اليهود على اسرائيل واليهود البيض عامة في السبعينات عندما انكشفت قضية «العبرانيين السود»، كما يسمون أنفسهم، وهم اليهود الأمريكيون الزنوج الذين هاجروا بعد حرب ١٩٦٧، الى اسرائيل، ولكن الحكومة أساءت معاملتهم وطردت عددا كبيرا منهم بحجة أنهم لا يريدون العمل أو أنهم ليسوا من اليهود الخلّص، لكن زعيمهم بن أمي كارتر قال حينذاك أن السبب الحقيقي هو أن الحكومة «لا تريد مجتمعا شرقيا أو ملونا بدليل اضطهادها للشرقيين أنفسهم دونما سبب».

وكانت لهذا الصراع في اسرائيل انعكاسات داخل أمريكا نفسها وبدأت تظهر منذ السبعينات عندما عارض بعض اليهود تخصيص نسبة معينة من الوظائف للزنوج، وعندما أيد جيسي جاكسون

---

(١٥) صحيفة ديلي نيوز، نيويورك، ٩/٣/١٩٨٠.

(١٦) المرجع السابق.

(١٧) نيويورك تايمز، ١٠/٩/١٩٨٢.

زعيم السود حقوق الفلسطينيين، وعندما أرغم اليهود الرئيس كارتر على اقالة اندرو يونغ الزنجي من منصب رئيس وفد أمريكا لدى الأمم المتحدة، وعندما كف كوتش عمدة نيويورك لأول مرة عن تعيين زنجي واحد في مجلس بلدية مدينة نيويورك كما جرت العادة، وعندما انكشفت أبعاد دعم اسرائيل لجنوب افريقيا.

وفي الثمانينات لاحظ تشارلز سيلبرمان في كتابه «شعب ما» عام ١٩٨٥ «تزايدا مزعجاً في عداء السود لليهود». ويبرر السود ذلك بأن اليهود لم يعودوا يهتمون كثيرا بالحقوق المدنية للاقليات الأخرى بعد أن نالوا حقوقهم ودخلوا في عداد البيض. فقد أخذ مثلا دخل اليهودي يرتفع باطراد بين السبعينات والثمانينات بينما أخذ دخل السود يهبط.* وبعد التحالف التقليدي الطويل بين الطائفتين خصوصاً داخل الحزب الديمقراطي، أثرت الجفوة المتزايدة بينهما في قوة الحزب في انتخابات ١٩٨٤، ولوحظت في الفترة الاخيرة زيادة غير عادية في عدد الاشتباكات وحوادث العنف بين الطرفين خصوصا في شيكاغو ونيويورك التي حارب عمدتها كوتش زميله الديمقراطي الزنجي جيسي جاكسون عند ترشيح نفسه لانتخابات الرئاسة عام ١٩٨٨.

اللاسامية في الكتلة الشرقية

فجأة، وبدون سابق انذار، صارت الدول الاشتراكية في أوروبا الشرقية بعد حرب ١٩٦٧ متهمة «باللاسامية الحمراء» رغم أن بريا السفاح وزير الداخلية السوفياتي في عهد ستالين كان يهوديا، ورغم أن رئيس برلمان ولاية سلوفاكيا السابق بتشيكوسلوفاكيا يهودي، ورغم أن البولنديين حاربوا مع يهود البلاد ضد النازية. بل ان الصهيونية لم تكف عن اتهام حكومة النمسا وشعبها باللاسامية رغم أن رئيسها السابق برونو كرايسكي نفسه يهودي الأب.

وقد وجدتها الصهيونية فرصة نادرة لتصيد تهمة اللاسامية عقب حرب ١٩٦٧ حين جعلت كثيرا من يهود هذه البلاد يحتجون على سياسة الدول الاشتراكية في ادانة العدوان الاسرائيلي.

ورغم أن الملحق العسكري السوفياتي في سفارة بلاده بلندن قال في محاضرة عامة نقلتها وكالات الأنباء في أوائل عام ١٩٦٨ أن معظم يهود الاتحاد السوفياتي يؤيدون اسرائيل عاطفيا فقط، فان عدد الموالين لها سياسيا يزداد نسبيا بسبب تزايد انعدام الثقة بينهم وبين الحكومة. والقى الكاتب الروسي ايفانوف في كتابه «حذار من الصهيونية» تبعة ذلك على الصهيونية التي تسعى لافتعال تهمة اللاسامية الحمراء بكل وسيلة لجعل حياة اليهود هناك جحيما دائما وبالتالي تهجيرهم. ومع أن هذه المحاولة لم تفلح نسبيا كثيرا في الاتحاد السوفياتي الا أنها أثمرت تماما في الدول الاشتراكية المجاورة. فلم يبق في بولندا سوى بضعة آلاف من اليهود من مجموع ٣٠ ألفا كانوا فيها في الخمسينات، وهم مع ذلك لا يسلمون من تهمة «المتاجرة بقوت الشعب والتحكم في الصناعة ونقابة التضامن»[١٧]. كما أنه لم يبق

---

* انخفض المتوسط السنوي لدخل الأسرة الزنجية الأمريكية ١٣٠٠ دولار تقريبا بين السبعينات والثمانينات رغم التضخم. وكان الزنوج والأقليات عامة أكثر الفئات تضررا من سياسة ريغان في تخفيض برامج الاسكان والبرامج الأخرى لمساعدة الفقراء، وفي تقليل برامج تدريب الشباب التي ساهمت في زيادة البطالة بين الزنوج، وبالتالي في زيادة احساسهم بالتمييز والكره العنصري، وفي تزايد الاشتباكات العنصرية. (نيويورك تايمز ١٥/١/١٩٨٨).

سوى بضعة آلاف (معظمهم فوق الستين) في تشيكوسلوفاكيا. ولمّا كان كثير منهم يهاجر الى أمريكا وكندا، فقد ظلت اسرائيل (كما تقول جريدة دي فيلت الألمانية) تضغط على حكومات اوروبا الشرقية كيلا تمنحهم تأشيرة خروج الا بعد التعهد بالهجرة الى اسرائيل فقط.

ويقول ماكسيم رودنسون المفكر الماركسي الفرنسي اليهودي ان السوفيات قد اخذوا منذ الحرب العالمية الثانية يحدون من نسبة اليهود بين المثقفين خاصة في أوساط الحكم، وان ذلك جر التمييز ضد اليهود، لكنه يرى ان الصهيونية «لعبت دورا رئيسيا في احياء اللاسامية في بلد يشدد على ضرورة الولاء لايديولوجية الدولة».

ولقد أثار حفيظة ستالين مثلا ما لقيته غولدا مئير (وهي روسية الأصل) من استقبال حافل من اليهود السوفيات حين وصلت الى موسكو كأول سفيرة لاسرائيل في أواخر عام ١٩٤٨، بقدر ما اغتاظت غولدا مئير نفسها وهي تسمع الأديب اليهودي الكبير ايليا أهرنبورغ يقول لها «ان اسرائيل للمشردين من الدول الرأسمالية، لأنه ليس في الاتحاد السوفياتي مشكلة يهودية».

وللأمانة التاريخية، يقول ايلي ويزل أنه سمع غولدا مئير نفسها تعترف له أنها حين رأت «بحرا من اليهود السوفيات الذين جاءوا لزيارتي وكان بعضهم يرتدي ملابس الجيش الأحمر، ركبني كابوس مخيف»، ليس لأنها أدركت أنه ليست هناك مشكلة يهودية فحسب (في تلك الأيام) وانما أيضا لأنها «كانت تخشى أن تفتح الجريدة ذات صباح فتجد خبرا فيها يقول «ان عشرات الآلاف من اليهود يتطوعون للسفر من أجل الاقامة في ولاية بيروبيدجان» في سيبيريا التي خصصها السوفييت لكي تكون دولة للأقلية اليهودية.

مثال آخر: لا نعلم إذا كانت مؤامرة الأطباء اليهود لقتل ستالين حقيقة واقعة ولكننا نعلم أن الذي أعلن عنها هو بريا اليهودي وزير الشرطة السوفياتية. وكان بريا مشهورا بقمعه الوحشي للجميع ومع ذلك كان ستالين لا يستطيع الاستغناء عنه. ويبدو أن علاقتهما الشاذة كانت أشبه بعلاقة نابليون بوزير داخليته السفاح فوشيه أو وزير خارجيته المكيافيلي تاليران، فقد كان كلاهما يمقت الآخر ولا يستغني عنه. ولم يتورع بريا عن أن يبصق على جثمان زعيمه ستالين قبل دفنه كما يقول خروشوف في مذكراته التي نشرتها جريدة التايمز اللندنية عام ١٩٧٠.

ويجب أن نلاحظ أن بريا نفسه كان أفضل برهان على الاشاعات التي أطلقها النازيون حول «اليهود المتنكرين بقناع الشيوعية». فقد كان خروشوف وبولجانين يشتبهان في أنه شيوعي مزيف. وبعد وفاة ستالين مباشرة قاد خروشوف عملية القبض على بريا واعدامه عام ١٩٥٣ بعد أن أثبت اتصاله بالمخابرات الأجنبية واغتصابه أكثر من مائتي فتاة! وهناك احتمال كبير في أن تكون اسرائيل هي المقصودة بالمخابرات الأجنبية أو واحدة منها.

هل كان ستالين محقاً في مخاوفه المتزايدة؟ ان ابنته سفيتلانا تقول في مذكراتها التي نشرتها في الغرب أن أباها صار شديد التوجس من الصهيونية في أواخر حياته. وعندما تزوجت هي من شاب يهودي كان أبوها لا يفتأ يقول لها «لقد دسه الصهيونيون عليك.. أنت لا تعرفينهم».

هل كان اليهود اذن وحدهم مسؤولين عن تفاقم اللاسامية في الدول الاشتراكية؟

الحقيقة أن سياسة القوميات في الاتحاد السوفياتي قد أصابتها نفس النكسة التي أصابت القوميات في أوروبا الغربية في القرن التاسع عشر من حيث أنها جعلت الصهيونيين يفسرونها تفسيرا عكسيا .

فقد حاولت الدولة السوفياتية حل مشكلة القوميات بايجاد حل نظري هو تعدد القوميات والمجموعات الثقافية وأوجدت برلمانا خاصا بها، ونجحت في تحقيق التعايش بينها الى حد ملحوظ. لكن خطأ ستالين هو أنه اعتبر اليهودية قومية عندما تولى الحكم (وكان هذا يتعارض تماما مع تعريفه للقومية عام ١٩١٣ أيام القيصرية) ولكنه جعل ذلك بناء على طلب الزعماء اليهود، كما ذكر غولدمان في كتابه «المناقضة اليهودية».

هكذا وجد ستالين تدريجيا أن تطبيق سياسة القوميات على اليهود ـ التي كانت جيدة في البداية ـ قد أدى الى عكس ما هدف اليه من اندماج!

وعندما جاءت الحرب العالمية الثانية ساعد على تفاقم اللاسامية في الأوساط الشعبية أن النازيين تعمدوا أن ينشروا في المناطق السوفياتية المحتلة بين عامي ١٩٤١ ـ ١٩٤٥ شعاراتهم القديمة التي كانت تصور كل الثوريين والشيوعيين منهم على أنهم يهود متنكرون لا يلتمسون سوى خدمة المصالح اليهودية وحدها.

وبعد الحرب حاول الحكام الشيوعيون ابعاد هذه الصورة عن أذهان الشعب، فعارضوا اظهار اليهود كمجموعة لقيت اضطهادا أكثر من غيرها، خصوصا بعد أن راح الصهيونيون يصورون للعالم أن ضحايا الحرب كانت شبه حكر على اليهود.

واليهود المعادون للصهيونية لا ينكرون أن هناك لا سامية طفيفة بين الطبقات غير الواعية في الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية الأخرى ولكنهم يرون أن المشكلة اليهودية قد تزايدت بسبب الدعاية الصهيونية والأجنبية. وعلى أية حال فان نسبة من يتحدثون باليديش في تضاؤل مستمر. فقد هبطت نسبة من يعتبرون اليديش لغتهم القومية الى ١٧ في المائة عام ١٩٧١، وكانت ٢١,٥ في المائة قبل ذلك بعشر سنوات. والنسبة الحالية أقل على الأغلب بسبب تزايد النزوح.

واسرائيل تقدر عدد اليهود السوفيات بما يتراوح بين ٢,٥ و ٣ ملايين نسمة (بينما تقول موسكو أنهم بلغوا ١,٨ مليون نسمة فقط في تعداد عام ١٩٧٩). كما تقدر عدد من هاجر منهم بين ١٩٦٥ و ١٩٨١ بحوالي ٢٦١ ألفاً، وعدد من طلبوا الهجرة حتى نهاية ١٩٨٤ بنحو ٤٠٠ ألف، بينما تقدره جهات يهودية أخرى بنحو ٣٥٠ ألفاً[١٨]. وهبط كثيرا عدد المهاجرين مؤخرا (من ٥١ ألف عام ١٩٧٩

---

(١٨) نيويورك تايمز، ١٩٨٥/١/٤.

(١٩) نيويورك تايمز، ١٩٧٩/١/٨.

الى ٨٩٦ فقط عام ١٩٨٤). وتفسر موسكو ذلك بصعوبة الحياة في اسرائيل، بينما يرجعه ناحوم غولدمان الى منع اليهود من الهجرة حسب البارومتر السياسي. لكنه يتدارك ذلك بقوله ان الذين يعتبرون أنفسهم يهوداً فضلا عن الراغبين في الهجرة الى اسرائيل لا يزيد على عشرات الآلاف،[١٩]، كما أنه نبه في كتابه «المناقضة اليهودية»: «يجب أن نتذكر أن الحكومة السوفياتية أنقذت مئات الآلاف من اليهود من النازية بتهريبهم، وانه لولا الروس لما وجدت اسرائيل اليوم.. وأن اتهام روسيا باللاسامية مبالغ فيه جدا»[٢٠].

بل ان كاتبا يهوديا هو آرون فيرجيليس رئيس تحرير صحيفة «سوفييتش هايملاند» (الوطن السوفياتي)، وهي أكبر مجلة أدبية يهودية في الاتحاد السوفياتي، صرح في جنيف في ٨/١/١٩٧١ «ان أمريكا أكثر لاسامية وعداء لليهود من الاتحاد السوفياتي».

تحليل لقضية ديكاتوف

ولا أجد حالة نموذجية تبين المسؤول الحقيقي عن اللاسامية في الاتحاد السوفياتي أفضل من تحليل حالة أناتولي ديكاتوف، أول من نال تأشيرة خروج للهجرة الى اسرائيل صراحة.

ترك ديكاتوف هذا الاتحاد السوفياتي يوم ٣ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٠، ولو تناولنا بالتحليل مثلا ذكرياته وأقواله التي نشرها في صحيفة الأوبزرفر اللندنية في الخامس عشر من ذلك الشهر، لرأينا تناقضات مسلية تبلغ حد السذاجة أحيانا.

يقول أناتولي ديكاتوف (٢٨ سنة حينذاك) انه حاول الهرب عدة مرات من روسيا منذ أن كان في الثانية عشرة. وأخيرا جاءته ــ حسبما روى ــ أول تأشيرة خروج للهجرة الى اسرائيل.. وهو يقول انها كانت تحمل اسم «تأشيرة رقم ٢٣٥٩٥٦ صادرة من موسكو من وزارة الداخلية السوفياتية بتاريخ ٣٠ اكتوبر / تشرين الأول ١٩٧٠ وتسمح لأناتول ديكاتوف العديم الجنسية بالسفر الى اسرائيل للاقامة الدائمة فيها.. وهي صالحة حتى ٤ نوفمبر ١٩٧٠».

المهم أن ديكاتوف ــ راح يروج أنه صار صهيونيا بسبب اضطهاد اليهود وليس العكس.

لكنك عندما تعيد ترتيب الفقرات وتجمع شتاتها من هنا وهناك تندهش من وصولك الى نتيجة عكسية.

هاك بعض الأمثلة:

١ ـ يقول ديكاتوف: «الحق أنني لم أكن ثائرا متمردا. فأنا لم أرد تغيير نظام الحكم. وكل ما في الأمر أنني كنت غريبا لا يهتم بالمجتمع السوفياتي ولذلك لم أقل أو أفعل شيئا يثير غضب السلطات».

---

(٢٠) المرجع السابق.

يقول في مكان آخر:

«منذ عام ١٩٦٦ صارت العبرية لغتي القومية ولم أعد أحس بالضياع وانقطاع الصلة بالماضي. لقد اتضح لي أنني اسرائيلي وأن وطني اسرائيل».

ان المرء ليعجب حقا ما اذا كان هذا في حد ذاته كافيا «ليثير غضب السلطات» عليه حتى ولو لم تتعرض له.

ماذا يكون موقف السلطات في دولة متحررة مثل الولايات المتحدة لو وجدت فيها امريكيا يعتبر نفسه سوفيتيا حتى لو كان ديكاتوف نفسه؟ يكفي ان نتذكر عهد الارهاب المكارثي ضد اليساريين في الخمسينات حتى نرتعد. ويكفي ان نتذكر المطاردة والملاحقة التي يتعرض لها الشيوعيون العرب داخل اسرائيل.

٢ - يشهد ديكاتوف من حيث لا يدري بأن موقفه المعادي للنظام قد امتد من مجرد العاطفة الى محاولة تغيير الوضع. اذ يقول بعد ذلك بنحو خمسين سطرا: «في ابريل عام ١٩٦٠ حاول شاب في السابعة عشرة مثلي كان عضوا في الكومسمول (اتحاد الشبيبة الشيوعي) في روسيا أن يهديني الى الصراط المستقيم. ولكنه لم يلبث بعد أن تحدثت اليه حديثا قصيرا أن غير آراءه بصورة صاعقة ووافق على الهرب معي».

ألا يكفي هذا التحريض على الهرب غير القانوني لأن يستعدي السلطات عليه؟

٣ - ثم نأتي الى الأهم وهو لماذا تغيرت نظرته الى المجتمع كما يزعم: «لم أعرف أنني يهودي الا من موقف الآخرين مني».

ومع ذلك نجد في مذكراته الاعترافات التالية مبعثرة تدمغه بأنه كان البادىء في الاغتراب:

«منذ أن وعيت بنفسي وأنا أعتبر روسيا بلدا غريبا».
حدث هذا رغم اعترافه:
«كنت مسجلا في بطاقتي الشخصية على أنني روسي لا يهودي». وهذا أمر لا تفعله اسرائيل نفسها التي تضع في خانة القومية في بطاقة هوية أي فلسطيني صفة «عربي»، وهي تجعله في المرتبة الثانية، بينما بطاقة ديكاتوف وضعته في المرتبة الأولى من الرعوية.

ثم يبلغ التضارب مداه حين يقول:

«كان وضعي كيهودي ضعيف التأثير على حياتي في الشباب الباكر».

ومع ذلك فقد حاول الفرار في سن السابعة عشرة، ثم حرض غيره على الفرار. كل هذه الشواهد

تؤكد سخافة قوله السابق: «لم اعرف أنني يهودي الا من موقف الآخرين مني» فالواقع ان الاخرين لم يعرفوا انه يهودي الا من تطور موقفه منهم.

لماذا تشجع اسرائيل اللاسامية؟

هل يكون احتياج اسرائيل للمهاجرين والتبرعات التي تجمع باسمهم هو العامل الوحيد الذي يدفع الصهيونية الى اختلاق اللاسامية أو تشجيعها؟

ان الصهيونيين ينكرون ذلك ـ رغم اعترافهم بأهمية الهجرة ـ ويروجون أن السبب الحقيقي هو أن العامل الديني الذي صان الكيان اليهودي خارج فلسطين عبر القرون يتضاءل تدريجيا مع تصاعد المجتمع الصناعي وظهور المفهوم الحديث للدولة ـ الأمة، فقد نشرت صحيفة هاتسوفيه الاسرائيلية أن آهارون يادلين أحد كبار المسؤولين في الوكالة اليهودية قد حذر في مايو/ أيار ١٩٧٧ من أن الحركة الصهيونية تخسر حوالي مليون يهودي كل عشر سنوات بسبب اندماجهم في بلدانهم. أي أن ٢٠ عاما تقريبا كافية لاندماج يهود العالم خارج اسرائيل. أما في أمريكا وحدها فان غولدا مئير كانت تقدر أن يهودها الستة ملايين سيبلغون مليونا ونصف المليون بعد جيلين. وقدر الحاخام شلومو ريسكين في عام ١٩٨٤ أن نسبة التزاوج بين يهود أمريكا تبلغ ٤٧ في المائة فقط وأن ٨٢ في المائة من أبنائهم لا يحضرون صلوات المعابد حتى في العيد الأكبر (يوم الغفران). وبذلك «خسر شعبنا من الاندماج في أمريكا أكثر مما خسر في الهلوكوست»[٢١].

ومعنى ذلك أن الكيان اليهودي خارج فلسطين مهدد بالاندماج وبالانقراض قبل نهاية هذا القرن ـ كما يقول توينبي ـ خصوصا مع اختفاء الغيتو الأوروبي (حارة اليهود) في المدن الغربية وتضاؤل الاهتمام بالدين والتعليم اليهودي هناك.

وأكاد أجزم أن الذي يفزع اسرائيل ليس انقراض اليهودية في الغرب وانما خوفها مما يترتب على هذا الانقراض من نضوب التبرعات والمهاجرين منها، وبقاء اللاسامية هو خير سلاح في تصورها لاستمرار هذا المدد من المال والرجال. ثم ان هذا النضوب ينسف النظرية الصهيونية في «استحالة اندماج اليهود حتى في المجتمعات الديمقراطية العلمانية» كما يقول الزعيم النقابي الامريكي اليهودي ايرل راب[٢٢].

هكذا يصح القول بأن القوميين اليهود لا يريدون حلا للمشكلة اليهودية، لا بالأسلوب الماركسي ولا بالأسلوب الليبرالي الغربي. دليل ذلك أن اسرائيل أصبحت أكبر حارة لليهود في العالم وأكثر مكان يموتون فيه ويشعرون فيه بالحصار، كما أنها زادت مشكلة ازدواج الولاء بين يهود الخارج، وزادت مشكلة عدم الانتماء لدى عرب اسرائيل خصوصا بعد حرب لبنان*. كأن التاريخ اليهودي في الشتات وفلسطين يعيد نفسه معكوسا على الأغيار. فاذا كان القوميون اليهود قد رفضوا الاندماج في

(٢١) تعميم بريدي يهودي مؤرخ في ٦/٢/١٩٨٤.

(٢٢) مجلة تايم، ٣١/١/١٩٦٩.

* أصبح من المألوف بعد الاضطرابات الدامية الطويلة التي بدأت يوم ٩/١٢/١٩٨٧ في غزة والضفة الغربية وصرعت مئات القتلى وجرحت عدة آلاف آخرين ان يرفع عرب اسرائيل علم فلسطين. وقد اعتقل وحكم بالسجن على عدد منهم بسبب ذلك.

فلسطين قبل عام ١٩٤٨ وأصروا على قيام دولة يهودية خالصة وهم قلة، فكيف ينتظرون من عرب فلسطين أن يقبلوا الاندماج في المجتمع اليهـودي وهم كثرة بـأنفسهم وأبناء جنسهم (٤,٩ مليـون فلسطيني مقابل ٣,٥ مليون اسرائيلي يهودي)؟

واذا كانت الثقافة الاسرائيلية غربية في المشرق العربي، فلماذا لا يكونون شرقيين في دولة غربية مستوردة؟ ثم ان التقاليد اليهودية تجعل القـوميين اليهـود في الغرب ينـظرون شرقـا، بينما ينـظر الاسرائيليون في الشرق غربا (ملما كان يهود مصر مثلا يعتبرون أنفسهم أوروبيين). وفي كل الأحوال تحرص اسرائيل في تعاملها مع الأمميين كما يقول مايك روبين اليساري الاسرائيلي في كتابه «رد من عامل اسرائيلي» عام ١٩٦٨ على «أن تصور نفسها لكل شخص كما يشاء وحسب مقتضيات الحال. فاسرائيل الحرة دولة رأسمالية، وليهود اليسار المثاليين اشتراكية ـ ما دامـوا يحسبون أن الكيبوتس هو أرقى المنشآت الجماعية التي تفتق عنها ذهن الانسان. واسـرائيل في نـظر البعض أوروبية، ولدى البعض الآخر آسيوية... والحق أن اسرائيل قد جمعت فأوعت بحيث تبدو لك كيفما شئت!».*

فلا عجب أن تنصل فلاسفة القومية اليهودية من مجتمعات أوروبا الوسطى التي عاشوا فيها قروناً ونقلوا منهـا الى اسرائيـل طابعهـا في أسلوب الحياة والموسيقى والأزياء، حرصا على الاغتراب. ولم يخف كلاتسكن عام ١٩٢٥ أن «الديانة اليهودية حافلة بالأسوار والأسيجة التي تصون مجتمعنا من المؤثرات الأجنبية.. وأن لنا معشر يهود الشتات وحدة قومية حيثما أقمنا بحيث لا تستطيع الحدود أن تمنع تنفيذ سياستنا اليهودية».

وقبل ذلك في عام ١٩٢١ كان كلاتسكن أكثر صراحة:

«بدلا من انشاء جمعيات لمقاومة الحركات اللاسامية التي تريد أن تسلبنا حقوقنا، أولى بنا أن ننشيء جمعيات تقاوم أصدقاءنا المدافعين عن حقوقنا».

مما تقدم تتضح لنا الأصول المشتركة بين فلسفتي الصهيونية واللاسامية.. وكما يقول يعقوب اغوس في كتابه «معنى التاريخ اليهودي» عام ١٩٦٣ فان الصهيونية السياسية تتفق في تطرفها مع اللاسامية في الايمان بست نقاط:

١ ـ ان الدعوة الى دمج اليهود وتحريرهم في الخارج خطأ.
٢ ـ ان دور اليهودي في الغرب لا يعدو أن يكون «هداما» على حد تعبير مارتن بوبر.
٣ ـ ان كل يهود العالم «طائفة» متجانسة مهما اختلفت اتجاهاتهم السياسية.
٤ ـ على خلاف كل الشعوب والقوميات الأخرى في الغرب، ظل اليهود على تفردهم وتعذر اندماجهم.
٥ ـ اللاسامية تعبير عن المشاعر القومية لأمم أوروبا ومن ثم يستحيل القضاء عليها.

* ـ رد من عامل «اسرائيلي على ارنوني»، بقلم مايك روبين، اللجنة المخصصة للشرق الأوسط، الكتيب رقم ٢، نيويورك ١٩٦٨، ص ١٥.

٦ - اليهودي في صراعه ضد سائر البشرية يستعمل مختلف الأسلحة: الاستغلال الرأسمالي والدعاية الشيوعية، أفيون الدين وحامض الالحاد، رأس المال الأمريكي والكيبوتزات.

ويمكن أن نضيف الى ذلك نقطة سابعة هي:

٧ - ضرورة تحطيم المجتمعات اليهودية في الخارج كحل أخير (جعل حياة اليهود في الخارج مستحيلة على حد تعبير جولدا مائير).

وعندما حققت النازيه أمنية الصهيونيين في التصميم على تحطيم المجتمعات اليهودية في الشتات تعاونوا معها شعوريا ولا شعوريا (كما سنرى في الفصل التالي). بيد أنه عندما بدأت فظاعة نتائج ذلك تتضح لهم، لجأوا مرة أخرى الى سلاحهم المفضل وهو عدم مواجهة الذات واسقاط الذنب على الأغيار وحدهم. وهكذا أصبح الهولوكوست بلا سبب ولا مقدمات منطقية.

واليوم تتكرر نفس اللعبة السيكولوجية في الاسقاط حتى شكا دافيد غيربر في كتابه «اللاسامية في التاريخ الأمريكي»مماسماه «نقص الدراسات الآتية من منظور التحليل التاريخي» لمشكلة اللاسامية.

وفي تقديره أن هذه الدراسات أخطأت في ارجاع اللاسامية الى اعتلال الشخصية «ولم تربط الوعي أو الشعور الفردي بحركة التاريخ. أي أنها لم تسأل أسئلة عن تطور اللاسامية مثل: لماذا الآن وليس حينذاك؟ ولماذا هنا وليس هناك؟ ولماذا اليهود وليس جماعة أخرى؟»(٢٣).

واذا استمر هذا التهرب من مواجهة هذه الأسئلة بدعوى أن «فتح ملف الماضي» مؤلم «فسوف يتجدد الألم لا محالة، وربماعلى نطاق أوسع كلما اتسع نفوذ اسرائيل عالميا. وهذاما حذر منهالكاتب اليهودي موشى منوحين في كتابه «انحلال اليهودية في العصر الحديث»:

«ان لعنة القومية اليهودية (الصهيونية) تسببت حتى الآن في وقوع ضحايا أبرياء كثيرين.. وأنا لا أعني بالضحايا الأبرياء عرب فلسطين وحدهم وانما يهود فلسطين أيضا واليهود الذين هاجروا الى فلسطين. هؤلاء هم الذين سيدفعون يوما ثمنا غاليا جدا لقاء أخطاء زعمائهم وجرائمهم الرهيبة».

هل يكون كثيرا لو قلنا أن الحركة الصهيونية قد تساعد بفظائعها على انتهاء اليهود (كقومية) بأسرع مما كانت تخشى؟ وأنه سيكون من سخرية القدر المفزعة لو أن الجرائم الصهيونية لم تمنع اندماج يهود العالم في الدول التي يقيمون بها وانما عجلت بذلك من حيث لا تريد؟ وأن سياسة اسرائيل قد تجعل يهود العالم يذوبون خلال جيل واحد لا جيلين؟.

---

(٢٣) نقلا عن مجلة أخبار الكتاب اليهودي، حزيران/ يونيه ١٩٨٦.



نقلا عن مجلة الامة الاوروبية الصادرة في باريس عام ١٩٦٨ تحت عنوان «اسرائيل: النازيون الجدد».

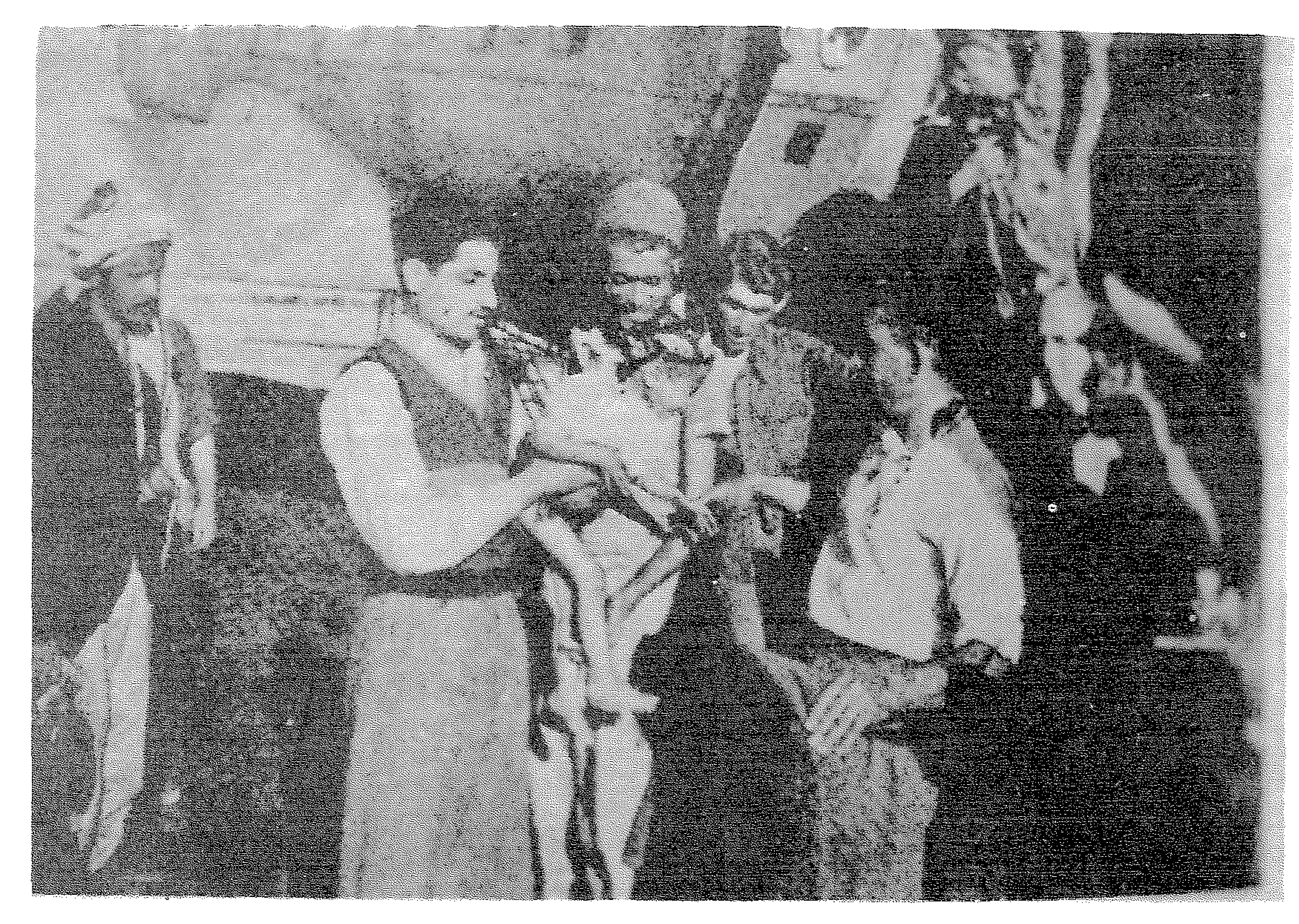


ظل هذا الرسم فترة طويلة على رصيف شارع قريب من مبنى الامم المتحدة بنيويورك بعد غزو اسرائيل لبنان عام ١٩٨٢.



5000

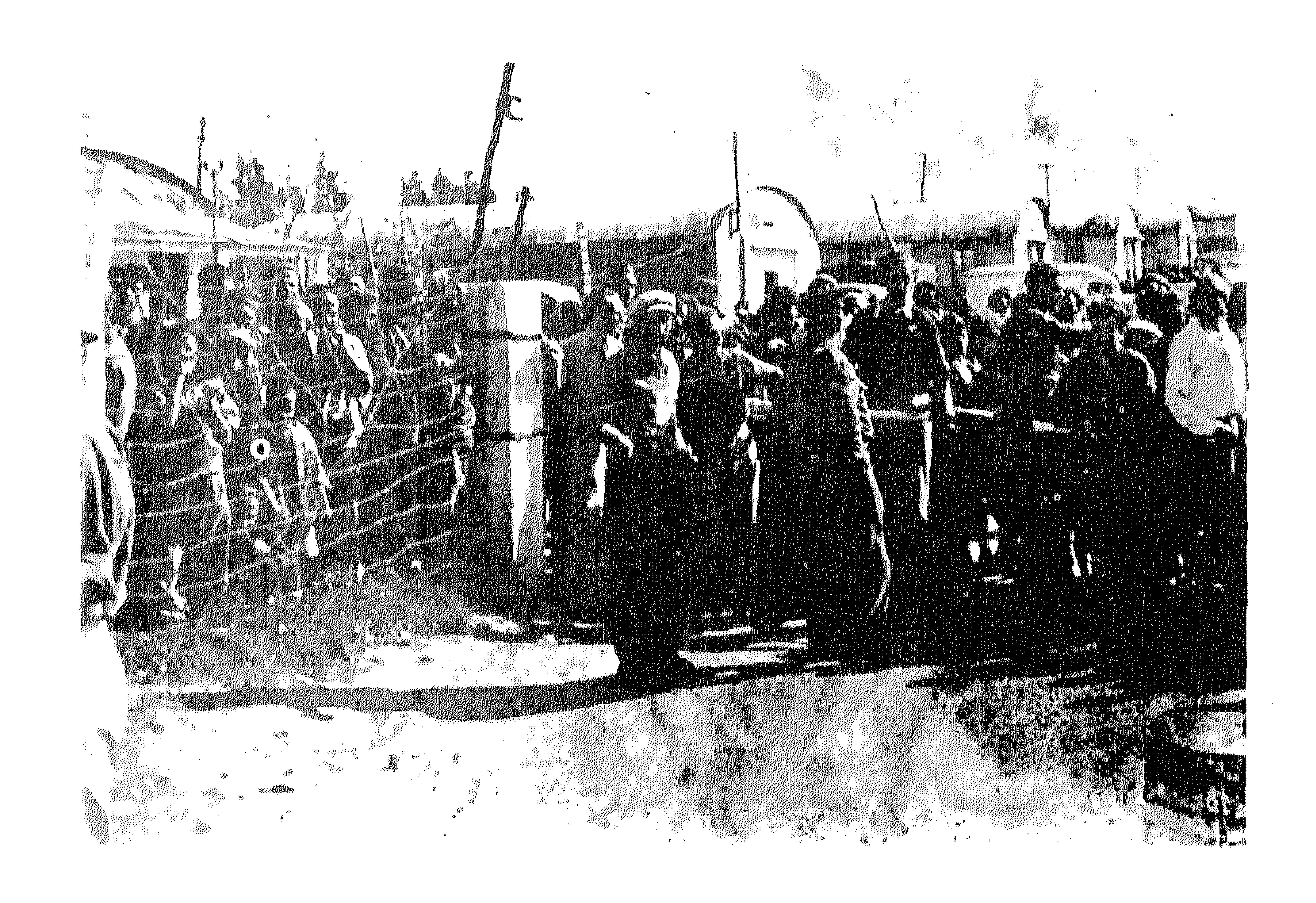
اعلان في مجلة هاعولام هازيه الاسرائيلية يوم ١١/١/١٩٦٧ عن خطف و بيع اطفال من اليهود اليمنيين.واخطار من مستشفى الى ابوين باختفاء طفلهما من المستشفى.



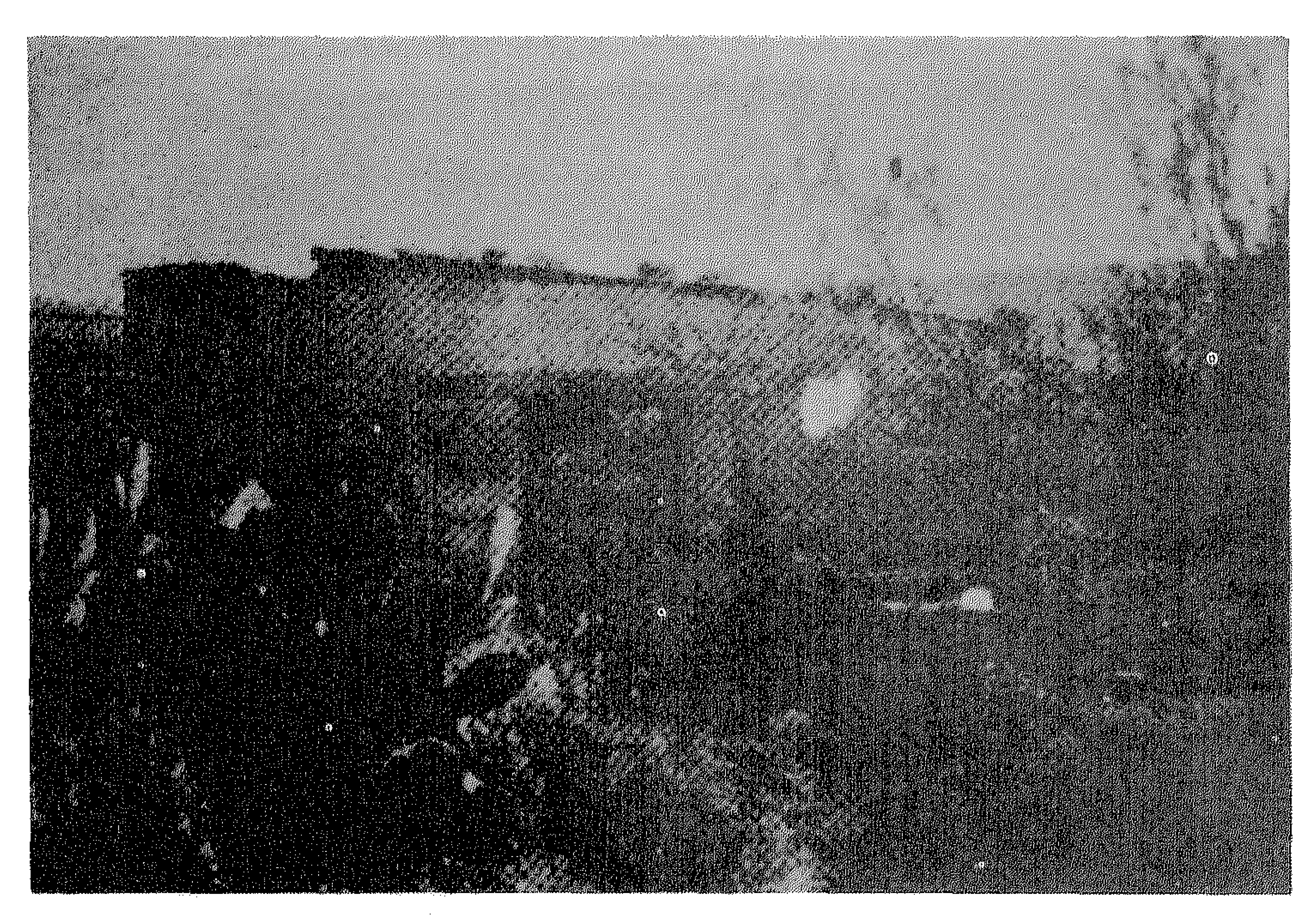
كثيرون من اطفال اليهود المهاجرين من اليمن كانوا يؤخذون للكشف الطبي ثم يختفون. وقد اختفى حتى عام ١٩٦٦ حوالي ٣٤٢ طفلا بيع بعضهم لقاء خمسة الاف دولار (نقلا عن كتاب «ابادة في الارض المقدسة» للحاخام موشي شونفيلد).



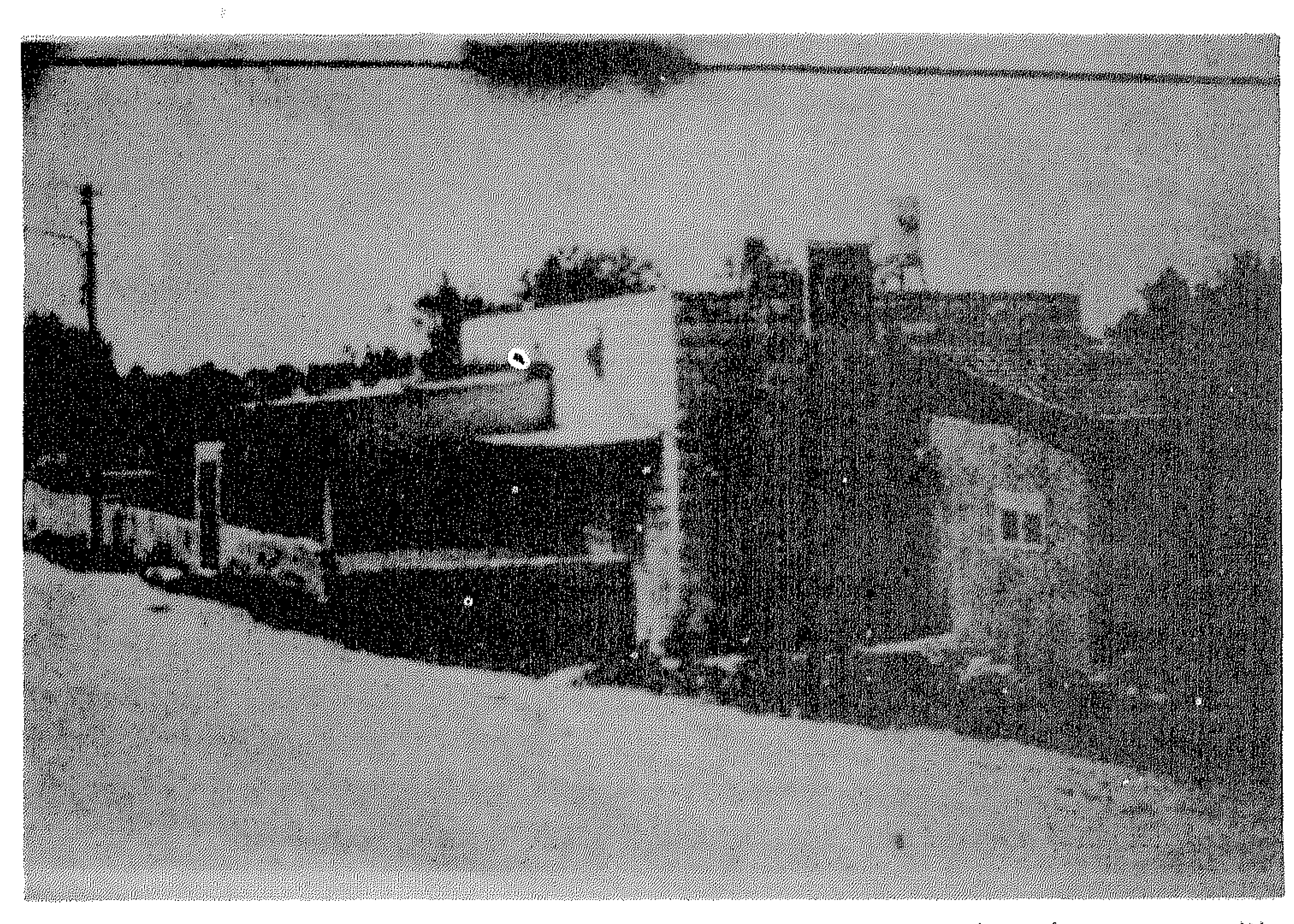
مات كثير من يهود اليمن عطشا عند هجرتهم مشيا عبر الصحراء . وعندما وصلوا اسرائيل وضعوا في ثكنات اشبه بمعسكرات الاعتقال (نقلا عن كتاب شونفيلد) .



الاسلاك الشائكة تحيط بالاطفال اليهود في معسكر عين شيمر باسرائيل (نقلا عن كتاب شونفيلد).



احد البيوت العربية القليلة الباقية من مذبحة قرية دير ياسين عام ١٩٤٨.



منزل يهودي جديد في دير ياسين.



«من يستعبد الآخرين لا يمكن ان يكون حراً»

اوبانكوي ابن شعب الانكا مشيرا الى الغزاة الاسبان عند افتتاحهم القارة الامريكية.

الفصل الثامن

القصة المجهولة: كيف ساهم الصهيونيون في خلق النازية

«عندما سعى بيل غرين عضو الكونغرس الامريكي عن مدينة نيويورك لاعادة انتخابه عام ١٩٨٠، اصدر كتيبا دعائيا تحدث فيه عن منجزاته في عشر فقرات: ثلاث فقرات قصيرة منها عما قدمه «من اجل نيويورك»، وخمس فقرات طويلة عما قدمه «من أجل اسرائيل»، وفقرتان عما قدمه «من أجل اليهود السوفييت»، ولم يذكر شيئا عما قدمه من اجل الولايات المتحدة. ولا عجب اذن أن يكون من السهل على النازية الجديدة ان ترفع رأسها، كما حدث في فرنسا مؤخرا.. فقد كان احرى بغرين ان يكون نائبا في البرلمان الاسرائيلي.»

الكاتب الامريكي اليهودي الفريدليلينتال

«وسوف يتخلون عني وينقضون عهدي معهم، ويومها ساصب عليهم جام غضبي واتخلى عنهم واشيح بوجهي عنهم ويفترسهم الآخرون».

سفر التثنية ١٦:٣١ ـ ١٧

«لا بد ان نقف كجيل لم يكتب عليه فقط ان يتفرج على هلاك ثلث مجموعنا وانما اذنب ايضا بقبوله ذلك دون أية مقاومة جديرة باسمه».

ناحوم غولدمان الرئيس السابق للمنظمة الصهيونية العالمية في سيرته الذاتية

« اكبر درس من الهولوكوست هو اننا لذنا بالصمت عندما كان علينا أن نصيح».

بيرنيس تاننباوم رئيسة منظمة هداسا اليهودية في رسالة الى صحيفة نيويورك تايمز عام ١٩٧٧

في يونيه/ حزيران عام ١٩٢٠ ألقى ناحوم غولدمان رئيس منظمة المؤتمر اليهودي العالمي محاضرة في الطلاب اليهود في جامعة هايدلبرغ صارحهم فيها بأن اليهود كانوا مسؤولين عن هزيمة المانيا في الحرب العالمية الأولى، وعن اضطرابات الثورة التي أعقبتها. فقد «شارك اليهود مشاركة ملحوظة تماما في الحركات التخريبية وفي اسقاط الحكومة في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٨»[1].

منذ ذلك الحين صار جليا أن الصراع بين القومية الألمانية والقومية اليهودية مسألة وقت. ولم تمض على ذلك ثلاثة عشر عاما حتى كان جواب الألمان على هذه الهزيمة بالعنصرية الجرمانية، ثم كان ما

---

(١) معظم الفقرات الأولى من هذا الفصل مأخوذة أيضا من دراسة بنيامين ماتوفو.

كان. لكن الذي دفع الثمن لم يكن الصهيونيون وانما اليهود البسطاء أنفسهم.

بهذا سجل التاريخ أغرب تحالف بين ألد عدوين.

وعندما وقف الفريد روزنبرغ فيلسوف النازية الأول يدافع عن نفسه في محاكمات نورمبرج قبل اعدامه، قال للمحققين بالحرف:

«لقد درست الأدب اليهودي والمؤرخين اليهود أنفسهم. وقد بدا لي عقب حقبة من المساواة السمحة التي ولدتها الحركات القومية في القرن التاسع عشر أن جزءا كبيرا من الأمة اليهودية وجد أيضا طريق العودة الى تقاليده وطبيعته وصار يسلخ نفسه باطراد وعن وعي عن سائر الأمم التي يعيش فيها. وكانت هذه مشكلة نوقشت في عدة مؤتمرات دولية».

هذا القول يشير الى أن اللاسامية النازية لم تأت عفوا وانما كانت رد فعل لهزيمة منكرة في الحرب العالمية الأولى كان المتطرفون اليهود باعترافهم من المسؤولين عنها.

كما أنه يدل على أن عدة مؤتمرات دولية ناقشت هذا «الاغتراب» الصهيوني وأن الموقف النازي من اليهود قد جاء بعد دراسة وتوثيق وتجميع لكل ما قيل ضد الأمة الألمانية، ولم يكن هبّة عاطفية عمياء.

وهذه عينات من الحجج الصهيونية المباشرة التي صارت مستندا لكل رجال الدعاية النازية واستشهدوا بها فيما بعد[٢].

الاندماج خيانة

١ ـ في عام ١٩٤١ نقل فرينفالد النازي عن سيمون دوبنوف المؤرخ الصهيوني المشهور، أنه قال عام ١٩٠٦ في كتابه «تاريخ الشعب اليهودي» (صفحة ٤٤ ـ ٤٦):

«الاندماج خيانة عامة لراية الشعب اليهودي ومثله. الانسان لا يستطيع أن «يصير» عضوا في جماعة طبيعية كالعائلة أو القبيلة أو الأمة. صحيح أنه قد يحصل على حقوق وامتيازات الرعوية في دولة أجنبية ولكنه لا يستطيع الانتساب اليها أو الى قوميتها»[٣].

٢ ـ في أعوام ١٩٣٨ و ١٩٣٩ و ١٩٤١ استشهد الكتّاب النازيون روز وكوينتسر وفرينفالد بما قاله ليوبنسكر الصهيوني الذي اشتهر بمشروعه في «الانعتاق» عام ١٨٨٢ وقال فيه:

«ان جوهر المشكلة في رأينا هو أن اليهود عنصر متجانس متميز داخل الأمة التي يعيشون فيها. وهم على هذا النحو يتعذر عليهم الاندماج، كما يتعذر على آية أمة أن تهضمهم... ان اليهودي ضيف في كل مكان ولا يحس بأنه في دياره اينما كان».

---

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

هكذا شجع القوميون اليهود خرافة «اليهودي التائه». واذا كان هذا شأن الصهيونيين قبل الحرب العالمية الأولى رغم فرص الرخاء والمساواة التي نعموا بها فماذا كان شأن زملائهم في عشرينات وثلاثينات هذا القرن وهم يعلمون أن كل كلمة ينطقونها ستلوكها الأسنان الماضية الحاقدة للنازيين الذين لم ينسوا كيف ساهمت أموال عائلة روتشيلد ومخترعات الدكتور حاييم وايزمان في هزيمة المانيا وتوقيع معاهدة الصلح المهينة في فرساي عام ١٩١٨؟

ومن عجائب الزمن أن الصهيونيين الألمان استطاعوا قبل انتهاء الحرب العالمية الأولى أن يقنعوا الحكومة الألمانية بمزايا وعد بلفور عام ١٩١٧ برغم خصومة المانيا المريرة لبريطانيا حينذاك. ويبدو أن الصهاينة أحسوا يومها أن عهد هجرة اليهود من أوروبا الى فلسطين قد حان فعلا..

يقول يعقوب أغوس هنا: «ان بعضهم بلغت بهم الثقة بامكان العودة الى الوطن أنهم لم تخالجهم ذرة من عذاب الضمير وهم يحطمون أركان المجتمعات اليهودية القائمة حينذاك».

نتيجة ذلك بدأت تظهر علناً تصريحات متهورة مذهلة في غطرستها وتطرفها. ولعل الفقرة التالية التي كتبها يعقوب كلاتسكن فاقت كل ما توقعه الألمان:

«نحن لسنا يهودا من أصل الماني أو ايرلندي.. وانما يهود فحسب. بلا قيد ولا تحفظ. نحن ببساطة غرباء.. شعب أجنبي بين ظهرانيكم.. ونحن مصممون على أن نظل كذلك على الدوام، فالبرزخ الفاصل بيننا واسع.. واسع الى حد أنه لا يمكن اقامة أي جسر لعبوره. ان روحكم غريبة علينا وأساطيركم وحكاياتكم وعاداتكم وعرفكم وتقاليدكم وتراثكم القومي ومقدساتكم الدينية والوطنية وآحادكم وأعيادكم.. كلها غريبة عنا .

«تاريخ انتصاراتكم وهزائمكم.. أغنيات حروبكم، وأناشيد معارككم.. أبطالكم وعظائم أعمالكم، مطامحكم وآمالكم القومية، كلها غريبة عنا... حدود بلادكم لا تستطيع أن تحد من تنقلاتنا والاشتباكات على حدودكم ليست من شأننا. وحدتنا اليهودية تتجاوز بكثير حدودكم وتخوم أرضكم. ومن يدعو أرض الغربة وطن الأجداد خائن للشعب اليهودي. الأبطال اليهود في المعارك الغريبة عنا لا يعنوننا في شيء فليس هناك ما يدعو الشعب اليهودي الى الانعام عليهم بالنياشين لأنهم ليسوا من أبطال اليهود.. اليهودي المخلص لا يمكن أن يكون الا قوميا يهوديا.. ان لنا معشر يهود الشتات وحدة قومية حيثما اقمنا بحيث لا تقدر الحدود على تقييد تنفيذ سياستنا اليهودية.. الديانة اليهودية حافلة بالأسرار والأسيجة التي تصون مجتمعنا من المؤثرات الأجنبية.. انك لا تجد في الوجدان اليهودي أبسط احساس بالانتماء للقومية الألمانية.. بل اننا استطعنا تهويد لغتهم نفسها». (الحقيقة أن الألمان هم الذين «جرمنوا» اللغة العبرية، لأن اللغة المقصودة بذلك (اليديش) خليط من اللغة الألمانية القديمة في القرون الوسطى مع كلمات كثيرة من عدة لغات عصرية حتى صارت لغة لا يفهما غير يهود أوروبا الوسطى والشرقية. ولهذا سميت اليديش أو الايديش نسبة الى «اليهودية». وهي تسمية وضعها أبناء هذه المنطقة وليس اليهود أنفسهم. وباختصار فان اليهود أخذوا من الألمانية ولم يأخذ الألمان من العبرية شيئا تقريبا) .

ثم يلخص كلاتسكن حجته بصراحة:

«نحن لا نعرف حرية العيش الا بين الشعوب التي لم تبلغ بعد سن النضج القومي. **ولذلك سنخسر كل مستعمراتنا (مستوطناتنا) في الخارج عندما تبلغ امريكا هذا السن وينصهر شعبها في بوتقة الوحدة الوطنية».**

الاقتباس الأخير يستحق وقفة وتأملا. فعندما كتب كلاتسكن هذا عام ١٩٢١ كان مركز الثقل اليهودي ينتقل من روسيا الى الولايات المتحدة بعد أن قلبت الثورة الشيوعية كل موازين القوى وصارت الحياة الليبرالية التي يعيش اليهود على تجارتها أمرا مستحيلا. هذا فضلا عن ظهور أمريكا كدولة متزايدة القوة، هائلة الموارد.

ومن الغريب حقا أن الصهيونيين كانوا يدركون منذ أوائل العشرينات أن مصير مستعمراتهم في فلسطين رهن بتبلور الوعي القومي الأمريكي. ومهما بدت لنا العلاقة بعيدة بين المستعمرات الفلسطينية والوعي القومي الأمريكي فان زعماء الحركة الصهيونية كانوا على وعي تام بأن هذا الوعي سوف ينتهي عاجلا أم آجلا الى تفضيل المصالح الأمريكية على المصالح اليهودية في الولايات المتحدة، وبالتالي الى فقدان المؤسسات الصهيونية في الولايات المتحدة كل امتيازاتها الاستثنائية التي تعيش عليها هذه المستعمرات أو المستوطنات كما نسميها الآن خطأ. فقد كان اسم «الكولونية» (أي «المستعمرة») شائعا بين عرب فلسطين ويهودها (حتى ظهور اسرائيل على الأقل) عند الاشارة الى هذه المنشآت.

لا يريدون المساواة

في عام ١٩٢٥ كتب كلاتسكن أيضا:

«لن نحصل على المساواة في الحقوق أينما كنا الا اذا تعهدنا صراحة وضمنا أننا لم نعد طائفة قومية وانما مجرد جزء من كيان الأمة المضيفة، أو تعهدنا بأننا نود الاندماج فيها لنصبح جزءا منها».

وبالطبع لم يقدم الصهيونيون هذا التعهد ولن يقدموه. والمرء لا يجد لذلك تفسيرا، فهناك قوميات كثيرة وطوائف كثيرة قبلت بالتضحية في سبيل ذلك، ولكن القومية اليهودية بطبيعتها وتركيبها التاريخي لا تعرف التضحية، كما أنها لا تريد هذه المساواة أصلا لأنها تفقدها صفة التفرد ومركز «الشعب المختار». (هذا يجعلنا نتساءل عما اذا كان لهذا التفرد وظيفة عالمية لا يحس بها حتى اليهود أنفسهم).

وقد لاحظ هذه الظاهرة منذ القرن التاسع عشر تيودور مومزن الأستاذ بجامعة برلين. ومع أنه كان يدافع بحرارة عن اليهود ضد اللاسامية المتزايدة الا أنه شفع ذلك بنداء الى زعماء اليهود يحضهم فيه على التعجيل باندماجهم في الأمة الألمانية. وفي عام ١٨٨٠ كتب في كتابه «كلمة أخرى عن يهودنا»:

«معظم الجاليات اليهودية التي تعيش في برلين مثلا شريرة قطعا من حيث أنها ليست مجرد طائفة

دينية. وأنا شخصيا لا أرضى بالانضمام الى مجتمع أقيم خصيصا لمساعدة شعب هولشتاين (أقليم في المانيا) فقط.

«ومع احترامي عن جدارة لمنجزات وجهود هذه المجتمعات، فانني لا أرى فيها سوى أعراض الوضع القديم للمجتمع اليهودي المنغلق. واذا أردنا لهذه الأعراض الزوال من طرف فلا بد أن تزول من الطرف الآخر. وما زال أمام الطرفين عمل كثير. فهناك ثمن مطلوب ممن يصبحون جزءا من الأمة. وقد وافقنا نحن معشر شعب هانوفر وهيسه وشلزفيج ـ هولشتاين على دفع نصيبنا من الثمن رغم شعورنا بأننا نضحي بجزء من أعماقنا. فنحن نبذل هذا القربان لصالح أرض أجدادنا كلنا. ثم أن اليهود لا يملكون موسى آخر يعيدهم الى الأرض الموعودة. وسواء باعوا السراويل أو ألفوا الكتب، فمن واجبهم (طالما لم يكن في ذلك ما يخالف ضميرهم ووجدانهم) أن يحاربوا شذوذ وضعهم ويحطموا كل الحواجز والأسوار بينهم وبين أخوتهم المواطنين».

ومن السخرية أن الرد على نداء مومزن جاء سالبا بعد سبعة عشر عاما عندما أقام هرتزل ونورداو المؤتمر الصهيوني العالمي، لا سيما وأن كلا منهما «كان غريبا عن التقاليد القومية الألمانية وعن التقاليد الدينية اليهودية على السواء»*.

بدء العلاقة الشاذة

يتضح من مؤلفات هؤلاء الكتاب (وأحيانا من اعترافاتهم المباشرة) أن آباء النازية في العشرينات قد قرأوا واستوعبوا الخطب والكتابات الصهيونية في العقدين السابقين لها.

قد يقال: من يدري؟ ربما ظل النازيون على تنكيلهم باليهود حتى لو لم يقل الصهيونيون ما قالوا.

لكن لا جدال في أن استشهاد النازيين بكبار كتاب الصهيونية وخطبائها قد سهل عليهم كثيرا اقناع الناس بآرائهم والتأثير بالذات في موقف المثقفين والمحافظين غير المتطرفين من الألمان.

من ذلك أن مثقفا محافظا مثل الدكتور هيالمار شاخت وزير الاقتصاد النازي الذي برأته محكمة نورمبرج بعد الحرب العالمية الثانية قد اضطر في النهاية الى أن يتخلى عن اعتداله ويتقبل المخطط النازي الرسمي ضد اليهود. وقد علل آغوس ذلك بأن اليهودي كان في ذلك الوقت قد أصبح رمزا للعصر الليبرالي الصناعي في نظر الجماهير. وبهذا تحول اليهودي في نظرها الى انسان محايد ذي سطوة ودهاء ولا ينتمي الى شيء.. واللامنتمي عند الجماهير ذات العقلية البدائية ليست له أية حقوق على الاطلاق».

ولم يكن اتفاقا أن الشعار الصهيوني الداعي الى ازالة تجمعات يهود الشتات ورفض مساواتهم بمواطني الدول الغربية قد ظهر علنا بعد عامين فقط من «مذبحة مشرب الجعة» التي قام بها هتلر في

---

* اكتشف الكاتب البريطاني ديزموند ستيوارت في كتاب أصدره عن هرتزل عام ١٩٧٢ أن هرتزل كان لاساميا في شبابه وأنه كان لا يعرف حتى اليديش رغم اتقانه أربع لغات أخرى (وهكذا رد الجميــل لهتلــر الذي كان في شبابه متعاطفا مع اليهود كما ذكر في كتابه «كفاحي»). وأغرب من هذا وذاك أنه كان يعارض انشاء الدولة اليهودية في فلسطين باديء الأمر بسبب ضيق مساحتها وجوها (أنظر كتاب عموس الون «الاسرائيليون المؤسسون والأبناء»، ص ٤١)

أوائل الثلاثينات، أي عندما كان ينشر كتابه «كفاحي» انجيل النازية.

ولهذا السبب نفسه ساند هتلر بشدة قيام دولة يهودية في فلسطين وحول لهذا الهدف ثلاثين مليون جنيه الى فلسطين بين عامي ١٩٣٤ ـ ١٩٣٦. وأبرم عام ١٩٣٣ اتفاقا مع الزعماء اليهود في فلسطين نقل بموجبه ٦٠ ألف يهودي الماني الى فلسطين مقابل المساهمة في وقف مقاطعة البضائع الألمانية في الخارج، وهي حركة كان اليهود يقودونها آنذاك.

هنا يقول بنيامين ماتوفو في دراسته الممتازة عن «الرغبة الصهيونية والفعل النازي»:

«حتى لو سلمنا باستشهاد النازيين بالأسانيد الصهيونية المذكورة فكيف يتحمل أي يهودي جزءا من الذنب على ما ارتكبه الصهيونيون؟وأنّى كان للصهيونيين الألمان في العشرينات والثلاثينات أن يعرفوا أن كلماتهم وتصريحاتهم سوف يستخدمها خصومهم الى أقصى مدى؟».

هنا يدفع الحاخام آغوس بحجة قوية:

«يذهلني المدى الذي تستطيع الدعاية أن تجر الناس اليه. وتعليل هذه الظاهرة ليس في غرابة تفكير الكتّاب وانما في بذور الثورة التي روتها وتعهدتها الحركة السياسية الصهيونية. لقد كانت ثورة على مأساة التشرد اليهودي ـ مأساة كانت حقيقية. بيد أن الثورة لم تكن لتتحقق دون سحق الايمان بعالم ليبرالي حر...». ثم ان مذهب «الغاء مجتمع الشتات اليهودي» كان يعني اسقاط ألفي عام من حساب التاريخ اليهودي وبالتالي الغاء تقاليد الديانة اليهودية منذ فشل الثورة المكابية في القرن الأول الميلادي».[٤]

لا يعنينا هنا من قول آغوس هل كانت مأساة التشرد اليهودي حقيقة أم لا (طالما كان بوسع اليهود الاندماج، خصوصا وأن معظمهم اعتنق اليهودية خارج فلسطين)، وانما يعنينا أن الصهيونيين السياسيين أرادوا حل المشكلة بالطريق الأصعب وذلك برفض كل فرص المساواة (وهذا في حد ذاته يفقد أية ثورة مبررها تماما)، بينما تناضل الأقليات الأخرى بشدة من أجلها.

لنكمل ما يقوله آغوس على أي حال:

«اذا كان على ناشئة اليهود أن ينبذوا مزايا العيش في أوروبا وأمريكا، فقد كان من الضروري أن يتعلموا كيف يقولون لا لكل منجزات اليهود الجمّة في الغرب. ولهذا كان على الدعاية الصهيونية أن تشارك أحيانا تخاريف الحركة اللاسامية العنصرية في ادانتها للنزعة «الطفيلية» للتجارة اليهودية «ولخطيئة العيش في المنفى».

من هذا المنطلق بالذات بدأت العلاقة الشاذة بين النازية والصهيونية والتعاون الحميم بينهما على الأهداف المشتركة.

---

(٤) هانز كوهين: الحياة في ثورة عالمية، ترايدنت، نيويورك، ١٩٦٤، ص ٦٧

ولا يتضح هذا فقط من صمت القوميين اليهود على سحق النازية لليهود غير الصهيونيين مقابل انقاذ الزعماء الصهيونيين، أو من تعاونهم مع الجستابو والصاعقة في تنظيم الهجرة الى فلسطين فحسب، وانما يلوح ذلك أيضا مما سماه برونو بتلهايم « التوحد بالمعتدي» أي تقمص شخصيته. وفي حالات الاضطرابات النفسية كثيرا ما يكون الانتقام هنا من الأبرياء، أي أن السلوك العدواني يتفادى المسيء الأصلي الى شخص آخر. ومعاملة الصهيونيين لعرب فلسطين الأبرياء نموذج صارخ لهذه الحالة.

يقول هنا مثلا الكاتب اليهودي ليبرمان هال في كتابه «عرب اسرائيل» الصادر في نيويورك عام ١٩٤٩: «لقد أصبح واضحا أن القوات الاسرائيلية كانت قاسية مع غير المحاربين العرب، فهناك على سبيل المثل عدد كبير من القرى المنسوفة والمهجورة التي لم يقع قربها قتال أو وقع فيها شيء يسير جدا».

حتى قبل ظهور النازية كان موقف الصهيونية من سكان فلسطين واضحا ومبيتا على تحطيم المجتمع العربي فيه كما نرى مثلا من يوميات هرتزل التي نصت على اجلاء العرب «بلباقة» الى الصحراء، وحتى هذه اللباقة لم تحدث طبعا.

ولم ينتبه عدد من الصهيونيين الى ما ينتظر عرب فلسطين الا بعد أن زاروا الديار المقدسة. وهكذا نجد مارتن بوبر الذي اشتهر بصهيونيته المتصوفة يتحول بعد هجرته الى فلسطين الى فلسفة التوفيق مع الناس جميعا بما في ذلك العرب. وقد أبعدته هذه الفلسفة عن مواطنيه اليهود بقدر ما أبعد نفسه (باعترافه) عن مواطنيه الألمان.

كما نجد مفكرا صهيونيا آخر مثل هانز كوهن يهاجر الى فلسطين ثم يعترف بعد ذلك في كتابه «الحياة في ثورة عالمية» أنه قد أصيب بخيبة أمل جعلته ـ كما يقول ـ يكفر بالصهيونية «بعد سحق الثورة العربية في فلسطين عام ١٩٢٩»(٥).

أما الباقون ـ وهم الأغلبية الساحقة ـ فقد اجتاحوا فلسطين دون أن تهتز ضمائرهم الأوروبية المتمدنة.

وشيئا فشيئا بدا هذا التوحد بالمعتدي النازي يتبلور الى حد التطابق سواء في التفكير النظري أو في الممارسة العملية.

التشابهات النظرية والعملية

نظريا وعمليا نجد تطابقا في النقاط التالية:

١ ـ الايمان بالتفوق العنصري.
٢ ـ الايمان بفلسفة القوة.

---

(٥) ماتوفو، المرجع السابق.

٣ - عسكرية المجتمع.
٤ - التوسع بحجة الوطن التاريخي والأمن.
٥ - سياسة فرض الأمر الواقع.
٦ - الحروب الوقائية الصاعقة.
٧ - التمزيق والفصل العنصري.
٨ - العقوبة الجماعية.
٩ - معسكرات الاعتقال.
١٠- تدني مرتبة المرأة.
١١- عقلانية الوسائل ولا عقلانية الهدف عموما.

لنتناول كل واحدة من هذه المتشابهات الاحدى عشرة بشيء من التفصيل.

١ - التفوق العنصري

ان شعار المانيا فوق الجميع وتفوق الجنس الآري في النظرية النازية يوازي شعار شعب الله المختار عند الصهيونية السياسية. وأحد أسباب التحالف بين اسرائيل وجنوب افريقيا الى حد التعاون الذري هو أن الفاشيين البيض في جنوب افريقيا ينحدرون من طائفة البوير (Boer Voortrekker) التي أقام مؤسسوها مفهوم التفرقة العنصرية رغم انتمائهم الى الكنيسة «الاصلاحية» الهولندية، بحجة أنهم ينتمون الى شعب الله المختار المذكور في التوراة، وأن جنوب افريقيا هي «الأرض الموعودة»، وأن السود من سكانها الأصليين هم أبناء حام الذين حكم الله عليهم في التوراة بأن يكونوا سقائين وحطابين. وهذا يذكرنا بالكلمة المشهورة لأوري لوبراني مستشار رئيس الوزراء الاسرائيلي للشؤون العربية عام ١٩٦٣: «خير للطلاب العرب أن يظلوا سقائين وحطابين». كما يذكرنا بقول الجنرال رفائيل (رفول) عيتان: «الفلسطينيون صراصير في زجاجة»، ويقول دروبلز: «الفلسطينيون سرطان في صفوفنا». والوكالة اليهودية التي تمول التعليم حريصة على نقل هذه «الوصايا» الى التلاميذ. وقد أعد الطبيب النفسي تامران الأستاذ بجامعة تل أبيب استبيانا وزعه على ١٠٦٦ من طلاب المدارس وطلب منهم تقييم ما جاء في سفر يشوع بالتوراة من ابادة سكان المجدل وأريحا. وكانت نتيجة الاستفتاء أن ٦٦ في المائة من التلاميذ أجابوا «ان يشوع أحسن صنعا حين أباد جميع السكان... وأن من الواجب تكرار ما فعله مع العرب». وقد طرد تاميران من الجامعة بعد نشره النتيجة [٦]. ويؤيد اسرائيل شاحاك هذا بشهادة جندي قال ان حاخاما أوصى حاميته في رام الله بتطهير العرب «الكنعانيين» من أرض اسرائيل، كما اسلفنا. ويقول روجيه جارودي ان مشرّعا نازيا للقوانين المتعلقة بنقاء الجنس ذكر في محاكمات نورمبرغ أنه استلهمها من «قانون عزرا ونحميا، وهي اول قوانين كتبت لحماية نقاء الجنس» [٧].

(٦) روجيه غارودي: المأزق، دار المسيرة، بيروت، ١٩٦٨، ص ١٠٩.
(٧) المرجع السابق، ص ٦٢.

ومن سخرية القدر، كما قال حاييم كوهين عندما كان قاضيا في المحكمة العليا الاسرائيلية «ان الأفكار السوسيولوجية العنصرية التي نشرها النازيون في قوانين نورمبرغ البغيضة هي نفسها التي استخدمت أساسا لتعريف «اليهودية» داخل دولة اسرائيل[٨]. ولما كانت قوانين نورمبرغ وتل ابيب تعتبر اليهودي هو من ولد من أم يهودية، فقد كانت السلطات الدينية الاسرائيلية ترجع الى سجلات النازية كلما استلزم الأمر التأكد من يهودية مواطن اسرائيلي. ويقوم على هذا المبدأ قانون العودة الذي وصفته صحيفة يهودية أمريكية بأنه «يعيد الى الأذهان النظرية العنصرية الخطيرة القائلة بأن الفرد الألماني يتمتع بمزايا جنسيته أينما وجد». وبذلك أصبح الشتات (الدياسبورا) الالمـاني صورة من الشتات اليهودي، والمنظمة النازية العالمية (Ausland Organization) صورة من المنظمة الصهيونية العالمية من حيث التعامل مع الدولة الأم مباشرة دون الدولة المضيفة[٩].

ولتفاهة الشر في هذه الحالات جوانبها المؤسفة والفكاهية على السواء. وفي كلتا الحالتين لا يعرف الاسرائيليون ماذا يفعلون. فعندما زار جيمس اندرسون استاذ العلوم السياسية بجامعة سانت كلود الأمريكية الضفة الغربية عام ١٩٧٩ لالقاء محاضرات في جامعة بير زيت شـاهد جنـود الاحتلال يضربون طلاب الجامعة. وعندما صرخ احدهم «ايها الفاشيون» تسمر الجنود كانما صعقتهم صدمة كهربائية تنبهوا معها بكلمة واحدة الى مدى توحدهم مع المعتدي السابق.

ولكنهم كثيرا ما لا يتنبهون الى ذلك حتى لو دار حوار بـين الطرفين. فمن النـوادر الفكاهيـة للعنصرية اللاسرائيلية ما اوردته مجلة تايم في ربيع عام ١٩٧٨ عن فنون المعاملة العنصرية كلما تظاهر الطلاب. فقد حدث في خمس قرى قرب رام الله أن كان الجنود يجمعون بعد الغروب كل الذكور فوق سن الثالثة عشرة ويرغمونهم على الوقوف والقيام بتمارين رياضية طوال الليل. وذات مرة اخذوا مائة عربي ليجمعوا الأعشاب الضارة من المنطقة طول الليل تقريبا. وقال طالب من جامعة بير زيت «كلما استبطأوا حركتنا انهالوا علينا بالعصي واللكمات».. وقال احدهم لي: «شعرك أطول من اللازم. فاجبت ومـاذا عنكم؟ أليست شعوركم كذلك؟ فكان ردهم: نعم ولكن أنتم لا يحق لكم ذلك، لانكم لستم من البشر».

وجاء جنديان آخران وحسما النقاش بجز شعره بمقص للمواشي. ومن قبيل المساواة جزا شعور العديد من زملائه الطلاب. ولم يجد داود بشارة رئيس بلدية بيت جالا تعبيرا افضل من قوله: «لقد أطلقوا علينا ٢٢٠٠ من الهمج».

٢ ـ الايمان بفلسفة القوة

قالت غولدا مئير في سبتمبر / ايلول ١٩٦٩: «حدود اسرائيل هي حيث يقف جيشها». وسبقها دايان في ذلك طبعا اكثر من مرة. وكان فلاديمير جابوتنسكي (الذي لم يكن يخفي اعجابه بموسوليني)

---

(٨) نقلا عن جوزيف ٠ادر، القوانين الأساسية لدولة اسرائيل، نيويورك،، ١٩٦٠، ص ١٥٦.

(٩) المسيري، المرجع السابق، ص ٣٤٦.

يرى أن من الطبيعي أن يرفض العرب التخلي عن أرضهم ومن ثم لا بد من ارغامهم، كما سبق ذكره. ولا بد من التيقظ الدائم بعد ذلك. «فلو سقطت البندقية لحظة واحدة من أيدينا لفقدنا حياتنا». وبذلك يصبح الاغتصاب ضربا من الدفاع يحلل تسمية الجيش الغاصب باسم «قوات الدفاع» وهو نفس المصطلح الذي استخدمه هتلر، مثلما تطلق جنوب افريقيا على جيشها اسم «قوات الدفاع» عن البلاد من «الارهابيين» السود. ويشير سيلزر الى أن كثيرا من المستوطنين اليهود في اسرائيل كانوا يعتبرون النازية حركة «تحرير وطني». كما يروي شختمان أنهم كانوا يهتفون «المانيا لهتلر، ايطاليا لموسوليني، فلسطين لجابوتنسكي»[١٠]. ولكي تبرر اسرائيل استخدام القوة في مشاريعها كان لا بد أن تروج منذ البداية أن العرب لا يفقهون غير لغة القوة. ومن المفارقات هنا أن العرب في تهديداتهم كانوا غالبا يقولون ما لا يعنون بينما كان الاسرائيليون لا يقولون ما يعنون، كما ذكرنا آنفا. وبذلك أصبح الارهاب الحكومي بالتدريج جزءا عضويا من بقاء الدولة. وكان من الممكن قبل عشرين عاما حصر قرارات الأمم المتحدة (الجمعية العامة) وأجهزتها (مثل مجلس الأمن) ووكالاتها المتخصصة مثل (اليونيسكو و اليونيسيف) التي تدين المخالفات الرسمية الاسرائيلية لحقوق الانسان في المناطق العربية المحتلة وتقديرها بالعشرات، أما الآن فيستحيل احصاؤها وأن أمكن القول أنها تبلغ رقما قياسيا بالقياس الى أية دولة أخرى.

٣ ـ عسكرية المجتمع

كان المفكر اليهودي اسحق دويتشر يطلق على الاسرائيليين لقب «بروسيو الشرق الأوسط». فقد أحيت النازية التقاليد البروسية والعسكرية منها بالذات، كما أخذت عنها شعار الصليب المعقوف. وكان هرتزل ذاته معجبا بالدولة البروسية، شأنه شأن أرئيل شارون. وقد انتقد أبا ايبان ما في الصهيونية من «تقديس للبطولة، واناشيد عسكرية، وأزياء واستعراضات عسكرية وجيوش غير رسمية»[١١]. وهناك أشياء أخرى أخذتها اسرائيل عن النازية والفاشية مثل التنظيمات الشعبية والتعبئة الجماهيرية للشبيبة بشكل خاص (منظمات الناحال والجدناع والحومار). وكلمة ناحال مثلا معناها الحرفي «طلائع الشباب المقاتل». وكما كان النازيون يشجعون الزيجات بين ذوي الطول الفارع للاتيان بجيل جديد من العمالقة يقرر مصير أوروبا عدة قرون، تخصص اسرائيل جوائز لزيادة النسل لهدف مماثل عبر عنه اسرائيلي حين قال لخطيبته بعد عام ١٩٦٧ متهللا: «سنقرر مصير العالم لألف عام يا حبيبتي». (ولعله كان يشير بذلك الى النبوءات التوراتية بأن ظهور اسرائيل يؤذن بظهور مسيحهم المنتظر وألف سنة سلام من بعده).

وعسكرية المجتمع تتضح من أن اسرائيل الصغيرة صارت عام ١٩٨٧ ثالث دولة منتجة للسلاح ومن أكبر عشرة مصدرين له في العالم. فهي تصدر منه سنويا بين ١,٢ ـ ٢ بليون دولار يذهب منه بين ٢٥ ـ ٤٥٪ الى أمريكا نفسها وأكثر من ٤٠٪ الى أمريكا اللاتينية، ولها مكتب للمشتريات العسكرية في

---

(١٠) المرجع السابق.

(١١) مجلة تايم، ١١/٤/١٩٨٣.

نيويورك يعمل فيه حوالي ٢٠٠ خبير عسكري وفني ولعب دورا رئيسيا في سرقة أو تهريب الأسلحة والتكنولوجيا العسكرية الأمريكية. [١٢] والعاملون في الصناعات الحربية يمثلون نحو ربع مجموع القوى العاملة وينالون أجراً عاليا. بل إن الجندي العادي ـ كما يقول اسرائيل شاحاك ـ يتقاضى بين ٢ ـ ٣ أضعاف مرتب أستاذ الجامعة. [١٣]

وحيث أن بيع السلاح هو المصدر الأول للبلد من العملات الصعبة فانه يذهب الى كل من هب ودب، سواء لطرفي أي صراع (تركيا واليونان مثلا)، أو لأعدائها (ايران) أو للمنبوذين عالميا (جنوب افريقيا وشيلي). ولسلاحها دور مخرب جدا في أمريكا اللاتينية والجنوب الافريقي، فهي ترسله الى متمردي نيكاراغوا (الكونترا) ولكن معظم ضحاياهم من المدنيين. وساهم سلاحها في قتل نحو ٤٥ ألف هندي أحمر في غواتيمالا حتى عام ١٩٨٥ بشهادة يهودي من أبنائها اسمه فيكتور بيريرا. [١٤] ووصف نائب الكينيست يوسي سريد هذا بأنه «تحول عن الزراعة الخضراء الى الأسلحة الدموية الحمراء» [١٥] بينما وجد نائب آخر أن اسرائيل «لم تعد حكومة لها صناعة للسلاح وانما صناعة للسلاح لها حكومة». [١٦]

وأخطر من ذلك كله أن استمرار قدرة اسرائيل على منافسة الدول الكبرى في هذه الصناعة صار رهنا بتجريب سلاحها على الطبيعة. وهذا يقودنا الى المشابهة التالية.

٤ ـ التوسع بحجة التاريخ والامن

التوحد هنا أوضح والتطابق أكثر.

فكما أن النازية التهمت بولندا والنمسا بحجة الوحدة القومية والوطن الأم (Anschluss) التهمت اسرائيل فلسطين بحجة «الأرض الموعودة» والحدود التاريخية لاسرائيل الكبرى. وكما سطا هتلر على تشيكوسلوفاكيا وفرنسا بحجة الأمن والمجال الحيوي أو المتنفس (Lebensraum) كان المقابل العبري لهذه الكلمة (وهو «شيطاح محيا») ذريعة اسرائيل لضم الجولان وأجزاء من جنوب لبنان حيث يؤتى بالسياح الأمريكيين ليروا فيها رياضات أمريكية يصعب عليهم مشاهدتها في المدن الكبرى مثل الحصان البري الآلي (الروديو).

ونظرا لتداخل النسبي بالمطلق والقومي بالمقدس لا بد من ادخال الوعد الالهي (والتقدم التكنولوجي) طرفين في النزاع، وهو نفس ما بشر به فورستر رئيس وزراء جنوب افريقيا عام ١٩٧٢

(١٢) مجلة لنك، نيويورك، عدد كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٧، ونيويورك تايمز في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٦، وشيكاغو تربيون ١٦/١١/١٩٨٦.
(١٣) مجلة آكشن، نيويورك، ١٤/٤/١٩٨٠.
(١٤) الفجر الأسبوعية، ٢٦/٧/١٩٨٥ نقلا عن مجلة الأم جونز عدد تموز/ يوليو ١٩٨٥.
(١٥) المرجع السابق.
(١٦) لنك، المرجع السابق.

بقوله: «يجب أن لا ننسى اننا شعب الله واننا مكلفون بمهمة» (ومنها طبعا «احالة الصحاري الى جنان»). والحجة الأولى (الالهية) غنية عن النقاش، أما الثانية فيتصدى لها روجيه غارودي بقوله «ان اسرائيل لم تقم في صحراء.. وعندما كان يسكن فلسطين ٥٠٠ ألف،منهم ٢٥ ألف يهودي فقط، كانت من أكبر البلدان المصدرة للفواكه». وذكرت جريدة نيويورك تايمز في ٨ كانون الثاني / يناير ١٩٣٣ ان فلسطين كانت حينذاك «البلد الوحيد الخالي من البطالة»*.

والطريف انه بينما كان الرحالة المسيحيون من أمريكا وانجلترا في القرن التاسع عشر يشيدون دائما «بالجمال الأخاذ لأرض اللبن والعسل» كان نظراؤهم اليهود «يتحسرون على خرابها وتدميرها»، وعلى أنها «موئل للأفاعي وساحة ينعق فيها البوم «رغم انبهارهم «بأصالة» الفلاح العربي في الزراعة وسخريته من انعدام خبرة الرواد اليهود آنذاك. فمهما أحسن عمله فهو ليس خليقا بالأرض والاشجار التي يزرعها العرب الكنعانيون لا قيمة لها، ولا بد من قطعها والتوسل الى كل يهودي في الخارج ان يزرع ويتعهد بالمراسلة شجرة في ارض اسرائيل الكبرى. وهكذا بينما تحافظ الدولة على عشرات الملايين من الاشجار المزروعة بالمراسلة، قلعت او سوت بالارض اكثر من ٨٨٦٥ شجرة فاكهة وزيتون عربية خلال السنوات الاربعين الماضية، وحرقت مئات الدونمات المزروعةُ بالمحاصيل خصوصا خلال منع التجول.

بل ان الأرض لم تكن أصلا ملكا لأهاليها وانما هم ضيوف عليها. اذ يروي المحامي حنا نقارة أن فلاحا عربياً قال لمدير عقارات اسرائيل: كيف تنكرون ملكيتي لهذه الأرض وقد ورثتها عن أجدادي وعندي كوشان (سند ملكية) رسمي؟ فقال له: لدينا سند أهم هو «من دان في الشمال الى ايلات في الجنوب»!

وقال فلاح لمدير آخر: كيف تعرضون ٢٠٠ ليرة اسرائيلية لكل دونم من أرضي؟ فقال له المدير: هذه ليست أرضك وانما أرضنا، ونحن ندفع لكم أجرة حراستكم لأرضنا كنواطير (حراس) طيلة ألف سنة!

ويضحك مدير الكيرن كايمت (الصندوق القومي اليهودي) في سره ثم يقول هامسا: «كثير من العرب يعيشون على أراضي ومبان وممتلكات كنائسية ولا يعرفون أنها أصبحت ملكا للكيرن كايمت».(١٧)

ومع عام ١٩٨٤، كان الفلسطينيون يملكون أقل من ١٥ في المائة من مجموع مساحة أراضي فلسطين الأصلية. لأن اسرائيل استحوذت على أكثر من ٤٠ في المائة من أراضي الضفة الغربية وأكثر من ٣١ في المائة من أراضي غزة(١٨).

---

* عندما عاش العبرانيون خمسة قرون في الصحراء على حافة فلسطين قبل دخولهم مصر كانت اريحا أول مدينة في التاريخ كما يقول العالم الاسرائيلي عمانوئيل عناتي في كتابه الفذ «فلسطين قبل العبرانيين» عام ١٩٦٣. وهو يرى أن فلسطين قدمت حضارة فريدة آنذاك اسماها Valufian Culture، وهي «أقدم ثقافة عرفها الانسان لانتاج الطعام على نطاق واسع وبناء قرى دائمة». وكان أول ما فعله العبرانيون هو هدم المدن الكنعانية في فلسطين« ارض الحليب والعسل».

(١٧) حبيب قهوجي. نشرة الأرض، دمشق ١٩٧٨/٣/٢١.

(١٨) ميرون بنفنستي. مشروع بيانات الصفة الغربية: دراسة في السياسة الاسرائيلية، معهد المشاريع الأمريكية، ١٩٨٤، ص ١٩.

٥ ـ سياسة الأمر الواقع

لا يتورع أنصار اسرائيل عن ابداء زهوهم باتقان هذا الفن بين الحين والآخر. وهم يستخدمون في الغالب مصطلح «خلق واقع جديد» (Creating facts) للاشارة الى ذلك من قبيل المداراة. لكنهم احيانا لا يدارون الحقيقة بحيث تجد صحيفة جوريش كرونيكل تصف بن جوريون صراحة في عيد ميلاده الخامس والثمانين بانه «مهندس سياسة الأمر الواقـع» واستخدمت في هـذا نفس المصطلح الألماني وهو (Realpolitik).

وخطورة هذا السلاح الجهنمي هو أنه يجعل عملية وضع اليد شرعية بالتقادم ومع مرور الزمن. ويمكن بالطعن الغاء هذه الشرعية على مستوى الأفراد إن طعن المرء خلال المهلـــة المحـــددة قانونا، ولكن القانون الدولي يقع في مأزق حين تكون مسألة وضع اليد احتلالا سياسيا وعسكريا على مستوى البلاد كلها، كما هو الحال في موقف الولايات المتحدة من الهنود الحمر وفي موقف جنوب افريقيا من الأهالي الزنوج والملونين. ذلك ان الاستيطان هنا يتخذ مع الزمن طابعا مدنيا انسانيا اوطابع الحق المكتسب على الأقل في نظر الرأي العام العالمي.

خـــذ مثلا ما فرضه الأمر الواقع من تغيير على شعارات الثورة الفلسطينية قبل ظهور (فتح) وبعدها.

قبل ظهور فتح كان شعار الفلسطينيين هو طرد جميع اليهود المهـاجرين الذين ولدوا خـارج فلسطين.ثم أتى الأمر الواقع باعتبارات انسانية جعلت فتح تطور الشعار الى «دولة ديمقراطية لكل سكانها» أي دولة تضم كل من ولد ومن لم يولد فيها. ثم اقتصر المطلب على اقامة دولة للفلسطينيين في جزء منها.

ولا جدال ان ايمان اسرائيل بجدوى سلاح الأمر الواقع كان من أهم أسباب اقتناعها الوهمي بأن الزمن يسير في صالحها.

وهكذا كلما جاءت حكومة اسرائيلية جديدة تذرعت تدريجيا بالضغط الشعبي احيانا وبسياسة الأمر الواقع أحيانا أخرى للنكوص عن تعهداتها. مثال ذلك أن غولدا مئير كانت ترفض ان تكـون الضفة والقطاع جزءا من اسرائيل. ومع ذلك نفذ جزء كبير من مشروع ألون في السنـوات الخمس الأخيرة من عهدها حتى أصبحت معظم أراضي الضفة الغربية (ومساحتها ٢٢٠٠ ميل مربع فقط)«إما مشتراة أو منزوعة الملكية أو مغلقة أو تم الاستيلاء عليها لأغراض مدنية وعسكرية»[١٩]. وانتهى الأمر كما يقول شارون بمولد خريطة جديدة منذ الثمانينات. فالمستوطنات والطرق مترابطة بحيث لم يعد بالامكان صنع شيء حيالها. «ولهذا يستحيل بعد الآن التحدث عن الحل الأردني أو أية تسوية اقليمية، ولا أرى أمام الحكومة أي سبيل لازالة المستوطنات بعد الآن»[٢٠]. وقبل أن تنتهي أيام بيغن تعهد أبا

(١٩) واشنطن بوست ١٩٨٠/٩/٧.

(٢٠) فيلدج فويس ١٩٨٠/١٠/٨.

ايبان بأن حزب العمل سيتخلى طوعا عن الأراضي لو تقلد السلطة «رهنا بحقنا في السلم والأمن والحدود التي يمكن الدفاع عنها». ومع ذلك استمر بناء المستوطنات دون توقف عند عودة شامير الى رئاسة الوزراء، مثلما استمر بيريز وايبان في الحكومة حتى صرنا نترحم على دايان الذي استقال من وزارة بيغن احتجاجا على موقفه من الحكم الذاتي للفلسطينيين.

٦ ـ الحروب الوقائية والصاعقة Blitzkrieg

وأساسها الاحتفاظ بزمام المبادرة العسكرية، حتى أصبحت معظم تحركاتنا العسكرية رد فعل للاعتداءات الاسرائيلية المفاجئة.

ويشرح الجنرال اليعازر هذا الأسلوب بأنه «ضرب الخصم بعد أن يستكمل استعداده وقبل أن يضرب». والواقع أن اسرائيل كانت تضرب حتى قبل أن يستعد الخصم ودون أن يفكر في الهجوم أصلا كما حدث في حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧. وتكاد اسرائيل تنفرد بهذه الهجمات الوقائية (غزو لبنان، والاغارة على المفاعل الذري العراقي وعلى تونس، وخطف الطائرات، ناهيك عن خطف مجرمي الحرب) التي بدأها ملك بروسيا فردريك الأكبر قبل أن تأخذها عنه النازية. وقوام هذه الحرب في أن تتغدى بالخصم قبل أن يتعشى بك هو كثافة الحشد وفق نظرية وابور الزلط (المدحلة أو الهراسة)، ونقل ميدان المعركة الى أرض الخصم من اللحظة الأولى، والاجهاز عليه في أقصر وقت. وكثافة الحشد ومفاجأة الخصم غالبتان عموما على العمليات الاسرائيلية حتى داخل الأراضي المحتلة ولو في عمليات القبض على أفراد أو فرد واحد، مثلما أن زائر الفجر أسلوب مألوف في اقتحام المنازل. والفيلم الأمريكي «حنالك» ينتهي نهاية ساخرة عندما تفتح البطلة باب البيت في القدس للزائر الذي دق الجرس فتفاجأ بكوم صاعق متراكم من العساكر يشهرون الرشاشات في وجهها.

٧ ـ التمزيق العنصري

لم يؤخذ الفلسطينيون من أرضهم فحسب وانما أخذت أرضهم منهم أيضاً. وتغيرت لغتها. وهذه ظاهرة فريدة ينفرد بها الفلسطينيون. فحتى الهنود الحمر وزنوج جنوب افريقيا ظلوا في أوطانهم حتى ولو عاشوا في محتجزات، بينما كان الاجلاء العنصري ركيزة بل شرطا أساسيا لانشاء دولة يهودية في أرض فلسطين الضيقة. وفعل هتلر نفس الشيء عندما طرد ملايين البولنديين من بعض الأراضي التي ضمها الى المانيا. لكن الدرس الذي تعلمه عرب فلسطين عام ١٩٤٨ (فضلا عن ضغط الرأي العام العالمي) منع اسرائيل من نجاح محاولتها عام ١٩٦٧ بنفس القدر رغم الارهاب بالطيران ومكبرات الصوت والقيود الاقتصادية والابعاد. ولا تدخل في ذلك عشرات الآلاف من لاجيء الجولان (المرتفعات السورية). ومما يشرف عرب فلسطين أن كثيرين منهم قد خيّرتهم سلطات الاحتلال بين السجن أو الطرد، فاختاروا السجن، والتعذيب أحيانا.

وجدير بالذكر أن هذا التمزيق العنصري قد امتد حتى الى المناطق التي ضمتها رسميا الى حدودها مثل منطقة القدس والمرتفعات السورية رغم أن سكانها يعتبرون رسميا مواطنين اسرائيليين حسب القانون الاسرائيلي. فالذين غادروها لا يمكن أن يعودو اليها بعد فترة محددة.

وهناك مناطق عديدة (مثل طبريا وتل أبيب وبعض مناطق الجليل) محظورة على عرب اسرائيل، مثلما كان هتلر يحظر على اليهود الخروج من حارتهم الا بتصريح أو جعل بعض المناطق محظورة عليهم (Judenrein).

والمزعج تزايد الحديث مؤخرا في الكنيست عن نقل الفلسطينيين الى الضفة الشرقية لحل مشكلة مزمنة هي التفاوت السريع بين زيادة سكان الأراضي المحتلة وتزايد سكان اسرائيل اليهود. ففي عام الفين سيكون عدد اليهود في كل فلسطين الأصلية أربعة ملايين والعرب ثلاثة ملايين ونيف. وبقاء اسرائيل مهدد سواء انسحبت من الأراضي المحتلة أو ضمتها اليها، ولكنها حاليا عاجزة عن ابتلاعها او لفظها على السواء.

أما على الصعيد الثقافي، فاتخذ التمزيق العنصري أشكالا مختلفة أبرزها مصادرة أي كتاب يذكر اسم فلسطين بالعربية، الا فيما ندر. وعندما أوردت جريدة الفجر المقدسية قوائم متتالية بمئات الكتب المحظورة رسميا، كان منها كتب في التاريخ والدين والشعر. ووجدت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) ووكالة الاغاثة (الأونروا) صعوبة بالغة بعد احتلال ١٩٦٧ في غربلة الكتب المدرسية التي طلبت سلطات الاحتلال استبعادها من المدارس. وبلغ من تشدد الوكالتين في تطبيق القائمة الجديدة المتفق عليها مع اسرائيل حد تطبيقها في مدارس الأونروا في بلدان عربية مجاورة.

وطبقا لازدواج المعيار الاسرائيلي، نجد بعض الكتب العربية محظورة في المناطق المحتلة ولكنها مجازة رسميا في اسرائيل، مثل كتاب «العرب في اسرائيل» الذي كتبه صبري جريس في أوائل الستينات وكان نقطة تحول في فهم ما يجري داخل اسرائيل من تمزيق عنصري للأقلية العربية. بيد أن رفع العلم الفلسطيني محظور سواء هنا أو هناك، وهو جريمة يعاقب عليها القانون.

ومن أحدث ما يذكرني بالمشاهد النازية المأثورة في حرق كتب أعداء النظام علنا في الميادين العامة ما ذكره الكاتب الفرنسي اليهودي ماكسيم جيلان، نقلا عن صديقه صبري جريس، عما حدث لمركز الأبحاث الفلسطينية في بيروت بعد غزوها. فعندما تركوا المركز «كان المكان يبدو كأنما اجتاحته عاصفة... فقد سرقوا كل شيء استطاعوا حمله حتى أجهزة التليفون والآلات الكاتبة». ونكاية بالتراث الفلسطيني، تبرزوا في منتصف كل غرفة من طوابق المركز كلها[٢١].

ونقلت جريدة هيرالدتربيون الامريكية عن استاذه جامعية فلسطينية تقطن فوق المركز انهم فعلوا نفس الشيء داخل شقتها[٢٢].

ومثلما نكلت النازية بالمثقفين، يمتد ارهاب الاسرائيليين الديمقراطيين الى من يحاربون بالكلمة. صحيح أن غسان كنفاني الذي نسفوه بقنبلة موقوتة كان له نشاط عسكري مثل الشاعر كمال ناصر، ولكن ما ذنب مثقفين لهم نشاط اعلامي محض ومع ذلك اغتالوهم (وائل زعيتر) أو ضربوهم (مثل

(٢١) الفجر الأسبوعية ١٩٨٣/١/٢٨.
(٢٢) المرجع السابق.

سعادات حسن ومحمد مهدي) او هددوهم بالاذى (مثل عبدالوهاب المسيري وادوار سعيد)؟

٨ ـ العقوبات الجماعية

دايان يسميها «عقوبة الجوار» تلطيفا لوقعها، ويخطيء من يظن أن هذه العقوبات الجماعية بدأت عام ١٩٦٩ عندما أعلن عنها دايان، فالحقيقة أنها بدأت رسميا من الشهر الأول للاحتلال أي منذ شهر يونيه عام ١٩٦٧ على الأقل، أما بدايتها غير الرسمية فكانت منذ أيام الرواد الأوائل عندما كانوا ينتقمون من أي اعتداء عربي على مستعمرة دجانيا أوروش بينا (الجاعونه) بعشرة أمثاله.

وما فعله النازيون في تشيكوسلوفاكيا ضد سكان بلدة ليديس (ليديتسا) من تدمير شامل لها ولأهلها انتقاما لمصرع قائد قوات الاحتلال قربها قد تكرر حرفيا في قطاع غزة وغيرها.

هنا يقول ديفيد هولدن في صحيفة صنداي تايمز اللندنية في ١٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٦٧:*

«قالت لي مصادر وكالة الاغاثة، وهي مصادر موثوقة عندي، أن الجرافات قد سوت بالأرض ١٤٤ منزلا في معسكر للاجئين في ليلة واحدة. كما كشفت وكالة الاغاثة عن ٢٣ جثة طرحت في قبر جماعي في نفس المعسكر».

ويقدم لنا ادوارد هودجكين رئيس القسم الخارجي بجريدة التايمز البريطانية مزيدا من التفاصيل في عدد ٢٨ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٦٩، فيقول:

«لقد حدث ذلك في رفح في الطرف الجنوبي من قطاع غزة حيث يعيش أفقر اللاجئين. وفي نهاية شهر يونيه/ حزيران ١٩٦٧، شاهدت لأول مرة مدى المغالاة الذي يمكن أن تنساق اليه قوات الاحتلال في محاولاتها اخضاع السكان العرب. ذلك أن قطاعا كاملا من معسكر اللاجئين يضم البيوت البائسة لنحو ١٤٤ عائلة قد سوى بالارض بأسلوب مدروس. هذا فضلا عن زهاء ستين منزلا دمرت بعض سقوفها وجدرانها في منطقة مجاورة بفعل المتفجرات والنيران.

«وقد قال لي اللاجئون أن هذا حصل انتقاما من القاء قنبلة يدوية واحدة على سيارة عسكرية اسرائيلية. وقالوا ان سكان القطاع المذكور في المخيم قد تم اجلاؤهم عن بيوتهم قبل تدميرها. أما سكان القطاعات المجاورة فكانوا ما يزالون نياما في الهزيع الأخير من الليل عندما ألقيت قنابل يدوية على سقوف المنازل وأفنيتها. وقد انهارت عدة مبان وقتل نحو أربعين رجلا وامرأة وطفلا ـ كما قيل لي ـ في هذا الهجوم. وقد أراني الناس قبرا كبيرا وعدة قبور أخرى أصغر حجما وسط الركام وداخل طرقات المعسكر.

---

* اغتيل هولدن في القاهرة عشية زيارة السادات للقدس عام ١٩٧٧ والصقت التهمة بطالب فلسطيني اسمه وليد الأحمد. ولكن اختفاء ملفه في كل من جريدة صنداي تايمز اللندنية واذاعة لندن يبين أن الجريمة كانت من تدبير مخابرات أكثر من دولة واحدة.

«وبعد بضعة أسابيع استطاع رجال وكالة الاغاثة بحجة المحافظة على الصحة العامة أن يحصلوا على تصريح لنقل رفات الموتى. وقد جرت العملية تحت اشراف كبار موظفي الوكالة. ويومها عثروا في أحد هذه القبور على ثلاث وعشرين جثة».

ولم يتغير الوضع كثيرا بعد عشرين عاما. فقد ذكر راديو اسرائيل أن مئات العرب دخلوا المستشفيات بسبب تكسير عظامهم في الأيام العشرة الأخيرة وحدها من ١٩٨٧. وقد قال جندي لجريدة حداشوت الاسرائيلية أن وحدته في قطاع غزة كلفت بدق باب من كل بابين هناك واخراج الشبان لضربهم. وأمعن جندي في ذلك فاتهمه زميل له بالنازية وهدده بالضرب عند تسريحه.*

وأول من نبهني الى تشابه الأسلوب الاسرائيلي والنازي في العقوبات الجماعية قارىء من النرويج كتب الى مجلة نيوزويك الأمريكية في ٢٢ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٦٩ رسالة بامضاء أوسكار جيرهاردسون يقول فيها:

«ان العقوبات الجماعية التي سنها موشى دايان شبيهة بعمليات» حفظ السلام» النازية أيام احتلالها لأوروبا. ففي عام ١٩٤٢ دمرت النازية قرية تليفاج في النرويج عن بكرة أبيها كعقوبة جماعية». واسم «عمليات حفظ السلام» يذكرنا «بعملية السلام من أجل الجليل» التي دمرت بها اسرائيل نصف لبنان، كما أن انتقام اسرائيل الجماعي من الذكور بالذات يذكرنا بنساء قرية باتاكي في رومانيا اللواتي ما زلن يرتدين السواد حدادا على اعدام النازية لكل ذكور القرية انتقاما من هجوم الفدائيين الرومانيين خلال الحرب العالمية الثانية..

هذا وقد دمرت اسرائيل منذ ١٩٦٧ حتى ١٩٧٨ فقط ٢١ ألف منزل في تقدير وزارة العمل الأردنية(٢٣)، وجزء كبير (ان لم يكن الجزء الأكبر) منها راح ضحية أسلوب العقوبات الجماعية. وتقدير هيئة العفو الدولية يقل كثيراً عن ذلك ولكنه على ما يبدو مأخوذ من بيانات اسرائيلية.

٩ ـ معسكرات الاعتقال

تشترك اسرائيل مع النازية الى جانب العقوبات الجماعية في معسكرات الاعتقال التي يحتجز نزلاؤها دون محاكمة بحيث قد يقضي أحدهم أكثر من ثلاث سنوات في المعتقل دون أن يعرف شيئا حتى عن سبب اعتقاله. وهذا لا يشمل طبعا من صدرت ضدهم أحكام بالسجن. وكان وزير الشرطة الاسرائيلي شلومو هيليل قد قدر عدد هؤلاء منذ حرب ١٩٦٧، حتى نهاية ١٩٧١ (عندما بدأ نقل نشاط الفدائيين الى لبنان) بحوالي ٥٤٥٠ شخصا معظمهم من الفدائيين، أي ما يعادل ٧٢٠ الفا من سكان الولايات المتحدة بالنسبة لتعدادها. وهو رقم قياسي طبعا. كما أنه لا يشمل المعتقلين الذين يتجددون

---

* الفجر الأسبوعية في ٨٧/١٢/٣١. وتضيف جريدة الاتحاد الاسرائيلية الى ذلك أن نحو عشرة آلاف من لاجئي معسكر النصيرات بغزة في سن ١٥ ـ ٤٠ سنة أرغموا على قضاء ليلة كاملة في العراء والبرد في ذلك الأسبوع. وخلال ذلك اقتلع المتدينون اليهود آلافاً من أشجار الزيتون والعنب ونهبوا محلات الصاغة والمطاعم وأغنام الرعاة، وحرقوا كنيسة بولس بالقدس للمرة الثالثة. وأظهرت الاستفتاءات أن معظم سكان اسرائيل يؤيدون تصرفات الجيش وتجاوزاته.

(٢٣) جريدة الجمهورية العراقية، ١٩٨٠/٩/٥.

دائما، بحيث يقال أن مجموع من سجنوا قبل انتفاضة ١٩٨٧ من عرب فلسطين يزيد على ١٩ الفا، أي أن ١٢ من كل ألف فلسطيني تحت الاحتلال دخل السجن أو ما زال فيه.* وتقول مصادر منظمة التحرير الفلسطينية أن النسبة أعلى من ذلك بكثير بين الشباب، فالمقدر ان اثنين من كل ثلاثة شبان فلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة دخلوا السجن في وقت ما.

والرقم الأخير يشمل من حوكموا ومن لم يحاكموا، وان كان من الصعب معرفة عدد المعتقلين دون محاكمة رغم تقدير الصحفي الأمريكي المخضرم جورج ويللر انه كان في السجون الاسرائيلية عام ١٩٨٨ نحو ٤٨٠٠ فلسطيني بلا محاكمة، لان معسكرات الاعتقال قد لا يعرفها حتى الاسرائيليون انفسهم، ولم يتسن جمع معلومات مبدئية عنها الا في عام ١٩٧٩ عندما اتضح ان منها نوعين رئيسيين يختلفان كثيرا عن السجون الاسرائيلية العادية المعروفة المخصصة للسجناء المحكوم عليهم او للمعتقلين العابرين من المتظاهرين وغيرهم. والاسرائيليون ينفون وجودها تماما كلما حاول الصليب الاحمر والصحفيون زيارتها.(٢٤).

النوع الأول أقرب الى معسكرات الاعتقال النازية، وبدأت اقامتها في حرب ١٩٦٧ في سيناء في ثلاث مناطق هي النخل وابو سنيمة والقسيمة. وفي أوائل ١٩٧١ اقيمت ثلاثة أخرى على الأقل في وادي موسى (قرب الطور ومنطقة دير سانت كاترين والعريش). ونفي الى هذه المعسكرات ستة آلاف مدني من أقارب رجال المقاومة (حتى أبناء الأعمام أحيانا) من صغار وكبار، وكانت لكل عائلة خيمة واحدة وأحيانا كانت تحشر عدة عائلات في واحدة منها دون متاع أو ملابس اضافية. وكانت تحاط بالأسلاك الشائكة على مقربة من ثكنة للجيش الاسرائيلي وتعزل تماما عن العالم (لا صحف ولا راديو ولا كتب) ولا يسمح لأحد بالخروج منها أو الاقتراب منها حتى الجنود أنفسهم. أما النوع الثاني فهو أقرب الى محتجزات الهنود الحمر التي يحظر على نزلائها مغادرتها دون اذن. وأقيمت ثلاثة منها في منطقة رفح، وكانت تؤوي في ١٩٧٩ نحو ٥٦٠٠ عربي يقيمون في مناطق البيوك وأم الكلاب ومشروع عامر وينتمون الى مئات من العائلات مثل الملالحة وأبو طعيمة وأبو الحصن وأبو سنينة والمصري وأبو شعث. وقد فُصل رئيس تحرير مجلة تي. في غايد الأمريكية (التي توزع ملايين النسخ) عندما نشر معلومات عنها كما أسلفنا.

كانت هذه المعسكرات جحيما لنزلائها، فاغلبها من الخيام (شأن معسكر الانصار الشهير في لبنان والنقب)، بينما كان نزلاء معسكرات النازية يقيمون غالبا في ثكنات خشبية. كما انها كانت عرضة لعوامل الطبيعة القاسية كالريح والشمس اللاهبة التي تبلغ احيانا ٥٠ درجة مئوية، بينما كانت نظيراتها النازية مزودة بالتدفئة كما يشهد بذلك مسلسل الهولوكوست الأمريكي.

---

* في الشهر الأخير فقط من عام ١٩٨٧ اعتقلت اسرائيل بالجملة حوالي ٤٩٠٠ شخص معظمهم دون العشرين ودون تحقيق، وقبل ذلك بشهرين اعتقلت في القدس وغزة حوالي الألفين. ونظرا لازدحام السجون والمعتقلات فقد وضع بعضهم داخل مناطيس لنقل البضائع بعد ثقبها بثقوب صغيرة في جدرانها للتهوية. وهذه الحاويات تذكرنا بالفلسطينيين الذين رسم غسان كنفاني شخصياتهم في روايته «رجال في الشمس».

(٢٤) جيروزاليم بوست، ٢/٢/١٩٧٢.

وبعد استرداد سيناء نقلت بعض هذه المعسكرات الى صحراء النقب. ثم أخذت تتزايد في جنوب لبنان تدريجيا خصوصا بعد اجتياح بيروت. وحتى نهاية عام ١٩٨٣ كان معدل نزلاء معسكر الأنصار في لبنان يبلغ خمسة آلاف وفي ذروته ضعف ذلك[٢٥] ووصف صحفيان اسرائيليان رائحة المعسكر بأنها «مزيج من دخان العادم وزيت الدبابات والمركبات المقاتلة الأخرى، وعفن المجاري، ورائحة عرق الآلاف من الناس المكدسين فوق بعضهم البعض طيلة أكثر من عام». وحدثت عدة ثورات عنيفة شبه مجهولة في المعسكر أقرب الى الملاحم وانهار معها احساس الحراس بالأمن.. فجميع المعتقلين الخمسة آلاف في المعسكر تقريبا كانوا منظمين حسب عضويتهم في التنظيمات الفلسطينية. ولهم ضباطهم من مختلف الرتب، ولجانهم الثورية ومجالسهم الثورية، وصناعة كاملة من بدائل الاسلحة (شحذت الملاعق مثلا وأحيلت الى سكاكين). ولهم دروسهم الرياضية التي يصرفون بها انظار الحراس الاسرائيليين. كما ان لهم حراسا على السقوف، ولهم محاكمهم التي تسكت افواه الوشاة، مثلما ان لهم دروسهم ومحاضراتهم.[٢٦] وبعد انسحاب اسرائيل من لبنان انتقل معسكر الأنصار ـ ٢ الى صحراء النقب بنفس الأحوال تقريبا*.

١٠ ـ تدني مرتبة المرأة

كان هتلر يؤمن أن المرأة لا تصلح الا لثلاثة أشياء «المطبخ، الأولاد، الكنيسة». ومرة أخرى نلاحظ هنا العلاقة العضوية بين استغلال الدين واستغلال المرأة. فالصهيونية نظريا (على الأقل في التشريعات الاسرائيلية) تقضي بتكافؤ الفرص بين المرأة والرجل. أما في الممارسة العملية العلمانية فالتمييز شائع ضدها. «فهناك خرافة كاملة تحيط بالمرأة الاسرائيلية» كما ذكرت فرجينيا سنيتوف في الاجتماع السنوي لنساء الولايات المتحدة واسرائيل[٢٧]. بل ان «وضع المرأة في اسرائيل يزداد سوءاً».

على حد قولها. وقد انفجر الموضوع مرة واحدة في معظم الصحف الأمريكية في نهاية ١٩٨٤ وأوائل ١٩٨٥ بسبب «عدم تكافؤ الفرص والمكافأة» كما ذكرت اليس شاليفي الرئيسة السابقة لقسم الآداب في الجامعة العبرية» وهو انطباع رأت أنه «عميق التأصل في وجدان الرجل والمرأة على السواء»[٢٨] فالمرأة هناك تكسب ٤٠ في المائة أقل من الرجل لقاء نفس العمل، و ٤٪ منهن فقط في مناصب قيادية. وعددهن في البرلمان أقل من عدد الفلسطينيات في المجلس الوطني الفلسطيني (البرلمان) حيث يبلغن العشرات. ولا يحق للمرأة ان تشهد في محاكم الأحوال الشخصية أو أن تكون قاضية أو محامية فيها.

---

(٢٥) يديعوت أحرونوت، ١٩٨٣/٩/٢١.

(٢٦) نفس المصدر.

* التعذيب ايضا شائع في السجون والمعتقلات عموما. وذكرت رابطة الدفاع عن الاسرى والمعتقلين في ١٩٨٦/٤/١٦ ان اكثر من ٨٠ فلسطينيا قتلوا في السجون منذ عام ١٩٦٧ واحياناً تستأصل بعض الأعضاء الحيوية من السجناء للتجارب المعملية أو لنقلها الى اسرائيليين، على طريقة الدكتور النازي جوزيف منقيلي.

(٢٧) جريدة ستاتن ايلاند آدفانس، ١٩٨٤/١١/٢، نيويورك.

(٢٨) نفس المصدر.

وأخطر من ذلك «تزايد العنف ضد المرأة داخل البيت أو خارجه... وضد الأطفال العزل»، بحيث أن طفلا من كل ستة في اسرائيل يلقى معاملة سيئة في تقدير جريدة هارتس[٢٩]. ولم يخل الجيش من ذلك، فقد حدثت حالات انتحار بين المجندات بسبب تكرار الاعتداء عليهن.

وشكت فرجينيا سنيتوف من عدم اهتمام الدولة كما ينبغي بالنساء المعتدى عليهن. ومن أن دارا لمعالجتهن مهددة بالاغلاق لعجزها عن دفع الايجار الشهري رغم ضآلته (٢٠٠ دولار)، واستنجدت في المؤتمر بزميلاتها الأمريكيات. وجدير بالذكر أن القانون يجيز الاجهاض ويفرض الخدمة العسكرية على المرأة، ولكن الجهات الدينية تحاول تغيير ذلك.

١١ ـ عقلانية الوسائل ولا عقلانية الهدف عموما

بالرغم من عدالة قضية فلسطين، فاننا كما يقول الدكتور أنيس صايغ، نحارب بأسلحة متخلفة لا تتفق مع عقلية العصر، بينما تحارب اسرائيل التي تقوم على عقلية بدائية أسطورية بوسائل عقلانية عصرية جدا أبرزها الحديث الدائم عن الديمقراطية، والسلام، واحالة الصحراء الى جنان، وحقوق الانسان في الهجرة والحرية والعبادة (من جانب واحد طبعا).

ثمة مظهر آخر لذلك هو القدرة الصهيونية الهائلة على التبرير (وهي موهبة ملحوظة في المصابين بالبارانويا). فكثيرا ما تجد مفكرين وأكاديميين اسرائيليين يتسم الواحد منهم «بذكاء خارق ومقدرة تحليلية فائقة» ومع ذلك تراه قد «دخل عالم الأسطورة ولم يخرج منه»[٣٠]، وأحيانا ينتهي من المقدمات المنطقية الى استنتاجات عكسية (مثل حق الدولة الديمقراطية في أن تقوم على وعد الهي). والمدافع الصهيوني يستخدم عادة في مساجلاته كل حيل المنطق، شأن المحامي البارع الذي لا يهتم بحقيقة المتهم وهل هو مذنب أم لا بقدر اهتمامه باقناع الناس ببراءته حتى لو كان يعلم أنه مذنب، وأدق مثل على ذلك هو الستار الحديدي المضروب على ترجمة الصحف والكتب العبرية بحيث أن اسرائيل شاحاك رئيس الرابطة الاسرائيلية للحقوق المدنية الانسانية ينفق وقتا كثيرا في ترجمتها الى المراسلين الأجانب المندهشين.

وأحيانا أخرى يبلغ التظاهر بالعقلانية درجة التواطؤ السري على غرار أسلوب المحامين. وذات مرة دارت محاورة بيني وبين اسرائيلي متعاطف مع حقوق الفلسطينيين استنكر خلالها هجمات الفدائيين على المستعمرات الاسرائيلية وقتلهم الرياضيين الرهائن في مذبحة ميونيخ. ولما قلت له ان كل اسرائيل تعرف أن هؤلاء الرياضيين قتلوا برصاص القناصة الألمان لا الفلسطينيين، قال لي مذهولا: «كيف عرفت ذلك؟» ثم تمالك نفسه وحاول تغيير الموضوع، ولكن كان الوقت قد فات. فقد أدرك أنني قرأت مثله كتاب المحدال (التقصير) الذي كتبته صفوة من الصحفيين الاسرائيليين المعروفين.

كل هذه الأساليب استخدمتها النازية في اقناع الشعوب بأن مهمتها التوسعية حضارية وأن

---

(٢٩) نفس المصدر.

(٣٠) المسيري، المرجع السابق.

عليها أن تأخذ القدوة من الجنس الآري، وأن الغاية تبرر الوسيلة مهما بلغ شذوذها. وعندما شاهدت في نيويورك فيلما وثائقيا فيه مشاهد من الوجود العسكري الاسرائيلي في جنوب لبنان، لم أتمالك نفسي من الضحك (الدهشة من حولي) عندما رأيت لقطة تصور جنودا اسرائيليين يعزفون خماسية بوكيريني الشهيرة للفلاحين اللبنانيين المتفرجين عليهم. فقد ذكرني ذلك بالضباط الألمان «المتحضرين» الذين كانوا يذهبون الى دار الأوبرا بعد انتهائهم من عملهم في معسكرات الاعدام النازية.

* * *

مشابهة أخيرة بين الصهيونية والنازية أدخرها للمستقبل وربما أكدت صحتها السنوات القادمة.

في أيام هتلر كان عامة الألمان يقدسون النازية وزعيمها بجنون، فهذا زعيم وطني رد للأمة كرامتها وكبرياءها وقضى على البطالة المتفشية بين عشية وضحاها. فلا عجب أن دان كل الشباب والأطفال والنساء بفلسفة هذا المعبود المهووس.

لكن حين جاءتهم الحرب العالمية الثانية ودفعوا الثمن غاليا نيابة عن هتلر، كفروا جميعا بها وصاروا يتبرأون منها خجلا أو خوفا أو عارا حتى صار المرء يعجب أين تبخرت ملايين المتحمسين الذين كانوا ينتسبون فخورين الى تنظيم نازي أو آخر.

وأكاد أجزم أن يهود اسرائيل سوف يكفرون بالصهيونية ويتبرأون منها عندما يدفعون الثمن غاليا من الحرب وخرابها وبؤسها ان لم يباركوا ساعتها محاكمة زعماء الصهيونية كمجرمي حرب مثلما حوكم النازيون في نورمبرغ.

وهناك الآن أصلا في الصحافة الاسرائيلية من يعتبر بيغن وشارون وموشى دايان مجرمي حرب. كما أن هناك من يعتبر اسرائيل دولة نازية فعلا مثل اسرائيل شحاك الرئيس السابق للرابطة الاسرائيلية الحقوق المدنية والانسانية، والكاتبان سفيلا وتميرمان.

في أواخر عام ١٩٧١ أرسل خمسة وثلاثون مثقفا اسرائيليا رسالة الى غولدا مئير رئيسة الوزراء يحذرونها فيها «من تقاعسها عن السلام ومن عاقبة ذلك على البلاد». وبرر أحدهم وهو يهوشوا آريلي الأستاذ بالجامعة العبرية توقيعه على الرسالة بقوله: «ان قوة اسرائيل الحالية وهمية لأن عشر سنوات أخرى من المواجهة العسكرية الباهظة الثمن ستجعل حياتنا شاقة الى درجة تكفي لتحطيم البلاد»[٣١].

ورأى الدكتور عمنون روبنشتاين العميد السابق لكلية الحقوق بالجامعة العبرية أنه «رغم تأييد معظم السكان لموقف الحكومة المتصلب كما أظهرت الاستفتاءات فان من الخطأ الاعتماد على استفتاءات متقلبة كهذه. ذلك أن التأييد الكبير لسياسة الحكومة سببه الاعتقاد بأنها ستنجح» (بغض النظر عن مدى أخلاقيتها)... «وعندما ندفع الثمن غاليا تبدأ علامات الاستفهام القلقة في الظهور»[٣٢].

---

(٣١) الغارديان البريطانية، ٢٧/١/١٩٧٢.

(٣٢) هآرتس، ٢٤/١٢/١٩٧١.

على أن أقوى تحذير جاء من جريدة الأوبزرفر البريطانية في أوائل مارس/ آذار ١٩٧٣ حين قالت تعليقا على غطرسة اسرائيل حينما أسقطت الطائرة المدنية الليبية فوق سيناء وقتلت أكثر من مائة من ركابها:

«قد لا يستطيعون (أي العرب) عبور القناة أو تحرير الجولان ولكنهم سيستطيعون الضرب داخل اسرائيل. ومهما بلغ عنف الردع الاسرائيلي، فان أية خسائر مهما كان حجمها تعادل تدمير مدن اسرائيل وتحطيم قدرتها على السيطرة مستقبلا على الشرق الأوسط».

ومع أن العرب أثبتوا أنهم «يستطيعون» عبور القناة أيضا، وكان هذا وحده كفيلا ببدء الزلزال الذي ما يزال يهز اسرائيل حتى الآن، فان كامب ديفيد أعادت للاسرائيليين ثقتهم بقدرتهم على العربدة في المنطقة الى أن أوقعوا أنفسهم ـ مثل هتلر ـ في فخ التوسع الزائد. وقد استوعب نابليون من ثلوج روسيا درسا موجعا لكبرياء عظمته فقرر الانسحاب. ولكن يبدو حتى الآن أن اسرائيل ـ مثل هتلر أيضا ـ عاجزة عن اتخاذ مثل هذا القرار، لاعتبارات أعقد ومنها ما يذكره المتطرفون في البرلمان الاسرائيلي وهو أن «العودة الى الله معناه العودة الى الضفة الغربية»(٣٣).

فاذا جاءتهم كارثة كبرى مثل النازية عاودهم غباؤهم الأزلي وحمّلوا الاغيار وحدهم مسؤوليتها ونسوا شططهم، فتدور الدائرة عليهم مرة أخرى، وللمرة الألف، الى أن ترتفع الغشاوة عن أعينهم ويستوعبوا أخيرا القانون الأخلاقي غير المرئي وسنة التاريخ.

---

(٣٣) شاحاك، المرجع السابق.

الفصل التاسع

سلاح تخليد اللاسامية: ديانة جديدة اسمها الهولوكوست

«يشعر بيغن بانه يحمل التاريخ الفاجع للشعب اليهودي، واحساسه بالهوة الفاصلة بين اليهود وبين من يسميهم بالأغيار يجعله يتجاهل أي نقد على أساس أنه نوع من اللاسامية او الخيانة. لقد جردته تجربته في المحرقة (الهولوكوست) من اي احساس بآلام اي انسان من غير اليهود، وجعلته يصم اذنيه عن اي وعظ اخلاقي. انه رجل عفا عليه الزمن».

ميرون بنفنستي نائب عمدة القدس السابق

«الانشغال بالهولوكوست وضحاياه والناجين منه يهدد باحلاله محل التمسك بالدين كمصدر للهوية اليهودية الدينية والالتزام اليهودي»

الحاخام ارنولد وولف بجامعة ييل، عام ١٩٨٠

«الهولوكوست أحيا الدولة وأمات الدين بحجة ان الله الظالم قد مات»

بيتي فريدمان في كتابها «المرحلة الثانية»

«عبادة الموت اعلى مراتب عبادة التاريخ، وبالتالي اعلى مراحل عبادة الذات»

المؤلــف

في ابريل/ نيسان عام ١٩٧٢ قرأت في نشرة اتحاد الاذاعات الهولندية أن البرلمان الهولندي قرر اطلاق سراح ثلاثة من مجرمي الحرب العالمية الثانية هم كوتالا وفيشر وفونتين، ثم لم يلبث أن سحب قراره لأسباب مجهولة رغم أن الثلاثة صاروا شيوخا وقضوا في السجون ما فيه الكفاية وأكثر.

وفي نفس الوقت عرض في هولندا فيلم عنوانه «هل فهمت الآن لماذا أبكي؟» وهو حول عذاب أحد الضحايا الأحياء لمعسكرات الاعتقال حتى ذلك الحين. وكان الفيلم التلفزيوني مؤثرا حتى أن الرسائل انهالت من المشاهدين على الحكومة والبرلمان.

أرسلت خطابا لاتحاد الاذاعات الهولندية أسأل فيه عن مدى تأثير الفيلم على نقض البرلمان لقرار العفو، وعما اذا كان بطل الفيلم يهوديا، وعما اذا كان النزلاء والضحايا اليهود أغلبية في معسكرات الاعتقال النازية (خاصة معسكر بوخنفالد الذي زرته عام ١٩٦٧ وفوجئت عندما علمت أن اليهود فيه كانوا يمثلون أقل من ربع مجموع النزلاء).

جاءني الرد من جهة غير متوقعة هي معهد الدولة الهولندي لوثائق الحرب في امستردام.. ومن المعروف أن مثل هذه الجهة يسيطر عليها أنصار اسرائيل سيطرة مطلقة الى حد أنهم صاروا يحدون

من توظيف غير اليهود فيها. وهذه السيطرة أقل نسبيا في بولندا ولكنهـا تضمن بقاء النـظرية التي ابتدعها ديترتش وروّجها الجنرال الأمريكي لوشيوس كلاي في محاكمات نورمبرغ وهي أن ستة ملايين يهودي ماتوا في معسكرات اعتقال مثل آوشفتس ومايدانك وسوبيبور وشلمو وتربلنكا.

تجاهل الخطاب الرد على السؤال الرئيسي وهو مدى تأثير عرض الفيلم على نقض البرلمان لقراره بالعفو عن الشيوخ الثلاثة، واكتفى بالقول أن بطل الفيلم غير يهودي، وأن معسكر بوخنفالد لم يكن معسكرا للابادة (Vernichtungslager) وانما معسكر اعتقال ولهذا فان الذين قتلوا فيه خلال فترة عمله بين عامي ١٩٣٧ و ١٩٤٥ لم يتجـاوز ٣٥ ألفا من مجمـوع ٢٥٠ ألف سجين فيـه من شتى الجنسيات (١٤ في المائة). أما اليهود فقد مات منهم في المعسكر ثمانية آلاف فقط من مجموع ثلاثين ألف يهودي نزلوا فيه (أي بنسبة ٢٦ في المائة). واستنتج كاتب الخطاب من ذلك أن اليهود قاسوا أكثر من غيرهم، ولكنه مع ذلك لم يفسر لماذا كانت نسبة القتلى اليهود في المعسكر الى مجموع القتلى فيه من مختلف الجنسيات ثمانية آلاف الى ٣٥ ألف (٢٣ في المائة فقط)، أي أن اليهود فيه قاسوا أكثر من غيرهم بفارق ٣ في المائة فقط.

أرسلت خطابا آخر مباشرة الى المعهد المذكور أطلب فيه ردا على السؤال الرئيسي وهو علاقة الفيلم بنقض البرلمان لقرار العفو، ولم يصلني رد. وعندئذ ازداد ارتيابي في أن أنصار اسرائيل وراء انتاج هذا الفيلم.

مهزلة ايخمان وبورمان

تلك واحدة من محاولات كثيرة لاستعباد العالم الغربي بعقدة الذنب، وكانت أسخفها مهزلة البحث عن مارتن بورمان مساعد هتلر. فخلال السنوات الثماني والعشرين التي أعقبت انتهاء الحرب العالمية الثانية قبض في أمريكا اللاتينية وحدها على ١٦ شخصا بشبهة أنهم مارتن بورمان وأفرج عنهم جميعا بعد أن ثبتت براءتهم، الى أن عثروا في النهاية على جمجمة بورمان عام ١٩٧٢.

ويعترف الدكتور سيمون فيزنتال، صيّاد النازيين الأول، أنه كان وراء اعتقال نحو ١١٠٠ مجرم حرب حتى عام ١٩٨٧. لكن مجموع من جرى التحقيق معهم بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٧٨ بلغ ٨٢٦٦٧ شخصا أدين منهم ٦٤٢٥ **(٥ في المائة فقط)**

وتقل نسبة الادانة هذه مع تقادم الزمن. فقد كانت تبلغ خلال العشرين عاما الأولى (١٩٤٥ ـ ١٩٦٤) ٩,٩ في المائة فقط، بينما هبطت بين عامي ١٩٦٥ ـ ١٩٧٦ الى ١,٥ **في المائة فقط**[1].

وفي عام ١٩٧٦ قدرت الدوائر الألمانية الغربية عدد مجرمي الحرب قيد التحقيق أو المحاكمة بنحو ٦٠٠ فقط بينما قدرتهم اللجنة الأمريكية اليهودية حين ذاك بنحو ٤٧٠٠ يعيش منهم حوالي ٤٠٠ في الولايات المتحدة (منهم ثلاثة يهود) هذا الى جانب ٢٠٠ آخرين اتخذت وزارة العدل الأمريكية اجراءات

---

(١) نشرة الوكالة التلغرافية اليهودية، ١٩٧٨/٧/٥.

لمقاضاتهم[٢]. وتقدر اليزابيث هولتسمان النائبة العامة في بروكلين أن أكثر من ألف نازي سابق يوجدون في كندا[٣]. ولعبت هولتسمان دورا رئيسيا في الضغط المستمر على الحكومة الأمريكية حتى أنشأت وزارة العدل الامريكية في ١٩٨٠ مكتب التحقيقات الخاصة لتعقب النازيين، الذي كان في عام ١٩٨١ يقاضي ١٩ متهما ويحقق مع ٢٠٠ امريكي آخر. ومع ذلك لم تتورع هولتسمان عن اتهام امريكا بالتواطؤ، وعن الدعوة الى اجراء «دراسة دقيقة في الدور السري المشين لحكومة الولايات المتحدة في مساعدة مجرمي الحرب النازيين وحمايتهم والتعاون معهم بعد الحرب العالمية الثانية»[٤]. فماذا عن دور القوميين اليهود «غير المشين»؟

هل اكتفوا بالصمت؟

ويقول فيزنتال: يسألونني لماذا تطارد مجرمي الحرب والموت ينتظرهم؟ وردي ان لهذا آثرا بالغ القيمة، نفسانيا وأخلاقيا وتعليميا وحتى سياسيا[٥].

ولا أدل على قيمة هذا الاثر السياسي من قلة الحديث عن مجرمي الحرب اليهود في امريكا، ناهيك عن الحديث عمن تعاونوا مع ايخمان. وقبل ان نتحدث عن هؤلاء الأعوان، تجدر ملاحظة ان فيزنتال يتعاون مع المخابرات الاسرائيلية مباشرة، على الاقل من خلال مركز الوثائق اليهودية في حيفا الذي تتبعه وكالة مركزية جامعة تنسق وتجهز نحو ٢٠ مليون مستند تدين مئات النازيين الالمان (من غير اليهود طبعا). وتتعاون اسرائيل بدورها مع ضابط امريكي يهودي سابق اسمه دان سيمون المسؤول عن محفوظات الحزب النازي في برلين الغربية، وهو مركز يضم اطنانا من الوثائق عن الملايين من اعضاء الحزب النازي وضباط الصاعقة، وبيانات شخصية عن نشاطهم. وقيل في البداية ان المانيا الغربية رفضت استلام المركز من الأمريكيين رغم انها تدفع نفقاته، وربما لكثرة حساسية ما فيه من معلومات، ومع ذلك فهو مفتوح للحكومة الغربية الصديقة ومحظور على الجمهور. وأول ما يقف عنده المسؤولون الاسرائيليون (الزائرون) عادة هو رف يحمل مجلدات بقوائم اسماء الرجال والنساء من اعضاء الصاعقة الذين عملوا في معسكرات الاعتقال»[٦] وعندما اختفى من المركز ٣٠ الف ملف في شباط / فبراير ١٩٨٨ ذهب معظمها طبعا الى اسرائيل، بلغ من غضب حكومة المانيا الغربية أنها أعلنت لأول مرة انها حاولت مرارا استلام المركز من امريكا دون جدوى!

لماذا كانت المفارقة صارخة بين شدة الدعاية لخطف ايخمان وشدة سرية محاكمته ذاتها؟

كان ايخمان يرأس المكتب المركزي لتهجير اليهود الألمان الى فلسطين، وكان المكتب ملحقا مباشرة

(٢) مجلة تيفي غايد، ٥/١/١٩٨٠.

(٣) نيويورك بوست، ١/٦/١٩٨٤.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تيفي غايد، المرجع السابق.

(٦) هيرالد تربيون، باريس، ٢٣/٢/١٩٧٨.

بالقيادة العليا للجستابو. وبحكم منصبه كان آيخمان يعرف كل أسرار التعاون السري بين الحركة الصهيونية السياسية وحكومته، والرقم الحقيقي لضحايا معسكرات الاعتقال. ولم يستطع صحافي أن يقابل ايخمان حتى ساعة اعدامه. واتفق أن ضابطا تركيا سجن في اسرائيل بتهمة التجسس عليها كان في نفس السجن الذي نزل به ايخمان، وقال الضابط في مذكراته بعد الافراج عنه أنه كان محظورا على ايخمان الاختلاط حتى بنزلاء السجن الآخرين. ورغم توقيعه على اعترافات بلغت ٣٥٦٤ صفحة فلم ينشر منها غير القليل.

والمعروف أنه تباهى في محاكمته بأنه صهيوني «وكان مدهوشا لعجز أي شخص في السنوات اللاحقة ان يفهم ضرورة ما فعل»[٧]. والحقيقة اننا نعرف الآن مما تسرب منها انه وقف مع اليهود ضد العرب خلال اضطرابات فلسطين بين ١٩٣٦ او ١٩٣٨، بل انه عندما زار حيفا بفلسطين في ١٩٣٦ كان يفضل السائقين اليهود على العرب عند ركوب سيارات الاجرة. وكانت بحيفا آنذاك جالية المانية كبيرة تقطن «الكولونية» الالمانية ولكن بريطانيا طردته مباشرة من فلسطين.

وكان من أعوان ايخمان اليهود الدكتور ايريش رودلف كاستنر المجري وليوبولد جيرو وروبرت ماندلر التشيكيان. وذكرت صحيفة تربيونا التشيكية في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧١ أن كاستنر كان يشرف على عملية ترحيل يهود المجر الى معسكرات الاعتقال النازية مقابل ترحيل بضعة آلاف من اليهود الى فلسطين بصفة غير قانونية على أن يكونـوا «من أفضل المـواد البيولوجيـة» حسب تعبيره - أي صهيونيين - وعلى أن تجري عملية شحن يهود المجر الى المانيا في نظام، وأن يسود الهدوء معسكرات الاعتقال. وبعد قيام اسرائيل صار كاستنر من كبار المسؤولين في الحكومة الى أن انكشف أمره في قضية كاستنر - غرينفالد المشهورة. وكان غرينفالد من ضحايا معسكرات الاعتقال فطالب بمحاكمة كاستنر. وبعد انكشاف الفضيحة لم يكن هناك مفر من التخلص من كاستنر، فداسته سيارة مجهولة وصرعته.

أما ليوبولد جيرو فكان مدير الصندوق اليهودي للتهجير الذي أقامه النازيون لمصادرة الأملاك اليهودية - ابتداء بحسابات البنوك وانتهاء بملابس الأطفال اليهود أنفسهم - قبل شحنهم الى المحرقة.

وأما روبرت ماندلر فكان مدير الوكالة المركزية لتهجير اليهود في منطقة براغ، ولكنه أشرف على نقل ٧٧ ألف يهودي من بوهيميا ومورافيا لقتلهم في المعسكرات. وحين زار ماندلر معسكر ترجين مع أخيه أوسعهما اليهود ضربا، فقد كان ماندلر مشهورا باساءة معاملة المعتقلين المرضى والشيوخ. ومن سخرية القدر أن جدران كنيس بنكاش اليهودي في براغ تحمل اسمه رغم ذلك ضمن قوائم أسماء ضحايا النازية.

كل هذه الحقائق ذكرها الدكتور ريتشارد فيدر زعيم الطائفة اليهودية التشيكية في كتابه «المأساة

---

(٧) استجواب ايخمان، مستنسخات من محفوظات الشرطة الاسرائيلية، اعداد جوكين فون لانغ وكلاوس سبيل، نيويورك، فرار وستراوس وجيرو، ١٩٨٣.

اليهودية ـ الفصل الأخير».*

وجدير بالاشارة أن الجنرال هيدرتش (وهو يهودي في نظر الالمان لان جدته لامه كانت يهودية) عيّن حاكما عسكريا لتشيكوسلوفاكيا أيام الاحتلال النازي. وقتل رجال المقاومة هيدرتش، وكان مصرعه سببا في مذبحة ليديس (ليدتسا) المشهورة التي انتهت بازالة البلدة من الوجود وأصبحت رمزا عالميا للعقوبات الجماعية التي حظرتها الأمم المتحدة.

وعندما تزايد الحديث عن هذا التواطؤ الحساس في السبعينات، أقنعت المنظمة الصهيونية العالمية عام ١٩٨١ اللجنة الأمريكية للهولوكوست بدراسة موقف المنظمات الصهيونية السياسية خصوصا في أمريكا من رفاقهم اليهود تحت الاحتلال. ولكن لم تلبث أن جمدت نشاطها بدعوى ان الوقائع «محرجة» و «مؤلمة»[٨]. واستعاضوا عن دراسة تقاعسهم بالحديث عن تقاعس الدول الغربية «المشين» (ومنها الفاتيكان) عن انقاذ اليهود، رغم أن هذه الحكومات فعلت لليهود قدر ما فعلته المنظمات اليهودية ان لم يكن أكثر.* ولعبت الفاتيكان دورا انسانيا كبيرا في انقاذ اللاجئين اليهود وغير اليهود خلال الحرب وبعدها. وكان منهم نازيون أخفوا هويتهم ولم يكن من مهمة الفاتيكان التحقيق مع طالبي اللجوء لأنه ساعد كل من كان في محنة. وتجددت الحملة على الفاتيكان في أوائل ١٩٨٤ عندما أرسل مؤتمر رؤساء كبرى المنظمات اليهودية الأمريكية (وعددها ٣٧ منظمة) برقية الى البابا يوحنا بولس الثاني في ٢٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٤ يطلبون فيها التحقيق فيما اذا كان لرجال الكنيسة الكاثوليكية أي دور في تهجير النازيين بصورة غير مشروعة بعد الحرب العالمية الثانية[٩]. وعللت صحيفة نيويورك تايمز هذا الموقف بالاشارة الى تقرير أعدته وزارة الخارجية الأمريكية عام ١٩٤٧ وظل سريا لفترة طويلة، ووصف الفاتيكان بانها أكبر منظمة شاركت في حركة التهريب غير الشرعي للاجئين، وأضافت الجريدة من عندها عبارة «ومنهم النازيون»[١٠].

ومرة أخرى أدى التستر على خطأ جسيم الى ارتكاب خطأ جسيم آخر. ولكن خطأ الحركات

---

* هناك صامتون أو متواطئون آخرون ذكرهم الحاخام موشيه شونفيلد في كتابه «ضحايا الهولوكوست يتهمون»، منهم ناثان‌شفاب ويتسحاق غرينباوم من الوكالة اليهودية، والرئيس حاييم وايزمان وآبي كوفنر عضو حزب المابام، وستيفن وايز عضو المؤتمر اليهودي الأمريكي، وسالي ماير عضوة لجنة التوزيع المشتركة، وهنري مونتور عضو النداء اليهودي المتحد، ومورردخاي اهرنبرايز صاحب الدور «المخزي» في السويد، وميرين ومولد تسكي وغيرهما من اعضاء «الطابور الخامس» المتعاونين مع النازيين.

(٨) نيويورك تايمز، ٢٢/٩/١٩٨١.

* نشر بن هكت الكاتب اليهودي السينمائي والمسرحي الشهير عدة اعلانات على صفحة كاملة في صحف نيويورك عام ١٩٤٣ داعيا اخوانه اليهود الى انقاذ يهود رومانيا والمجر ولكن زعماءهم نفوا أنهم في خطر رغم تأكيد وزارة الخارجية الأمريكية. وقال في اعلان له: «للبيع ٧٠ الف يهودي (روماني) لقاء ٥٠ دولارا للراس الواحد: بشر مضمونون». وقد حوصر هكت حتى الموت بسبب كتابه الشهير «خيانة» الذي اصدره في الستينات واتهم فيه الصهيونيين بالتواطؤ وليس الصمت فقط.

(٩) نيويورك تايمز، ٢٧/١/١٩٨٤.

(١٠) المرجع السابق.

الصهيونية السياسية في هذا المجال كان متعددا. فعندما ضغطوا بشدة لالغاء قانون المانيا الغربية لتقادم جرائم الحرب اقتضى ذلك خطأ آخر هو شن موجة عنصرية من الأفلام والروايات عن الهولوكوست. ومعظمها سقيم فنيا أو خال من النقد الذاتي أو مسطح أحادي الجانب، وساعد هذا بدوره على الادعاء بتزايد اللاسامية في العالم. وسنتناول كلا من هذه الأخطاء الثلاثة بالتفصيل.

١ ـ تقادم جرائم الحرب

في عام ١٩٦٨ أقرت الأمم المتحدة اتفاقية عدم تقادم جرائم الحرب والجرائم المرتكبة ضد الانسانية وبدأ نفاذها في ١١/١١/١٩٧٠. ومع ذلك لم توقع عليها الولايات المتحدة ولا اسرائيل ولا جنوب افريقيا ولا ألمانيا الغربية (على الأقل حتى عام ١٩٧٨) بينما وقعت عليها معظم الدول الاشتراكية. ولعل السبب هو أن هذه الاتفاقية اقترحتها الدول الاشتراكية وأنها تضم الى جانب جرائم الحرب جرائم أخرى مرتكبة بحق الانسانية وتخشى اسرائيل وغيرها أن تؤخذ ضدها بسجلها الطويل في انتهاكات حقوق الانسان. وهكذا لم يزد مجموع الدول التي وقعت الاتفاقية حتى عام ١٩٧٨ على ٢١ دولة، أي أقل من ١٣ في المائة من مجموع الدول الأعضاء حينذاك.

صنعت اسرائيل لنفسها «اتفاقية» جديدة هي قانون ألمانيا الغربية لمقاضاة مجرمي الحرب الذي كان من المقرر أن يمتد العمل به عشرين عاما من انتهاء الحرب أي حتى عام ١٩٦٥. لكن موريس ابرهام رئيس اللجنة اليهودية الأمريكية وعضو محكمة نورمبرغ لمجرمي الحرب في المانيا الغربية تعلل بأن القانون صدر عام ١٩٤٩ عند انشاء المحكمة الاتحادية الألمانية وليس عام ١٩٤٥ عندما انتهت الحرب. وهكذا امتد العمل به حتى عام ١٩٦٩. وفي العام الأخير تكرر الضغط الصهيوني فامتد نفاذ القانون عشر سنوات تنتهي بنهاية ١٩٧٩. وفي أوائل ذلك العام، أعلنت نشرة معهد العلاقات الانسانية التابع للجنة اليهودية الأمريكية أن «جماعات الناجين» من الهولوكوست ستقوم مع المنظمات اليهودية «بحملة عامة قوية لتمديد العمل بالقانون» بدعوى أن عدم القيام بذلك «يلحق ضررا جسيما بذكرى الملايين من ضحايا الارهاب النازي.. وسيكون له أثر مدمر على شباب العالم فضلا عن شباب المانيا»(١١).

وبدأ الاعداد لذلك بحملة اعلامية مكثفة، خصوصا بالتلفزيون. ومع ذلك قلما فطن أحد الى أن المقصود من ذلك ليس تجديد العمل به فقط. وكانت هذه الحملة قمة في فن الضغط السياسي وحقق أصحابه في النهاية مقاصدهم القصيرة النظر منه. صحيح أن اللاسامية لم تزدد في أمريكا ولكن كان يكفيهم أن ذلك تمخض عن اشتداد الأنشطة النازية التي كان فيزنتال أول من شكا منها.

٢ ـ درس كلاسيكي في الغزو الاعلامي

بدأت المنظمات الصهيونية السياسية حملتها مع أوائل عام ١٩٧٩ بشريطين تلفزيونيين، أحدهما

---

(١١) نشرة معهد العلاقات الانسانية التابع للجنة اليهودية الأمريكية، نيويورك، ٢٥/١/١٩٧٨.

يتناول فظائع النازية ضد اليهود، والثاني فظائع الولايـات المتحدة ضـدهم. وكان الأول مسلسـلا تلفزيونيا روائيا بعنوان «الهولوكوست»، بينما كان الثاني شريطا وثائقيا عنوانه «الهرب من العدالة» وهو يتحدث عن ٢٠٠ مجرم حرب نازي في أمريكا حمت الحكومة بعضهم وجندتهم. وعندما دعي خبير يهودي لمشاهدة الفيلم الأخير «كاد أن يتأوه... فقد أصبحت القصة بتفاصيلها المعروفة تكاد لا تطاق حتى من أشد المتعاطفين معها»[١٢].

بدأت الدعاية للمسلسل قبل تسعة شهور من عرضه. فقد أفردت له مجلة الاكسبرس الفرنسية ثلاث صفحات مصورة في ١/٥/١٩٧٨ أسوة بمجلة تايم الأمريكية والمجلات الألمانية في الشهر الأول من نفس العام. وكان رد الجمهور الفرنسي هو أن الفيلم لم يتحدث عن «الغجر والبولنديين والروس وعن الألمان من خصوم النازية مثل الشيوعيين والاشتراكيين والمسيحيين الثوريين»[١٣]. أما الألمان فكان انطباع بعضهم أن الفيلم «مغرق في مناصرة الصهيونية»[١٤] أو أنه «مبتذل» في رأي بيتر ميرتس هايمر أحد المسؤولين في التلفزيون الحكومي لألمانيا الغربية.[١٥] وشاركت صحيفة الأوبزرفر البريطانية في الحملة بموضوع احتل نصف صفحة عن «النازيين الجدد في المانيا»[١٦]. وكان هـذا تمهيدا لأكبـر مظاهرة مناهضة للنازية في المانيا الغربية جرت في مدينة كولون في ٢٣ نيسان/ ابريل من نفس العام، وشارك فيها نحو ١٥ ألف متظاهر من المانيا الغربية وفرنسا وبولندا والمانيا الشرقية، وكان منهم بعض الناجين من معسكرات الاعتقال، وحوالي ١٥ جنديا من المانيا الغربية تحدوا التعليمـات العسكريـة وشاركوا مثلالآخرين في الاستعراضبارتداء الزي المقلم لنزلاء معسكرات الاعتقال النازية[١٧]. وبعد ذلك بقليل عرضت شبكات التلفزيون الأمريكي على المشتركين فيلما عن النبوءات التوراتية التي تؤذن بـوقوع حـرب نوويـة عالميـة في الشرق الأوسـط، وعن المعركـة الكـونيـة الهـائلة (ارمـاجـدون ـ Armageddon) التي ستقع بين قوى الخير وقوى الشر في مجدو داخل مرج بن عامر في فلسطين. واستعانت في ذلك بأورسون ويلز الممثل المشهور. واليوم يؤخذ السواح المتدينون في اسرائيل الى موقع معركة مجدو التي هزم فيها تحتمس الثالث الهكسوس باعتباره موقع الدراما الكونية المقبلة التي تؤذن بظهور الماشيح (المسيح) الحقيقي ـ أي المهدي المنتظر ـ قبل نهاية هذا القرن.

وهكذا ما أن جاء منتصف العام حتى كان المسرح معدا لمناقشة مصير قانون مقاضاة مجرمي الحرب في البرلمان الألماني. وبعد مناقشة عنيفة دامت عدة أسابيع وجلسات استغرقت أحيانا عشر ساعات، فاز أنصار اسرائيل في ٣ تموز/ يوليه ١٩٧٩ بما أرادوا وأكثر. ذلك أن البرلمان لم يجدد العمل بالقانون وانما الغى مبدأ تقادم جرائم الحرب كلية. وهكذا اصبحت مطاردة مجرمي الحرب خالدة

---

(١٢) نيويورك تايمز، ١٢/١/١٩٨٠.
(١٣) نيويورك تايمز، ١٥/٢/١٩٧٩.
(١٤) نيويورك تايمز، ٢٨/١/١٩٧٩.
(١٥) هيرالد تربيون، ٢٤/٤/١٩٧٨.
(١٦) الأوبزرفر البريطانية، ٢٦/٢/١٩٧٨.
(١٧) هيرالد تربيون، ٢/٤/١٩٧٨.

«كلما واينما وجدوا»[18].

أما على صعيد المعركة مع الحكومة الأمريكية، فأسفر الغزو السياسي والاعلامي عن قرار تاريخي للكونغرس في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٠ بانشاء المجلس الأمريكي بالهولوكوست وتكليف المجلس بانشاء نصب تذكاري ومتحف للهولوكوست في واشنطن العاصمة، وبالعمل على انشاء مؤسسة تعليمية، واقتراح بانشاء لجنة «الضمير». وأصبح هذا المجلس تابعا لرئيس الجمهورية ويحمل شعاره، ويجد التمويل الكافي لتدريس الهولوكوست في الجامعات الأمريكية رسميا (مثل جامعة يشيفا بلوس انجيليس). ومن ذلك الحين شاعت الأنصاب التذكارية لضحايا النازية في واشنطن ونيويورك ولوس انجيليس، ومعظمها يحمل نقوشا عبرية.

ولو كان الأمر يقتصر على النظر من جانب واحد لهان الأمر نسبيا، ولكن المشكلة هي أن هذه الروايات الانسانية أصبحت موضوعا رائجا للربح الشخصي حتى قال المؤرخ وولتر لاكير أنه حتى «مع تضاؤل عدد المعاصرين للحياة في المانيا النازية، تظهر كل أنواع النظريات الروائية ـ مذهلة وعبقرية في أحيان كثيرة، ولكنها مضللة تماما»[19]. ووجد روبرت وولتر مؤلف كتاب «دفاعات المخيلة: الكتّاب اليهود والأزمة التاريخية المعاصرة» سببا آخر لهبوط المستوى غير الربح العاجل هو «أن كتابة روايات عن الهولوكوست محاولة متناقضة في ذاتيتها الى حد اليأس: فالموضوع بطبيعته يحطم أي اتساق عند محاولتنا فهم التاريخ واليهود والخيار الأخلاقي والشخصية الانسانية». ومع ذلك لا تنتهي هذه المحاولات الفجة بل تفرض على التلفزيون فرضا وتزيد من نقمة من يرون أنها «مملة» (وهو التعبير الشائع) أو تخلق رد فعل عكسيا هو تبلد الاحساس بمآسي الحروب. والحقيقة أن معظم النازيين الجدد من الشبان الذين لم يولدوا أيام هتلر، ومع ذلك يستولي عليهم غضب كلما شاهدوا مظاهرة أو فيلما عن الهولوكوست. صحيح أن الهولوكست حدث فعلا ولكن مبالغة القوميين اليهود في تصويرهم له وتقديرهم لضحاياه أدى الى مبالغة من جانب الطرف الآخر الى حد انكار وجوده أصلا. فالتطرف لا يخلق غير تطرف مضاد، خصوصا عندما يرى الماني استنزافا مستمرا لبلده الذي دفع خمسة أضعاف التعويضات المقررة أصلا باستخدام هذا السلاح. فقد كان مقررا أن تدفع المانيا الغربية حتى عام ١٩٧٣ حوالي ثمانية آلاف مليون مارك (١٣٣٠ مليون جنيه استرليني)، لكنها دفعت أربعين الف مليون مارك (٦٦٧٠ مليون جنيه استرليني) كما يقول ناحوم غولدمان[20]. على أنه يستدرك في آخر كتاب له وهو «المناقضة اليهودية» فيقول أن هذه التعويضات ارتفعت الى ٦٠ ألف مليون مارك حتى الآن، فضلا عن ٢٠ ألف مليون أخرى يبقى عليها أن تدفعها في المستقبل. وهكذا عندما جاء شهر فبراير/ شباط ١٩٨٢ كان مجموعها قد بلغ ٨٥,٨ بليون مارك (٣٦,٣ بليون دولار). وبمقدار ما تتحدث اسرائيل عن المساعدة الأمريكية لها قلما تتحدث عن المساعدات الألمانية التي ربما بلغت حاليا نحو ٤٠ بليون دولار،

---

(١٨) نشرة الوكالة التلغرافية اليهوديه، المرجع السابق.

(١٩) نيويورك تايمز الأسبوعية، ١٠/٧/١٩٧٣.

(٢٠) جيروزاليم بوست، ٢٨/٦/١٩٧٣.

أي أكثر من مجموع المساعدات الأمريكية بمراحل (أقل من ثلاثين بليون دولار حتى عام ١٩٨٧).

ثم هناك الجانب الانساني، فما زالت مطاردة مجرمي الحرب على أشدها، وهي لا تسري على اليهود ولو سرت على النساء. فقد قبضت حكومة المانيا الغربية على امرأة المانية في عام ١٩٧٣ أثر بلاغ من فيزنتال بتهمة جريمة ارتكبتها قبل ثلاثين عاما، بينما لا يسمع أحد مثلا شيئا عن جورج تشابل (تشابودجي) الروسي الذي يقيم في انكلترا رغم مسؤوليته عن قتل ألوف من اخوانه اليهـود خلال الحرب. فلماذا لا يضيق الغرب بهذه المحاكمات واستغلالها سياسيا؟

٣ ـ رد الفعل: تطرف مضاد

عندما نشرت مجلة لايف الأمريكية في شباط/ فبراير ١٩٨٠ تحقيقا مصورا من تسع صفحات عن بقايا مجرمي الحرب في الولايات المتحدة، رد القراء على ذلك برسائل منها «هل هناك فرق كبير بين أفناء الناس في غرف الغاز وابادة مدن كاملة بقنابل ذرية كما فعلنا في اليابان؟ ألم يكن من الجائز محاكمة قادة الحلفاء بوصفهم مجرمي حرب لو كنا خسرنا الحرب؟». وقال آخر: «هناك ستة ملايين يهودي من بين ١٢ مليونا راحوا ضحية معتقلات هتلر. أليست هناك أهمية كافيـة لذكر الجـلادين النازيين الذين قتلوا بالجملة ضحايا من غير اليهـود؟ المؤسف أن التـاريخ سينسى بعض ضحـايا الـوحشيـة النازية لمجرد أنهم لم يكونوا يهودا». وقال ثالث: «يصعب تصور مشروع أعقم من استخدام ٤٧ محـاميـاً ومسـاعـدا للتحقيق في قضايا بائتة عمرها ٣٥ عاما.. وأحرى بنا كأمة سوادها الأعظم من المسيحيين أن نفكر في الغفران لا النكوص الى فلسفة بدائية هي العين بالعين»(٢١).

وفي تموز/ يوليه ١٩٨١ أذاع فيل دوناهيو في برنامجه التلفزيوني الأمريكي المعروف ندوة خاصة عن موقف الأمريكيين من الهولوكوست قال فيها أن هناك «ضجرا وسقما».. من الحديث عنه «وأن مستوى طرحه ضعيف» وأن أسلوب «التخويف يشجع على تكرار الماضي». واعترف قائلا: «انني أجد صعوبة في الاعتراض مثلا على قصف المفاعل الذري العراقي خشية أن يقال عني أنني لا أكترث بتلك الجدة اليهوديـة التي انتزع النـازيون أسنـانها الذهبيـة». ووافقه مشتـرك في البرنـامج نجـا من الهولوكوست اسمه يافا ايليا على «أن التلفزيون والصحافة والاذاعة تتحدث عن الهولوكوست أكثر من اللازم» وأنه قد يحدث أثرا عكسيا، بينما رأى زملاؤه الباقون المشاركون في البرنامج غير ذلك بدعوى أن استمرار تذكير الناس به يحول دون تكراره مستقبلا.

وحسما للموضوع، طلب دوناهيو من مساعدته قبل نهايـة البرنـامج أن تـذكر له التعليقـات التليفونية التي تلقتها من المشاهدين أثناء اذاعة البـرنامـج على الهـواء، فقالت بـانفعال ملحـوظ أنها تلقت ثماني مكالمات منها سبع تهاجم كثرة الحديث عن الهولوكوست وتقول في مجملها: «انكم تشيرون الى أنفسكم دون غيركم. كفّوا عن تحميل المسيحية مسؤولية مشاكلكم. لا نريد أن نسمع المزيد منها أبدا. هناك أجناس أخرى أبيدت. ماذا عنا معشر الزنوج؟ ماذا عن غير اليهود من نزلاء

---

(٢١) مجلة لايف، نيسان/ ابريل ١٩٨٠.

معسكرات الاعتقال؟ نريد أن نسمع منهم. كلكم مرضى بالبارانويا».

بعد انتهاء البرنامج طلبت مستنسخاً من حواره، وكالعادة جاءني الرد من جهة أخرى في واشنطن تختص بالدعاية لذكرى ضحايا الهولوكوست. ولم تكن هذه الجهة سوى المجلس الأمريكي للتذكير بالهولوكوست الذي أشرت اليه قبل ذلك. وكما هو متوقع كان الخطاب مصحوبا بقائمة مقترحة لكتب منتقاة عن هتلر والهولوكوست والمقاومة اليهودية وقت الحرب.. الخ. وبالطبع لم يكن هناك أثر للحوار. وبعد ستة أشهر من المحاولات المتصلة استطعت الحصول عليه من شيكاغو.

وخلال محاكمة ١٩ متهما نازيا في عام ١٩٨١، أصبح الهولوكوست مصدر استقطاب طائفي وجزءا من الصراع بين الشرق والغرب. إذ كان من بينهم ايفان (جون) دميانيوك الأوكراني الذي ادعى القوميون اليهود أنه نفس «ايفان الرهيب» (في سن ٢١ سنة؟) المسؤول عن مقتل «مئات الآلاف من اليهود في معسكري «تربلنكا وسوببور» في بولندا بتهمة أنه كان العامل المكلف بتشغيل محركات الغاز الخانق. وقام الأوكرانيون بمظاهرة من ١٥٠ شخصا خارج المحكمة تحت المطر المتجمد في مدينة كليفلاند وأحرقوا العلم السوفياتي بحجة «ان الاتحاد السوفياتي هو الذي حرض على هذه المحاكمة لبث العداء بين اليهود والأوكرانيين، وأن شهادة الشاهد بعد أربعين عاما لا يعول عليها». ورد اليهود على ذلك بمظاهرة مضادة اتهمت دميانيوك بالنازية»[٢٢]. وبعد أن سلمته أمريكا الى اسرائيل وحوكم فيها، أخذ يتضح تدريجيا أنه ليس ايفان الرهيب حتى طالب بات بيوكانان المستشار السابق للرئيس ريغان بالافراج عنه لضعف الأدلة. ووقعت اسرائيل في ورطة لا مخرج منها بعد عام من محاكمته الطويلة التي بدأت في شباط / فبراير ١٩٨٧ وانتهت بادانته في العام التالي.

وهناك صدام مماثل حدث قبل ذلك يوم ٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٩ عندما شن الألمان مظاهرة في حي كوينز بنيويورك ضد عرض مسلسل«الهولوكوست»، ورد القوميون اليهود بمظاهرة مضادة انتهت باشتباك مسلح. وتجاهلت وسائل الاعلام الأمريكية الحادث تقريبا.

وفي شباط/ فبراير ١٩٨٤ كان الزعيم الزنجي جيسي جاكسون يتحدث عن حقوق الفلسطينيين خلال حملة ترشيحه لانتخابات الرئاسة، ووصف نيويورك بأنها «بلدة يهودية»، فاعتبر الصهيونيون ذلك ضربا من اللاسامية. وغضب جاكسون الى حد قوله «يسقمني الحديث عن الهولوكوست وتخليد مشاعر الذنب في أمريكا»[٢٢]. وربما كان غضب أنصار اسرائيل عليه يعادل غضبهم على الرئيس ريغان عندما وصف مذبحة صبرا وشاتيلا بأنها هولوكوست آخر. لأنهم يثورون كلما اعتدى أحد على احتكارهم للهولوكوست. وبرر ذلك ايلي ويزل الفائز بجائزة نوبل بقوله «ان الهولوكوست مصدر قوتنا وهو الدرع الذي حمانا طيلة جيل... وهم الآن يحاولون أن يحولوا اتجاهه ويسلبوه منا»[٢٣].

---

(٢٢) نيويورك تايمز، ١٠/٢/١٩٨١.
(٢٣) ميدل ايست بيرسبكتف، أيار/ مايو ١٩٨٤.

أما في أوروبا فكان رد الفعل أوسع وأوضح.

فعندما حكم في ميونيخ بالسجن المؤبد على ضابط الماني اسمه هانز غونتر سوبوتا عام ١٩٧١ وهو في الستين من عمره لأنه قتل ثلاثة يهود قبل ثلاثين عاما، كان الكاتب الألماني المعروف غونتر غراس الموالي لاسرائيل يزور الدولة اليهودية لحضور أول مهرجان ثقافي الماني في اسرائيل. وقد انتقد سياسة اسرائيل قائلا: «أعتقد أن من السيء جدا استغلال ضحايا وجرائم النازية في هذا الشأن... كما أنني لا أحب عقلية التوراة التي تقول أن على الجيلين الثاني والثالث أن يحملا وزر الجيل الذي سبقهما».

وحين قابلت الكاتبة اليهودية البريطانية غيتا سيرناي ضابطا نازيا آخر اسمه فرانتز شتانغل قبضوا عليه عام ١٩٦٧ بتهمة ادارته معسكر تربلنكا، كتبت في جريدة ديلي تلغراف البريطانية عام ١٩٧١: «ان حراس السجن وكثيرا من الناس في المانيا نفسها يتساءلون عن الحكمة في استمرار محاكمات جرائم النازية بعد مرور كل هذه السنوات الطوال على انتهاء الحرب». وعندما قبضت حكومة كولومبيا في أوائل عام ١٩٧٢ على الألماني يوهان هارتمان بحجة أنه مارتن بورمان نائب هتلر (وهو الضحية رقم ١٦ التي قبضوا عليها بهذه الشبهة في أمريكا الجنوبية) ثم اكتشفوا أنه كان يعيش هناك منذ عام ١٩٢٦، انضمت جريدة التايمز البريطانية الوقورة الى قائمة مستنكري مطاردة مجرمي الحرب، وكتبت تحت عنوان «مطاردات النازيين القدامى مستهجنة» أنها ترى «أن الحادث سيخلف وراءه سؤالا أساسيا هو ما اذا كانت مطاردات النازيين بعد الحرب في أمريكا الجنوبية قد انقضى عهدها.... فهناك دلائل متزايدة الوضوح على أن الرأي العام أخذ ينقلب ضد تعقب الشيوخ على أساس أنهم مجرمون نازيون».

وحين عقدت دورة الألعاب الأولمبية في ميونيخ صيف ١٩٧٢ راحت محطات التلفزيون في أوروبا (والولايات المتحدة) تذيع مراجعة كاملة لقصص الاضطهاد النازي حتى أن مشاهدين بعثوا برسائل اليها يسألونها عن سبب حشر هذه البرامج القديمة.

ولما بدأت في المانيا العربية عام ١٩٧٥ محاكمة ١٧ متهما كانوا من حراس معسكر مايدانك البولندي بتهمة المشاركة في قتل ربع مليون يهودي فيه، استمرت المحاكمة أكثر من خمس سنوات مات خلالها العديد من المتهمين والشهود وحتى اثنان من المحامين. وقال هانز سيلاس كبير المدافعين عن المتهمين «انه ليس من اللائق جعل المعايير السائدة في المجتمعات الديمقراطية أساسا للحكم على أفعال جرت في الرايخ الثالث ولا من العدل ادانة من كانوا ينفذون الأوامر»[٢٤].

وبعد مرور نحو أربعين عاما على انتهاء الحرب، لا يوجد مجرم حرب دون سن الستين، وكثير منهم فوق السبعين، وبعضهم تجاوز الثمانين وعوقب (مثل جوزيف منتن). ويحمل أنصار اسرائيل الدولة الغربية مسؤولية تضاؤل عدد المذنبين في المحاكمات، بدعوى أن تباطؤها يقلل من الزمن فرص اثبات التهمة، ويبدو أن اللعبة متبادلة، فأنصار اسرائيل لا يتعجلون محاكمة اليهود من مجرمي

---

(٢٤) نيويورك تايمز، ١٩٨١/٥/٧.

الحرب، ويرد الغرب على ذلك بعدم التعجل في محاكمة غير اليهود منهم. على أن التباطؤ يخدم أنصار اسرائيل، لأن تأجيل المحاكمات أو اطالتها أو تأجيل «اكتشاف» مجرمي الحرب يضمن وجود رصيد كاف منهم لاستمرار المحاكمات، خصوصا مع تضاؤل عدد من بقي منهم على قيد الحياة. ويبدو كما أسلفنا أن نسبة الادانة لا تهم اسرائيل بقدر ما يهمها استمرار المحاكمات وما تحمله من ضغوط نفسية وسياسية.

كان من الطبيعي أن تظهر في المانيا مؤخرا منظمات شابة تطالب بمراجعة محاكمات نورمبرج لمجرمي الحرب، وتوزع منشورات تطالب فيها الحكومة باصدار بيانات «تؤكد أن من قتل من الألمان والبولنديين والتشيك والفرنسيين على يد النازية كان أكثر بكثير من اليهود، فلماذا يجب أن يحمل الشعب الألماني وزر هذه المسألة؟».

وتقول هذه المنشورات أن من الكذب القول بأن ستة ملايين يهودي قتلوا في الحرب. فالكتاب السنوي ورلد الماناك يذكر في عام ١٩٣٩ أن عدد يهود العالم حينذاك كان ١٥,٦ مليونا. وفي عام ١٩٥٠ أصدرت الجالية اليهودية الأمريكية بيانا بعددهم فاذا هو ١٦,٦ مليونا. وفي سنة ١٩٤٨ ذكرت جريدة نيويورك تايمز أن عدد يهود العالم عندئذ كان يتراوح بين ١٥,٧ مليون و ١٨,٦ مليونا.

فاذا كان هناك ١٥,٦ مليونا أو ١٦,٦ مليونا منهم قبل الحرب فكيف يصبحون ١٨,٦ مليونا أو حتى ١٥,٧ مليونا عام ١٩٤٨ اذا كان هتلر قتل منهم ستة ملايين خصوصا اذا علمنا أن توالد اليهود من أقل النسب في العالم؟.

ثم ان مجموع يهود المانيا نفسها كان لا يتجاوز ٦٠٠ ألف عندما أبرم هتلر اتفاقا مع الزعماء اليهود في فلسطين نقل بموجبه ٦٠ ألف يهودي الى الأرض المقدسة(٢٥). وكان الصليب الأحمر قد قدر عدد ضحايا معسكرات الاعتقال المسجلين بنحو ٣٥٠ ألفا على أساس الوثائق المتاحة عند اغلاق المعسكرات. لكن قيل أن كثيرا من الوثائق دمرت قبل خروج النازيين، كما أن وفيات كثيرة لم تسجل(٢٦).

ومع ذلك حتى لو افترضنا أن ضعف هذا الرقم مات دون تسجيل، فان المجموع لن يتجاوز المليون الا بقليل. نقول فرضا لأن دان سايمون المسؤول عن محفوظات الحزب النازي يقول «ان رجال الصاعقة في معسكرات الاعتقال... كانوا يدونون أشياء لا تخطر على البال. فقد كانوا يرسلون الناس الى المعسكرات (لتصفيتهم على ما يبدو) ويسجلون أسماءهم وموعد وصولهم وحصيلة القتلى منهم كل يوم»(٢٧).

---

(٢٥) أدوين بلاك، اتفاقية النقل، نقلا عن نشرة أخبار الكتاب اليهودي، أيلول/ سبتمبر ١٩٨٤.
(٢٦) التايمز اللندنية، ١٩٧٨/٢/٢٠.
(٢٧) هيرالد تربيون، ١٩٧٨/٢/٢٤.

محاولة المانية جريئة

ولعل أهم وأجرأ محاولة ضد تلاعب انصار اسرائيل كانت عبارة عن دراسة أكاديمية استغرقت أكثر من عام في ٥٥ دولة في العالم ونشرت نتائجها عام ١٩٧٢. فقد قام عدد من الأساتذة في جامعة بون عاصمة المانيا الغربية بتكليف عدد من العلماء والباحثين اليهود (المعروفين بحيادهم التام بين المانيا واسرائيل برئاسة الأستاذ آرثر إرهارت) باعداد وثيقة تمحص الأرقام التي أدت الى خلق اسرائيل بعد ثلاث سنوات فقط من انتهاء الحرب العالمية الثانية وما زالت أداة ضغط لجمع الأموال بين تعويضات رسمية وشخصية وهبات خالصة وقروض طويلة الأجل لا ترد غالبا.

طبعت جامعة بون الوثيقة في ثلاث صفحات تحت عنوان «أضواء كاشفة على مشكلة الستة ملايين» ووزعتها على المكتبات ومحلات بيع الصحف ولكنها اختفت في اليوم الأول. وعندما طبعت من جديد بكميات كبيرة قامت الحكومة بمصادرة أصول الوثيقة وكل النسخ المطبوعة بدعوى أن هذا يسيء الى سمعة المانيا الاتحادية في الخارج.

تجيب الوثيقة على أسئلة محددة أهمها: هل قتل حقا ستة ملايين يهودي على أيدي النازيين كما قال ديترتش وكان هذا القول اشارة البدء في الحملة العالمية القائلة بأن الستة ملايين اختفوا من ١٨ دولة بين عامي ١٩٣١ و١٩٥٣؟

ورد الوثيقة هو «أن هذا الاختفاء لا يعني قتل الستة ملايين، فقد هرب وهاجر عدد كبير من يهود أوروبا منها نتيجة للانتصارات الأولية لألمانيا النازية».

والأرقام تؤكد أن تعداد اليهود في بعض هذه الدول زاد في عام ١٩٥٣ على ما كان عليه في عام ١٩٣١ بنسبة غير طبيعية.

فرنسا كان بها ١٥٠ ألفا فصاروا ٢٧٥ ألفا، وارتفع عدد اليهود فيلوكسمبورغ من ١٧٧١الى٢٧ ألفا،وفي رومانيا من١٨٣ألفا الى مليونين، وتشيكوسلوفاكيا لم يكن فيهايهودي واحدفارتفع عددهم الى ١٥٥ ألفا، وفي المجر ازدادوا من نصف مليون الى ٢,٧ مليون، وفي بريطانيا من ٣٠٠ ألف الى ٤٥٠ ألفا. أما ايرلندا فقد ازدادوا فيها خمسة أضعاف.

السؤال الثاني: كم كان عدد يهود العالم عام ١٩٥٣؟

آسيا ـ عدا عن اسرائيل ـ كان يعيش بها حينذاك ١٤٥ ألفا، واسرائيل كان فيها ١,٤ مليون وافريقيا ٧٧٦ ألفا واستراليا ونيوزيلندا ٥٨ ألفا وأمريكا اللاتينية ٥٨٠ ألفا والولايات المتحدة ٥ ملايين وكندا ٢٢٢ ألفا.

أي أن مجموعهم عام ١٩٥٣ كان ١١,٦ مليونا وليس سبعة ملايين كما تدعي الدوائر الصهيونية.

أما عدد يهود العالم الآن، عند اعداد الوثيقة، فكان يناهز ١٦ مليونا.*

فاذا كان عدد اليهود قبل الحرب نحو ١٣ مليونا وعددهم عام ١٩٥٣ زهاء ١١,٦ مليونا فمعنى ذلك أن الفرق وهو ١,٤ مليونا يمثل العدد الحقيقي لضحايا الحرب على أكثر تقدير وليس رقم الستة ملايين. وأكد لي هذا التقدير أحد الناجين من معسكر اعتقال نازي في الاتحاد السوفياتي طلب مني عدم ذكر اسمه.

بل ان كثيرين من اليهود أنفسهم يشككون في هذا الرقم. فهو لا يزيد عن ٨٠٠ ألف في تقدير زيجلر عضو الجبهة القومية في برلين الشرقية وهو يهودي فقد كل أسرتـه في معسكرات الاعتقـال. والبعض الآخر مثل الدكتور ليستويفسكي الخبير بهذه المسألة يهبط بالرقم الى ما بين نصف مليون و٣٥٠ ألفا فقط.

تخلص الوثيقة من ذلك الى أن عدد ضحايا النازية في الاتحاد السوفياتي بلغ أكثر من من ٤,٥ مليون شخص مدني، كما أن عدد ضحايا النازية في كل أنحاء أوروبا المحتلة يزيد على ١٤ مليونا. لكن العالم لا يسمع عن هؤلاء الضحايا أي شيء وانما يسمع باستمرار أكذوبة أنصار اسرائيل عن قتل ستة ملايين يهودي.. وهي دعاية مستمرة وأداة ضغط على حكومات المانيا الغربية، كما أنها أداة ضغط نفسي فظيع.

صحيح أن روسيا ما تزال تحاكم مجرمي الحرب وتتعقبهم ولكنها لا تستخدم ذلك للابتزاز ولم تطلب تعويضات من ألمانيا، مثلما أن الصين الشعبية رفضت عرضا من اليابان بتعويض هائل قدره خمسة بلايين دولار تكفيرا عن جرائمها ضد ملايين الصينيين الذين قتلتهم في الحرب (هذا بينما كانت اسرائيل تحاول ابتزاز التعويضات من المانيا الشرقية بعد الغربية).

تعليق أخير هو أن هذه الملايين الأربعة عشر هي عدد ضحايا معسكرات الاعتقال النازية فقط ولا تضم عدد القتلى من العسكريين.. «فقد قضت الحرب المجنونة التي شنها هتلر على ٥٤ مليونا من كل أبناء العالم منهم عشرون مليونا من أبناء الاتحاد السوفياتي* أي على جيل كامل». ومع ذلك فلو سألت الالماني والانجليزي والامريكي كم فقدتم في الحرب لعجزوا جميعا عن الاجابة، ولكنهم يحفظون الرقم اليهودي عن ظهر قلب.

شهادة محمد حسنين هيكل

يتساءل هنا محمد حسنين هيكل: «لقد أقام اليابانيون معسكرات اعتقال جرى فيها مثلما جرى

---

* تختلف المراجع كثيرا حول عدد يهود العالم. ورلد الماناك لعام ١٩٨٨ يقدرهم بنحو ١٧,٩ مليون نقلا عن الكتاب السنوي للموسوعة البريطانية عام ١٩٨٧، وكتاب إنفورماشين بليز الماناك يقدرهم بنحو ١٥ مليونا، بينما يقدرهم الكتاب السنوي للجنة الأمريكية اليهودية بنحو ١٣ مليونا، وهو نفس تقدير جميع المنظمات اليهودية تقريبا.

* هذا هو التقدير الالماني، وهو يختلف عن التقدير الأمريكي الذي يبلغ ٤٥ مليونا من ضحايا الحرب عامة. ويقدر الروس ضحاياهم المدنيين بنحو ٤,٥ مليون فضـلا عن ١,٥ مليون جنـدي أسير أعـدموا من مجمـوع ما خسـره الاتحاد السوفياتي.

في الغرب، ولكنهم في الشرق لم يكونوا من اليهود، فلماذا نسي الناس ما حدث في الشرق وضاعت معالمه؟» ثم لماذا لا يشعر الألمان في المانيا الشرقية بعقدة الذنب التي يراد لها أن تلبس الألمان في المانيا الغربية رغم أن المانيا كانت شعبا واحدا تحت حكم هتلر؟ وعلى فرض أن الجريمة ضد اليهود في المانيا واوروبا كانت ذات طابع خاص فما هو الداعي لأن يكون التعويض عنها لاسرائيل؟ وأي اشهار وراثة نقل هذا الحق من يهود عاشوا في المانيا الى يهود في اسرائيل قلائل منهم زاروا المانيا مجرد زيارة أو حتى رأوها رأي العين؟».

وراح هيكل خلال زيارته لألمانيا الغربية في تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٧١ يتحرى «هذا السوط الذي ما زالت الحركة الصهيونية تجلد به ظهر شعب من أعظم الشعوب الأوروبية وأكثرها اسهاما في تاريخ التقدم».

كان سؤاله في كل مكان: «هل تشعر بعقدة ذنب؟». وجه هذا السؤال الى كل من قابله حتى الى المارة في الطريق. وكان الرد في كل مرة تقريبا يبدأ بسكوت مقرون بالدهشة والارتباك ازاء مفاجأة السؤال والرغبة في الهرب منه. ثم يدور الحوار دائما تقريبا على الشكل التالي:

ج - انهم اقترفوا اثما فظيعا في حق اليهود، ومن الضروري أن نشعر بالعار ازاءه وأن نعوض عنه.

س - من هؤلاء الذين تتحدث عنهم بـ «هم»؟

ج - أقصد النازي.

س - ولماذا تتحدث عنهم بضمير الغائب وكأنهم شيء غريب لم يكن في يوم من الأيام جيلا بأكمله من شعب المانيا؟

ج - لا.. النازيون لا ينتمون الينا.. أونحن لا ننتمي اليهم.. هؤلاء كانوا في فترة من تاريخنا حزينة نريد أن ننساها ونريد أن ننزع صفحتها من كتاب تاريخنا ولهذا اتحدث عنهم بـ «هم».

س - أريد أن أسألك شخصيا.. هل أنت نفسك تحس بعقدة ذنب؟

ج - أنا شخصيا لا أحس بها فيما يتعلق بنفسي ولكنها موجودة فيما يتعلق بغيري.

س - أفهم أنك لم تشارك شخصيا في أية جريمة ضد اليهود؟

ج - أنا شخصيا لم أشارك.

س - هل رأيت بعينيك جريمة؟

ج - لم أر ولكني سمعت.

س - هل أستطيع أن أعرف ممن سمعت؟

ج - قال لي عمي وكان ضابطا في الجيش الألماني وقت الحرب أنه كان قائد موقع وكان بالقرب من الموقع معسكر اعتقال، لكنه لم يكن يعرف ما يجري فيه.. عرف فقط بعد أن انتهت الحرب.

س - كيف عرف؟

ج - قيل له.

س - من الذي قاله له؟

ج - لا أعرف ولكني أظنه قرأ في صحيفة.

س ـ هل تعرف ماذا كان هدف الاحتلال بعد أن استسلمت المانيـا؟ كان أول اهـدافه كمـا جاء في التعليمات الصادرة الى الجنرال لوشيوس كلاي ـ أول حاكم عسكري أمريكي لألمانيا المهزومة ـ هو أن يعاد وضع نظام التعليم في المانيا بحيث يرغم شعب المانيا على الخجل من عهد الرايخ الثالث، وعلى أن يبقى دائما أسيرا للندم. كان هذا هدفا مكتوبا في تعليمات الاحتلال.

ج ـ لا أعرف.

س ـ ألا ترى أن هذا الهدف تحقق؟

ج ـ اذا كان ذلك صحيحا فيبدو أنه نجح.

س ـ ألا تراجع نفسك عندما تجد أن معتقداتك في النهاية أمر مفروض عليك بتخطيط مسبق من غزاة استباحوا كل شيء في وطنك؟»

تتضح من هذا الحوار عدة حقائق هامة:

* أنهم سمعوا بابادة اليهود من الصحف وليس من المسؤولين الألمان، وأنهم علموا به بعد الحرب فقط.
* وأنهم يشعرون بعقدة الذنب تجاه ما حدث رغم أنهم غير مسؤولين عنه بل لم يعاينوه أصلا.
* وأن حكاية الستة ملايين كانت تلقى ترويجا من الحلفاء لأنها تخدم هدفهم في ابقاء الشعب الألماني أسير الخجل والندم.
* لذلك فان عقدة الذنب هذه موجودة فقط في الدول الغربية وليس الشرقية.

التمييز الصهيوني العنصري ضد الألمان

راح هيكل يبحث عن ثائرين على هذا الوضع بين صفوف الشعب هذه المرة ـ فوجدهم على مختلف المستويات والاتجاهات.

قال شاب في جامعة ميونيخ أنه لا يحس بالذنب لأنه لا علاقة له بما حدث، لكن أستاذا اسرائيليا زائرا غضب بشدة لموقفه هذا واتهم الألمان كلهم بالقسوة والغلظة عبر التاريخ.

وشكت موظفة في مصرف أن الأفضلية في ملء الوظائف الشاغرة من نصيب اليهودي (حتى ولو كان منافسوه من غير اليهود يفوقونه في المؤهلات)، وذلك خشية الاتهام باللاسامية.

وقالت ربة بيت أن امرأة تجاوزت في صفاقة طابور المشترين في محل تجاري وراحت تقلب في البضائع، وعندما لفتوا نظرها الى ضرورة التزامها بدورها في الصف صرخت متهمة اياهم باللاسامية وباضطهادها لأنها يهودية، وكأن الناس يعرفون أصلها وفصلها.

وقال مدير شركة سياحية أن آلاف الاسرائيليين يقضون عطلات في بادجشتاين بالنمسا على حساب حكومة المانيا الغربية. ويكفي أن يقول أحدهم أن قريبا له قتل في معسكرات الاعتقال وأنه معذب بهذه الذكرى حتى يمنح الحق في اجازة تريح أعصابه على حساب الحكومة الألمانية.

وفي اجتماع مع رؤساء الصحف الكبرى في بون طرح هيكل نفس السؤال وذهب بالمناقشة الى نهايتها. ولكن الاجتماع انهار لأن كل جالس راح يناقش جاره بالألمانية.. حينذاك رجا أعلى المسؤولين أن يتسلم زمام الجلسة فقال له هذا: لماذا تثير هذا الموضوع ولا تترك الماضي للماضي؟ فرد عليه هيكل: «ان الماضي ليس همي وانما المستقبل شاغلي.. ذلك أنني أرى تحت الرماد وميض النار.. اشعر ان الشعب الألماني سوف يضيق ذرعا بما يفرض عليه من عقد لا يستطيع في قرارة نفسه ان يقبل التسليم بدواعيها.. حينئذ سوف يحدث رد فعل.. سوف تنفجر أمام عيونكم موجة حقيقية جديدة من معاداة السامية وسوف نعود الى الدائرة المفرغة الخبيثة. في المرة الأولى كانت فلسطين كفارة الضمير الألماني.. وفي المرة القادمة قد تكون الأردن أو سوريا أو لبنان».

وبالفعل أضاف هيكل أنه بينما كان خارجا من هذا الاجتماع همس في اذنه احد المشاركين: «انني أفهم مخاوفك، ولكن هذا موضوع متفجر لا يمكن طرحه للمناقشة العلنية في المانيا حتى اليوم.. ان الواحد منا لا يستطيع حتى أن يناقشه مع نفسه.. فما بالك مع آخرين حتى من ذوي القربى؟ انا المح الخطر الذي تخشاه، ولكن ما العمل وقد تُركت الحركة الصهيونية بعد الحرب في المانيا تفعل بشعبها ما بدا لها»؟

«ان هناك حدا لا بد أن يتوقفوا عنده ولكنهم لا يريدون أن يتوقفوا.. لا يريدون حتى أن يفهموا أنه اذا كانت عقدة الذنب بقرة حلوبا فان البقرة جفت ضروعها.

«انهم الآن يقومون بالتمييز العنصري ضدنا في حين كانوا يتهموننا ـ ومـا زالوا ـ بالتمييـز العنصري ضدهم. يتعاملون مع بعضهم.. لا يتزوجون الا من بعضهم.. يسكنون في احياء خاصة بهم، ويضايقهم أن يقترب منهم غيرهم.. هم يحاصرون انفسهم حتى حين لا يريد الأخرون حصارهم».

* * *

وكان رد الفعل طبيعيا.

ففي أواخر عام ١٩٨٣ قدم الاتحاد السوفياتي الى الأمم المتحدة وثيقة رسمية ذكر فيهـا ان حوادث الجرائم النازية في المانيا الغربية ارتفعت من ٣٠٠ في عام ١٩٧٦ الى ٢٠٠٠ في عام ١٩٨١، وأن فيها الآن بين ٧٥ و ٢٠٠ منظمة نازية جديدة تصدر حوالي ١٠٠ صحيفة يوزع منها نحو ربع مليون نسخة.

وجاء في تعميم وزعه إدغار بورو برونفمان رئيس المؤتمر اليهودي العالمي في خريف ١٩٨٧ أن أكثر من خمسين كتاباً وكتيبا نشرت في السنوات القليلة الماضية «لفضح» خرافة الستة ملايين.

وفي عام ١٩٨٨ اصدرت منظمة بناي بريث (رابطة مكافحة التشهير) اليهودية الأمريكية تقريرا شكت فيه من «ان الحوادث اللاسامية في الولايات المتحدة.. قد ارتفعت كثيرا خلال عام ١٩٨٧ بعد هبوطها خلال السنوات الخمس الماضية»!

بهذا تحققت مخاوف اليهودي يافا ايليا الناجي من الهولوكوست ومخاوف هيكل على السواء من النتائج العكسية للافراط في استغلال الهولوكوست. وربما تحققت بذلك أيضا أمنيات القوميين اليهود مثل بن غوريون وشارون في استمرار التغذية المتبادلة بين اللاسامية والصهيونية.

ولكنهم ارتكبوا في معالجتهم للمقتلة النازية كما رأينا سبعة أخطاء رئيسية بعضها قاتل وهي:

١ ـ التركيز على كيفية حدوثها واغفال أسباب حدوثها.
٢ ـ التشبث برقم الستة ملايين لتخليد عقدة الذنب.
٣ ـ الايحاء بأن اليهود وحدهم دفعوا معظم الثمن واحتكار تمثيل ضحايا الهولوكوست.
٤ ـ القول بأن الذين قصروا في انقاذ اليهود هم الحلفاء والفاتيكان وليس الصهيونيون.
٥ ـ تعقب مجرمي الحرب حتى الآن واستثناء اليهود من القبض عليهم غالبا.
٦ ـ الادعاء بأن استمرار التذكير بالهولوكوست يضمن عدم تكراره مستقبلا.
٧ ـ محاكمة أو اضطهاد من يعارضون هذا السيناريو الصهيوني وخصوصا رقم الستة ملايين.

والخطآن الأخيران يكشفان عن سذاجة تفكير فادحة، فالهوس بالهولوكوست لا يمكن أن يصبح «وصيا علمانيا على الهوية اليهودية الدينية وتجربتها»[٢٨] لأن حدثا هائلا كهذا لا يحدث أصلا دون أسباب مهما تجاهلناها. فالكون لا يسير في فوضى والشر لايحدث دون غرض منه. والمنكوب يتساءل عادة عن السبب دون الغرض، ولكن هوس أنصار اسرائيل وشططهم أعماهم عن السبب والغرض معا.

بل ان مفكرا عظيما مثل غير شوم شولم الذي أحيا «القبالة» اليهودية (Kabballah) وهي من أرفع مدارس التصوف اليهودي وأكثرها احتراما في العالم، يرى أن دولة اسرائيل «هي رد الله على الهولوكوست». وكان أحرى به بالمثل ان يتساءل: والهولوكوست هو رد الله على ماذا؟

ان المغالاة في التهرب من مراجعة الذات وتقويمها تجعل العلاج بالصدمات أمرا محتوما. ومن هنا يتكرر الهولوكوست بين الحين والآخر باحجام متفاوتة. وعلى من لا يتعلم الدرس المرة تلو الأخرى أن يستعد لسيرة ذاتية حافلة بالنكبات. وبقدر ما ابتلى الله العرب والمسلمين بالاسرائيليين والاخيرين بالأولين، ابتلى الاسرائيليين بعضهم ببعض. فهم كالعادة أسوأ أعداء لأنفسهم، ولكن لا يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون. والسنوات القادمة قد تثبت ذلك بأسرع مما نظن.

---

(٢٨) نيوزويك، نقلا عن ميدل ايست بيرسبكتف، نيسان/ ابريل ١٩٨٠.

القسم الثالث

الثمن:
نظام عالمي جديد

الفصل العاشر

اسرائيل ومصير الانسان المعاصر

«لا يمكن لقوانين السلوك السوية أو لاسرائيل الحقيقية أن تتحقق إلا خارج اسرائيل».

الكاتب الاسرائيلي عموس عوز في كتابه «ربما في مكان آخر» عام ١٩٦٦

«لا بد من ظهور عصر جديد يصارع فيه اليهود أنفسهم أكثر من مصارعتهم للآخرين».

الحاخام آرثر هيرتزبرغ الرئيس السابق للمؤتمر اليهودي العالمي

«عندما يخطىء اليهود بسجلهم الأخلاقي في الوعظ والدعوة، وبعد سنوات كثيرة جداً من الضعف والهشاشة، فهذا هو الخبر. وما يستهوي العالم ويحيره هو هذا التناقض. وقد اخذت هذه التناقضات تصبح جزءاً من حكاية الانسان وقصور الطبيعة البشرية والفجوة الفاصلة بين المعايير العليا والوقائع».

المنظّر السياسي الاسرائيلي يارون عزراحي

ما قاله يهودي منوحين عن اليهود وهو «أننا أسوأ أعداء لأنفسنا... واذا لم نقّيم حالتنا من جديد فسندمر أنفسنا» ينطبق على الانسانية المعاصرة كلها، وكأن هناك حبلا سريا بين شروق الدولة اليهودية وبداية أفول الولايات المتحدة والحضارة البشرية المعاصرة عموما، مرورا بالأمم المتحدة.

والغريب أن هذه المنظمة العالمية أقيمت (مثل اسرائيل) بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥) لكي تنقذ العالم من «ويلات الحرب» التي كان اليهود من أكبر ضحاياها. والحقيقة انه لولا الأمم المتحدة لما ظهرت اسرائيل (على الأقل بصورتها الحالية). كذلك لولا النفوذ والنشاط اليهودي لما ظهرت الأمم المتحدة بصورتها الحالية أيضا أو بتلك السرعة آنذاك. فقد دفع الهولوكوست المنظمة الدولية دفعة قوية الى عالم النور، وكان اول آمين عام لها يهوديا كما يقال (تريغفي لي).

بيد أن هذه العلاقة سرعان ما انعكس اتجاهها، فقد أخذ نفوذ اسرائيل عالميا يتزايد بقدر تضاؤل فاعلية الأمم المتحدة وثقة العالم بالولايات المتحدة في وقت واحد. واقترن ذلك بتحالف اسرائيلي ـ أمريكي شل المنظمة العالمية من ناحية وعزل هاتين الدولتين فيها عالميا من ناحية أخرى لأسباب سنفصلها فيما بعد. وكانت عضوة الكونغرس اليهودية نانسي كاسباوم وزميلها اليهودي السناتور سولومون هما اللذان قدما المشروع الامريكي لتأديب الامم المتحدة على «موقفها المعادي لأمريكا». والتقت المصالح الامريكية والاسرائيلية في عام ١٩٧٥ عندما اصدرت الجمعية العامة قرارها المشهور بمساواة الصهيونية بالعنصرية، وقال يومها هنري كيسنجر اول وزير خارجية يهودي لامريكا: «لن يمر هذا العمل بلا عقاب». ولم تمض شهور حتى بدأت الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة مثل اليونيسيف

(منظمة الامم المتحدة للطفولة) تشعر بأثر الحصار الاسرائيلي في ميزانيتها، وما زالت تشعر بها حتى الآن.

وفي هذا الفصل الختامي، اقترح طرح الفرضيات العامة التالية لشرح طبيعة العلاقة الكونية بين اسرائيل والولايات المتحدة من ناحية والعالم من ناحية أخرى:

١ ـ ان الانسان يمر بأحرج مرحلة من الاختلال في تاريخه المعاصر بسبب مغالاته، وأننا في مرحلة اختمار عنيف ولا بد لنا أن ننتقل الى نظام عالمي جديد اذا أريد للجنس البشري البقاء، لأن عهد الحلول الاقليمية والجزئية قد انتهى تقريبا. وهل من الصدفة أن قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ٣٨/١٢٥ الصادر عام ١٩٨٣ بشأن «إقامة نظام انساني دولي جديد» قد جاء باقتراح من حكومة الأردن، أقرب الدول جغرافيا الى اسرائيل وبيت المقدس؟

٢ ـ ان اسرائيل أعلى تعبير عن هذا الاختلال العالمي، وأن اليهودية عامل كيميائي مساعد في عملية اختبارنا واختمارنا الكوني، أو «هراوة اصلاح» على حد تعبير سبينوزا، ليس لليهود وحدهم وانما للبشرية كلها هذه المرة من خلالهم.

٣ ـ انها لعبت بالذات دورا رئيسيا في تعميق هذا الاختلال والاختمار والاختبار لدى الولايات المتحدة بوصفها أقوى وأحدث دولة كبرى في العالم.

٤ ـ ان العالم سوف يستعيد توازنه عندما ينتهي التحالف الشاذ بين الدولة اليهودية والدولة الأمريكية وتستعيد كل منهما حجمها الطبيعي ودورها الأصلي.

باختصار، أفترض أن المثلث العالمي ـ الاسرائيلي ـ الأمريكي مقلوب حاليا، وأن رأسه (العالم) في الأسفل وطرفي قاعدته (اسرائيل وأمريكا) في الأعلى، وأن الانسانية سوف لا تسترد سلمها وعدلها الا اذا «انقلب» هذا الوضع واسترد العالم مكانه في قمة المثلث.

وهذه محاولة لفحص كل من هذه النقاط الخمس.

أولاً: الانسان المعاصر في أحرج مراحل اختلاله

من المذهل حقا أن عدد من قتلوا في هذا القرن العشرين (قمة عصر العقل والتنوير) أكثر ممن قتلوا في سائر العصور الأخرى من تاريخ البشرية. وفي تقدير الأمم المتحدة أن خمسة ملايين شخص على الاقل قتلوا خلال ١٥٠ حربا نشبت وما زال بعضها مستعرا منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وحدها..

لماذا؟ ولماذا يمر العالم بأشد تناقضاته وتطرفه بين الثراء الفاحش والعوز الى حد المجاعة، وبين علوم الغيبيات والتكنولوجيا المتقدمة، وبين ذروة الخلق والقتل؟ وبين انشاء أول منظمة حكومية دولية لصون السلم العالمي (الأمم المتحدة وعصبة الأمم قبلها) والاسراف في الحروب؟

هل نحن الآن في عصر الوعي الزائف أو فقدان الارادة او كلاهما، كما لاحظنا في السلوك الاسرائيلي والقومي اليهودي عامة؟

خذ مثلا اكبر دولتين في العالم:

الاتحاد السوفياتي يساعد حركات التحرير الوطني ويقمع حقوق الانسان الأساسية فيه. والولايات المتحدة تفعل العكس: فهي تعطي مواطنيها حرية مطلقة في استغلال الدول والشعوب الأخرى على السواء. والديمقراطية الأمريكية عشائرية قبلية مثل الاسرائيلية، فهي ليست لأبناء شيلي او جنوب افريقيا أو لأبناء الأراضي المحتلة التي يجتاحها المستوطنون الأمريكيون اليهود بالسلاح والمستعمرات المقامة بأموال المساعدات الانمائية الأمريكية الرسمية.* والخوف من الدولة في روسيا لا يعادله سوى خوف المواطن الأمريكي من العنف والجريمة المنظمة، وحتى الخوف من الانفتاح على جاره. فهو يختبيء في منزله وراء الأقفال والمتاريس وبصاصة الباب وصندوق البريد العام الذي لا يحمل اسما، والمسجل التليفوني الذي يعمل حتى في وجوده أحيانا كيلا يرد على احد تلقائيا، وحتى المصعد الكهربائي الشخصي الذي يجعل شقته قلعة حصينة عالية لا سلالم لها كي لا يتسلقها احد او يدق بابها أحد دون اذنه. ومن الشائع في نيويورك ومدن أخرى كثيرة أن يعيش المرء سنوات في منزله على بعد ١٥ سنتيمترا أو أقل من جاره طيلة ١٥ عاما دون أن يعرف اسمه أو يدخل منزله، فالحرص على الخلوة يبلغ حد الشراسة. والاحساس بالحرية الزائفة لا يعادله سوى قلة ثقة الناخبين بالسياسيين المحترفين من رجال البرلمان بعد وقت قصير من انتخابهم لهم (الصورة التقليدية لرجل الكونغرس في الأفلام الأمريكية هو أنه ممثل بارع عديم المباديء لا يتورع عن شيء للنجاح في الانتخابات، وهو يفقد صلته بناخبيه بعد فوزه، ويجعلهم يحسون بنفس العجز الذي يحس به المواطن السوفياتي ازاء دكتاتورية الدولة والحزب). والمخابرات السوفياتية (KGB)نشطة في الداخل قدر نشاط وكالة المخابرات المركزية الأمريكية خارج بلدها. وروسيا تبطش بمن يحاول تغيير نظام الحكم مثلما تبطش أمريكا بالسلاح أو بالضغط المالي أو بالعمليات السرية لمخابراتها بأية حكومة مستقلة او هيئة دولية تخالفها في السياسة أو المصالح (مثل فييتنام او ايران أو حتى الأمم المتحدة) دفاعا عن مصالح «العالم الحر» و «الأسلوب الأمريكي في الحياة» (American Way of Life)، مع ان هذا الأسلوب قائم اصلا على حرية الاختيار واحترام تعدد الآراء. ورغم الطنطنة الدعائية فان غزو روسيا لجارتها افغانستان نسخة طبق الأصل من غزو أمريكا لفييتنام وغرينادا علنا ونيكاراغوا سرا. فقد صار تقديم المصالح على المباديء سافرا في عهد الديمقراطيات والجمهوريات، وأصبح كلاهما يأخذ بالشعار الرأسمالي المشهور «ليست هناك صداقات دائمة وانما مصالح دائمة» (اسرائيل اتقنت هذا الشعار مع صديقتها الوحيدة أمريكا بشهادة فصل سابق). وأمريكا تتحدث بشكل سافر عن حماية مصالحها الخارجية أكثر مما تتحدث عن حماية مباديء العالم الحر. وكيف يكون هناك عالم حر اذا كنا نتحدث عن مصالحنا الخاصة دون مراعاة للمصالح العامة أو الدولية؟ وكما تنكرت واشنطن لمبادئها بدافع الربح (اسألوا الشركات الأمريكية والاسرائيلية في جنوب افريقيا) تنكرت موسكو لعقيدتها بارهابها للدول الاشتراكية المجاورة بحيث لا تجرؤ على التصويت ضدها في الأمم المتحدة (ناهيك عن خيانتها لتفسيرها المادي للتاريخ بأن أصبحت أكثر الدول الصناعية تخلفا ماديا، فأفقرت نفسها بعد أن أفقرت شريكاتها).

---

* لعب المستوطنون الأمريكيون (مثل كهانا) دورا رئيسيا في تصدير العنف والاستيطان والارهاب الى الأراضي المحتلة وبالتالي في بدء ثورة ١٩٨٧. ويتردد مثلا قتلة كريم خلف رئيس بلدة رام الله السابق بين تل أبيب ونيويورك دون ملاحقة سواء من شرطة أسرائيل أو الولايات المتحدة.

ماذا يحدث عندما تتضخم المصالح وينال المرء أكثر مما يستحق ويحتاج؟ ان ما قاله يهودي منوحين عن تزايد قسوتنا كلما خشينا أن نفقد ما حصلنا عليه دون وجه حق ينطبق على الدولتين العظميين، فهما الآن في أعلى مراحل خوفهما من أن تسلب كل منهما الأخرى نفوذها العالمي. وهذا الشك المتبادل هو الذي خلق سباق التسلح النووي والتقليدي المجنون فزاد من اختلال كل منهما اقتصادياً واجتماعياً وأخلاقياً بالطبع.

في الأيام الخوالي، كانت ترسانة الانسان من السلاح بقدر حاجته الدفاعية أو أقل. أما الآن فلديه من السلاح ما يكفي لتدمير عدوه والعالم كله عدة مرات. وأسوأ من ذلك أنه كان على حساب التنمية في العالم.

احصاءات الأمم المتحدة تقول أن العالم كله ينفق على السلاح مليون دولار كل دقيقة، وألف بليون دولار كل عام، بينما تقدم البلدان المتقدمة الى البلدان النامية مساعدات رسمية لتنميتها تبلغ ٤٦ بليون دولار[١]. والآن يموت ٣٥ ألف شخص من الجوع والأمراض المتصلة به كل يوم[٢]، بينما يلقي الأمريكيون في الزبالة من الطعام ما يكفي لاطعام الهند والصين مجتمعتين.

طبعا يد وحدها لا تصفق، أي أن الحل لا يأتي من طرف واحد. ولايضاح فكرتي أضرب بالمكسيك مثلا، لأنها أقرب جارة نامية الى أمريكا. والذي يمزق المكسيك حاليا ليس مجرد التضخم وعجزها عن دفع ديونها الباهظة (أو حتى دفع الفائدة عليها) وانما الفساد العام والخاص. وكل انسان هناك يحاول البقاء على قيد الحياة بأي أسلوب كان.

في الفيلم المكسيكي «الشمال» يتسلل فلاح وأخته الى الشمال (أمريكا) بعد أن ينهب المهربون المكسيكيون مدخراتهما ويعبران أنبوبا للمجاري حاشدا بالفيران (المشهد في الفيلم حقيقي). وبعد أن يستغلهما الأمريكيون أيضا بفترة قصيرة، تفقد الفتاة حياتها ويعود أخوها الى بلده خالي الوفاض، مختل التوازن.

نحن اذن أمام مشكلتين: الاصرار على «الاتجاه شمالا» رغم تحذير الشيوخ، ومستغلان أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب. وكلاهما ضحية الهوس بحلقة مفرغة من الأعمال الحرة والاستهلاكية تجعله يطلب أكثر مما يحتاج ويعطي جاره أقل مما يستحق. لكن هذا أيضا من مسؤولية ابن العالم الثالث الفقير (الأخَوان)، فهو ليس قانعا مثل أجداده رغم فقرهم الطويل، وبهذا ينال ما يستحقه. ولعبة الشر لا يقع ضحيتها الا من يحتاج الى درس منها.

والحق أن جزءا ملحوظا من مشاكل الشرق الأوسط قد كسبناه عن جدارة ولا علاقة له بالدول الكبرى. فهناك الصراع الدامي الطويل بين ايران والعراق، والحرب الطائفية في لبنان، والمهاترات التي لا تنتهي بين الدول العربية. المشكلة اذن متكاملة وليست مجرد مشكلة دول الشمال والجنوب أو

---

(١) وثيقة الأمم المتحدة A — Conf. 139 — 3، الفقرة ٥.

(٢) مجلة الأمانة العامة للأمم المتحدة (سكرتارية نيوز)، ١٩٨٥/٤/٣٠.

معسكري الشرق والغرب، فكل رقصة تانجو (كما يقول الأمريكيون) تحتاج الى اثنين، وكلاهما مسؤول عن نجاحها. ذلك أن الشدائد التي تصيبنا تحديات لنا كي نحاول جهدنا أكثر. ويبدو هذا من مشاكلنا الاجتماعية بعد السياسية. فاذا كانت الأسرة هي أساس التوازن الاجتماعي، فان تفشي الطلاق كالوباء ساهم كثيرا في معظم المشاكل الناجمة عن انهيار الأسرة، مثل المخدرات والانحراف الجنسي والعنف والأمراض النفسية. والسبب الأول في الطلاق طبعا راجع الى تضاؤل استعداد الشريك للتضحية والصبر على الشريك الآخر. وظهرت هنا شعارات فاشلة مثل ثورة تحرير المرأة، والثورة الجنسية. فالأولى لم تقلل من الطلاق حتى بعد أن صارت المرأة تدقق في اختيار زوجها. والثانية قللت كثيرا من الرغبة في الزواج، ناهيك عن زيادة الجنسية المثلية وما جلبته من داء جديد فتاك غيرمفهوم للشواذ الذين يتظاهرون بعشرات الآلاف في كبرى مدن الولايات المتحدة واوروبا مطالبين «بحقوقهم».

قد يقال أن صعوبات الحياة العصرية هي التي زادت من الطلاق. وهذا غير صحيح، فهو شائع في المجتمعات الصناعية أكثرمنه في دول العالم الثالث الفقيرة. ففي أمريكا تنتهي نصف الزيجات بالطلاق، و٦٠٪ من المتزوجات يتطلقن قبل سن الثلاثين. وفي فرنسا تبلغ نسبة الطلاق العامة ٢٥٪ ولكنها تبلغ ٦٠٪ في المدن (وهي ليست أفقرمن الريف). وفي اليابان نرى أن ٧٠٪ من حالات الطلاق تأتي بطلب من المرأة. أما المجتمعات الاشتراكية فهي مفاجأة حقيقية لنا. اذ تقول صحيفة موسكو فسكايا برافدا الروسية أن ٧٠٪ من الزيجات سوف تنتهي بالطلاق خلال عشر سنوات بسبب ادمان الخمور والأزمات المالية وقلة الخلوة[٣]. ولكن العكس صحيح أحيانا وهو أن الحاجة المادية تجعل أحد الزوجين أو كليهما أكثر استعدادا للتضحية والصبر والتنازل عن الطلاق، وهنا يحقق الاختبار والتحدي ما هو مطلوب منه.

ثانياً ـ اسرائيل بوصفها ذروة التعبير عن الاختلال العالمي

ليست هناك دولة لها نفوذ اسرائيل العالمي أو خصائص اختلالها. فهي الدولة الوحيدة التي:

* اقيمت بدعوى الوعد الإلهي .
* ليست لها حدود معلنة حتى الآن.
* أحالت أقلية السكان الى أغلبية وغيرت لغة بلدهم.
* استمر توسعها دون انقطاع منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية.
* تمنح نفسها حق الاغارة على أي بلد (من أوغندا الى الأرجنتين) وخطف أي طائرة وانتهاك القانون الدولي عموما بأدنى حد من العقاب.
* نفوذها العالمي هائل ومع ذلك فان دول العالم التي تعترف بها رسميا أقل من ثلث المجموع.
* لها ديمقراطية ثيوقراطية طائفية.
* تدعي أنها مهددة بالفناء، مع أن الدول الحقيقية لا تفنى.
* تنال من الصحافة اهتماما أكثر من أي دولة أخرى دون مبرر واضح.

---

(٣) مجلة بلين تروث (الحقيقة المحضة)، باسادينا، الولايات المتحدة، أيار/ مايو ١٩٨٧.

* تعطي حق «العودة» لمن لم يولدوا أو يعيشوا فيها قبل ذلك.
* لا يتعرض صحفيوها في الداخل للرقابة بينما الرقابة عسكرية على المراسلين الأجانب.
* يعتبر السلم أخطر عليها من الحرب.
* تعتبر أقرب الى أمريكا من أية دولة أوروبية ومع ذلك تتجسس عليها وتخفي أسرارها عنها أكثر من كل دول الغرب الأخرى.
* يموت فيها اليهود أكثر من أي مكان آخر.
* تعتمد على تصدير السلاح أكثر من أية دولة أخرى وتتلهف على السلام مع الاحتفاظ بالأراضي المحتلة.
* لها امبراطورية تقوم على التبرعات!

وخصومها الفلسطينيون أيضا غير عاديين. فهم مثل اليهود مشتتون جغرافيا متماسكون اجتماعيا، واحتفظوا بنفوذهم السياسي رغم هزائمهم العسكرية، ولسبب ما يتزايدون بصورة قياسية رغم ارتفاع مستوى تعليمهم ومعيشتهم نسبيا عن الشعوب العربية الأخرى.* وهم عنصر اختمار وتثوير وتنوير في المجتمعات التي تستضيفهم، وقضيتهم تستأثر بوقت الأمم المتحدة أكثر من أية قضية اخرى حتى أقامت فيها وكالة خاصة بلاجئيهم وشعبة خاصة بحقوقهم، وكأنهم رمز عالمي لقبول التحديات الجمة التي فرضتها اسرائيل على المجتمع الدولي.

ولكن لماذا اختيرت اسرائيل للقيام بهذا الدور العالمي الخاص؟

لا بد أصلا من اختيار أحد ليكون عينة للتجربة الكونية للانسان، من حيث علاقته بنفسه (الارادة) وبالآخرين (الاحسان) وبالله (القانون الكوني). واذا لم يكن الشعب المختار هو المرشح لهذا الدور، فمن اذن؟.

لكن مأزق اسرائيل هو أنها ظلت تظن أنها «النموذج» وليس «العينة»، وأنها الوحيدة التي رشحت لهذا الدور في التاريخ كله، وأنها نجحت في الانتخابات بمفردها. ومع ذلك فان استمرار التاريخ اليهودي الفاجع منذ السبي البابلي حتى الهولوكوست النازي يبين أنها ما زالت راسبة «تعيد» الامتحان منذ أيام التيه في سيناء. واذا كان الله رحيما (وهو كذلك حقا) فانه لا يبتلي عباده المصطفين دونما سبب. وليس هناك انسان سيء الحظ دائما الا اذا كان أعمى لا يدرك أن «الحوادث» تنزل به لكي يصلح شأنه. وكل محاولاتنا لتغيير المساويء الخارجية لا تنجح قبل تغيير مساوئنا الداخلية، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. والمؤسف أن العرب والمسلمين عامة نسوا تماما أن كلمتي «البلايا» و «المحن» مشتقتان من كلمتين تعنيان الاختبار («بلا» و «محن» أي امتحن). ورغم ذلك نظل نعجب لماذا يكون الرجل الصالح شبه «محروس» من الحوادث والمحن؟ لأنه لم يعد يحتاج الى امتحان أصلا. وفي القرآن اشارات كثيرة الى تجنيب الصالحين «الحوادث» و «المحن» عندما «نجينا موسى وقومه» وعندما أنقذ

---

* الغريب أن هذه النسبة تبلغ أقصاها بين «عرب اسرائيل»، فقد تضاعفوا أربع مرات منذ انشاء الدولة اليهودية.
وجدير بالذكر ايضا ان هذا اقترن بتضاعف اعلى في نسبة التعليم. ففي عام ١٩٨٠ كان هناك اكثر من ١٢٠ الف جامعي فلسطيني، اي اكثر مما كان لدى النرويج التي كان لها نفس العدد من السكان حينذاك.

يونس من بطن الحوت، ونوحاً ومن آمن معه من الفيضان، الخ..

وأسوأ من ذلك أن اسرائيل بعد أن زيفت نتائج الانتخابات ظلت تقسم العالم الى يهود وأغيار، أي الى أنصار وخوارج أو الى مؤمنين وكفار. وأعماها الغرور (وهو مأثور عنها) عن أن تلاحظ أنها لم تفشل في حل المشكلة اليهودية فحسب، وانما زادتها سوءا. ولم تلاحظ أيضا أنها أداة في يد الله تخدم غرضه بتشجيع الاختمار واستنهاض همم الأغيار. وقد أشار صراحة بعض الزعماء الصهيونيين مثل بوبر وحاييم وايزمان وليوبنسكر الى دور اليهودي في «الفتنة» (disruption) اذا ظل في الشتات. ولم يعمر هؤلاء ليروا أن هذا الدور ازداد حتى بعد ظهور اسرائيل بأرقامها القياسية في انتهاك القانون الدولي.

لكن من الانصاف أن نعترف أيضا أن ثمار سابق علاقتها الفريدة بالله (بدليل ذكر موسى في القرآن مثلا أكثر من أي نبي آخر، وبني اسرائيل أكثر من أي شعب آخر) لم تتبدد، لأن الزبد وحده هو الذي يذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض. وهذا أبقى في أعماقها شيئا كثيرا من روحانيتها الأصلية التي اختلطت طبعا بالأنا الجماعي المقدس. وأدى هذا «الخلط» الى جعل الشخصية اليهودية عامة والاسرائيلية خاصة ممزقة بين اتجاهين متنافرين في غاية التطرف، مغذية كلا منهما بقدر متساو تقريبا. وزاد المعضلة تعقيدا أنها تخشى من اتخاذ أي اجراء اصلاحي لا يقوى على احتماله توازنها النفسي الهش، مع أن العالم كله يتطلع اليها (غالبا دون أن يلاحظ ذلك) ليرى كيف تجتاز هذا المأزق الانساني الفريد. ولعل هذا يفسر سر اهتمام الصحافة العالمية بما تفعله اسرائيل كل يوم وما لا تفعله بشكل غير عادي وغير مفهوم.

يتحدث هنا توماس فريدمان الصحفي الامريكي اليهودي البارز عن هذه الظاهرة الغريبة فيقول انه يصعب ارجاعها الى عالم واحد مثل افتتان الغرب المسيحي بالثقافة والتقاليد التوراتية، أو دور اليهودي في العالم المسيحي، أو الشعور بالذنب من الهولوكوست، أو اللاسامية، أو تهافت اسرائيل على أن تكون موضع القبول العالمي. «فالمنظّر السياسي الاسرائيلي الأستاذ يارون عزراحي يشير الى نقطة أساسية هي أنه عندما يسيء الفرنسيون أو الألمان (الأغيار) التصرف فهذا أمر مألوف في تاريخهم الطويل.. أما عندما يخطيء اليهود، بسجلهم الأخلاقي في الوعظ والدعوة وبعد سنوات كثيرة جدا من الضعف والهشاشة، فهذا هو الخبر. وما يستهوي العالم ويحيره هو هذا التناقض. وأخذت هذه التناقضات تصبح جزءا من حكاية الانسان وقصور الطبيعة البشرية والفجوة الفاصلة بين المعايير العليا والوقائع»[٤].

والحقيقة أنني لاحظت بعد عدة عقود من دراسة الاسرائيليين واليهود عامة أن تناقضات العقل الاسرائيلي ليست مجرد صورة مصغرة من التشوش الفكري العالمي فحسب، وانما هي ايضا نموذج صارخ لتطرفه. فهذا العقل الغريب موزع بين العالمية والتعصب القبلي، بين العدل والانتقام الزائد، بين التعاطف والتصلب، بين الخنوع وشدة المراس، بين النقد الذاتي والشك العارم في

(٤) نيويورك تايمز، العدد الأسبوعي، ١٩٨٧/٢/١.

الناقدين، بين العدوانية وكثرة الشكوى من الاضطهاد، بين التضامن العشائري والحزازات العائلية المريرة، بين الابداع والموت الداخلي.

كما أنه منقسم بين عشق الحياة والانشغال الدائم بالموت، بين الحساسية المرهفة بين الذمة والاستغلال، بين الغطرسة وكراهية الذات، بين الاستقلال السياسي والتبعية الاقتصادية الكاملة، بين خشونة الحديث وحب الضيافة، بين تقاليد الشرق من ناحيــة وقيم الغرب من نــاحية أخــرى، بين التكنولوجيا الراقية والخرافات التوراتية، بين التلهف على عودة المسيح المخلص وانكار ظهوره أصلا، بين الديمقراطية والثيوقراطية، بين التهافت على ارضاء الآخرين ومعاملتهم في نفس الوقت كأغراب أمميين، بين حب الفكاهة والتشاؤم من المستقبل، بين الحرص على تغطية وسائل الاعلام العام وادمان العمليات السرية في وقت واحد، بين حفظ الجميل للأصدقاء والتجسس عليهم، بين عدم الاستقرار والخوف من السلم، بين حب الحرب والحداد الدائم.

وأخيرا فهو مشتت بين الانتماء الى اليهودية ونبذها «كعبء أخلاقي» كما يقول هاينريش هايني، بين التوسع والبقاء، بين الولاء للدين والولاء للدولة، أي بين الاحتماء بالله والاحتماء بالقبيلة، بين مهادنة الخالق والتوجس من نقمته، بين حكمة الفلاسفة والعجز الطفولي عن التحكم في الذات.

باختصار، هو قمة التعبير عن مأزقنا الروحي الراهن، فنحن مثله حائرون بين العلم والغيبيات، بين التضور جوعا للمعرفة وردم المعلومات كما يقول جوزيف كونراد، بين الحب والخوف من الالتزام، بين التحكم في الذات والتحكم في الآخرين، بين ضرورة استكشاف فضائنا الداخلي والاصرار على غزو الفضاء الخارجي أولا.

ربما ليس صدفة اذن أن المسألة اليهودية صارت قضية فلسـطين ثم ارتدت لتصبـح قضية اسرائيل مرة أخرى ولكن على نطاق عالمي دخلت فيه أطراف غير مألوفة مثل اليابان وجنوب افريقيا ونيكاراغوا وايران.

طبيعي لذلك أن تصبح اسرائيل معضلة عالمية في أسلوب مواجهة الذات. وربما كان تدبيـرا مقصودا أن تصبح محورا لأشد استقطاب للصراعات الجيوبوليتيكية والدينية والقومية والاقتصادية والثقافية في العالم، وربما كان مقصودا أيضا أن تتحول معظم انتصاراتها العسكرية الى نكسات أو مآزق سياسية خطيرة (مثل حرب ١٩٦٧ وغزو لبنان). وكأن التفسير الكوني هو أنها لم تحاول التحكم في نفسها قدر تحكمها في الآخرين، ففقدت روحها مثل الانسان المعاصر وانتفت بالتـالي الحكمة من النصر.

اذكر أننا كنا جالسين على شرفة فندق سمير أميس المظلمة بالقاهرة بعد انتهاء حرب ١٩٦٧. وكان الفنان المعروف محمود مرسي في حالة من الاكتئاب العميق والنقمة العارمة حتى أنه لم يأخذ مأخذ الجد تفاؤلي بأن هذه الهزيمة المروعة أكبر مسمار في نعش اسرائيل. وكانت حجتي أن هذا سيبرز كل التناقضات الدفينة في العقل اليهودي ويرغمه في النهاية على مواجهة نفسه بصدق ويعيد تقييم موقفه مما يسمى «مشكلة الشر»، ولكن هذا قد لا يحدث الا بعد سلسلة متسارعة من ردود الأفعال الاقليمية والخارجية. (ولذلك أعرب الجنرال ديغول ببصيرته التاريخية النافذة عن قلقه على بقاء اسرائيل لو

شنت حرب الأيام الستة وحذرها من ذلك بشدة).

وكان من أبرز ردود الفعل العالمية لهذا الهجوم هو اتساع حجمها ووزنها فجأة عدة مرات. واستوجب ذلك منها طبعا أن «تعسكر» نفسها دفاعا عما حازته. لكن تزايد اعتمادها بعد رد الفعل الطبيعي (وهو حرب ١٩٧٣) على الولايات المتحدة في الدفاع عن مصالحها المتضخمة بسرعة قد أرغمها على أن تدفع ثمن ذلك بأن تؤدي لواشنطن كل العمليات المشبوهة التى لا تستطيع القيام بها. وكان لهذا رد مضاد هو ان تستغل اسرائيل شريكتها الغنية الى حد المغالاة. وكان لذلك اثر خطير هو ادخال امريكا في غيبوبة عما يجري فعلا في أخطر منطقة في العالم: الشرق الاوسط.

ثالثاً ـ استغلال الشريك الأكبر عالمياً

رغم اعتراف ريغان بأن سياسة أمريكا في لبنان «كارثة» فانه ترك لاسرائيل يدا شبه مطلقة هناك، وظل يتحدث (١٣ مرة حتى الآن) عن الحرب الكونية النهائية (Armageddon) وكأن الزمام أفلت منه نهائيا أمام أسلوب السلام الاسرائيلي، أو كأن مصير العالم العربي يتوقف على مدى التحرك العربي المضاد في واشنطن.

وقد فرضت اسرائيل على شريكتها أوهاما أخرى عديدة مثل اقناعها بتشابه المصالح والمبادىء والنظام السياسي، رغم استخدامها معيارا مزدوجا عند التعامل معها. ولم يفلح هذا التنويم في تغيير موقف أمريكا ازاء العرب فحسب، وانما جعلها أيضا أقل احساسا بعدد من القضايا العالمية الخطيرة مثل: نزع السلاح، والمعونة الأمريكية الخارجية، وسيادة القانون الدولي، والمتاجرة بذكريات الحرب العالمية الثانية.

في مجال نزع السلاح، من صالح اسرائيل أن يكون لها دور لا غنى عنه في الحرب الباردة بين الشرق والغرب وإلا فقدت جزءا كبيرا من أهميتها الاستراتيجية بوصفها مركزا لنقل المعلومات الحيوية عن الاتحاد السوفياتي (بواسطة اليهود الروس) باعتراف بنيامين نتانيا هو سفير اسرائيل السابق لدى الامم المتحدة، أو بوصفها ميدانا لتقييم استعمال الاسلحة الامريكية ضد السوفيتية في اشتباكات الشرق الاوسط. وأشرس خصوم الاتحاد السوفياتي في أمريكا يهود حتى لو تعاطفوا مع عرب فلسطين (مثل الصحفي الامريكي روبرت نوفاك). وموضوع اليهود السوفييت لا يجرؤ على تجاهله اي مرشح في الانتخابات الامريكية. وهذا المرشح اصلا لا يمكن ان توافق المؤسسة المالية على تمويله اذا لم توافق عليه لجنة آيباك التي تعبر عن مصالح اسرائيل ولها مجلس ادارة مكون من ١٤ عضوا قياديا يمثلون كبرى المنظمات اليهودية الامريكية. وبلغ من نفوذها مؤخرا انها نجحت في منع بعض المساعدات الامريكية عن باكستان البعيدة عن الشرق الاوسط. والولايات المتحدة تستحق ذلك، لأن اعضاء برلمانها «فقدوا شجاعتهم» ازاء النفوذ الاسرائيلي كما يقول الصحفي الامريكي جورج ويلر الذي عايش معظم حروب الشرق الاوسط.

أما عن المعونة الخارجية فقد نال ١٤ مليون افريقي كانوا يموتون جوعا في منطقة الساحل الافريقي بليون دولار من مال أمريكا خلال خمس سنوات (١٩٨٠ ـ ١٩٨٥) بواقع ٧١ دولارا للفرد.

بينما ينال كل اسرائيلي سليم معافى لديه معظم الكماليات الرئيسية حوالي ٧٥٠ دولارا كل سنة لأن ٥٠٪ من مساعدات امريكا الانمائية العالمية تذهب الى اسرائيل. وبينما لا يجرؤ نائب امريكي على طلب تخفيض هذه الحصة المفرطة في شذوذها حتى وقت الانكماش والعجز في الميزانية، من المألوف أن يوجه أقذع العبارات الى الامم المتحدة التي تنفق حوالي ثلثي ميزانيتها على التنمية الاقتصادية والاجتماعية للدول النامية بوجه خاص (٥). ولم تسلم من هذه الضغوط المالية وكالة اليونيسيف التي تنقذ كل عام نحو مليون شخص من الموت جوعا، خصوصا من الاطفال(٦). وهذا الرقم في الواقع ليس سوى جزء ضئيل من ١٤,٦ مليون طفل يموتون كل سنة في البلدان النامية من سوء التغذية والامراض الاخرى التي يمكن الوقاية منها. وقد تضرر كثيرا نشاط اليونيسيف بسبب السياسية الاسرائيلية. فقد ذكر جيمز غرانت مديرها العام ان مبيعاتها من بطاقات التهنئة التي تمول مشاريع للاطفال وتبلغ قيمتها عدة ملايين من الدولارات «لم تتخلص بعد من آثار النكسة التي اصابتها بسبب القرار المعادي للصهيونية الذي اصدرته عام ١٩٧٥ «الامم المتحدة(٧)، بينما ارتفعت بانتظام مبيعات هذه البطاقات في دول اوروبا.

أما عن سيادة القانون الدولي فان الصحفيين الاسرائيليين (وهم بالمناسبة ينتقدون حكومتهم بشدة في العادة) يتحدثون علنا كيف أصبحت حكومتهم غارقة في العمليات القذرة بتكليف من واشنطن، مثل مساندة «جمهوريات الموز» (أو الدكتاتوريات العميلة) بالسلاح والمال والمرتزقة سرا أو جهرا، وبيع السلاح الى ايران، والتحايل على المقاطعة الاقتصادية لجنوب افريقيا، وتهريب المخدرات الى امريكا، والاغارة على بلدان لم تحاربها (مثل تونس ويوغندا وقبرص).

ومن أقل الجوانب المعروفة عن الآثار العالمية المدمرة للعملية الاسرائيلية في لبنان ما ذكره الدكتور هرتسل سيناي بادارة الطب النفسي الاكلنيكي بالحكومة الاسرائيلية لمجلة اكسلسيور المكسيكية في ١٧/٢/١٩٨٤ وهو أن اسرائيل صارت جسرا هائلا للمخدرات الى أوروبا وبعض البلدان العربية وأنها هربت من الحشيش اللبناني ما قيمته نحو ٤٠٠ مليون دولار عام ١٩٨٣، وانها ترغم بعض الجهات اللبنانية على استخدام هذا المال لشراء المنتجات الاسرائيلية(٨).

أما عن دورها في تكريس ذكريات الحرب وسياسة الكراهية، فقد تحدثنا في فصل سابق عن تخليد عقدة هتلر وبالتالي الشعور بالذنب وما يثيره من نقمة مضادة (خصوصا اذا اقترن باستنزاف المساعدات المالية الأمريكية الشاذة في حجمها وملابساتها)، وشل الشجاعة على التصدي لهذا الاستغلال المعنوي والمادي. وأسوأ مثل على تشجيع الكراهية هو قتل المرء اجتماعيا بعد قتله سياسياً، فرغم أن اسرائيل أخذت الفلسطينيين من فلسطين ثم أخذت فلسطين منهم، ذهبت في تنكيلها بالكنعانيين» الجدد الى حد أن اللاجيء الفلسطيني صار يخاف أن يكشف عن هويته خارج العالم العربي (وأحيانا داخله) لأن سطوة النفوذ الاسرائيلي على الصحافة الغربية أحالت صورة اللاجيء

---

(٥) تقرير الأمم المتحدة 6 — 38 — A، المجلد الأول، الفقرة ١٩.

(٦) نيويورك تايمز، ١٢/١٢/١٩٨٥.

(٧) نشرة العالم الدبلوماسي (ديبلوماتيك وورلد بولتن)، نيويورك، ١٧/١٢/١٩٨٤.

(٨) مجلة ورلد برس ريفيو الأمريكية، ١٧/٢/١٩٨٤.

الضحية الى مجرم دولي، وصورة اسرائيل الغازية الى ضحية بريئة له تسقط دون سبب مفهوم في مدارس الاطفال والباصات العامة. والفضل الاول في ذلك طبعا للصحافة الامريكية اساسا، وأن كانت في النهاية ضحية اخرى لنفوذ اسرائيل من ناحية ولمصالح امريكا التي يتزايد شذوذها من ناحية اخرى.

رابعا ـ دور امريكا ذاتها في اختلال العالم

مع أن الولايات المتحدة لم تكن موجودة قبل قرنين، صار استقرار دول العالم ماديا يتوقف على سعر الدولار الأمريكي، وعلى مدى أهميتها الاستراتيجية لأمريكا (حتى الاتحاد السوفياتي كاد يموت جوعا لولا فائض القمح الأمريكي)، وصارت القيم الثقافية والاجتماعية الأمريكية (أي أسلوب الحياة الأمريكية بوجه عام) هي الغالبة على معظم دول العالم. فهل كان هذا النفوذ سببا في اختلال العالم أو ضحية لهذا الاختلال مثلنا؟ دعنا نفكر معا:

ان أفضل مؤشر على أي أسلوب في الحياة هو قيمه، أي شعاراته المعلنة. فلنلق نظرة على أبرز الشعارات «العملية» اليومية التي تستخدمها الولايات المتحدة وتروجها في العالم:

* «كل شيء يتحدد بالعرض والطلب». (supply and demand) هذا صحيح، ولكن في البلدان التي تستغل الندرة. أي أن عليك أن تدفع أكثر في شيء معين كلما ازدادت حاجتك اليه. أي أنني أستطيع أن أحدد لك أعلى سعر أريده سواء كنت قادرا على دفعه أم لا ما دام غيرك قادرا على دفعه. فهل هذا انصاف ومعاملة انسانية؟ ولماذا لا أجعل غيرك قادراً على شرائه ولماذا لا أجعل لربحي نسبة محددة لا أتخطاها كي لا يجوع الآخرون؟ ودور أمريكا بلدي هنا هو أنها تدفع في المواد الخام للبلدان النامية أقل وأقل، وترفع أسعار منتجاتها أو تحافظ عليها مهما كانت وفيرة، وجبال القمح الذي يتضور الناس اليه جوعا تردم حفاظا على اسعاره العالمية أي حفاظا على قانون العرض والطلب.
* الوقت مال (time is money). صحيح أن الوقت من ذهب ولكنه ليس مالاً. ثم ان هذا الشعار لم يشع إلا هذا القرن. هل سمعت أي نبي أو مفكر عظيم في التاريخ يفسر قيمة الزمن هذا التفسير المادي حتى ماركس نفسه؟
* العميل دائما على حق (طالما دفع). أي أن «الحق» يتوقف على القدرة على الشراء.
* المال ينطق (Money talks). طبعا ينطق ـ طالما ظللنا صامتين نستمع اليه ولا ننطق رداً عليه.
* لكل انسان ثمنه (Each man has a price). قلت لصديق لي يكرر هذا الشعار: هل تقتل ابنك لو دفعتُ لك مليون دولار؟ لم يرد من حيرته. نسي أن الانسان لا يقدر بثمن.
* «ليست هناك صداقات دائمة بل مصالح دائمة». وماذا عن المباديء الدائمة؟ الالتزام بالمباديء هو مفتاح الثقة، وبدون ثقة يصبح العالم فوضى، وهذا ما بدأ يحدث عندما صارت كل دولة عظمى تتحدث عن حلفائها الذين «يحمون مصالحها» مثل اسرائيل.
* «ما أحلى رائحة النجاح» (Sweat smell of success). حلوة طبعا، ولكن ليس بأي ثمن أو في أي ميدان كان. فقد صارت صفة «الفاشل» أو الخاسر Loser أقرب الى صفة التافه في الثقافة

الأمريكية، مع أن النجاح في المسابقات الأمريكية صار يدخل أبعادا أتفه من ذلك كما نرى من كتاب جنيس السنوي للأرقام القياسية (الوقوف على رجل واحدة أو التهام أكبر عدد من البيض والمحار.. الخ).

* حالفهم اذا عجزت عن هزمهم (If you cannot beat them, join them). ولماذا لا تتفاداهم اذا لم تستطع مباراتهم، كحل وسط؟ ولم لا نكون محايدين حتى تمر العاصفة؟ ان مسايرة الأقوياء لا تقويهم هم بقدر ما تضعفنا نحن معنويا. واذا استسلمنا لكل الاغراءات والضغوط التي سمح بها الله لاختبارنا، فان الامتحان المقبل سيكون اصعب. انها مسألة «اقتصاد اخلاقي» اذا جاز التعبير. ولهذا يزداد بلاؤنا كلما ازداد عجزنا عن التضحية والمجاهدة.

والحقيقة أن هذه الشعارات الأمريكية المصدرة صارت مؤخرا تثير رد الفعل المطلوب من دول العالم الأخرى، خصوصا من دول الجنوب (العالم الثالث). فقد وقعت كثيرات منها في تحد شاق هو كيف تحافظ على استقلالها الفكري رغم تبعيتها الاقتصادية. والصورة واضحة جدا في قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن. فكثيرا ما تضغط أمريكا على من تساعدها ماديا لتغيير نتيجة التصويت حسبما تريده. وعندما فشلت في تغيير ما سمته «دكتاتورية الأغلبية» لجأت الى أسلوب آخر لفرض دكتاتورية الأقلية، وذلك بتخفيض اشتراكها في ميزانية الأمم المتحدة ذاتها التي تساهم فيها بربع ميزانتيها، بحجة أن المنظمة الدولية سيئة الادارة. وعندما أصلحت الأمم المتحدة جهازها الاداري حسب المواصفات المطلوبة، ظلت واشنطن تخفض حصتها المدفوعة، واعترفت أخيرا أنها تريد بذلك تغيير نتائج التصويت. ولكنها فشلت مرة أخرى، والفضل في ذلك أساسا لقلة احساسها بمشاكل العالم الثالث. فقد هاجم زعيم افريقي محترم دولياهو جوليوس نيريري رئيس تنزانيا حكومة ريغان مثلا في خطاب له بالأمم المتحدة قائلا أن الجمعية العامة نظرت في ٢٨ قرارا بالغ الأهمية لبلده والعالم النامي خلال عام ١٩٨٤، وأن المندوب الأمريكي عارض ١٧ منها وأيد واحدا منها وامتنع عن التصويت على ١٠ قرارات[(٩)]*.

وبعد ثلاث سنوات من الأزمة المالية الطاحنة للأمم المتحدة، اعترف تقرير رسمي مقدم الى الكونغرس عام ١٩٨٧ أن معدل تأييد القرارات المقترحة التي قدمتها الحكومة الأمريكية ما زال منخفضا (١٢,٥ في المائة في المتوسط) وأن التأييد لسياستها كان يبلغ أقصاه في قضايا أمريكا اللاتينية (٤٢ في المائة تقريبا) بينما كان يبلغ «صفرا في القضايا الافريقية»[(١٠)]. وشكا تقرير آخر من أنه رغم ضخامة المساعدات الأمريكية لمصر مثلا، ظلت نسبة تأييد القاهرة لواشنطن أقل من ١٥ في المائة مقابل

---

(٩) نشرة العالم الدبلوماسي، ٢١/١٠/١٩٨٥.

(١٠) المرجع السابق، ١٣/٣/١٩٨٧.

* الصورة أوضح في مجلس الامن، فقد بدأت الولايات المتحدة تستخدم الفيتو (حق النقض) منذ عام ١٩٧٠، وعندما جاء شباط/ فبراير ١٩٨٦ كانت قد صوتت بالفيتو ضد ٤٥ مشروع قرار لمجلس الامن، منها ٢٠ قراراً ضد العرب، و١١ قراراً لصالح جنوب افريقيا.

٩٠ في المائة لاسرائيل، «واننا ما زلنا معزولين في أبرز محفل دولي»[١١].

خامساً ـ متى يسترد العالم توازنه؟

اسرائيل دولة غير عادية أردنا أم أبينا. ونفوذها غير عادي الى حد محير. وكثرة الاشارة الى بني اسرائيل حتى في القرآن غير عادي. وبقاء اليهود وتماسكهم تاريخيا رغم شتاتهم جغرافيا (مثل الفلسطينيين) أمر غير عادي. وتاريخهم فاجع الى حد غير عادي. ورد الفعل ازاء اسرائيل سواء معها أو عليها غير عادي أيضا. فهل هي رمز للمغالاة البشرية وتصيب منا وترا حساسا لأنها تضربنا على الجرح الذي يوجعنا وهو اسرافنا في عبادة الذات وفي العجز عن التضحية؟

يبدو أن سلبيات اسرائيل الكثيرة فيما تقدم من فصول لا يعني أنها جاءت صدفة وانما لترفع درجة اختمارنا واختبارنا الى أقصى حد. انها رمز التطرف في الأنا بتقديمها الدولة على الله، والأغلب أن المشكلة اليهودية كانت ستنتهي بذوبان اليهود تدريجيا في مجتمعاتهم لو لم تتدخل أوروبا العلمانية للتخلص منهم لأن أهمية الولاء للدولة عندها أيضا أهم من الولاء لله. ولهذا كانت اللاسامية ظاهرة أوروبية لا شرقية لأن الشرق لم يضع للدولة كل هذا الاهتمام. ولكن عندما بدأت أولوياته تتغير ولحق بالأنا الغربية المتضخمة، أصبح ابتلاء (امتحان) الشرق والعرب واجبا.

هكذا صارت المعادلة الانسانية الراهنة كما يلي: أمريكا رمز لتقديس الأنا الفردي (عالم اليوم) واسرائيل رمز لتقديس الأنا الجماعي (عالم الأمس أو عبادة التاريخ). والمصالح بينهما مشتركة ظاهريا. ولكن كلما اقتربت الولايات المتحدة من اسرائيل ابتعدت عن عالم المستقبل. وفي مرحلة ما سيكون عليها أن تختار بين الماضي والمستقبل. وكلما تأخرت كان الثمن أفدح لها وللعالم الذي تقوده. ومهما حدث بعد ذلك لن يكون العالم كما هو عليه الآن، ولا اسرائيل كما هي عليه. وهذا ما عناه عموس عوز عندما قال أن قوانين السلوك السوية واسرائيل الحقيقية لا يمكن أن تتحقق الا خارج اسرائيل. ذلك أن اسرائيل الحقيقية ليست سوى المدينة الفاضلة التي عجز بنو اسرائيل دائما عن تحقيقها لنا رغم اصطفاء الله لهم طويلا.

والفرق أنها الفرصة الأخيرة لاسرائيل الحالية (وليس لنا) لمواجهة الذات واصلاحها. فمع أنها ولدت (مثل الانسان) حاملة في داخلها بذرة فنائها، فان البشرية قادرة على التوالد بعد الموت مرة أخرى في دورات ودورات، أما للقوميين اليهود فهذا هو الفصل الأخير، والفصل الأول من عالم جديد بدون اسرائيل المعاصرة أو باسرائيل الحقيقية كما أرادها الله.

والى أن يتحقق ذلك علينا أن نتذكر دائما قول دوستويفسكي «ان الكلمة الأخيرة في التاريخ اليهودي لم تصدر بعد»[١٢]. وعندما تصدر هذه الكلمة تكون اسرائيل الحالية قد انهت مهمتها وفقدت مبرر وجودها.

---

(١١) نيويورك تايمز، ١٩٨٦/٥/٢٣.

(١٢) زاندر، المرجع السابق.

خلاصة الكتاب

توشك الدراما اليهودية الطويلة على بلوغ فصلها الأخير.

وقد حاولنا في الفصل الأول أن نبين أن تقسيم العالم الى يهود وأغيار فكرة مركزية في العقل اليهودي، لكن هذا التقسيم لا يصبح خطرا الا اذا اتخذ طابعا جماعيا قوميا قوامه الدولة. وقد ذكر التلمود أن الله أحسن الى بني اسرائيل بأن شتتهم بين الأمم. ففي العقل اليهودي عامل مضاعف هو المغالاة، وهي تبلغ أشدها عندما يتخذ هذا الأنا الجماعي المقدس شكلا نظاميا شرعيا رسميا، لذلك احيت دولة اسرائيل السلبيات الكامنة في العقل اليهودي مثل البارانويا والعدوان وازدواج المعيار (الذي يبلغ قمته في سياسة العين بالسن)، وبالتالي أبرزت أسوأ ما فيه. وضربنا أمثلة عديدة على ذلك.

وفي الفصول التالية ذكرنا ما ترتب على هذا التقسيم من مأزق أو عقد رئيسية ثلاثة، مع الانسان والله والذات. وأشرنا في الفصل الثاني الى أن المأزق مع الانسان يتجلى في عقدة الديمقراطية، وهي عقدة فريدة لأن ديمقراطية اسرائيل طائفية تعطي اليهود كل الحقوق والأغيار دون ذلك بكثير. والطريف أن كلا من اليساريين (مثل بنفنستي) واليمينيين (مثل كهانا) يتفقون على أن اسرائيل لا يمكن أن تكون يهودية وديمقراطية في وقت واحد، فإما هذه أو تلك. وأيدنا ذلك بنحو عشرين مثلا على أوجه الاختلاف الجذري بين الديمقراطية في اسرائيل والولايات المتحدة. ولاحظنا أن عقدة الديمقراطية تتخذ عدة سمات أبرزها صعوبة التعايش داخل الدولة، وكثرة اللجوء الى العمل السري والارهاب الحكومي، وتقديس الأمن وعدم الثقة بالعالم الخارجي، والتنويم الذاتي القائم على منطق التمني الذي يتمثل في كثرة الخرافات والانتحال الثقافي وتقييد تصور الزمان والمكان، وبالتالي اعادة كتابة التاريخ وعبادته بعد ذلك على أساس أنه لا يقبل النقض أو النقد.

أما العقدة الرئيسية الثانية فهي عقدة الهلع من الموت، وأرجعناها الى مأزق مع الله لم يحل وظهر على ثلاثة مراحل هي: تقديم الدين على الله (التلمود على التوراة)، ثم تقديم الشعب على الدين (يهود بلا يهودية)، وأخيرا تقديم الدولة على الشعب (تقديس الأمن). وتمثلت المرحلة الأولى في التخلي عن اسم الله الأصلي (من إيل الى يهوه)، وتأنيس الله وتأليه الانسان الجماعي في وقت واحد، والاستنكاف عن السجود والركوع اللذين دعا ابراهيم اليهما وما زالا شائعين في الحبشة بين اليهود والمسيحيين والمسلمين على السواء بسبب انعزالهم الطويل جغرافياً واحتفاظهم بالتقاليد الأصلية. وتمثلت المرحلة الثانية في الاحجام عن التبشير (بحيث أصبح اليهود أقل الموحدين عدداً بفارق هائل)، وفي جعل الانتساب للأم لا للأب (على أساس أن سارة هي الكاهنة الأولى)، وفي التوسع في تعريف اليهودي رغم عدم الاتفاق حتى الآن على من هو اليهودي أصلا، وأهم من ذلك كله تقديم الانتماء على المحبة كما يقول رافائيل باتاي، والارتداد عن فكرة خلود الروح التي كانت شائعة بين الفريسيين بتأثيرمن الفلسفة اليونانية (أفلاطون وأفلوطين بالذات)، وما أدى اليه ذلك من انكار وجود حياة خارج هذه الأرض.

ولاحظنا أن هذا المأزق انتهى تلقائيا الى علاقة غريبة معقدة مع الله تمتزج فيها الرهبة بالاعجاب والغضب وبالانكار أحيانا، وضربنا مثلين على ذلك هما إيلي ويزل محترف الحداد على الهولوكوست

والذي استعاض عن الله بخلق اله جديد هو تقديس الذاكرة، وفرويد الذي كان يعتبر نفسه نبيا بلا اله. ولاحظت أن الاثنين دفعا ثمن الحادهما غاليا: من التوازن النفسي في حالة فرويد ومن الحياة بلا معنى في حالة ويزل. واقتضت شخصية فرويد البالغة التعقيد ووعيه الزائف افاضة في تحليل نفسيته ومقارنته بتلميذه يونغ، خصوصا من الجانب الروحي، لأن الأخير كان يرى أن الأنا الأعلى راجع الى الروح وليس الى التربية الأسرية (الاوامر والنواهي) كما كان فرويد يرى. وانتهينا الى أن فقدان الأمل والنور (في حالة ويزل) والمرارة والتشاؤم والاغتراب (في حالة فرويد) قد أفرغ دعوة كل منهما الى العقلانية والأخوة الانسانية من أي روح لأنها في واقعها دعوة يائسة أو تحالف سري ضد الله قوامه الادعاء بأن «موت الله شرط لحياة الانسان»، مع أن كلا منهما كان يعيش بلا تفاؤل بالمستقبل، في حين أن التفاؤل سمة أساسية في الثوار العقائديين. وانتهينا الى أن الموت الداخلي هو سبب الانشغال بقضية الموت والتهالك على الحياة.

بهذا تصبح العقدة الثالثة والأخيرة وهي المأزق مع الذات (عقدة مسادة، أو الخلاص بالانتحار) تحصيل حاصل. والا فكيف نفسر طول التاريخ اليهودي الفاجع؟ وسواء كانت مأساة مسادة انتحارا أم جوعا فان التاريخ اليهودي حافل بنزعات الانتحار الجماعي، أي أن عقدة مسادة موجودة أصلا، وهي تظهر من عدة أمثلة أبرزها ثورة باركوخبا التي قضت على أكثر من نصف مليون يهودي ومع ذلك فهي موضع التمجيد في اسرائيل لتشابه الظروف. فالدولة حاليا في غيبوبة متزايدة عن الواقع ولا تدرك العواقب الانتحارية لاستفزاز المجتمع الدولي والمنظمات الدولية (محاولة تدمير الأمم المتحدة) واستعداء الأصدقاء تدريجيا بعد الجيران. وقلنا ان السيطرة على العالم الخارجي لا تحل المشكلة، فلا بد لاسرائيل أن تسيطر على نفسها أولا بأن تستعيد حجمها الطبيعي ورسالتها الأصلية اذا أرادت البقاء أو حل المشكلة اليهودية. واستلزم ذلك ايضاح نقطة هامة هي أن العلاقة بين اسرائيل وأمريكا (مصدر بقائها) علاقة شاذة فريدة مثل علاقة بني اسرائيل بالأغيار، فهي ليست علاقة الامبريالية بعميلها لأن مصالح اسرائيل ترجح كلما اصطدمت بمصالح الولايات المتحدة. وهي ليست علاقة التابع بالمتبوع لأن الاستغلال بينهما متبادل، ولأن اسرائيل أصلا قائمة على الخوف والشك في المستقبل. وانتهينا من ذلك الى أن العلاقة بينهما مرضية ولا بد من انفصامها، وأن اسرائيل بتكوينها الراهن دولة انتحارية، وأن عقدة الانتحار عندها هي الخوف من الصلح مع الأغيار.

وحاولنا في القسم الثاني من الكتاب أن نبين المهارب الوهمية لاسرائيل التي تعمق في الواقع من مأزقها. فبدأنا باثبات أن السلم أخطر عليها من الحرب، وأن المهرب المثالي لها هو شن حروب خاطفة تعقبها فترات طويلة من اللاسلم واللاحرب تفضل معها المحسوسات على المعنويات، والأرض على السلم، والحواجز الطبيعية على المعاهدات. وأوردنا نحو عشرين دليلا على خطر السلم على اسرائيل (معظمها من مصادر اسرائيلية) وأهمها أن السلم معناه حدود مفتوحة واندماج وتزاوج وذوبان في المحيط العربي والثقافة الشرقية، وهذا يعني اختفاء الغيتو اليهودي. لكن بقاء الدولة في هذا الوضع الشاذ المقلقل مستحيل بدون دعم خارجي هائل وشاذ ومستمر، ماديا كان أم معنويا، لأنها تقوم على تدفق المال والرجال من الخارج. وكسب الأنصار بالعلاقات العامة يعني استخدام أسلحة دعائية فريدة

شاذة تناسب وضعها. وأهم هذه الأسلحة العالمية هي الترويج للعبقرية اليهودية والمعاناة من اللاسامية والهولوكوست (عبادة الموت).

هنا لاحظنا أنه لا توجد عبقريات يهودية بالمعنى العلمي لأن جميع هذه العبقريات تقريبا ظهرت خارج فلسطين ولا تدين لليهودية بشيء. وأهم هذه العبقريات (وهم المسيح وبرجسون وماركس وسبينوزا وهايني واينشتاين وفرويد) كانت خارجة أصلا على التقاليد اليهودية ولم تستخدم اللغة العبرية التي هي وعاء الثقافة اليهودية (كان المسيح يتحدث الآرامية، وهرتزل كان يجيد سبع لغات ليس منها اليديش ولا العبرية، وابن ميمون كان يكتب بالعربية بحروف عبرية، كما أسلم في أواخر عمره، وسبينوزا كان يكتب باللاتينية، وماركس وهايني واينشتاين بالألمانية). ثم أن كثرة الفائزين اليهود بجوائز نوبل لا يعني أنهم عباقرة بل متفوقون والا لقلنا أن كل الفائزين بها عباقرة. وعند مقارنة فضل الحضارة العبرية والعربية على الحضارة العالمية من واقع ما دخل كل منهما من مصطلحات في القواميس الانجليزية واللغات العالمية الأخرى، لاحظنا أن كفة الحضارة العربية ترجح حتى في المصطلحات الدينية. ومع ذلك تشتد الدعاية لفضل العبقرية اليهودية ولكثرة ما عاناه اليهود من اضطهاد بهدف اعفاء اليهود من المعايير الدولية اذا خرجوا عنها.

وعند الحديث عن المعاناة اليهودية التي ترجع أساسا الى اللاسامية، حاولنا أن نبين أن سجل اليهود الطويل في الاضطهاد شاذ أيضاً بين الأمم، وأن الصراع بين اليهود والأغيار كان مقترنا بصراع طويل آخر بين اليهود والله. لهذا كان لا بد أن نفترض مبدئيا أن اللاسامية مسؤولية اليهود والأغيار على السواء. ثم تساءلنا لماذا اضطهاد اليهود بالذات دون الشعوب الأخرى؟ ولماذا يتعذبون هنا وليس هناك؟ والآن وليس عندئذ؟ ثم انتهينا تدريجيا الى ترجيح الشق الثاني من نظرية عموس آلون كاتب اسرائيل الأول وهي أن اللاسامية قديمة قدم الصهيونية، وأن الصهيونية في نهاية الأمر ليست سوى تقديم الانتماء على المحبة، أي اليهود على الأغيار. وهذا يتنافى مع صميم اليهودية (الوصايا العشر)، وبالتالي يفسر سبب الصراع المستمر مع الله أو ما يسميه اليهود المعاصرون بمشكلة الشر.

ولما كان الهولوكوست قمة اللاسامية والشر فقد تزايد تقديسه مؤخرا حتى أوشك أن يصبح في عداد الطقوس الدينية. والمشكلة أنه كلما ازداد حديث أنصار اسرائيل عن الهولوكوست كسلاح سياسي فتاك قل حديثهم عن أسبابه، وبالتالي ازدادت ضبابيته، واعادة كتابته، وقدسيته في النهاية. ولاحظنا أن عدم الحديث مطلقا عن أسباب الهولوكوست واحد من عشرة أخطاء رئيسية في التناول الصهيوني له وهي: اغفال دور القوميين اليهود في خلق هتلر (بسبب التطابق بين الصهيونية والنازية في أكثر من عشر نقاط كبرى) وبذلك صار تخليد الهولوكوست لا شعوريا يعني تخليد النازية. أما النقاط التسع الأخرى فهي التشبث بالتقدير الأعلى لضحايا الهولوكوست (٦ ملايين) رغم اعتراف المؤرخين اليهود بصعوبة تقدير عددهم، والقصد من ذلك أساسا سياسي هو تخليد عقدة الذنب؛ والايحاء بأن اليهود وحدهم هم الذين دفعوا الثمن أو أنهم عانوا أكثر من غيرهم، وبالتالي احتكار الحديث عن ضحايا الهولوكوست ومطاردة مجرمي الحرب العالمية الثانية، والقول بأن الذين خذلوا اليهود هم الحلفاء والفاتيكان وليس الصهيونيون؛ وتعقب مجرمي الحرب؛باستثناء اليهود منهم، والادعاء بأن استمرار

التذكير بالهولوكوست يضمن عدم تكراره مستقبلا؛ وأخيرا ارهاب كل من يعارض هـذا السيناريـو الصهيوني. وقلنا أن النقطتين الاخيرتين أهمها جميعا، فتخليد ذكرى هتلر كفيل بعودته وليس العكس. والغفران هو الكفيل بعدم عودة الماضي وليس سياسة العين بالسن، لأن من يجتر ذكرى الشر يصبح رهينته في النهاية. إن الخوف أكبر عدو للحب، والحب أكبر حليف لله. والخوف القومي اليهودي المأثور يجعله عاجزا عن الحب دون شروط أو توقع للصدمات، وبالتالي يكرر مواقفه السابقة في اجتذاب التمييز ضده.

ولاحظنا في الفصل الأخير أن نفوذ القوميين اليهود غير عادي، وتماسكهم اجتماعيا رغم تمزقهم جغرافيا غير عادي، واضطهادهم الطويل غير عادي، والمساعدات الخارجية التي ينتزعونها غير عادية، وكثرة الاشارة الى بني اسرائيل في القرآن غير عادية، واهتمام العالم بهم غير عادي، وادانتهم غـير عادية، وافلاتهم من العقاب غير عادي، وعدد لغاتهم المستعارة من ألسنة أخرى غير عادي. بل ان نفوذ ضحـايـاهم الفلسطينيـين غير عادي، وتماسكهم رغم شتاتهم غير عادي، واهتمام الأمم المتحدة بهم غير عادي، فهم الشعب الـوحيـد الـذي أقيمت له وكالة خاصة به (الأونروا) وشعبة سياسية خاصة في الامم المتحدة، ولجنتان دائمتان. أي أن رد الفعل ازاء اسرائيل سواء معها أو عليها غير عادي. وهذا يوحي بأن اسرائيـل ظاهـرة كونية من حيث علاقتها بالشعوب الاخرى من ناحية، وبالله من ناحية اخرى، وأن لذلك حكمـة عالميـة سواء شئنـا أم أبينـا وهي أن بني اسرائيـل عينـة كونية اختيرت لتكون رمزا لميثاق الله مع الانسان. بيد أن مشكلة اسرائيل هي أنها ظلت تصر على ثلاثة أمور هي:

أنهـا مثـال للانسـان وليست عينـة نمـوذجيـة منـه، وانهـا المـرشحـة الـوحيدة لهذا الدور في كل التاريخ، وأنها نجحت بمفردها في هذا الامتحان ولا تعرف سببا لشدة طول هذا الامتحان وقسوته (في الهولوكوست وقبل ذلك). وقلنا أن مشكلة الشر ليست سوى امتحان او تحد لنا على اصلاح أنفسنا بدليل أن كلمتي البلايا والمحن بالعربية مشتقتان من فعلين يعنيان الاختبار (بلا ومحن). ولكل شيء سبب يأتي منه وغرض يتجه اليه. وخطأنا دائما هو أننا نركز على سبب البلوى وليس الغرض او الحكمة منها، مثلما نحاول معرفة سبب المرض وليس وظيفته الروحية. لكن العالم ليس فوضى، والله لا يظلم أحدا. ولا بد من سبب وجيه لابتلاء بني اسرائيل بالأغيار وابتلاء الأغيار ببني اسرائيل، بل وابتلاء بني اسرائيل بأنفسهم (بالصراع المتزايد بين العلمانيين وغـلاة المتدينـين، بين التـوسعيين من أنصـار اسرائيل الكبرى وأنصار حركة السلام، بين السفارديين والاشكناز والصابرا بالذات). وعندما يصل هذا الصراع الى حد تدمير دور العبادة اليهودية، فمن الاسفاف والتزييف مـرة أخرى تحميـل الله مسؤولية الشر الانساني.

يبقى الشق الآخر من السؤال وهو: لماذا ابتلى الله الأغيار باليهود؟ الرد على ذلك بسؤال مضاد هو: ولماذا أصبحت سيطرة اسرائيل على العالم أشد من أي وقت مضى؟ هل لأن العالم (بقيادة أمريكا) قد أفرط في أنانيته الى حد صار يستحق تحدي اسرائيل الكبرى؟

هنا قدمنا عدة فرضيات عامة هي: (١) ان الانسان المعاصر في أحرج مراحل اختلاله وفي مفترق

الطرق، بدليل أن من قتلوا في القرن العشرين (عصر العقل والتنوير) يفوق مجموع من قتلوا في سائر قرون التاريخ البشري، وأن ٣٠٠ مليون شخص في العالم مصابون بأمراض نفسية أو عقلية حادة. (٢) ان اسرائيل ذروة التعبير عن هذا الخلل العالمي بدليل بلوغ نفوذها العالمي القمة في هذه الفترة الشاذة بوصفها عنصر اختمار وابتلاء (سواء لها أو للعالم عامة وللعرب والمسلمين خاصة). (٣) انها ساهمت في تغيير دور العالم الجديد (الولايات المتحدة) الذي جاء أصلا ليجدد شباب العالم ويقوده نحو المستقبل، وذلك بتصويرها الزائف أن المصالح والمباديء بينهما متطابقة (رغم قيامها على الاستغلال المتبادل)، وباستنزافها للمعونة الأمريكية الخارجية ومتاجرتها بذكريات الهولوكست للضغط السياسي، وبتشجيعها الولايات المتحدة على شل الأمم المتحدة وانتهاك القانون الدولي، وبتعميق شكها في خصوم «العالم الحر» من سوفيات وعرب ومسلمين، وبالتالي المساهمة في تعثر نزع السلاح بين الكتلتين (رغم الانفاق الخرافي عليه في عالم يموت جوعا)، وجعل التقارب بين المعسكرين رهنا بحل مشكلة اليهود السوفيات. (٤) ان أمريكا كانت تستحق هذا التسلط الخارجي بسبب اخلالها أصلا بالنظام العالمي بما روجته من شعارات عملية زائفة أو غير أخلاقية، وافراطها في تقديس حرية الفرد على حساب حرية المجتمع، وتطبيق الديمقراطية داخليا وليس خارجيا، واستنزاف العالم بالديون والربا والتجارة غير المنصفة. وقلنا ان تحالف الأنا الجماعي المقدس (اسرائيل) والأنا الفردي المقدس (أميركا) عزلهما عن سائر العالم في أكبر محفل عالمي وهو الأمم المتحدة التي أقيمت أيضا لتقود العالم نحو المستقبل وتكون تعبيرا عن «النحن» بدلا من «الأنا».

وانتهينا من هذه الفرضيات الأربع الى أن النظام العالمي الراهن مثلث مقلوب، رأسه (العالم) في الأسفل وطرفا قاعدته (اسرائيل وأمريكا) في الأعلى، ولا يمكن أن تسترد الانسانية سلمها وعدلها الا اذا انقلب وضع المثلث واستردت اسرائيل وأمريكا والعالم مكانيهما الطبيعيين.

ويبدو من سرعة التطورات العالمية الراهنة أن هذا الانقلاب لن يحدث دون شدائد، لأن النظام العالمي الحالي لن يفسح المجال للنظام العالمي الجديد المأمول دون صراع عسير. كيف سيكون هذا النظام الجديد في طبيعته، ومتى سيظهر، ومن هم قادته؟ علم ذلك عند ربي. لكن من المؤكد أن دورة التاريخ التي بدأت بالميثاق الالهي مع بني اسرائيل سوف تنتهي قريبا بعد تفاعل عنيف، وأن اسرائيل الحقيقية أو المدينة الفاضلة التي أخفق اليهود مرارا في تحقيقها لن تتحقق في اسرائيل بشكلها الحالي، ولا في العالم بصورته الراهنة. فالصراع بين العالم (الأغيار) واسرائيل (اليهود) ناجم عن حاجة كل منهما الى اصلاح نفسه. ومتى أصلحنا أنفسنا انتهى دور اسرائيل وانصلح يهودها واختفت دولتهم أو ذابت في العالم، وعندئذ تنتهي المشكلة اليهودية بانتهاء تقسيم العالم الى يهود وأغيار، ويندثر عهد الأنا بعد أن كاد التاريخ أن ييأس من انصلاحنا، وتعود الأرض المقدسة كما كانت منارا للبشرية جمعاء.

أقوال للتأمل

«عشت كل حياتي في ظل نظام شيوعي. وأؤكد لكم أن أي مجتمع بلا ميزان من القانون الوضعي رهيب حقا. بيد أن أي مجتمع لا يملك غير ميزان القانون الوضعي ليس جديرا بالانسان ايضا.. لقد بلغ التطرف في الدفاع عن حقوق الفرد حدا جعل المجتمع بأسره عاجزا حيال بعض الأفراد. وقد حان في الغرب وقت الدفاع عن التزامات الانسان أكثر من الدفاع عن حقوق الانسان.

«... ليست هناك أسلحة مهما كانت قوتها قادرة على مساعدة الغرب في أن يتغلب على ارادة القوة... ولكي يدافع المرء عن نفسه يجب أن يكون مستعدا للموت، وهذا الاستعداد قليل في مجتمع تربى على ديانة الرفاه المادي».

الكاتب الروسي ارثر سولجنتسن في جامعة هارفارد، يوم ١٢/٦/١٩٧٨

«لقد تعرض الروس والعرب والسود والتحرريون وعدة حكومات امريكية متعاقبة خلال العقد الماضي لمزاج هجومي من الطائفة اليهودية تغلغل في أوصالها آكثر من اللازم. ... وما زلنا في حرية السبعينات نعيد تمثيل ما كنا نحسب أن من واجبنا القيام به في الثلاثينات، لكنناالان مختلفون، والعالم أيضا مختلف... ولا بد من ظهور عصر جديد يصارع فيه اليهود انفسهم آكثر من مصارعتهم للآخرين..»
الحاخام آرثر هرتزبرغ الرئيس السابق للمؤتمر اليهودي العالمي نقلا عن نشرة SIR للمجلس الأمريكي اليهودي، في نيسان/ ابريل ١٩٧٩.

«ليس هناك بلد توجد فيه حرية حقيقية في النقاش ويقل فيه استقلال الراي مثل امريكا».
الكاتب الفرنسي اليكسي دي توكفيل

«ستكون أواخر الأيام عصيبة، لا يحب الناس فيها شيئا غير المال والذات، سيكونون متغطرسين متشدقين وشتامين، بلا احترام لآبائهم ولا عرفان ولا تقوى ولا عاطفة صادقة. وسيكونون غارقين في احقادهم يتاجرون بالاشاعات، مزاجهم متقلب وعنيف، غرباء على كل احسان. غدارون ومغامرون، تنتفخ أوداجهم بتعظيم الذات. سيكونون رجالا يضعون الملذات قبل الدين. رجالا يحافظون على الدين ظاهريا ولكنهم مثال حي على انكار حقيقته».
رسالة بولس الثانية الى تيموثاوس (٣:٧)

«لم أر جنود اسرائيل بهذا الارتباك. فقد كان اندلاع الانتفاضة حرب الحجارة مفاجاة مزعجة لهم لأنهم لم يتوقعوا أن تكون ساحة المعركة في الشوارع الخلفية.

«لم أرهم بهذا الغيظ أيضا. هل أغضبهم مثلا أن الأطفال سرقوا منهم سلاحهم الدعائي المفضل: التلفزيون؟ أم أنهم اكتشفوا تفاهة وجود جيشهم النووي في معركة كهذه؟ أم أنهم اكتشفوا مثلا أن معركتهم الحقيقية هي مع انفسهم بأن يثبتوا أن السوبرمان الاسرائيلي لا ينزل الى مستوى الصغار على الأقل، ولا يرد على الحجارة الا بمثلها على الأكثر؟

«هكذا أصبح المقاتل الاسرائيلي نموذجاً لمأزق الانسان المعاصر: إما أن يتحكم في نفسه أو يتحكم في الآخرين. إما أن يردع نفسه أو يردع الحجارة بالرصاص.

«وكلما سقط طفل جديد في يوم جديد، اكتشف العالم مع اسرائيل مدى فقدان الانسان المتحضر زمام ارادته وعجزه عن التعلم من دروس اليوم السابق».

المؤلف

المراجع العربية

١ ـ ايفا نوف، يوري: **حذار من الصهيونية**، موسكو ١٩٦٩ .

٢ ـ إيمار، جان: **تاريخ الحضارات العام**، بيروت، ١٩٦٦ .

٣ ـ برغسون، هنري: **التطور الخالق**، ترجمة د. محمود محمد قاسم، وزارة الثقافة، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦٠.

٤ ـ **التقصير (المحدال)**: تأليف مجموعة من الصحفيين الاسرائيليين، ترجمة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٧٤.

٥ ـ التل، عبدالله: **خطر الصهيونية العالمية على الاسلام والمسيحية**، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٤.

٦ ـ حفني، د. قدري: **تجسيد الوهم**، دراسة في سيكولوجية الشخصية الاسرائيلية، دار الاهرام، القاهرة ١٩٧١.

٧ ـ حفني، د. قدري: **دراسة في الشخصية الاسرائيلية (الاشكنازيم)**، مركز بحوث الشرق الاوسط، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٧٥.

٨ ـ حمدان، د. جمال: **اليهود انثروبولوجيا**؛ المكتبة الثقافية، دار الكاتب العربي، القاهرة؛ ١٩٦٧.

٩ ـ الدباغ، مصطفى مراد: **بلادنا فلسطين**، منشورات دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٥.

١٠ ـ دومال (جاك) ولوروا (ماري): **اضواء على اسرائيل**. ترجمة نزيه الحكيم، دار الآداب، بيروت، ١٩٦٨.

١١ ـ رمضان، محمد احمد: **دعايتهم نصف الحرب، دراسة في استراتيجية الدعاية الصهيونية**؛ وزارة الثقافة، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.

١٢ ـ الزعبي، د. محمد علي: **دفائن النفسية اليهودية من خلال الكتب المقدسة والتاريخ والواقع**؛ بيروت، ١٩٦٨

١٣ ـ شيهان، ادوارد: **العرب واسرائيل وكسنجر**؛ ترجمة وزارة الاعلام، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة، ١٩٧٦.

١٤ ـ عبدالمجيد، د. محمد بحر: **اليهود في الاندلس**، المكتبة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٧٠.

١٥ ـ العقاد، عباس محمود: **الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونانيين والعبريين**؛ كتب ثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧١.

١٦ ـ العقاد، عباس محمود: **الصهيونية العالمية**؛ مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٦٨،

١٧ ـ غارودي، روجيه (رجاء): **المأزق**، ترجمة د. ذوقان قرقوط، دار المسيرة، بيروت، ١٩٨٤ .

١٨ ـ الغزالي، الشيخ محمد: **حصاد الغرور**، دار البيان، الكويت، ١٩٧٠.

١٩ ـ فرويد، سيغموند: **اليهودية في ضوء التحليل النفسي،موسى والتوحيد**، ترجمة عبدالمنعم

الحفني، الدمياطي للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٣.
٢٠ ـ كروزيه، د: **رسائل من بيلاطس البنطي الى سنيكا الفيلسوف الروماني**؛ ترجمة جاد المنفلوطي، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية، مصر، ١٩٧٣.
٢١ ـ محمود، د. مصطفى: **الاحلام**، دار العودة، بيروت.
٢٢ ـ المسيري، د. عبد الوهاب: **موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية**؛ مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، دار الاهرام، القاهرة، ١٩٧٥.
٢٣ ـ المسيري، د. عبد الوهاب: **نهاية التاريخ**، مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني؛ دار الاهرام، القاهرة، ١٩٧٣.
٢٤ ـ المسيري، د. عبد الوهاب: **الايديولوجية الصهيونية: دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة** (جزآن)؛ سلسلة كتب عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب، الكويت، ١٩٨٣.
٢٥ ـ **الموسوعة الفلسطينية**: هيئة الموسوعة الفلسطينية، الطبعة الاولى، دمشق، ١٩٨٤ (اربعة اجزاء).

الصحف والدوريات

مجلة العربي (الكويت)؛ جريدة الرأي (الاردن)؛ جريدة الشعب (الاردن) جريدة الجمهورية (العراق)؛ مجلة المعرفة (سوريا)؛ المجلة (باريس)؛ مجلة الدعوة (فيينا)؛ الاهرام (القاهرة)؛ روز اليوسف (القاهرة)؛ مجلة الكاتب (القاهرة)؛ مجلة القدس (تونس ـ بالانكليزية)؛ شؤون فلسطينية (بيروت)؛ مجلة جبل الزيتون (القاهرة، الاتحاد العام لطلبة فلسطين)؛ مجلة الحوادث (بيروت).

النشرات:

نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية (بيروت)؛ نشرة «القضية الفلسطينية في شهر» (الجامعة العربية، تونس)؛ نشرة الارض (دمشق)؛ نشرة وكالة أنباء الشرق الاوسط (القاهرة)؛ نشرات وبلاغات منظمة التحرير الفلسطينية، خصوصاً عن شؤون الارض المحتلة؛ نشرات وتقارير الامم المتحدة الصادرة بالعربية، خصوصا التقرير السنوي للجنة الخاصة المعنية بالتحقيق في الممارسات الاسرائيلية التي تمس حقوق الانسان لسكان الاراضي المحتلة.

المراجع الأجنبيــة

1. Agos, Jacob, **The Meaning of Jewish History,** New York: 1963, Abelard - Schuman .
2. American Jewish Communittee, Fhiladelpia (1983 - 1987)
3. Anati, Emanuel , **Palestine Before the Hebrews,** New York: 1963, Knopf.
4. Bellow, Saul, **To Jerusalem and Back,** New York: 1977, Avon.
5. Berlitz, Charles, **Atlantis: The Eighth Continent,** New York: 1984, Putnam.
6. Black, Edwin, **Transfer Agreement,** as quoted by B'nai B'rith Jewish Book News, New York: Sept. 1984.
7. Benvenisti, Meron, **Conflicts and Gontradictions,** New York: 1986, Villard Books .
8. Blacker-Cohen, Sarah, **Essays on Jewish Humour,** as quoted by B'nai B'rith Jewish Book News, New York: May 1987.
9. Chafets, Ze'ev , **Heroes and Hustlers, Hard Hats and Holy Men: Inside the Real Israel,** New York: May 1986, William Morrow and Co.
10. Donnely, Ignatius, **The Antedeluvian World,** San Francisco: 1971, Harper and Row.
11. Elkins, Michael, **Forged in Fury,** New York: 1971, Ballantine Books.
12. Elon, Amos, **The Israelis, Founders and Sons,** Britain: 1972, Sphere Books.
13. **Encyclopedia of Jewish History.** Liana Shamir and Shlomo Shavit, Editors, New York: 1986, Facts on Files Publications.
14. Friedman, Mauriċe. **Martin Buber's Life and Work, The Later Years (1945-65),** New York: 1983, E.P. Dutton.
15. Goemare, Pierre **Quand Israel Rentre Chez Soi,** Bruxelles: 1935 (?), Denoel et Steele.
16. Halter, Marek, **Book of Abranam,** New York: 1983, Henry Holt.
17. Hastings, James, **Encyclopedia of Religion and Ethics,** New York: 1927, Charles Scribner.
18. Hecht, Ben, **Perfidy,** New York: 1961, Julian Messner (reprinted with two supplements by Shlomo Katz and World Zionist Organization in 1963).
19. Hegel, Fredrich, **Philosophy of History,** translated by T. Fox, Ghicago: 1971, Ghicago University.
20. Hitler, Adolph, **Hitler's Secret Book,** Translated by Salvator Attanasio, New York: 1983, Grove Press.
21. Jung, Carl G., **Memories, Dreams, Reflections,** New York: 1973, Random House.
22. Kohn, Hanz, **Living in a World Revolution,** New York: 1964, Trident.
23. Krajenke, Robert, **The Call to Israel,** Virginia Beach (USA): 1969 ARE (Association of Research and Enlightenment, The Edgar Cayce Foundation).
24. Lilienthal, Alfed, **The Zionist Connection II: What Price Peace,** New Brunswick, N.J. (USA): 1962, North Amercian.
25. Lookstein, Haskel. **Were We· Our Brothers Keepers?** New York: 1985, as

quoted by B'nai B'rith Jewish Book News, Nov. 1985.
26. Macey, Norman, **Democracy in Israel,** New York (undated), **released by the** Arab League Information Office, New York.
27. Maclaine, Shirley, **Out on a Limb,** New York: 1984, Bantam.
28. Menuhin, Moshe, **Decadence of Judaism in Our Time,** Beirut: **1969, Institute** for Palestine Studies.
29. Mathiae, Paulo, **Ebla, An Empire Discovered,** New York: 1981, **Doubleday.**
30. Maigo, Wim, **And Israel Shall Do Valiantly,** **Switzerland: 1971, Jacob Co.**
31. Matovu, Benyamin, **The Zionist Wish and the Nazi Deed,** **from Issues** quarterly, winter 1966-67, **New York: American Council for Judaism.**
32. **New English Bible: A New English Translation, Cambridge: 1970, Cambridge** and Oxford University Press.
33. **Oz, Amos, In The Land of Israel,** New York: 1983, **Harcourt Brace Jovanovich.**
34. **Patai, Raphael, The Arab Mind, New** York: 1973, **Scribners.**
35. **Patai, Raphael, The Jewish Mind,** New York: 1977, **Aronson.**
36. **Perlmuter, Nathan,** The **Real** Anti-Semitism, New York: **1965, Harper and Row.**
37. Roiphe, Anne, **Generation Without Memory: Jewish Journey in Christian American, New** York: 1981, Linden Press, Simon & Schuster.
38. Rubin, Mike, **An Israeli Worker's Answer to Arnoni,** New York: **1968, Ad Hoc** Committee.
39. **Samuel, Samuel, Philo of Alexandria,** England: 1979, Orford University **Press.**
40. Saretsky Theodor, **Sex as Sublimation of Tennis: The Secret Writings of S. Freud, New** York: 1985, Workman.
41. Spinoza, Baruch (Benedict De), **A Theologico - Political Treatise and a Political Treatise,** Translated by R. H. Elwes, New York: 1951, Dover.
42. Schonfeld, Reb Moshe, **The Holocaust Victims Accuse,** Brooklyn (USA): **1977,** Neturei Karta of USA.
43. Schonfeld, Reb Moshe, **Genocide in the Holy Land,** Brooklyn: 1980.
44. Shenker, Israel, **Coat of Many Colors: Pages From Jewish Life, New York:** 1985, Doubiday.
45. Silberman, Charles, **A CertainPeople: American Jews And Their Lives Today,** New York: 1985, Summit Books.
46. Skeat, Rev. Walter, **Etymological Dictionary of the English Language,** London: 1882.
47. Spiro, Melford. **Children of the Kibbutz, New York: 1968, Schoken.**
48. United Nations Documents A/SPC/39/SR. **22; A/Conf. 130/3; A/40/348.**
49. World Almanac 1978-88: Pharos **Books.**
50. Wyschogrod, Michael, **Body of Faith: Judaism as a Corporeal Election;** as

quoted by B'nai B'rith Jewish Book News, Jan. 1986

Periodicals and Bulletins

Action Weekly (American-Arab Relations Committee, New York); Al-Ittihad (Israel); Al-Fajr / Jerusalem English Weekly (Jerusalem); Biblical Archaeology Review (Washingtion): B'nai B'rith Jewish Book News monthly (New York); **Boston** Globe (boston): Daily Telegraph (London); Deplomtic World Bulletin (New York):

L'Express (Paris); The Guardian (England); Ha'aretz (Israel); Hadashot (Israel); Herald Tribune (Paris); Jerusalem Post (Jerusalem); Jewish Chronicle Weekly (Britain); Jewish Observer (Britain); Journal of Palestine Studies (Washington); Link, issued by the American Council For Middle East Understanding (New York); Middle East Perspective (New York/Washington); National Geographic monthly (Washington); The New York Times (New York); Le Nouvel Observateur (Paris); The Observer weekly (London); Palestine Perspective (Washington); Plain Truth (USA): Secretariat News (United Nations, New York); Tribuna (Prague); Venture Inward (Virginia Beach, USA); Voice (organ of National Association of Arab Americans, NAAA, Washington); World Press Review (USA).

Extensive use has also been made of the following news agencies: Agence France presse Agentur (West German News Agency, DPI); Jewish Telegraphic Agency (New York): Middle East News Agency (MENA) (Cairo); United Press International (UPI).

AFP; Associated Press (AP), USA; Deutshe Presse.

المحتويات



عن الكاتب

« اقامة الاستاذ رمضان في العالم الغربي أتاحت له فرصة مراقبة الظاهرة الصهيونية في بعدها الكوني، وفي كافة تفرعاتها وتجلياتها الحضارية.

...ورغم عدم اتفاقي معه بخصوص بعض المفاهيم السكونية الكامنة مثل (العقل اليهودي) أو (التاريخ اليهودي)، إلا أن قصة الخلاف تضيق الى أن تذوي تماماً بسبب خاصية هامة للغاية في هذه الدراسة هي ثراء التوثيق وذكاؤه.

...وقد تطرق المؤلف الى موضوعات لا اعتقد ان كثيرين قد تطرقوا اليها من قبل، مثل علاقة الصهيونية بالتصور اليهودي للخالق، وبفكر فرويد، وبدراسة الآثار (والجزء الخاص بالآثار من أهم ما كتب في هذا الموضوع وأكثره جدة. وهو دعوة جادة لعلماء الآثار العرب لكي يدركوا طبيعة التحدي أو الكذب الصهيوني في هذا المجال) ».

عن الكتاب

ما الحكمة من خلق اسرائيل؟

ان تعرف عدوك شيء، وان تفهم الحكمة من وجودك شيء آخر..

وقد تجاهلنا طويلاً اسئلة بالغة الاهمية مثل: لماذا فشلت الحلول الرأسمالية والماركسية والصهيونية للمشكلة اليهودية؟ ولماذا تتحول معظم انتصارات اسرائيل العسكرية الى هزائم سياسية ومآزق اخلاقية؟ ولماذا ذكر القرآن اسم موسى واليهود أكثر من أي نبي وشعب آخر؟ ولماذا تستميت اسرائيل في تحطيم الأمم المتحدة رغم انها تدين لها بوجودها بفضل قرار التقسيم؟ وما هو سر النفوذ الهائل لليهود رغم قلة عددهم وكثرة تشتتهم

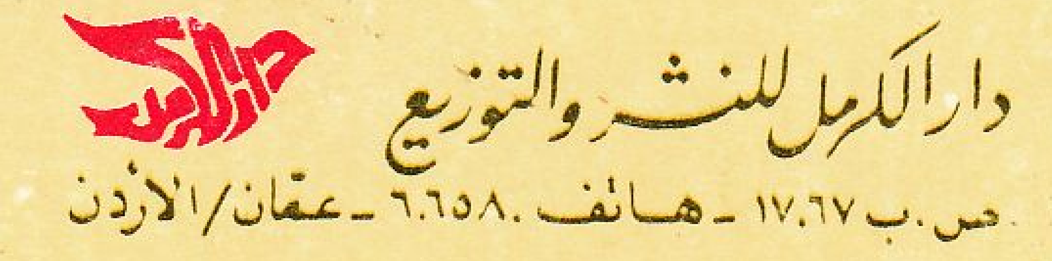
باختصار هل لليهودي مهمة عالمية غير عادية؟

هذا هو السؤال الذي يحاول الكتاب الاجابة عليه..

من مقدمة الدكتور عبدالوهاب المسيري



الغلاف: زهير أبو شايب



ص.ب ١٧٠٦٧ - هاتف ٦٠٦٥٨٠ - عمان/الأردن